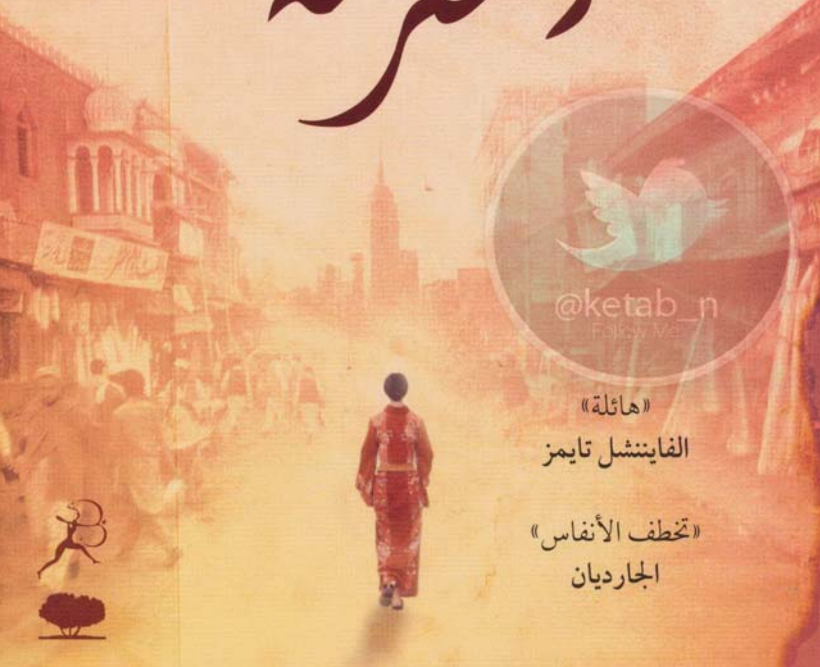
كاملة شمسي

الظلال المحترقة



«هائلة»
الفايننشل تايمز

«تخطف الأنفاس»
الجارديان

كاملة شمسي

الظلال المحترقة

ترجمة
إيمان حرز الله

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

الظلال المحترقة

إلى عائشة رحمان و«ديباك ساتي»

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

Burnt Shadows
First published by Bloomsbury Publishing

الترقيم الدولي: 9789992142585

Printed and bound by CPI Group (UK) Ltd, Croydon, CR0 4YY

FSC www.fsc.org MIX Paper from responsible sources FSC® C020471

... وقت

لجمع كل ظل،

كل ما كانت الأرض تفقده.

وقت للتفكر في كل ما فقدته أنا والأرض،

في كل ما قد أفقده،

في كل ما كنت أفقده.

آغا شاهد علي

خريطة أمريكا لمدمن حنين

في الحروب الماضية احترقت البيوت فقط، لكن هذه المرة

لا تعجب إن اشتعلت النيران حتى في الوحدة.

في الحروب الماضية احترقت الأبدان فقط، لكن هذه المرة

لا تعجب إن اشتعلت النيران حتى في الظلال.

ساحر لدهيانوي

برشيان

المحتويات

افتتاحية

ما إن دخل الزنزانة حتى فكُّوا قيوده وأمروه بخلع ملابسه. خلع المعطف الشتوي الرمادي بهمة، ثم ـ وهم يراقبونه عاقدي أذرعهم ـ أبطأت حركاته، أربك الخوف أصابعه على مشبك الحزام وأزرار القميص.

ظلوا هناك حتى صار عاريًا تمامًا قبل أن يجمعوا ملابسه كلها وينصرفوا. ساوره الشك، وهو يرتدي ملابس ثانيةً، في أنه يرتدي بذلة برتقالية.

اللمعة الباردة للمقعد الحديدي قلصت جسده. سيتحمل بقدر ما يمكنه.

لكنه تساءل: كيف آل الأمر إلى هذا؟

العالم الذي لم يعرف بعد

ناجازاكي، ٩ أغسطس ١٩٤٥

فيما بعد، سيتذكر الناجون أن ذاك اليوم كان رماديًّا، لكن صباح ٩ أغسطس نفسه، لاحظ كل من الرجل «كونراد فايس»، وهو من برلين، والمدرِّسة «هيروكو تاناكا»، حين خرج كلٌّ منهما من منزله، الزرقة التامة في السماء يتصاعد فيها دخان أبيض من مداخن مصانع الذخيرة.

ليس بوسع «كونراد» رؤية المداخن نفسها من منزله بـ«ميناميا ميت»، لكن ما فتئتْ أفكاره منذ أشهر تحوم على نحو متكرر حول المصنع الذي تقضي فيه «هيروكو تاناكا» أيامها في قياس سُمك الحديد الصلب بالميكرومتر، بينما تكتسح ذهنَها صورٌ لفصول الدراسة، كما قد تخطر ذكريات الطيران في أذهان الطيور كسيرة الجناح. لكن هذا الصباح و«كونراد» يفتح الأبواب الأمامية والخلفية للمنزل الخشبي الصغير المخصص لوكيل الملكية، ويرنو ببصره إلى الدخان، لا يحاول تخيل المشهد الذي يتكشف بضجر على أرضية المصنع. و«هيروكو» لا تعمل اليوم؛ إجازة كما يزعم المشرف عليها في المصنع، على الرغم من عِلم الجميع في المصنع أنه لم يعد هناك من حديد صلب لقياسه. مع ذلك لم يزل كثيرون في نجازاكي يعتقدون أن اليابان ستنتصر في الحرب. ويتخيل «كونراد» جنودًا أُرسلوا، لاصطياد السحب ليلًا، وإطلاقها في الصباح من مداخن المصانع؛ ليخلقوا بذلك الوهم بالصناعة.

يخرج «كونراد» إلى الشرفة الخلفية للمنزل، حيث تتناثر أوراق الشجر، خضراء وبنية، بين أعشاب الممتلكات الشاسعة، كما لو كانت ساحة معركة وقد رقد جنود الجيشين المتحاربين غير عابئين بشيء في الموت سوى القرب. نظر إلى المنحدر نحو عزبة «الأزاليا»، في الأسابيع التي تلت رحيل «آل كاجاوا» حاملين معهم أمتعتهم المنزلية أخذ كل شيء يبدو أطلالًا. ثمة مصراع نافذة غير محكم الغلق يقرع حافتها كلما هبَّتْ ريحٌ، يعلم أن عليه أن يُحكم إغلاقه، لكنه يرتاح لسماع صوت حركة ما تصدر عن المنزل.

عزبة «الأزاليا». في عام ٣٨ حين خطا إليها أول مرة عبر أبوابها الجرارة إلى غرفة فخمة بأرضية رخامية ومدفأة على الطراز البندقي، كانت الصور المعلقة على الجدران هي ما لفت نظره وليس المزيج المجنون من طرازي المعمار الياباني والأوروبي: كان كل شيء آخر قد تم نقله لفناء عزبة «الأزاليا» للتحضير لحفلة ما، وكان الأوروبيون واليابانيون يندمجون بلا أي قيود. صدَّق وقتها ما وعدته به الصور الفوتوغرافية، وشعر بامتنان لم يعهده لزوج أخته الإنجليزي «جيمس برتون»، الذي أخبره قبل عدة أسابيع بأنه ليس مُرحبًا به في منزل «آل برتون» بدلهي. قال حرفيًّا:

«ثمة ممتلكات في ناجازاكي، لـ«جورج» ـ أحد أعمامي، وكان عزبًا وغريب الأطوار، توفي هناك منذ عدة أشهر. ثمة ياباني هناك يظل يرسل إليَّ برقيات ليسألني عما سيتم بشأنها. لماذا لا تقيم هناك فترة؟ كيفما شئت.»

لم يكن «كونراد» يعلم شيئًا عن ناجازاكي ما عدا، للحق، أنها ليست أوروبا، وليس فيها «جيمس» و«إلزي». شعر حين رست السفينة في ميناء المدينة ذات الأسقف القرمزية المشيدة على غرار المسرح المدرَّج أنه دخل عالمًا مسحورًا. وبعد سبع سنوات يبقى أغلب سحره ـ روعة زهرات الصقيع الزجاجية في الشتاء، بحور «الأزاليا» الزرقاء في الصيف، الرشاقة

الأنيقة للمباني الأوروياباني على امتداد الشاطئ ـ لكن الحرب تشوه كل منظر أو تحجبه تمامًا. صدر في بدايات الحرب تنبيه لمن يسيرون على التلال بألا ينظروا إلى حوض بناء السفن حيث يتم بناء السفينة الحربية «موشاشي» تحت تلك السرية وتلك الستائر الثقيلة لحجبها عن أنظار المارة.

عملية، تفكر «هيروكو تاناكا» وهي واقفة في شرفة منزلها بـ«أوراكامي» تمسح ببصرها المنحدرات المدرَّجة وسط سكون النهار الذي يعج بطنين الجدجد. تقرر أن أفضل صفة، إن وُجِدتْ، لوصف ما غيَّرتْه الحرب في ناجازاكي، هي عملية. فقد تم تقطير كل شيء وتعديله إلى شكله الأكثر عملية. مرت منذ أيام قليلة بأحواض الخضراوات على المنحدرات ورأت الأرض نفسها تتغضن بالحيرة: لماذا البطاطس حيث كانت «الأزاليا»، ماذا عزز تداعي الحُب هكذا؟ كيف تشرح للأرض أنها وهي تربة للخضراوات عملية أكثر من أن تكون حديقة زهور، مثلما أن المصانع أكثر عملية من المدارس، والصبية بوصفهم أسلحة عمليون أكثر من أن يكونوا بشرًا.

يمر رجل عجوز ببشرة مجعدة للغاية جعلت «هيروكو»، وهي تتخيل فانوسًا ورقيًا مرسومًا عليه صورة رجل، تتساءل كيف تبدو هي له، أو لأي شخص. تبدو في عين «كونراد»، حسبما تظن، مجرد فتاة نحيلة في أكثر الملابس كآبة مثل أي شخص آخر، تبتسم لتذكرها اعتراف «كونراد» بأنه حين رآها أول مرة ـ كانت ترتدي حينها ما ترتديه الآن، قميصًا أبيض وبنطلونًا قصيرًا فضفاضًا ـ أراد أن يرسم لها لوحة، ليست لوحة شخصية، أضاف بسرعة. بل للتناقض الصادم بينها وبين الأخضر الغزير لحديقة «كاجاوا» المعتنى بها جيدًا، وكانت تسير فيها ناحيته قبل عشرة شهور، جعله هذا التناقض يتمنى لو كان معه دلاء من الطلاء الكثيف الفاقع ليسكبها عليها، شلالات ألوان تنهمر من فوق كتفيها؛ أنهار من الأزرق على قميصها، برك

من البرتقالي عند قدميها، جداول صغيرة من الزمرد والياقوت تتقاطع على طول ذراعيها.

قالت وهي تمسك بيده:

«ليتك فعلت، كنت سأرى الجنون الكامن تحت القشرة مبكرًا.»

أفلت يده من يدها بنظرة خاطفة تخلط الاعتذار بالتأنيب. قد يصادفان الشرطة العسكرية في أية لحظة.

يستدير صاحب البشرة المجعدة لينظر إليها، يتلمس وجهه كما لو كان يبحث عن الشاب الراقد تحت التجاعيد. لقد رأى ابنة الجيران هذه ـ ابنة الخائن ـ مرات عديدة في الأشهر القليلة الماضية وفي كل مرة يبدو أن الجوع الذي يسكنهم جميعًا يتآمر ليجعلها تبدو أكثر جمالًا: زالت استدارة وجهها الطفولي تمامًا لتكشف عن روعة زاويتي الوجنتين الحادتين والشامة الراقدة فوق إحداهما مباشرة. لكنها بطريقة ما تفلت من كل آثار القسوة، خصوصًا حين تلوي فمها جانبًا، كما تفعل الآن، فيظهر تغضُّن ضئيل على بعد ملِّيمترات من حافة الابتسامة، كأنه يضع حدًّا لن تراه إلا إذا حاولت تخطيه. يهز العجوز رأسه مدركًا حماقته البادية في وقوفه وتحديقه في الشابة التي لا تنتبه إليه بالمرة، لكنه ممتنٌّ أيضًا لهذا الشيء في العالم الذي لم يزل قادرًا على تعزيز الحماقة بداخله.

يتراجع الطنين المعدني للجداجد خلف صوت صفارة الإنذار، وقد صارت مألوفة حينها تمامًا مثل صياح الحشرات. القنبلة الجديدة! يفكر الرجل العجوز فيستدير ويهرع لأقرب ملجأ هربًا من الغارة الجوية، وقد نُسيت كل الحماقة. على النقيض منه صدر عن «هيروكو» صوت حاد ينم عن نفاد صبر. اليوم حار بالفعل. وسيكون غير محتمل في ملاجئ «أوراكامي»

المزدحمة ـ خصوصًا تحت خوذات الغارات الجوية المبطنة التي تشك في فاعليتها، لكنها ترتديها على كل حال؛ تجنُّبًا لمحاضرات رئيس رابطة الحي عن أنها بذلك تضرب مثلًا سيئًا للأطفال. إنه إنذار خطأ، إنه دائمًا تقريبًا إنذار خطأ. قد عانت مدن اليابان الأخرى بشدة تحت قصف الغارات الجوية، لكن ناجازاكي لم تعانِ. كانت منذ أسابيع قليلة تشرح لـ«كونراد» الحكمة من وراء عدم تعرض ناجازاكي لأضرار خطيرة، وتقول إنها المدينة الأكثر مسيحية من بين مدن اليابان، وأشار «كونراد» أن في «دريسدن» مسيحيين أكثر مما في ناجازاكي. بدأت من وقتها تأخذ صفارة إنذار الغارات الجوية بجدية أكثر قليلًا. لكن حقًّا، سيكون الجو حارًّا جدًّا في الملجأ. لماذا لا تبقى في البيت فقط؟ إنه إنذار خطأ بالتأكيد تقريبًا.

لماذا المخاطرة، يفكر «كونراد». يجلب خوذته من داخل المنزل ويسير بخفة ناحية الملجأ الذي بناه «آل كاجاوا» في الحديقة الخلفية. يتوقف في منتصف الطريق إلى الحديقة وينظر إلى الحائط الذي يفصل الملكية عن قطعة الأرض الخالية المجاورة لها. لم يتفقد طيوره على الجانب الآخر من الحائط منذ هطل المطر آخر مرة. يلقي بالخوذة على النجيل، يمشي بخطى واسعة ناحية الحائط الفاصل ويعتليه منحنيًا؛ ليقلل من احتمالات أن يراه أحد من المارة أو الشرطة العسكرية.

لو شاهده أحد فسيجده مضحكًا ـ أوروبيًّا أهطل يتشقلب فوق الحائط بذراعيه وساقيه وعيناه مسبلتان، وشعر ولحية قصيرة جدًّا، لونهما غير متوقع بالمرة في ناجازاكي، حتى ظنت «هيروكو تاناكا» حين رأته أول مرة أن شعر الأوروبيين يصدأ بتقدم العمر ولا يشيب. ثم اكتشفت فيما بعد أنه في التاسعة والعشرين من عمره فقط؛ أكبر منها بثماني سنوات.

يخشخش العشب الجاف تحت قدميه ـ يشعر كأنه يسحق ظهور كائنات

ضئيلة ـ وهو يسير إلى شجرة الكافور العملاقة المعلَّقة وقد رُبِطتْ بها الطيور التي تتأرجح ببطء في النسيم الهادئ. كانت «هيروكو» أول من وصفتْ مفكراته القرمزية بالطيور؛ يوم التقيا المرة الوحيدة التي دخلت فيها منزله. تناولتْ مفكرة من فوق مكتبه وقلَّبتْ صفحاتها وهي تتجول بها في حجرته. جعلته حيوية لمساتها للمفكرة يعي بحدة جمود كلماته: جمل تُلقى على الورق عامًا تلو الآخر فقط ليتسنى له التظاهر بأن ثمة غرضًا ما لبقائه هنا، ذريعة ليظل يرتعد في عالم يشعر فيه بالعزلة حتى إنه لا شيء فيه بوسعه أن يحتويه أبدًا.

لكنه منذ أن حوَّل الاستسلام الألماني منزلته في ناجازاكي من حليف إلى منزلة ما أخرى أكثر التباسًا تقتضي وضعه تحت رقابة دقيقة من الشرطة العسكرية، صارت الكلمات الجامدة فعَّالة بدرجة قد تفضي به إلى السجن. إنها تقول كل ما يمكن قوله عن جنون العظمة لدى الإمبراطورية اليابانية: مفكرات من البحث والملاحظة حول العالم «الكوزموبوليتاني» الذي وُجد سريعًا في نطاق ميل مربع من حيث يقطن، تمثل الآن دليل خيانة. أوضح له «يوشي واتانابي» ذلك حين بدا الاستسلام الألماني وشيكًا:

«تكتب عن ناجازاكي مليئة بالأجانب. تكتب عنها بشوق. تلك خطوة لا تسعد الاحتلال الأمريكي.»

وهكذا قام «كونراد» ليلة إعلان ألمانيا استسلامها بعمل شبكة أسلاك قوية، وعلق بها مفكراته الثماني ذات الغلاف الجلدي القرمزي. قفز من فوق الحائط إلى الملكية الخالية المجاورة لملكيته، وعلق الشبكة بالشجرة. رفعت الريح أجنحة الطيور القرمزية تحت ضوء القمر.

ظل «كونراد» على يقين من أنه ما من أحد سيفكر في دخول الحديقة

المهجورة للبحث عن دليل خيانة وسط أوراق الشجر. يمكن دائمًا خداع هؤلاء الذين يتحرقون لقلب كل ذرة تراب في منزل ما بحثًا عن دليل لنشاط ضد الدولة بعمل بسيط من الخيال.

ينحني أسفل غصن منخفض يتمايل، ويمد يده ليجد الدفاتر الجلدية جافة لم تُمس، على الرغم من كونها شاحبة قليلًا. ينظر إلى أعلى بامتنان تجاه مظلة واقية من أوراق الشجر قبل أن يلحظ البقعة البيضاء على أحد الأغلفة الجلدية: تعليق لطائر حقيقي على تلك الطيور القرمزية الزائفة. ارتسمت على وجهه واحدة من تلك الابتسامات التي تخدع الناس أحيانًا فيظنونه وسيمًا. ينتبه، وهو يبتعد عن الشجرة، إلى النبرة المضطربة قليلًا التي تسللت إلى الصيحة الحزينة لصفارة الإنذار. ما من منطق في قذف قنبلة هنا، يفكر «كونراد» وهو في طريقه على مهل عائدًا إلى ملجأ الغارات الجوية في عزبة «الأزاليا». تتسم الآن «المستوطنة الأجنبية» سابقًا حيث يقيم، بالغياب، وبالضياع دائمًا.

«في «أوراكامي» يمكن لعشر أسر العيش في هذه المساحة!»

هكذا قالت «هيروكو» في لقائهما الأول وهي تشير برأسها ناحية عزبة «الأزاليا»، ثم أعقبت ذلك بقولها: «الأغنياء! سخفاء!» قبل أن تستدير لتسأله عما ينوي دفعه لها مقابل الترجمة التي كان يطلبها منها.

بعد ذلك بأسابيع، اتهمها ضاحكًا بأنها رفعت أجرها لتلعب على شعوره بالذنب. فقالت بصراحة مميزة:

«حسنًا، بالطبع، الحرج والجوع لا يتفقان معًا.»

ثم مدت ذراعيها على وسعهما وأغمضت عينيها بقوة كما لو كانت تركز بشدة لتتبوأ عالمًا آخر:

«حين تنتهي الحرب، سأكون عطوفًا.»

ثم أضافت بهدوء وهي تفتح عينيها:

«مثل أمي.»

لم يسعه سوى أن يفكر في أن والدتها لم تكن لتوافقها أبدًا على علاقة رومانسية برجل ألماني، أو حتى السير معه وحدها على تلال ناجازاكي. أزعجه التفكير في أن سعادته ترتبط بوفاة والدتها، لكنها حينها أمسكت يده، فساوره الشك في أن أحدًا يمكن أن يُملي على «هيروكو تاناكا» ما تفعله حتى لو كانت أمًّا مبجلة. سألته ذات مرة:

«لماذا تبقى قواعدُ السلوك الأشياء الوحيدة التي لا تغيرها الحرب؟ يمضي كل ما كان من الماضي.»

يدخل الملجأ الفسيح المشيد في منحدر حديقة عزبة «الأزاليا» وهو يركل خوذة الغارات الجوية على الأرض أمامه. الهواء عَفِنٌ ومخضب بالمرارة. ها هي طاولة لعب الورق التي ينصرف بها هو و«يوشي واتانابي» و«كيكو كاجاوا» عما يحدث، قد نفعت على وجه خاص خلال الأيام الأولى لصفارات إنذار الغارات الجوية، حين كانت الإنذارات ترتبط بالرعب أكثر مما ترتبط بالضجر؛ المقعد البلوط الذي يراقب منه «كاجاوا سان» سلوك جيرانه وأسرته والعاملين لديه في تلك المناسبات النادرة التي تدوي فيها صفارات الإنذار وهو لا يزال في المنزل؛ مربعات لعبة الحجلة التي رسمها «كونراد» في التراب لأطفال «كاجاوا»؛ زجاجة الساكي المخبأة التي يظن الطباخ أن لا أحد غيره يعرف عنها شيئًا، زجاجة الساكي الأخرى التي يأتي فتيان عائلة «كاجاوا» بحثًا عنها في وقت متأخر من الليل حين يخلو الملجأ. يعلمون أن بوسع «كونراد» رؤيتهم من منزل الوكيل، لكن بينما

لا يزال آباؤهم، بعد سبع سنوات، غير مطمئنين لعلاقتهم بالمالك الذي جاء ليحني قامته الطويلة في أنحاء المنزل الضئيل أسفل الحديقة، كان شباب عائلة «كاجاوا» يعتبرونه حليفًا وقد يرحبون به بسرور في حفلات الشرب التي يقيمونها إذا أبدى أي ميل للانضمام إليهم.

الآن يعبر كل آل «كاجاوا» إلى الجانب الآخر من الطريق إذا رأوه يتجه ناحيتهم. كانت جولة واحدة من استجوابات الشرطة العسكرية حول الاشتباه في ولاء مالك الأرض كافية ليغادروا عزبة «الأزاليا».

يجلس «كونراد» على المقعد البلوط الخاص بـ«كاجاوا سان»، ويلقي بخوذة الغارات الجوية على ركبته، شارد الذهن تمامًا فيما كان، حتى إنه استغرق دقيقة ليعي أن الشخص الذي لاح عند المدخل وفي يده خوذة، يوجد في المضارع. إنه «يوشي واتانابي».

كأنه يستأذن لدخول حفلة خاصة، يقول «يوشي» بالإنجليزية:

«هل يمكن أن أدخل؟ سأتفهم إن قلت لا.»

لا يجيبه «كونراد»، لكن و«يوشي» يتمتم بكلمة اعتذار ويأخذ في السير مبتعدًا، يصيح «كونراد» فيه:

«لا تكن غبيًّا يا «جوشوا». بمَ تظن بشأن شعوري إن وقعت عليك قنبلة؟»

يدخل «يوشي»، ويرفع نظارته على أذنيه ويطرف بعينه سريعًا:

«لست متأكدًا.»

يمسك «يوشي» أوراق اللعب، يجثو على الأرض، يخلط الورق ثم يقسم عشر أوراق له، وأخرى للمساحة الفارغة أمامه.

«يوشي واتانابي» هو الياباني صاحب البرقيات التي ذكرها «جيمس برتون»، وهو يقنع «كونراد» بالسفر إلى ناجازاكي. كان جدُّه، «بيتر فولر» من «شروبشاير»، صديقًا مقرَّبًا لـ«جورج برتون» وجاره. كان «يوشي» من انتظر «كونراد» في الميناء ليرحب به، ومن جال به يفرِّجه على عزبة «الأزاليا»، ومن وجد له مدرِّسًا خصوصيًّا لليابانية، ومن قدم له «آل كاجاوا» كأنهم باقة ورود تختبئ في أكمامه خلال ساعات من سماعه «كونراد» يقول إنه سيشعر براحة أكبر كثيرًا إن أقام في حميمية منزل الوكيل، «يوشي» هو الذي أمتعه بحكايات عن عالم ناجازاكي «الكوزموبوليتاني» الذي تشكَّل في انعطافة القرن، لا نظير له في اليابان ـ صحف باللغة الإنجليزية، نادي دولي، العلاقات والزيجات بين أوروبيين ويابانيات. وحين قال «كونراد» إنه في حاجة إلى شخص يترجم خطابات يابانية للكتاب الذي ينوي كتابته عن هذا العالم «الكوزموبوليتاني»، كان «يوشي» من قدَّمه لمدرسة ابن أخيه التي تدرس له الألمانية، «هيروكو تاناكا».

كانت واحدة من تلك الصداقات التي سرعان ما بدت حتمية، ووطيدة. ثم ـ وخلال محادثة استغرقت أقل من دقيقة ـ انتهت.

«كونراد! إنهم يأتون بشكل متزايد ليتحققوا من أمري. كان لقب عائلة والدتي «فولر». هل تعلم ماذا يعني هذا؟ ليس بوسعي أن أعطيهم أي سبب إضافي للظن في انقسام ولائي. سأظل بعيدًا عن كل الغربيين في ناجازاكي. إلى أن تنتهي، لكن فقط إلى أن تنتهي الحرب. بعد ذلك، بعد ذلك «كونراد»، ستعود الأمور كما كانت من قبل.»

«إن كنت في ألمانيا «جوشوا»، كنت ستقول لأصدقائك اليهود: أخشى أنه ليس بوسعي أن أخبئكم في عليِّتي، لكنني أدعوكم لتناول العشاء بعد سقوط حكومة النازي.»

«لماذا أنت هنا؟»

يرفع «يوشي» نظره عن مروحة من أوراق اللعب في يده:

«كنت في المنزل حين انطلقت صفارة الإنذار. هذا أقرب ملجأ.»

ثم يضيف و«كونراد» يرفع حاجبه:

«أعلم، كنت خلال الأسابيع الماضية أذهب إلى ملجأ المساكن المدرسية، لكن مع القنبلة الجديدة، لم أرغب في المخاطرة بقضاء دقائق زيادة بالخارج.»

«توجد إذن مخاطر أخرى في العالم غير التواجد مع ألماني؟ هذا أمر مريح. ما تلك القنبلة الجديدة؟»

يترك «يوشي» أوراق اللعب:

«ألم تسمع؟ هيروشيما؟ منذ ثلاثة أيام مضت؟»

«ثلاثة أيام؟ لم يتحدث أحد معي منذ ثلاثة أيام.»

* * *

في الملجأ في «أوراكامي» تنحشر «هيروكو» وسط جيرانها حتى تعجز عن رفع يدها لتمسح العرق الذي يبلل حافة شعرها. لم يزدحم المكان هكذا منذ انطلقت صفارات الإنذار في الأيام الأولى. ماذا استفز رئيس رابطة الحي لمثل هذا الهياج الجنوني ليجمع كل من يجده في طريقه ويأمره بالتوجه إلى الملجأ؟ تزفر من فمها وتدير رأسها قليلًا ناحية زوجة الرئيس فتستجيب بالتفاتة سريعة بعيدًا عن «هيروكو». يستحيل معرفة ما إذا كان ذلك شعورًا بالذنب أم احتقارًا.

كانت زوجة الرئيس صديقة مقربة لوالدة «هيروكو» ـ تتذكر «هيروكو» ضحكاتهما معًا وهما تتصفحان أحدث أعداد «سوتيرو»، تلك الأيام قبل أن تقضي الحرب على المجلة. لا مجال في اليابان وقت الحرب لمجلة تقدم للنساء نصائح بشأن إتيكيت ارتداء ملابس داخلية مع ملابس غربية. استدعتْ والدةُ «هيروكو»، وهي تحتضر، زوجةَ الرئيس لتجلس بجانب الفراش لتطلب منها طلبًا واحدًا: «احمي زوجي من نفسه». كان المجال المتاح في اليابان وقت الحرب لفنان مارق أضيق كثيرًا من ذلك المتاح لمجلات عن الفتيات العصريات. ظلت زوجة الرئيس تفي بوعدها إلى وقت طويل، فتقنع زوجها بأن يعتبر ثورات «ماتسوي تاناكا» ضد العسكر والإمبراطور أسى عميقًا من زوج على زوجته، حتى إنه أطاح بعقله. لكن ذات ربيع كان «ماتسوي تاناكا» يمر بمنزل في الحي ورأى أكاليل أزهار الكرز معلقة تحيةً لتضحية الصبي الذي استشهد في الخامسة عشرة من عمره في إحدى عمليات «الكاميكيز». ركض «ماتسوي تاناكا» إلى الأمام من دون أن يتفوه بكلمة لـ«هيروكو» التي كانت تسير بجانبه بصمت، وأخرج من جيب بنطلونه علبة ثقاب، وأشعل النيران في أزهار الكرز.

بعد ثوانٍ كان يرقد مضرجًا في دمائه على الأرض، ووالد الصبي المتوفَّى يُبعد عنه رجال الحي الذين قرروا في النهاية تقييده، وشعرت «هيروكو»، وهي منحنية على والدها، بزوجة الرئيس تشدها إلى أعلى.

قالت المرأة، وكانت بمثابة خالتها:

«بلِّغيه بنفسك، هذه النصيحة هي الحماية الوحيدة التي أستطيع توفيرها لكِ الآن.»

لم تصغِ إليها بالطبع ـ ربما أضعف حرمان الحرب ترددها لكنه لم يضعف

ولاءها - وفي اليوم التالي حدثت ثلاثة أشياء: جاءت الشرطة العسكرية لأخذ والدها إلى السجن، حيث بقي أكثر من أسبوعين؛ وأخبرها ناظر المدرسة التي تدرِّس بها الألمانية بفصلها من العمل، إذ لا مكان في مدرسته لابنة خائن ولا التلاميذ بهم حاجة لتعلم لغة أجنبية على أية حال (كان جسده ينكمش وهو يتحدث كما لو أنه يظن أنه إن شغل مساحة أقل فلن يتعرض جزء كبير منه للازدراء)؛ وحين عادت إلى المنزل كان رئيس الحي في انتظارها هناك ليزف لها خبر تجنيدها للعمل في أحد مصانع الذخيرة.

تود «هيروكو» الآن أن ترسل إلى زوجة الرئيس إشارة تفيد بأنها تعلم أنها بذلت قصارى جهدها فترة طويلة؛ لكنها تود ذلك جزئيًّا لتُشعر المرأة بالخزي.

يدخل الملجأ شخص آخر، وينحشر الآخرون للخلف أكثر، مع ذلك لا يتفوهون إلا بغمغمة اعتذار مهذبة فقط للتعبير عن مهانة ضغطهم بقوة لآباط الغرباء وأفخاذهم. تجد «هيروكو» نفسها تتحرك إلى الخلف لفجوة صنعتها الضرورة وليس أية إمكانية مادية، وتجد نفسها بجوار صبيين، في الثالثة عشرة أو ربما الرابعة عشرة من العمر. تعرفهما، إنهما من أولاد ناجازاكي. لا تعرف هذين الاثنين بالتحديد، بل تعرف هيئتيهما. تخمن أن الأطول، الذي يميل برأسه بزاوية متعجرفة، دأب على التودد للفتيات، أو لفت انتباه المدرسات الشابات بحكايات عن الأفكار التي يعلم أنها ستنتابه خلال رحلة بلا عودة على جسر حاملة طائرات أمريكية، (سريعًا، سريعًا جدًّا، لن يكون أصغر الطيارين أكبر منه كثيرًا)، ويظل طوال الوقت يلمِّح إلى أن الأنثى التي يميل إليها ستكون في القلب من تلك الأفكار الختامية البطولية.

يهمس الصبي الأقصر قامة:

«أنت كذَّاب.»

يهز الصبي الأطول رأسه.

«عرَّتْ أولئك الذين كانوا قريبين منها حتى العظام، فصاروا مجرد هياكل عظمية، ومن كانوا بعيدين نزعت جلودهم مثل العنب. والآن وقد امتلك الأمريكيون هذه القنبلة الجديدة لن يتوقفوا حتى نصير جميعًا هياكل عظمية أو عنبًا.»

تقول «هيروكو»، بنبرة مدرِّسةٍ:

«توقف عن هذا، توقف عن ترديد تلك الأكاذيب.»

بادر الصبي بالقول: «إنها ليست...»، لكنه توقف حين رأى حاجبها المرفوع.

قام أحد تلاميذها السابقين ـ «جوزيف» ـ حقًّا بقيادة طائرة «أوكا» إلى ناقلة طائرات أمريكية. أخبرها ذات مرة أنه سيأخذ في رحلته الأخيرة صورتين ـ واحدة لوالديه يقفان أسفل شجرة كرز، والأخرى للمثلة «ميرنا لوي». سألَتْه: «صورة لـ«ميرنا لوي» وأنت تدمر سفينة حربية أمريكية؟» لكنه لم ير المفارقة. وكان جارهم، الصبي الذي دفعت وفاته والدها لحرق أزهار الكرز ـ ولعله فعل هذا من أجلها. الطريقة الوحيدة التي كان يعرفها للتعبير عن أنه فهم حزنها وغضبها، وقد كتمتهما بداخلها ولم تفصح عنهما. لا تعلم ما يدهشها أكثر ـ إمكانية أن يكون هذا حقيقيًّا، أم حقيقة أن هذا لم يخطر على ذهنها من قبل. اعتادت منذ وفاة والدتها أن تبرر صمت والدها بغياب أي شيء يستحق التواصل، وليس بعجزه عن إقامة علاقة جديدة مع ابنته بعد وفاة زوجته الحبيبة التي كانت بمثابة الصوت لأفكاره.

يهمس الصبي الأطول: «هيكل عظمي أم عنب؟» تشم نتانة هواء عفن.

بالخارج هواء وأشجار وجبال. تستحق أية مخاطرة.

تشق طريقها بكتفها، وكل من كان مهذَّبًا في السماح بدخول المزيد من الأشخاص يستشيط غضبًا من محاولتها الخروج.

«ماذا تفعلين؟... لا يوجد مكان... عودي... ارجعي...» ويصطدم كوع بضلوعها.

تصيح: «أبي، يجب أن أجد أبي.»

بدأ بعض النسوة في الملجأ يفسحن لها لتخرج برفع أطفالهن على أذرعهن.

يقول صوت: «أبوها «ماتسوي تاناكا»، الخائن». ثم تهدر في الملجأ موجة انزعاج، ويُفسح لها آخرون لكن بطريقة تنم عن عدم رغبتهم في وجودها معهم.

لا تكترثُ. إنها في الخارج الآن، تبتلع الهواء الطلق الذي يبدو باردًا تقريبًا مقارنة بهواء الملجأ.

تسير بسرعة لتبتعد عن الملجأ، ثم تبطئ فتعي الخلاء من حولها. ترفع ذراعيها إلى أعلى تحت شجرة ذابلة الأوراق؛ لترتسم عليهما نقوش طافية من بقع الشمس، والظلال والأغصان تتأرجح في نسيم لا يُحس على مستوى الأرض. تنظر إلى يديها نظرة خاطفة وهي ترفعهما ـ متقرِّحتان إثر مزيج من عمل المصنع والتدريبات العسكرية على رمي الرمح. ليس هذا ما تخيلته عن الحادية والعشرين، بل تخيلتْ طوكيو ـ «هيروكو تاناكا» في المدينة الكبيرة، ترتدي فساتين، تترك آثار أحمر الشفاه على كؤوس النبيذ في نوادي

موسيقى الجاز، شعرها يصل إلى أسفل أذنيها تمامًا ـ تقوم بلا مساعدة من أحد ببعث حياة «الفتاة العصرية»، فتاة العشرينيات التي بقيت روحها في «سوتيرو» خلال الثلاثينيات.

لكنه كان حلمًا طفوليًّا، أو مستعارًا، حقًّا. إذ رأت كيف كانت أمها تتنهد وتضحك حين تسمع حكايات الفتيات العصريات، وتخيلت أن عالمهن هو الطريقة الوحيدة للهرب من القيام بواجباتهن الحياتية. على الرغم من ذلك، كانت كلما كبرت زاد يقينها من أن والدتها ـ المتفانية في خدمة زوجها وبيتها وابنتها ـ لم تكن ترغب حقًّا في الهرب، بل كانت تستمتع بمجرد وجود الفكرة في العالم فقط. كان هذا هو الفارق الوحيد بينها وبين ابنتها. بالنسبة إلى «هيروكو» أن تعرف يعني أن تريد، لكن العالم الذي بدا في المجلات كان معروفًا أقل بكثير من العالم الذي يمكنها مد يدها إليه والإمساك به من جذور شعره ذي اللون الصدئ.

انقضت أحلام الطفولة الآن. الآن يوجد «كونراد». ما إن تنتهي الحرب ستكون هناك هي و«كونراد». ما إن تنتهي الحرب سيوجد طعام وحرير، لن ترتدي ملابس رمادية مرة أخرى أبدًا، ولن تعيد استخدام أوراق الشاي مرة ثانيةً أبدًا، لن ترفع رمحًا من الخيزران أبدًا، ولن تدخل مصنعًا، ولا ملجأ هربًا من قنبلة. ما إن تنتهي الحرب ستوجد سفينة لتنقلها و«كونراد» بعيدًا إلى عالم بلا واجبات.

متى تنتهي الحرب؟ ليس سريعًا بما يكفي.

* * *

يسير مبتعدًا عن عزبة «الأزاليا»، راكضًا تقريبًا.

تتناهى إلى سمعه صيحات «يوشي» يدعوه ليعود وينتظر حتى تنتهي الغارة، لكنه لا يفكر سوى في أنه إذا حدث وسقطت «قنبلة جديدة» أخرى فسوف تسقط على «أوراكامي»: على المصانع، على الناس المحشورين معًا. لن تصدها الملاجئ، ليست كما وصف «يوشي». وإذا كانت ستسقط على «هيروكو»، فلتسقط عليه هو أيضًا.

يسرع خطاه، يركض في ذكريات عنها، حين عبرت البوابة لتبحث عنه فور أن سلمها ابن شقيق «يوشي» خطابه الذي كتبه ليسألها عما إذا كانت مهتمة بترجمة رسائل ومذكرات إلى الألمانية مقابل أجر يمكن التفاوض بشأنه، فناء المدرسة الذي اعتادا اللقاء فيه كل أسبوع في الأشهر القليلة الأولى، تراجع تبادل الترجمات والنقود شيئًا فشيئًا إلى أمر ثانوي في لقاءاتهما، الطريق المؤدي إلى الترام، حيث أجابت شكاواه المغمومة بشأن التعقل بأن غنت: «نعم، ليس لدينا موز»، واكتشف قدرتها على تحدث الإنجليزية بطلاقة كما تتحدث الألمانية، الحي الصيني، حيث جعلها تضحك بصوت عالٍ للمرة الأولى حين اعترف لها بكل الأسماء التي أطلقها على الخضراوات التي لا يعرفها: ملفوف يعصف به الريح، عُقد الأرض، الزهرة المتحجرة، بطاطا ضامرة؛ «ميجان باشي»، الجسر الرائع، حيث كانا يقفان وينظران إلى الماء حين قفزت سمكة فضية من انعكاس صدر «كونراد» وغطست في انعكاس صدر «هيروكو» وقالت هي «أوه»، وتراجعت خطوة إلى الخلف فكادت أن تفقد توازنها فاضطر إلى لف ذراعه حول خاصرتها ليسندها. وهنا ـ يبطئ، صفارة انتهاء الغارة، زال الخطر ـ على ضفاف الـ«أورا»، حيث أخبرها أنه في شتائه الأول في ناجازاكي مر بالنهر المتجمد ورأى بقعًا ملونة أسفل السطح.

«اقتربْتُ لأشاهد. وماذا في ظنك رأيت؟ اسم امرأة. «هانا». شخص

ما كتبه بالحبر الأحمر ـ فنان ماهر أو عاشق ولهان ـ يعرف كيف ينقش الحروف على الماء في اللحظة التي تسبق تجمد الثلج.»

لكنها قطبت حاجبيها بدل أن تهز رأسها، وتطلب منه أن يقدم تفسيرًا أكثر عملية لوجود اسم مطبوع في الجليد، كما كان يتوقع منها.

«كان شتاؤك الأول هنا في ٣٨. لماذا لم نتقابل مبكرًا؟ يا للخسارة.»

كانت تلك أول إشارة يتلقاها على أنها ـ على نحو غريب ورائع ـ في طريقها جزئيًا على الأقل لتبادله مشاعره.

ينطلق مجدَّدًا، حل العزم محل الهلع. أخبرها منذ استسلام ألمانيا أنه لا يطمئن عليها ـ ابنة الخائن ـ أن تقضي معه وقتًا طويلًا. لذلك صارا يلتقيان مرتين فقط أسبوعيًا، لمدة ساعة كل مرة، ودائمًا بالخارج في الأماكن العامة، أحيانًا يتعقبهما رجال الشرطة العسكرية ـ في تلك الأحيان يتحدثان بصوت عالٍ عن تاريخ اليابان المجيد الذي تتظاهر بأنها تعلِّمه إياه. توقف عن عادته في إعارتها كتبًا بالألمانية والإنجليزية من مكتبته كل أسبوع، مع أن ذلك كان أحد أقوى دواعي سروره أن يرى شتى تعبيرات السعادة التي تشيد بها بـ«ويليام ييتس» و«آرثر واه» و«توماس مان». مهما كان طول الكتاب أو كثافته كانت تنهيه ـ أحيانًا تقرأه مرتين ـ بحلول الأسبوع التالي. لكن الكتب أُدرجت الآن في قائمة الأمور الحميمة المعلقة. كلما التقيا تشكو من كم التعقل في العالم الكائن، لكنه لا يلين. بعد الحرب، دائمًا يقول بعد الحرب. الآن يرى كم العدوى التي انتقلت إليه من أسلوب تفكير «يوشي».

وهو يعبر الوادي، ينظر إلى أعلى باتجاه كاتدرائية «أوراكامي» بتماثيلها الحجرية التي ترتفع في السماء ـ في الأيام المكفهرة يوحي لونها الرمادي بأن كل سحابة مشروع تمثال ينتظر نحاتًا؛ ليشده إلى أسفل وينحته ليصبح

صلبًا. هو الآخر نُحِت ليصبح صلبًا ـ ولَّتْ الآن أيام الخواء تلك، لا يعرف ماذا يفعل في اليابان، طريد بلد أحبه ذات مرة، وكف منذ زمن عن محاولة النضال من أجله أو ضده. يعلم تمامًا لماذا هو هنا، لماذا هنا المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه.

بعيدًا عن النهر الآن، بعيدًا عن الكاتدرائية، يستدير باتجاه المنحدر الذي وصفته له ـ حيث الشجرة العارية ذات اللحاء الفضي التي دُهنتْ بطلاء أسود؛ لئلا يجعلها ضوء القمر تبدو برجًا حديديًّا فتجذب نيران العدو (وعلى أغصانها العليا رسم شخص ما نجومًا). هناك، أسطح جيرانها، القرمزية التي تذكِّرها بمفكراته، وهكذا ترى طيوره كل يوم وهي عائدة إلى المنزل من المصنع، وتخلد إلى النوم كل ليلة تحت أجنحتها المنبسطة.

«كونراد سان؟» قالت وهي تقف في شرفة منزلها تنظر إليه بقلق. ماذا جاء به إلى «أوراكامي» أمام أنظار كل جيرانها؟

يبتسم ويأتي بإيماءة يأس ساخر. طلب منها منذ أشهر أن تناديه بـ«كونراد» فقالت له: «إنه اسم جميل لكنه يبدو وحده عاريًا». ثم منحته أكثر ابتساماتها مكرًا وقالتْ: «يومًا ما ربما لن تكون هناك مشكلة في هذا».

«هل والدك هنا؟»

«لا. بالخارج يتجول في التلال. تفضَّل.»

تفتح الباب الجرَّار ويتعثَّر وهو يخلع حذاءه قبل أن يلحق بها إلى الداخل. تصعد الدرج قبل أن يدلف ويبيح لنفسه بالكاد أن يجول بنظره في حجرة الاستقبال الصغيرة، في قلبها لوحة بالحبر والفرشاة لمنظر طبيعي لبحر ناجازاكي ـ من أعمال والدها ـ كما خمن فوق نحو سليم، يشعر بتوتر غريب لتفكيره في والدها. قالت «هيروكو» ذات مرة إنها تعلمت كيف تتساءل عن

قواعد العالم من نموذج والدها وليس من تعليماته، وليس بوسع «كونراد» سوى أن يشك في أن الانفصال الأبوي لـ«ماتسوي تاناكا» سينتهي لحظة تقدمه ابنته للألماني الذي... الذي ماذا؟... تحبه؟

في الدور العلوي، يدخل حجرة بها فراش «فوتون» مطوي، لكنه لم يوضع جانبًا بعد. يحاول ألا يحدق بنظره في فراشها.

تخرج «هيروكو» إلى الشرفة وتنحني بجسدها على الدرابزين. المنزل على ارتفاع كبير عن المنحدر، وعلى الرغم من كونه محاطًا ببيوت أخرى من ثلاثة جوانب إلا أن شرفته لا تطل على شيء سوى أشجار وتلال. ولا شيء يطل عليه سوى أشجار وتلال.

يقول: «لم تخبريني من قبل بأنك تقيمين على بعد قفزة واحدة من محيط من أوراق سائلة».

تلمس كم قميصه.

«أأنت بخير؟ تبدو غريبًا. ولماذا أنت هنا؟»

كالعادة، تتنقل محادثتهما بين الألمانية والإنجليزية واليابانية. تبدو لهما مثل لغة سرية ليس بوسع أحد آخر يعرفانه فك شفرتها كليةً.

«بودي أن أسألك عن شيء ولا أرغب في الانتظار إلى أن تنتهي الحرب لأتلقى إجابة»، يدرك الغرض من مجيئه وهو يردد هذه الكلمات: «هل تتزوجينني؟»

استجابتها رشيقة. تشرئب بطولها كله، ويداها على فخذيها.

«كيف تجرؤ؟»

يعود خطوة إلى الوراء. كيف كان مخطئًا تمامًا هكذا؟

«كيف تجرؤ على الظن بأن ثمة شك في هذا؟ الأسبوع الماضي حين تحدثنا عن السفر حول العالم معًا بعد الحرب ـ بأية صفة في ظنك وافقْتُ على السفر معك إن لم يكن بصفتي زوجتك؟» جاء الجزء الأخير من الجملة مكتومًا في قميصه إذ شدها إليه.

تفكر في السلام. هذا ما يكون عليه السلام.

* * *

يقول: «ليس دلهي».

يجلسان في الشرفة، أصابعهما متشابكة.

«لكن بودي أن أقابل «إلزي»، إنها أختكَ، يجب أن أقابلها.»

يصحح لها: «أخت غير شقيقة، وقد مضى زمن منذ أن كانت «إلزي فايس». الآن ليست سوى «إليزابيث برتون». وسوف تقابلينها، لكن فقط ليس في شهر العسل. الوحيد الذي يستحق مقابلته في «بنجل أوه»! بصراحة هو «سجَّاد»، إن كان ما زال هناك، وهو فتى مسلم رائع يعمل عند «جيمس»؛ وهو الذي حكى لي تلك القصة عن العنكبوت في الإسلام، أتذكرينها؟»

تبعد رأسها عن كتفه.

«بنجالو؟»

«بنجل أوه! إنها تورية. بنجل أوه! الخطوط المدنية في دلهي. لعلك على حق ـ علينا أن نذهب. من بوسعه مقاومة عنوان كهذا؟»

تغمغم: «لسْتَ جادًّا».

«تلك شكوى جديدة.» يُقبِّل رأسها. «"إلزي" لن ترحب بنا هناك. لقد أخبرتك عن مدى خجلها مما تدعوه «علاقاتها الألمانية» هذا ما اختصرتني إليه أنا وأبي. علاقات. وكان هذا قبل الحرب. الآن، من عساه يتخيل أنها ستعترف حتى بمعرفتها بي؟ إنها على الأرجح تخبر الجميع بأنها نشأت كليًا على جبهة والدتها الأنجلوساكسونية.»

تقول «هيروكو»: «حسنًا، ليس دلهي. ما رأيك في نيويورك؟»

يتساءل إذا كانت قد سمعت أي شيء عن تلك القنبلة الجديدة. يجعله هذا الخاطر يجذبها إليه أكثر.

تقرر ألا تشير إلى هذا، لكن على الرغم من الغيوم، إلا أن الجو حار جدًّا على مثل هذا التواصل الجسدي. يقفز ذهنها إلى الحدود الأبعد للتواصل الجسدي الذي يتطلبه الزواج. تتساءل إذا كانت معرفته بما يحدث في ليلة الزفاف أقل غموضًا من معرفتها. إن فضولها بهذا الشأن نظريًّا تمامًا.

يقول «كونراد»: «سيعود والدك من جولته قريبًا». ينهض على مضض، ويشدها معه. «لا أريده أن يرى صهره المستقبلي لأول مرة بهذا الشكل.»

«عُد ثانية على العشاء إذن. سأعد لك كل ما يمكن أكله من أفضل ماء بنكهة الميزو في «أوراكامي».»

«يبدو رائعًا.»

ينظر إليها الآن بطريقة تجعلها ترفع يدها إلى فمها لتزيح ما كان يراه عالقًا عليه مهما يكن. يضحك بهدوء ويضع يديه حول خصرها ويقبلها.

قبَّلها من قبل بالطبع، مرات كثيرة. لكن دائمًا على عجلٍ، بسرعةٍ... بسرعة قبل أن يراهما أحد. لكنه الآن مختلف. تشعر بشيء ما رطب. لسانه.

المفترض أن يبدو هذا منفرًا، لكنه ليس كذلك. قد يوصف بأي شيء إلا ذلك. يذهلها ما يتبدى من معرفة جسدها في الاستجابة لهذا، كيف يبدو هذا غريبًا ومألوفًا في الوقت نفسه.

حين يبتعد تقول: «ابقَ»، وتعود إلى حضنه.

يهز رأسه لها بطريقة لا تنم عن الرفض، لكنها تنم عن أن الوقت لم يحن بعد.

«ابقَ.»

لكنه يتراجع إلى الوراء. يشك في أنها لا تعي تمامًا لما يعِد به هذا الطلب، ما هو بالفعل على وشك أن يضحى حتميًّا.

«سأعود على العشاء.» يتراجع إلى الوراء من دون أن يرفع عينيه عن وجهها.

يهبط الدرج على هذا النحو، فلا يسعها سوى أن تضحك. يبدو كأنه على بكرة فيلم سينمائي عادت إلى الخلف بالخطأ.

«إلى أين تذهب؟»

«لا أعرف... كاتدرائية «أوراكامي».»

«أوه، هل سنتزوج هناك؟» يبدو الاستياء في صوتها.

«بالطبع لا. أنتِ لسْتِ كاثوليكية حتى.»

«ليست تلك المشكلة. بودي أن أتزوج على جبل، وأنا أنظر إلى البحر.»

«لكنني لن أنظر لأحد غيرك.» تحاول ابتسامته العريضة أن تبدو هذه الجملة جنسية أكثر مما تبدو عاطفية.

هذا الجانب منه جديد تمامًا حقًا، ويدهشها حس التوقع حتى وهي تضرب بيدها في الهواء كما لو لتقضي على تعليقه السخيف.

الآن تراجع إلى الوراء طوال الطريق إلى الشرفة.

«لماذا إذن ستذهب للكاتدرائية؟»

«وعدني الأب «آسانو» أن يعيرني بعض الكتب. لا أريد الكتب، لكنه أحد الأشخاص القليلين الذين ما زالوا راغبين في التعامل معي ولا أريد أن أضايقه.»

«سنتركهم جميعًا خلفنا «كونراد». سنجد جزيرة لا يعيش عليها سوانا فقط.»

تلك هي المرة الأولى التي تنطق فيها اسمه من دون ألقاب. يخطو إلى الأمام، يضغط فمه بفمها مجدَّدًا ـ غير عابئ باحتمال أن يراهما أحد من الجيران.

حين ينصرف، تصعد «هيروكو» الدرج سريعًا لترى إن كان بإمكانها مشاهدته من النافذة وهو يهبط المنحدر، لكن زوايا منزلها لا تسمح بهذا. إنها الآن تعي جسدها فجأة وعلى نحو صادم. ذلك المزيج من الثقل والخفة ـ تغمر أطرافها نشوة ترهقها، ومع ذلك تشعر وكأن جناحين مرفقين بها يهمان برفعها من فوق الأرض تمامًا.

في أحد أركان الحجرة حقيبة كبيرة يحتفظ فيها والدها بأغلى ذكرياته عن زوجته. تفتح الحقيبة وتمد يدها إلى الكيمونو الحرير المطوي تحت صدفة بحرية وظرف مليء بالخطابات.

تأخذ «هيروكو» الكيمونو من الحقيبة وترفعه إلى أعلى في الهواء.

ينبسط الحرير من تلقاء نفسه، هذا إذن ما كان مربعًا يصير مستطيلًا، تنفضه إلى أعلى مجدَّدًا فيضرب مصباح السقف، وتمسك بظله قبل أن ينزلق إلى أسفل على ذراعيها المنتظرتين. تحيط بذراعيها القماش الذي توحي ثناياه بشلال ماء وتفكر في عناق «كونراد» عاريًا.

تخلع ملابسها على عجل، تنزع السروال القصير الرمادي الحقير والقميص الذي كان ذات مرة ناصع البياض، لكن لونه الآن تأثر بمرات عديدة جدًّا من الغسيل. ثم تواصل خلع كل قطعة ملابس. يحدث شيء ما غريب لا تفهمه داخل جسدها، لكنها تعلم أنها ترغب في استمراره. من دون أن تهتم بارتداء ملابس تحتية تدس إحدى ذراعيها في كم الكيمونو، تمس كهرباء الحرير جلدها.

يسير «كونراد» عبر وادي «أوراكامي»، وقلبه يطوي ويطوي على نفسه.

تخرج «هيروكو» إلى الشرفة. جسدها من الرقبة إلى أسفله رتل من حرير أبيض بثلاثة خطوط سوداء تتقاطع عبر ظهرها. تنظر إلى الجبال ويبدو لها كل شيء أجمل مما كان عليه مبكِّرًا هذا الصباح. تبدو لها ناجازاكي أجمل مما كانت عليه من قبل على الإطلاق. تلتفت برأسها إلى أبراج كاتدرائية «أوراكامي» التي يشخص «كونراد» ببصره إليها وهو يلاحظ فجوة بين السحب يتدفق منها ضوء الشمس مباعدًا بين السحب أكثر فأكثر.

«هيروكو».

ثم يصير العالم أبيض.

الضوء مادي. يقذف بـ«هيروكو» إلى الأمام، فيطرحها أرضًا. يدخل الغبار في فمها وأنفها وهي تسقط على الأرض، ويلسعها. رد فعلها الأول الخوف من أن تكون السقطة قد مزقت كيمونو والدتها الحريري. ترفع نفسها عن الأرض، وتنظر إلى أسفل. تلطخ الكيمونو ببعض القذارة، لكن ليس به مزق. مع ذلك ثمة شيء ما خطأ. تنهض. يصير الهواء ساخنًا فجأة، وتشعر به على جلدها. تشعر به على ظهرها. تمد يدها إلى كتفها، فتلمس لحمًا حيث يجب أن يكون حريرًا. تهبط بيدها على ظهرها إلى أسفل، تلمس ما ليس بلحم ولا بحرير بل الاثنين معًا. تتساءل عما إذا كان لهذا علاقة بالحرق الذي شعرت به وهي تسقط. الآن لا تشعر بشيء. تربت على المكان الذي ليس بلحم ولا بحرير. لا تشعر بشيء على الإطلاق.

تخرج جارتها من الشرفة المجاورة.

تتساءل: «ماذا حدث؟»

لا تفكر «هيروكو» في شيء سوى أن ملابسها ممزقة وعليها أن تدخل المنزل لتغييرها. تسمع صرخات جارتها وهي تدير ظهرها إلى المرأة وتدخل المنزل. تمرر «هيروكو» أصابعها على ظهرها وهي تصعد السلم الذي هبطته خلف «كونراد» منذ دقائق. ثمة شعور، ثم لا شعور، جلد وشيء ما آخر.

حيث يوجد جلد يوجد شعور. حيث يوجد شيء آخر لا يوجد شيء. تقتلع أصابعها المزق المهروسة مع شيء آخر. مزق ماذا؟ جلد أم حرير؟ تخلع الكيمونو عن كتفيها. يسقط عن كتفيها لكنه لا يقع على الأرض. ثمة شيء يجعله يلتصق بها.

أمر غريب، تفكر وهي تعقد كمي الكيمونو حول جسدها بإهمال، تحت صدرها تمامًا.

تسير إلى النافذة التي حاولت أن تلمح منها «كونراد» وهو يبتعد، وتنظر إلى المنحدر، تبحث عن تفسير. بيوت، أشجار، ناس يتجمعون بالخارج، يتساءلون، يهزون رؤوسهم، يشمون الهواء.

ثم...

تميل «هيروكو» بجسدها خارج النافذة، ناسية أنها عارية تقريبًا. ثمة شيء ما خطأ في عينيها، إذ تريان بشكل كامل حتى أسفل المنحدر، ثم لا تريان شيئًا، بل تخترعان مناظر عوضًا عن ذلك. هناك نيران ودخان، ولا شيء في الدخان. من خلال الدخان تظهر أرض تبدو كالبقع الخالية من الشعور في ظهرها. تلمس هذا الشيء الآخر في ظهرها. تشعر أصابعها بظهرها لكن ظهرها لا يشعر بأصابعها. حرير متفحم. كيف هذا؟ صار وادي «أوراكامي» لحمها. صار لحمها وادي «أوراكامي». تمرر إبهامها على ما كان ذات مرة جلدًا. إنه متورم ونيئ ولا حياة فيه.

ثمة أشياء كثيرة عليها أن تعرفها. لمسة الجلد الميت. الرائحة ـ اكتشفت لتوها من أين تأتي الرائحة اللاذعة ـ من الجلد الميت. صوت النيران ـ من يعلم أن النار تزأر بهذا الغضب، وتجري بهذه السرعة؟ الآن تركض النيران أعلى المنحدر، ستمسك بها فورًا. لن يكون ظهرها فقط ستصير

هي كلها وادي «أوراكامي». الألماس من الكربون ـ تتخيل نفسها ألماسة بعد برهة قصيرة، ناجازاكي كلها ألماسة تشق الأرض، وتسقط في الجحيم. تميل بجسدها إلى الخارج أكثر، تنظر في الدخان باحثة عن قمم كاتدرائية «أوراكامي»، حينها تسمع صرخات جارتها.

تنظر «هيروكو» إلى أسفل فترى أحد الزواحف يتسلق الممر المؤدي إلى منزلها. تفهم الآن. لقد انشقت الأرض بالفعل فلفظت الجحيم. ابنة جارتها تركض ناحية الحيوان وفي يدها رمح من الخيزران ـ تمسكه بطريقة خطأ. يرفع الحيوان رأسه ويسقط الرمح من يد الفتاة وتصيح باسم والد «هيروكو». لماذا تتوقع منه أن يساعدها؟ تتعجب «هيروكو». تظل الفتاة تردد: «تاناكا سان، تاناكا سان» ويداها تقبضان على جانبي وجهها وتحدق في الزاحف.

مصدر الضوء الوحيد هو النيران. تصيح جارتها باسمها من مكان ما قريب. الجارة داخل منزلها، خطواتها على السلم. أين قمم كاتدرائية «أوراكامي»؟ تضرب «هيروكو» الهواء بيديها في محاولة لإبعاد ما يعزل القمم عن مرآها مهما يكن. أين الكاتدرائية؟ أين «كونراد»؟

لماذا تنهار؟

«هناك. أترى؟ هناك.»

«كيف تتيقنين من أنه هو؟»

«لا أحد غيره في ناجازاكي له هذا الظل الطويل.»

طيور محجوبة

دلهي، ١٩٤٧

١

شخص «سجَّاد علي أشرف» ببصره في السماء وهو يقود دراجته بحذاء نهر «يامونا» محاولًا أن يحدد بدقة النقطة العليا التي تصير عندها ديلي دلهي. ديلي: مدينته المكتظة بالحارات والأزقة، الخدَّاعة مثل الشطرنج، قلب الهند الثقافي النابض بإيقاعها (لم يأبَ قطُّ قبول الآراء المعارضة، بل رأى أنها من قبيل المزاح)، حيث حط أسلافه الرحال حين جاءوا من تركيا قبل أكثر من سبعة قرون للانضمام إلى جيش السلطان المملوك قطب الدين أيبك.

ثم توقف عن التبديل تقريبًا إذ استعصى على قدميه الاستمرار كالعهد بهما حين يشرد ذهنه إلى مكان آخر ـ ها هي دلهي: مدينة الراج، حيث أمام كل «بنجالو» لرجل إنجليزي حديقة غنَّاء محفوفة بأصص زرع حمراء، تلك نهاية تأملات سجاد في الهند البريطانية. أصص زرع: تلخص الأمر كله. لا أشجار تنمو في أفنية بيوت الإنجليز، لا حجرات تلتف حول هذه الأفنية؛ بل حواجز وحدود. ابتسم سجاد. سيكون هذا إذن موضوع نقاش اليوم مع «جيمس برتون». ليس الموضوع أصص الزرع، بل الحواجز. بالطبع تبقى الحكمة كلها تقريبًا، التي يظل يشحذها ويصقلها في ذهنه خلال رحلته

الصباحية إلى دلهي غير معلنة. ومع ذلك، فكما يقول «جيمس برتون»، الاستعداد هو كل شيء.

تمعَّن سجاد في مسألة الحواجز ثانيةً، لكنه هذه المرة أوقف الدراجة وقفز عنها. نعم، ها هي هناك، النقطة التي تفصل بين ديلي ودلهي، هناك حيث السماء خالية ـ لا طائرات ورقية تتشابك بعضها مع بعض، خيوط مصقولة بالزجاج، ولا يحلق أعلى أسطح المدينة القديمة، حيث عاشت عائلة سجاد لأجيال، سوى الحمامات المارقة عن أسرابها.

أنا كتلك الحمامات المارقة عن سربها، فكَّر سجاد، وطني ديلي، لكني أشرد عن مسيرة سربي؛ لأستكشف أجواء دلهي. عاد يركب الدراجة وهو يتساءل إن كان من الممكن نظم بيتين من الشعر عن الحمامات والهنود العاملين لدى الإنجليز، تخلى عن الفكرة فورًا. إنه لا يتمتع بموهبة الشعر، ولم يكن يتحدث بحمية عن الثقافة الشعرية التي تربى عليها إلا في دلهي، أما في ديلي حيث كان إخوته وزوجاتهم وعماته وأبناء أعمامه وأمه يتبادلون أبيات الشعر فيما بينهم، كان يشغل ذهنه بأدوار الشطرنج التي يخوضها مع «جيمس برتون» من يوم إلى التالي كأنها قصص عن السلاطين والجان، وليكون أمينًا مع نفسه كان يتوق إلى الأيام التي كان ذهنه ينشغل كل صباح بوثائق قانونية وليس بأدوار الشطرنج، لكن تلك الأيام ستعود يومًا ما بلا شك، لا شك في هذا، لقد وعده «جيمس برتون» بهذا.

بعد دقائق قليلة كان داخل ممتلكات «برتون» في «الخطوط المدنية»، يسير في معبر السيارات المصفوف بأصص الزرع، تمهل عند البنتلي؛ ليرى انعكاس صورته في زجاج نافذتها، وحين لم يرَ سوى السيارة من الداخل تحرك بجرأة إلى غطاء محرك السيارة الذي عكس له صورته بلمعان. لم يكن يهتم كثيرًا بما يتعلق بمظهره الخارجي الذي جعل أمه تتلو عليه الأدعية

لتخسأ عين الحسود ـ الشعر الناعم والغزير مع ذلك، والملامح المتناسبة تمامًا (ما عدا الأنف من زوايا معينة)، والشارب المنمق، والبشرة النظيفة التي ورثها عن أسلافه الأتراك، والهيئة الرزينة لشاب في الرابعة والعشرين من عمره لم يجرب الفشل من قبل قط، بل ركز انتباهه بدلًا من ذلك على السترة الكشمير البيج من شارع «سافيل رو»، ومرر يديه على طولها بمتعة حسية.

«وصل الطاووس»، قالت «إليزابيث برتون» وهي تنظر إلى سجاد من نافذة غرفة نومها، مقتنعة تمامًا بأن سجاد يتباهى بنحافة قامته لا بنعومة النسيج. ثم رأته يضع أكمام سترته في شفتيه الحمراوين المكتنزتين على نحو مربك، فأشاحت ببصرها عنه بصبر نافد.

صاح «جيمس» وهو يقف على عتبة الباب: «هل قلتِ شيئًا؟».

قالت «إليزابيث» من دون أن تلتفت إلى «جيمس»: «ليتك لم تعطه ملابسك، فقد بدأ ينظر إلى كل ما تلبسه على أنه ملك له، ألم ترَ كيف انزعج أمس حين انسكب منك الحبر على قميصك؟»

«الملابس القديمة باعتبارها رمزًا لنهاية الإمبراطورية. تلك نقطة مثيرة. لا يعنيني كيف ينظر إلى قميصي طالما يدعني أختار اللحظة التي يصير فيها قميصه.»

أسندت «إليزابيث» وجنتها على مصراعي النافذة المفتوحة، وراقبها «جيمس» برهة ـ الشعر النحاسي ينساب بنعومةٍ أعلى كتفيها مباشرة، قامة التماثيل، الارتخاء الحسي لجفنيها. في السابعة والثلاثين ولم تذوِ، صارت ملامحها حادة فقط. حاول أن يتذكر آخر مرة مارسا فيها الحب، لكنه تذكر بدلًا من ذلك الشغف الجنوني الذي ميز لياليهما بعد موت «كونراد»، والراحة التي شعرا بها حين انحسر هذا الشغف. «لا بد أن هذا هو الجنس كما تمارسه

الحيوانات»، قالت ذات ليلة من تلك الليالي الجنونية وهو لا يزال بداخلها. وظل طيلة نهار العطلة الأسبوعية عاجزًا عن النظر في عينيها مباشرة.

التقطت كوب الشاي من فوق إفريز النافذة وشعرت كأنها جالسة ليُرسَم لها لوحة فنية، «الزوجة الاستعمارية تنظر إلى حديقتها». لكن «إليزابيث» أقرَّتْ بأن الحديقة تستحق النظر إليها. لم يكن لشمس فبراير تلك العداوة التي تميزت بها في الشهور الأخيرة، وقد استجابت الحديقة للرعاية التي حظيت بها بانفجار من الألوان. عدَّت القائمة في ذهنها وهي تنظر إلى الحديقة الأمامية من طرف إلى الآخر: رعي الحمام، زهرة الكلب، رجْل اليمامة، ورد، بازلاء حلوة، قبس، تلك فقط نباتات الطرف القصيِّ عند الحائط الفاصل. في مستعمرة دلهي، كانت الحدائق للزوجات كما «الكريكيت» للأزواج؛ عندما تتعرقل المحادثات وتتكلف وتتعسر، تراها تعود إلى «برادمان» أو زهور السوسن. وفبراير موسم إزهار الأقحوانات، ذروة السنة البستانية. كل دعوات الغداء التي لا تحصى، التي تدعو لها السيدات!

لعلها ستعلن هذا العام أنها لم تكن في انتظار زهور الشتاء، بل في انتظار البونسيانا الملكية ـ أو «الجلموهار»، كما يدعوها الهنود برومانسية أكثر. تخيلت سخط زوجات دلهي حين تنبذ أمامهن زهور شتاء دلهي، التي كانت أيضًا زهور صيف إنجلترا، لأجل أكثر شجرات الهند صفاقة، بورودها الذهبية الحمراء التي تتأجج في صيف المدينة، كوقاية عليا ضد وهج الشمس، فتكشف بذلك القناع عن جبن زهور الشتاء.

قالت: «ثوراتي المتخيلة تصبح أكثر إثارة للشفقة يومًا بعد يوم».

لم تتوقع أن يظل «جيمس» هناك ليسمعها، إذ فقدا منذ وقت طويل عادة أن يظل أحدهما بجانب الآخر ليصغي إلى رده. ومع ذلك تمنت لحظة أن

تسمعه يسألها عما تعنيه بذلك، إلا أن «جيمس» كان بالفعل يهبط الدرج ببطء؛ لم تسترد قدمه عافيتها بعد سقوطه من فوق ظهر الفرس قبل شهرين.

كان سَجَّاد في انتظاره أسفل الدرج، وابتسم «جيمس» لمرأى الشاب في سترته التي تناسبه تمامًا.

«أية مسكينة من زوجات إخوتك قضت الليل في ضبط السترة على مقاسك؟» قال وهو يقفز الدرجتين الأخيرتين مرتكزًا بكل ثقله على قدمه الأقوى.

«قدسية.» قال سجاد وهو يمد يده ليسند «جيمس» وقد مال إلى الأمام وهو يضع قدمه على الأرض.

«زوجة أخيك الأصغر؟»

غمغم سجاد بما يبدو أنه تأييد لتخمين «جيمس». كان سجاد هو أصغر إخوته في الحقيقة، لكنه لم ير مبررًا لمحاولات «جيمس برتون» من حين إلى آخر فك تشابك الزيجات والعلاقات التي تشكل عائلة سجاد.

سار الرجلان فوق الأرضية ذات البلاطات المربعة إلى الشرفة حيث أُعِدَّت طاولتان: واحدة عليها رقعة الشطرنج، دور جاري بالفعل، والأخرى خالية.

وضع سجاد الملفات التي أحضرها معه على الطاولة الخالية وهو يجول بنظره في الحديقة الخلفية بحثًا عن أي شيء له ريش.

«هناك طائر أبو تمرة في زهور الخطمي يا مستر «برتون».»

«يبدو الأمر كنهاية نكتة قبيحة. اذهب، تجوَّل.» ولوَّح بيده في اتجاه الحديقة ـ سألقي نظرة على الاعتذارات عن العمل التي أرسلوها إليَّ هذا الأسبوع.»

تجاهل سجاد الدرج وقفز من الشرفة على النجيل. أدرك «جيمس» أن «إليزابيث» قد ترى مغزى واضحًا في ذلك. قد تفكر أن الشاب يرغب في لفت الانتباه للفرق بين رشاقة هبوطه، وتعثُّر «جيمس» قبل ذلك في الهبوط على السلم. لكن «جيمس» سرَّتْه لامبالاة الهندي في قذف جسده من سطح إلى آخر، وتناقض ذلك مع الرسمية المدروسة التي ميَّزتْ تفاعلاته الأولى مع «جيمس» قبل ثمانية أعوام.

كان «كونراد» أول من اكتشف سجادًا («تقولها كأنه اكتشف قارة.» علَّقتْ «إليزابيث» ذات مرة حين سمعته يعرب عن الفكرة.) جاء «كونراد» في أحد أيام إقامته القصيرة بدلهي إلى منزل «جيمس» و«إليزابيث»، بعد قضاء فترة الصباح في زيارة المواقع السياحية، ووراءه فتى هندي حسن الهيئة على نحو غير معقول.

«ألا يمكنك أن تجد له عملًا؟» قال «كونراد» وهو يتجه بخطوات واسعة إلى غرفة الجلوس حيث كان «هنري» الذي تعلم السير لتوه يتسلق ركبتي «جيمس»، «إنه يتحدث الإنجليزية جيدًا، ما إن تعتاد أذنك على اللهجة؛ وليس مهتمًّا بأن يكون خطاطًا مثل أفراد عائلته.»

««كونراد»، لا يمكن أن تتبسط فتلتقط القنافذ الصغيرة من الشارع وتأتي بهم إلى المنزل.» قال «جيمس» بنفاد صبر، وهو يلقي نظرة سريعة على الفتى الذي وقف في المدخل، وعيناه في الأرض.

رأى «جيمس» رأس الفتى الهندي يرتفع لحظة، وفهم من الانطباع على وجهه أن إنجليزية الهندي جيدة بما يكفي ليفهم كلمة «قنفذ صغير» وينزعج منها، كانت قذارة ملابسه القطنية البيضاء قذارة من ألقى بنفسه في عَركة على الأرض في الشارع أكثر منها قذارة شخص لا يملك سوى هذه الملابس.

كذلك كانت حقيقة أن «لالا باكش»، الخادم الخاص لـ«جيمس»، لم يكن يحاول دفع الفتى إلى الانتظار في الرواق، أو في الممر ريثما يناقش «السادة» مصيره، ذات مغزى. كان «جيمس» يعرف بما يكفي خلال السنة التي قضاها في دلهي كيف يعتمد على «لالا باكش» ليكون بمثابة قضيب الغواص في التيارات الخفية للمكانة الاجتماعية للهنود.

استدعى «جيمس» الفتى بإشارة من سبابته ليدنو منه.

«ماذا بوسعك أن تفعل؟»

رفع سجاد علي أشرف عينيه في عيني «جيمس».

قال: «بوسعي أن أكون سخيفًا.»، ثم احمر وجهه إثر ضحكة مكتومة من «إليزابيث»، وصحح كلامه: «بالغ القيمة، بوسعي أن أكون بالغ القيمة.»

من كان يصدق أنه سيأتي اليوم الذي يرى فيه هذا القول تصريحًا معتدل اللهجة، فكر «جيمس» وهو يشاهد الفتى - وقد صار رجلًا - يسلك طريقه على النجيل إلى طائر أبو تمرة بهدوء.

جثم سجاد على الأرض بالقرب من الخطمي الأحمر الداكن الذي يلتقط منه أبو تمرة طعامه. كان الريش قزحيًا عند رقبة الطائر، يتحول بسرعة من القرمزي إلى الأسود إلى الزمردي، وهو يخفض رأسه ويعيد رفعها. يتخيل سجاد أحيانًا أنه حين يتزوج سيترك بيت عائلته ويشتري منزلًا خاصًا به هو وعروسه فقط، ويجعل الفناء الرئيس حديقة مليئة بزهور مثقلة بالرحيق ونابضة بالألوان لتجذب طيور دلهي.

رفرف أبو تمرة لحظة بين سجاد والخطمي قبل أن يحلق سريعًا ويبتعد عن الأنظار. توقف سجاد ليتساءل من ستكون العروس التي ستختارها

له والدته وخالاته. لقد اخترن جيدًا لاثنين من إخوته، لكن الثالث ـ هزَّ سجاد رأسه حين تذكر المخلوقة الكئيبة المتبلدة التي تزوجها أخوه إقبال، ثم قوَّس ظهره وهو يميل إلى الأمام؛ لئلا يرى «جيمس برتون» ما يفعله، ولحس بلسانه نبات الخطمي محاولًا تذوق رحيقه بلا جدوى. فكر سجاد وهو ينهض ويعود إلى الشرفة: حسنًا، مهما تكن من سيتزوجها، فسيكون ذلك سريعًا. لقد أدى مرض والده ووفاته منذ عامين إلى توقف جولة والدته الأولى في البحث عن عروس له، ثم كانت الجولة الثانية مجرد إهدار للوقت؛ إن كانت ابنة عم زوجة أخيه تنوي الهرب فلماذا لم تفعل ذلك فور أن بدأت محادثات الزواج؟ لماذا انتظرت مرحلة التحضيرات النهائية؟ استنزف الأمر كله معنويات الجميع، إلا أن نساء العائلة بدأن بالفعل في الأسابيع القليلة الماضية الاهتمام مرة أخرى بمستقبل سجاد.

كان سجاد يتخيل من حين إلى آخر أن يجد عروسًا لنفسه، لكنه كان يفكر في «آل برتون».

قال «جيمس»، وهو يلوح بيده صارفًا النظر عن محتويات الملف: «دعنا نلعب شطرنج».

قال سجاد وهو يجلس قبالة «جيمس»، ويمسح بيده الجزء السفلي من وجهه ليمحو الغبار الذي قد يكون علق ببشرته: «أزقة ديلي «مخادعة مثل الشطرنج»، ألا ترى ذلك؟».

«هراء.» مرر «جيمس» منديله لسجاد وأشار إلى بقعة الغبار على أنفه. «الشطرنج ليس مخادعًا، كان دوري في اللعب أليس كذلك؟» يمثل هذا السؤال طرفة خاصة بين الرجلين، إذ يشير إلى وقت كان سجاد يعي فيه بشدة الفجوة بين مكانتيهما الاجتماعية، بدرجة تجعله لا يناقض أي شيء يقوله

الرجل الإنجليزي. الآن كلما يلعبان ويكون دور سجاد في تحريك القطع، يزعم «جيمس» أنه دوره.

«نعم. دورك.» مرر سجاد إصبعه على أنفه وأعاد المنديل إلى «جيمس». كان يعرف أهمية لحظات الصداقة الحميمة تلك لدى «جيمس»، حين يجتث الحواجز بينهما بحسم. ويعرف كذلك أن الأمر يعود إلى «جيمس» فقط في أن يقرر متى يجتث الحواجز، ومتى يؤكد عليها، وكان سجاد يتقبل هذا كأمر حتمي، ولم يكن «جيمس» يفكر فيه حتى.

رفع «جيمس» حاجبيه لسجاد:

«لا، لم يكن دوري. كان دورك.»

«نعم مستر «برتون».» وبعد نظرة خاطفة إلى رقعة الشطرنج، حرك سجاد أحد حصانيه في مواجهة أحد بيادق «جيمس».

«لماذا تشاكس هكذا؟ أعد هذا الحصان إلى موقعه سجاد، لا تكن سخيفًا.»

«لماذا الشطرنج ليس مخادعًا؟»

«إنه هذا الكتاب الملعون مرة أخرى، أليس كذلك؟ تقتبس لي من هذا الكتاب الملعون.»

كان الكتاب الملعون هو «الشفق في دلهي» لأحمد علي، وقد صدر في أثناء الحرب عن دار «هوجارث بريس». كانت والدة «جيمس» قد أرسلت إليه نسخة في عيد الميلاد، ولم يقرأ منه أكثر من صفحتين قبل أن يقرر أنه عمل يتسم بالغلو والمبالغة، ويلقي به في يد سجاد؛ ليريه الهراء الذي يُحتفَى به بوصفه عملًا فنيًّا هنديًّا. «فيرجينيا وولف» و«إي إم فورستر» في أبهى عجرفتهما. بوسعك أنت كتابة كتاب أفضل من هذا. غير أن سجادًا

سقط في غرام الرواية، واستمرأ تتبيل محادثاته باقتباسات منها على أمل أن يكشف لـ«جيمس» جماليات جُملها.

أعاد سجاد حصانه إلى موقعه السابق، وتقدم ببيدق بدلًا منه.

«هل تعتقد أنه يمكن لرجل إنجليزي أن يكتب نصًّا رائعًا بالأردية؟»

هز «جيمس» رأسه: «لا، إن كانت هناك أيام كنا نعنى فيها بدخول عالمكم بهذه الطريقة، فقد ولت منذ زمن طويل، ولن تعرفوا ماذا تفعلون معنا إن حاولنا».

بدا لسجاد أن هذا ما يقال عادةً، حتى إن التكرار جعل من التخمين حقيقة، لكنه يعرف ماذا يفعل بنص يكتبه رجل إنجليزي بالأردية. سيقرؤه. لماذا الادعاء بأن المسألة أكثر تعقيدًا من هذا؟

«على كل حال، لو كان هذا مقدَّرًا لحدث قبل ذلك. سرعان ما يصل المندوب الجديد للملك. ليشرف على رحيل الـ«راج» عن هذه الشواطئ. أسند «جيمس» ظهره، ومسح بنظره سجادًا والحديقة من خلفه كأنه مالك أمرهما على قدم المساواة. «حتى أفضل الجولات لا بد أن تنتهي، على ما يبدو.» تساءل سجاد عن شعور «جيمس» إزاء نهاية الإمبراطورية لو لم يكن لديه هذا التعبير المستخدم في لعبة الكريكيت. أعاد «جيمس» انتباهه إلى رقعة الشطرنج، وابتسم إذ أدرك الشرك الذي يعده له سجاد. «يبدو أن من يعرفون مثل هذه الأشياء يرون أن إنشاء باكستان يبدو مرجَّحًا جدًّا الآن. سخف فعلًا.»

أدار سجاد أصابعه في الهواء في إيماءة تعلَّم «جيمس» أنها إشارة من الهنود تدل على عدم مبالاتهم بالأمر.

«في كلتا الحالتين لن يعنيني الأمر في شيء. سأموت في ديلي. وقبل

هذا سأعيش في ديلي. سواءٌ كانت في الهند البريطانية، أو هندوستان، أو باكستان؛ لا يمثل هذا أي فرق بالنسبة إليَّ.»

«هكذا تقول دائمًا. في رأيي أن هذا هراء.»

«هراء، لماذا؟ لم يُحدث البريطانيون سوى فرق ضئيل في محلتي». ثم ـ وإثر نظرة الحيرة في عيني «جيمس» ـ ترجم سجاد قائلًا «حَيِّي» وهو بالكاد يخفي نفاد صبره لعجز الإنجليزي بعد كل هذا الوقت عن فهم «محلة»، تلك الكلمة بالغة الأهمية في اللغة الأردية. «يسير الأمر كالمعتاد دائمًا. بالطبع ثمة فواصل ـ عام ١٨٥٧ كان أحدها، ولعل رحيل البريطانيين فاصل آخر ـ لكن صدقني، ستظل ديلي تقوم خلال القرن القادم بما قامت به طوال القرنين الماضيين؛ تذوي بإيقاع بطيء جدًّا وشِعْرية سوداوية.»

صدرتْ عن «جيمس» غمغمة إنكار في رد على هذا التأكيد بأن رحيل البريطانيين لن يكون سوى فاصل، لكنه اكتفى بأن يقول: «إن كان الأمر هكذا حقًّا، فأنت مخطئ إذن حين تقول إنك ستعيش وتموت فيها؛ لأنك لم تخلق لتحيا في عالم يذوي.»

لو كانت علاقة سجاد بـ«جيمس برتون» من النوع الذي يقنع نفسه به أحيانًا وهو يؤلف أحاديث وموضوعات للنقاش في طريقه من ديلي إلى دلهي لضحك وقال: «هل هذا ما تدعوه حياة مزهرة؟ قضاء أيامي في لعب الشطرنج معك؟ ألم يحن الوقت لنعود إلى أعمالنا القانونية «جيمس برتون»؟» لكنه بدلًا من ذلك أبقى على نظره مركَّزًا على رقعة الشطرنج وأومأ برأسه ببطء، كما لو أنه يعيد التفكير بعمق في علاقته بمحلته.

قال «جيمس»: «ألا تصدقني؟» وحين اكتفى سجاد بابتسامة ورفع كتفيه، وضع «جيمس» يده على ذراعه، وقال: «لا أعرف رجلًا أكثر مقدرة منك».

أحبَّ سجاد، في مثل تلك اللحظات، «جيمس برتون». لم يكن ذلك للإطراء في حد ذاته - لم يكن سجاد في حاجة إليه من أي شخص - بل لطريقة «جيمس» في ضغط مصفوفة معقدة من العواطف تشمل علاقات الحاكم والمحكوم، صاحب العمل والعامل، الابن والأب، لاعب شطرنج ولاعب شطرنج، في كلمة «مَقْدِرة».

سمع «جيمس» وسجاد صوت فتح الباب الأمامي، ثم صوت «لالا باكش» يقول: «انتظري من فضلك سأسأل مستر «جيمس برتون»»، ثم سمعا صوت وقع أقدام «لالا باكش» الثقيلة تصعد الدرج.

«من هذه يا ترى؟» قال «جيمس» وهو ينهض من جلسته ويسير إلى الرواق، يتبعه سجاد.

كانت هناك امرأة تضع يدها في جيبي بنطلونها وتنظر إلى لوحة زيتية معلقة على الجدار لـ«جيمس» و«إليزابيث» وابنهما «هنري». كانت ترتدي بنطلونًا أزرق واسعًا يصل إلى الركبتين وبلوفرًا أصفر شدت أكمامه إلى ما فوق مرفقيها، ويصل طول شعرها الداكن إلى أسفل أذنيها فقط. وحتى وهي تدير إليهما ظهرها، لم تكن تشبه أحدًا ما قد يعرفه «جيمس» من جماعة دلهي.

سأل: «هل أنتِ هنا لمقابلة زوجتي؟».

استدارت المرأة فقال «جيمس»: «يا إلهي!» فقد وجد نفسه أمام امرأة يابانية.

«أنا «هيروكو تاناكا». لا بد أنك «جيمس برتون».»

٢

كانت «هيروكو تاناكا» لا تعلم إلا ثلاثة أشياء عن «جيمس برتون» حين دخلت منزله: إنه زوج أخت «كونراد»، وأن عمه، «جورج»، هو الذي بنى عزبة «الأزاليا»، وأن لديه موظفًا مسلمًا. لذلك حين فتح لها «لالا باكش» الباب الأمامي، ورأت، من بين الأبيض والأسود للجدران وبلاط الأرضية، اللوحة الزيتية النابضة بالحياة المعلقة على الجدار بقصد خلق انطباع أولي لدى الزائرين عن «آل برتون»، كان «جيمس»، وليس «إلزي»، هو الذي اقترب أكثر ليتفحصها. من هذا الرجل الذي لم يكن لدى «كونراد» ما يقوله عنه؟ لكنها حين نظرت إلى اللوحة ـ الرجل في بذلته باهظة الثمن، إحدى يديه على كتف زوجته، والأخرى ترتاح على خزانة تُعرَض فيها ميداليات رياضية ـ رأت على الفور ما التقطه الرسام بشكل تام: الرضا الذي يشعر به «جيمس برتون». حينها أدركت لماذا لم يكن لدى «كونراد» ما يقوله له أو عنه.

لا يلحظ «جيمس»، وهي تقف أمامه، يدها الممدودة له، وهو يحدق فيها بحيرة، اعتقدت أنه يبدو مثل مخطط أولي مُهمل وضعه الرسام قبل أن يرسم اللوحة. الشعر الكستنائي في اللوحة لونه في الحقيقة بني فاتح، والبشرة البرونزية قليلًا شاحبة وعليها نمش، والعينان الخضراوان تقترب إحداهما

من الأخرى أكثر مما في اللوحة. ومع ذلك، إذ محا حسن السلوك الحيرة عن وجه «جيمس» بحسم ورفق ودفعه لأخذ يد «هيروكو» كأنه ظل في انتظارها طويلًا، رأت أن في اللوحة شبهًا لا بأس به؛ ها هنا رجل يتعامل بأريحية.

«كيف تعرفين اسمي؟» قال ثم ـ وكأنه بإجابته عن هذا السؤال سيفوز بزجاجة شمبانيا ـ ضرب الهواء بنشوة، وقال: «كونراد!».

غمز سجاد، الذي كان يقف خلفه، بشكل غير ملحوظ.

هذا ما سمعته «إليزابيث»: صوت «لالا باكش» يخبرها بوجود زائرة من اليابان، ثم صيحة «جيمس» عليها بسرور وهي تركض إلى السلم: «كونراد»! كان قلبها، إن لم يكن ذهنها، قد قفز بالفعل للاستنتاج المستحيل حين أخذت منعطف السلم ورأت السيدة الغريبة عليها تمامًا تدير إليها ظهرها.

أدارت «هيروكو» رأسها وهي تلحظ عيني «جيمس» تبتعدان عنها وتنظران إلى السلم، واكتشفت بُعْدًا جديدًا للألم. كانت «إليزابيث» الصورة الأنثوية لـ«كونراد»، وكانت جميلة. وقد تحول الشعر البني إلى نحاسي، وصارت العيون المثقلة حسية أكثر منها ناعسة، وتحول الهزال إلى نحافة. كان «جيمس» بجوارها يقول: «زوجتي «إليزابيث»، عزيزتي، هذه الآنسة... «تانكر»؟» وصوت رجل من خلفه يصحح له «تاناكا»، إلا أن «هيروكو» لم تفعل سوى التحديق في السيدة التي تهبط السلم.

خلال الثمانية عشر شهرًا الماضية لم يكد يمر يوم من دون أن تتذكر «كونراد» وهو يسير إلى الخلف رافضًا دعوتها بأن «يبقى»، لكن عند نقطة ارتبطت الذكرى بانفعالات طاغية، بدل أن تكون مصاحبة لها. منذ أشهر قليلة كانت ترقص مع رجل أمريكي في طوكيو حين ذكرتها إحدى حركاته في رقصة الشيمي برحيل «كونراد»، ولم يفتها خطوة واحدة حتى وصلت

بالرقصة إلى نهايتها، ثم استأذنت وذهبت إلى غرفة الزينة حيث بكت بأقصى ما وسِعها قبل أن تعود إلى رقصة أخرى. لا، لم يكن قليلًا ما تعلمته «هيروكو تاناكا» عن المصالحات المخزية للقلب الإنساني. غير أن مرأى «إليزابيث» تهبط السلم يجعلها تشعر أن «كونراد» غادرها أمس فقط ليلقى حتفه.

«آنسة «تاناكا».» قالت «إليزابيث» وهي تمد يدها إلى المرأة التي تحدق فيها على نحو لا يراعي السلوك بالمرة. خمَّنتْ على الفور أن هذه المرأة عرفت «كونراد» جيدًا بدرجة تجعلها تنزعج من الشبه بينه وبين أخته غير الشقيقة. وإذ لم تأتِ «هيروكو» باستجابة، بادرت «إليزابيث» وأمسكت بيد المرأة الأخرى التي كانت معلقة بلا تفكير إلى جانبها، وهكذا تماسكت أيديهما لحظة، قبل أن تصرف برود اللمسة المتكلفة من «إليزابيث» شبح «كونراد» من بينهما فعدلتْ «هيروكو» قبضتها وصافحت اليد بحيوية.

قالت: «إلزي». وبدا أن عليها أن تقول «مسز برتون» بدلًا من ذلك، لكنها في حواراتها مع «كونراد» كانت «إلزي» دائمًا.

«إليزابيث»، صححت لها الأخرى بابتسامة اعتذار توحي بأنها مخطئة إذ تتكتم اسم تدليل في الطفولة. «وبمَ أناديك؟»

«هيروكو.»

قال «جيمس»: «هل لكِ في فنجان شاي مس «تانكر»؟ الجو رائع في الشرفة بالخارج». لماذا لا تكون «إليزابيث» مضيافة هكذا مع زوجات عملائه؟ «لالا باكش، شاي»، صاح على الرجل ذي الشعر المخضب بالحنة الواقف عند مهبط السلم، ثم مد يدًا في اتجاه الشرفة، داعيًا المرأتين لتلحقا به إلى هناك.

انتظرت «هيروكو» رد فعل «إليزابيث» ـ ها قد أقسمت يمين الولاء في

الأسرة بالفعل، فكر سجاد ـ وفقط حين تلقت ابتسامة وإيماءة رأس منها سارت «هيروكو» عبر الردهة، و«إليزابيث» وراءها عن قرب. في الطريق إلى الشرفة تريثت بعينيها على الهندي الواقف جانبًا ليفسح المجال للأجانب الثلاثة.

«سجاد، انشغلْ بشيء. سنعود إلى تلك الملفات لاحقًا.»

«سجاد؟» توقفت «هيروكو» أمام الهندي.

«نعم؟»، أراد أن يمد يده ويمس النقطة السوداء الناتئة على وجنتها ليرى أن كانت جزءًا من وجهها، أم خنفساء ضئيلة حطت على جلدها وطوت أجنحتها تحتها عازمة ألا تغادر. صعقته كامرأة قد تبيح حريات معينة ـ للخنافس والرجال الفضوليين ـ شريطة حسن النوايا.

همَّتْ أن تقول إن «كونراد» ذكره لها لكنه رمقها، قبل أن تفعل ذلك، بنظرة تحذير وهز رأسه برفق. ما قواعد هذا المكان، تساءلت وهي تبتسم له بحيرة غير عابئة بنظرات «جيمس» و«إليزابيث» الفضولية. هل شعر «كونراد» بهذا الضياع حين وصل ناجازاكي أول مرة؟ فقط لو كان لديها مذكراته ذات الأغلفة القرمزية، فقط لو بقي مثل هذا القدر من «كونراد فايس» في العالم. لكن الشجرة التي علق عليها مذكراته احترقتْ ولم يتبق منها إلا جزء متفحم يوم ٩ أغسطس، على الرغم من أن حي «كونراد»، فيما عدا المذكرات، لم تصله النيران. قال «يوشي واتانابي» إن احتراقها بالتأكيد ليس بسبب القنبلة؛ لعل أحد المارة كان يشعل سيجارة في الأرض الخالية حين أرداه الانفجار أرضًا، وأسقط عود الثقاب، أو حتى السيجارة من يده على الجدار الواطئ. قالت له «هيروكو» وقتها: «حتى إن كان هذا ما حدث حقًا، فما زال بسبب القنبلة».

كانت رغبة «هيروكو» في أن تجلس على الأرض وتبكي قوية، لكنها سارت إلى الشرفة، وإلى عالم آخر. كان لكل شيء لون، وكانت الطيور تصدح. كان الأمر يشبه الدخول إلى خيال شخص ما ليس لديه طريقة أخرى للهروب. كان كل شيء جميلًا للغاية ومحدودًا للغاية في الوقت نفسه. جلستْ على المقعد الذي قدمه لها «جيمس»، وقالت نعم، إنها تريد شايًا.

«ما الذي جاء بكِ إلى دلهي؟ هل ظللتِ هنا طويلًا؟» عقد «جيمس» ساقيه عند الركبتين واستند إلى الخلف بظهره، ومرفقاه يبرزان قليلًا من ذراعي المقعد.

راقبته «إليزابيث» باهتمام وهي تجلس بطريقة أقل تعاظمًا. ظلَّتْ حتى بعد إحدى عشرة سنة زواج تفتنها طريقة «جيمس» في توجيه تصور الآخرين عنه. كيف ألقى إليها بكلمة عزيزتي، عرضًا، منذ دقائق. كان يفعل هذا غالبًا حين يكونان على مرأى من الآخرين، أو في حفلات يقيمانها، لكن كان هناك شيء ما في أن تسمعها في النهار، وسجاد يقف قريبًا يحدق في دهشة، مما جعل تلك المحاكاة الساخرة للتحبب صادمة على نحو خاص.

قالت «هيروكو»: «وصلت للتو، لم أشأ أن أبقى في اليابان أكثر من ذلك».

أومأ «جيمس» برأسه على نحو تشجيعي، كما لو كان يعبر عن استحسانه لافتتاحية مسرحية ويعلن عن رغبته في البقاء ليرى أحداثها تتكشف، لكن «إليزابيث» فهمت أن «هيروكو» أنهت إجابتها.

قالت: «وتعرفين «كونراد»؟» أومأت «هيروكو». «هل أخبرك أن له أقارب في دلهي؟» كانت تمر براحتي يديها على نسيج ثوبها وهي تتحدث، تسوي ما لم يكن مجعَّدًا حتى. وكأنها تظن أن الزهرات المنقوشة على القطن قد سقطت في حجرها من الشجيرات المائلة على الشرفة، فكَّرت «هيروكو».

«بنجل أوه! الخطوط المدنية، دلهي»، قالت برقة، تتذكر بصوت عالٍ. «قال من بوسعه مقاومة عنوان كهذا؟»

مال «جيمس» إلى الأمام قليلًا.

«هل جئتِ من ناجازاكي؟» بدتْ... أكثر اكتمالًا من أن تنتمي لأي من تلك الصور التي لم يعرف بعدُ الغرض من نشرها في مجلات قد تصل إلى متناول يد الأطفال، كما وصلت إلى «هنري» ابن الثماني سنوات. «أبي، هل كان الخال «كونراد» مثل هذا حين مات؟» سأل الفتى وهو يشير إلى شيء يبدو آدميًّا بالكاد في مجلة أتتْ بها «إليزابيث» بغبائها إلى المنزل.

«طوكيو، عملت في طوكيو بعد نهاية الحرب بقليل. مترجمة. أخبرتني إحدى معارفي هناك بأن صديقًا لها أتى إلى الهند، إلى بومباي. فالتقينا وأقنعته بالسماح لي بالسفر معه، وأخذْتُ من بومباي قطارًا إلى دلهي.»

«ماذا، وحدك؟»، أشار «جيمس» بعينيه إلى «إليزابيث» بما معناه أنها تختلق كل هذا.

لم يفت «هيروكو» التواصل الصامت، بدأت منذ إلقاء القنبلة تراقب المتزوجين بالعناية الحريصة لامرأة تعرف أن كل معرفتها بالزواج لن تتوفر سوى بالملاحظة.

«نعم. لماذا؟ أليس بوسع النساء السفر وحدهن في الهند؟»

ضحكت «إليزابيث» تقريبًا. هذا كثير على هؤلاء السيدات اليابانيات المحتشمات في كل الحكايات التي سمعتها. ها هي واحدة قد تعتصر الشمس بقبضتها فقط إن واتتها الفرصة، نعم، وقد تميل برأسها إلى الخلف لتبتلع ضوءها المتدفق. عند أي نقطة، تساءلت «إليزابيث»، بدأت تصدق

أن ثمة فضيلة في عيش حياة متكلفة؟ دقت الأرض بكعبيها بنفاد صبر من نفسها. لا صلة للفضيلة بهذا الأمر حقًّا.

«حسنًا، لا يوجد قانون يجرم هذا إن كان هذا ما تعنيه.» كان «جيمس» مرتبكًا على نحو غريب أمام هذه المرأة التي لم يستطع تحديد مكانتها. الهنود، الألمان، الإنجليز، وحتى الأمريكان... يعرف كيف ينظر إلى الناس فيعرف السياق الذي جاءوا منه. لكن هذه المرأة اليابانية التي ترتدي بنطلونًا تحيره. ما شأنها بحق السماء؟ «لكن توجد قواعد، ويوجد منطق عام. بالتأكيد لم أكن لأسمح لـ«إليزابيث»...» تلعثم إذ نقلت «هيروكو» عينيها إلى «إليزابيث»؛ لترى رد فعلها إزاء اختياره للأفعال.

«تقولين إنكِ مترجمة. هل عرفت «كونراد» بصفتك العملية أم...» وأتتْ بإيماءة مبهمة بطريقة تعلن بها عن جهلها التام بحياة «كونراد» في اليابان.

«هكذا التقينا. لأجل ترجمة كتبه. كان...»، توقفت «هيروكو». لم تتحدثْ عن «كونراد» إلا مع «يوشي واتانابي»، ومع «يوشي» كان ثمة كثير مما لا يلزم قوله. لذلك عليها الآن التمهل ثانية أو اثنتين قبل أن تعبر بالكلمات عن المستقبل الذي فقدته. «لو لم ينتهِ عالمنا، لكان الآن زوجي.»

استبعد مجيء «لالا باكش» بالشاي أية ضرورة لاستجابة فورية. فقط عاد «جيمس» في جلسته إلى الخلف، غير عابئ بإخفاء تكذيبه. وفكَّرت «إليزابيث»، لم أعرفه على الإطلاق! لا شيء في مخيلتها عن أخيها غير الشقيق؛ رجل متقوقع لا يرى في الآخرين سوى إزعاج يشتت الانتباه عن جمال ورقة شجر أو فكرة، سمح لها بتصوره محط انتباه امرأة بهذه الروح. تساءلت ماذا يعني الزواج عند اليابانيين. هل يتضمن الحب؟ لم تستطع تخيل الأمر حقًّا. لم تستطع تخيل «كونراد» و«هيروكو تاناكا» حبيبين،

حبيبين جديدين حيث يتلخص كل ما يهم في العالم في جسدين. أدركتْ، فجأة، الحضور الجسدي لـ«جيمس» على نحو لم تعهده منذ وقت طويل.

«من بوسعه مقاومة عنوان كهذا؟» كرر «جيمس» الجملة الغريبة في ذهنه، وهو يومئ إلى المرأة اليابانية ـ ما اسمها؟ ـ كأن خبر زواجها بـ«كونراد» هو ما يشغل باله. أتراها أتتْ إلى هنا متوقعة أن تبقى؟ هل تعتقد أنهما قد يطلبان منها البقاء لزعمها ببساطة أنها خطيبة «كونراد»؟ مع ذلك، هي لم تدَّعِ ذلك بدقة. نظر إلى يديها. لا يوجد خاتم.

قال، مدركًا أن «إليزابيث» لن تكون أول من يعقب: «مريع ما حدث لـ«كونراد»، الأمر كله محض بشاعة. لم نكن على تواصل معه حقًّا مدة يا مس «تان...».»، رفع فنجان الشاي إلى فمه في محاولة للتمويه على عدم تذكره بقية اسمها. «لكن بالطبع نود بشدة أن نعرف المزيد عن حياته في اليابان. لا بد أن تأتي ثانيةً على العشاء في أثناء إقامتك. هل ستقيمين بدلهي فترة؟»

«جيمس» أيها الوغد. شعرتْ «إليزابيث» بفورة حماية تجاه المرأة اليابانية التي من الواضح أنها أتت هنا لأنه ليس أمامها مكان آخر تذهب إليه في دلهي. وكان سخيفًا بالطبع، لكنه بالكاد يبرر الطرد الواضح الذي وجَّهَها به «جيمس» للتو ناحية الباب. غير أنه، ما خلا البقعة المحمرة على وجنة «هيروكو»، لم يبد عليها أي اضطراب.

«لديَّ بعض المال وليس لديَّ ارتباطات. مما يعني أنه ليس عليَّ عمل خطط.» الحقيقة أن لديها القليل من المال ـ فقد استنفدت الرحلة البحرية من طوكيو قدرًا كبيرًا من مدخراتها ـ لكنها على يقين من أن لغاتها الثلاث وتزكياتها المتألقة من الأمريكيين تكفي لتأمين عمل في أي مكان في العالم. «إقامتي متوقفة على مدى انسجامنا أنا ودلهي.» تلتفت إلى «إليزابيث»،

فيصرف التغيير الطفيف لوضع كتفيها «جيمس» بالكفاءة نفسها التي صرفها بها. «هل لكما أن تدلاني على بنسيون محترم، لديَّ تزكيات من أمريكيين في طوكيو، ومن «يوشي واتانابي» حفيد «بيتر فولر» من «شوربشاير».»

لا تعرف «إليزابيث» أن كان من باب الفضول أم التعاطف أم لمجرد الرغبة في تكدير «جيمس»، فقد وجدت نفسها تقول: «لماذا لا تبقين معنا أيامًا قليلة إلى أن نقوم بترتيب ما يلزم. أمتعتك؟»

«تركتها مع الرجل بالخارج.» حاولت «هيروكو» إصلاح التعليقات المريرة التي صدرت عن «كونراد» بشأن «إلزي»، الأخت التي جعلتْه يشعر بأنه غير مرغوب فيه في دلهي، مع هذه المرأة الحنون المضيافة. «لكن، رجاءً، لا أود أن أفرض نفسي.»

«إليزابيث، كلمة.» نهض «جيمس» وسار إلى الداخل. تبعته «إليزابيث»، لكن بعد وقفة طويلة بما يكفي لتوصيل نظرة مُطمئِنة.

ضغطت «هيروكو» بأصابعها تحت عظام كتفها مباشرة. وجدتْ من طوكيو إلى هنا قوة دافعة بعد أخرى. لم تفكر في الوجهة، كما كانت تفكر في الرحيل، تدور في عجلة العالم بالحرية المريعة لشخص ليس لديه من يجيبه. صارت في الحقيقة شخصية أسطورية. الشخصية التي تفقد كل شيء وتولد بدم جديد. دائمًا ما تُختصر تلك الشخصيات في الحكايات إلى عامل واحد فقط: الانتقام أو إقامة العدل. من دون مبالاة بالمكونات الأخرى للشخصية أو بماضيها.

قضت «هيروكو» ذات مرة بعد ظهيرة كاملة تحدق في صورة لـ«هاري ترومان». لم تكن تعرف كيف ترغب في إيذاء هذا الرجل ذي النظارة، وساورها الشك مع ذلك في أنها سترضى إن رماه أحدهم بقنبلة؛ على سبيل القصاص،

بدا الاعتقاد بوجود شيء كهذا إهانة للموتى. كان الخوف من الاختزال، وليس أي نوع من البحث، هو ما دفعها إلى الرحيل من اليابان. كانت قد بدأت تشعر بهذه الكلمة «هيباكوشا» تبدأ في استهلاك حياتها. لم تكن بالنسبة إلى اليابانيين شيئًا يتجاوز كونها من ضحايا الانفجار؛ كان هذا مستقبلها المحتوم. وبالنسبة إلى الأمريكيين... حسنًا، لم يعد يعنيها أن تكون أي شيء بالنسبة إلى الأمريكيين بعد الآن. نهضت من المقعد، عقدت ذراعيها أمام صدرها وسارت عبر الحديقة. تشعر بعض الأيام بالموتى خلف ظهرها، يضغطون أسفل عظام كتفها بطلبات لا تفهمها، وتعرف أنها عاجزة عن تحقيقها.

مررتْ مفاصل أصابعها على جذع شجرة. بدا الصوت الواهن لجلدها على اللحاء مواسٍ على نحو غريب. ذكرها بشيء ما... شيء ما من ناجازاكي، لكنها لم تستطع تحديده.

خرج سجاد من مكتب «جيمس» إلى الحديقة. بدأ الزوجان «برتون» جدالهما خارج باب المكتب ـ إنهما لا يعرفان شيئًا عن هذه المرأة (قال «جيمس»)؛ لا يجوز لهما أن يطردا خطيبة «كونراد» إلى الشارع بهذه البساطة (قالت «إليزابيث»)؛ إنها تكذب بوضوح بشأن علاقتها بـ«كونراد» («جيمس»)؛ لا يتطلب الأمر إلا جهدًا ضئيلًا لإرسال برقية إلى صديق «كونراد»، واسمه «يوشي»، والسؤال عنها، فلماذا لا تفعل ذلك بدل أن تبدو نكدًا بهذا الشكل («إليزابيث»)؛ أوه، أنا نكد، أليس كذلك؟ («جيمس»). كان سجاد يكره المجادلات بينهما ـ ليست المجادلات في حد ذاتها، بل ما يوحي به كل منهما من أنه إنما يكبح نفسه، حتى في أعنف حالاتهما، عن قول الأحق والأكثر تجريحًا، حتى تختنق الحجرة بالكلمات المكتومة، فتجعل سجادًا يرغب في الهرب إلى بيته، حيث كان يُعاتب حتى الله، وبنبرات رنانة، على ما يقدِّره تعالى من تقصير.

لدهشته، لم يكن صوت الزوجين «برتون» يصل إلى الحديقة، وهكذا لم تكن الضيفة، كما رأى، تنتبه إليهما بالمرة. لم تكن تنتبه إلى العالم بأسره. بدا كأنها تفرك ظهر كفها عمدًا في لحاء شجرة بعقده ودرناته.

قال: «لا تفعلي هذا»، وقد راعه أن رأى فجأة في ضوء الشمس مدى هشاشتها. بدت كأنها لم تسمعه، فركض إليها عبر النجيل لحظة أن بدأ الدم يتفجر تحت جلدها المتشقق وشد يدها بعيدًا.

خرج «لالا باكش» في اللحظة التي رأى فيها يد سجاد تطوق معصم «هيروكو».

«إنها مجرد متاعب»، فكر.

٣

«لا أظن أن الأمر سيفلح مع من كنا نعدها عروسك»، قالت خديجة أشرف، وهي تنحني لتجلس على الديوان الذي كان يجلس عليه سجاد في الفناء، عاقدًا ساقيه، وهو يرشف شاي الصباح مع لحظات قبل الفجر التي تتخلله.

لف سجاد ذراعه حول والدته وهمس: «اعترفي الآن، والآخرون ما زالوا نائمين، أنك لا ترين في ديلي فتاة جديرة بأعز ولد عندك».

أسندت خديجة أشرف ظهرها على حشية المسند بعد أن أزالت عنها ما سقط عليها من أوراق شجرة اللوز، وهزَّتْ رأسها استنكارًا لما يبدو لامبالاة من سجاد.

«يعطل هراء الرابطة الإسلامية عن البلد الجديد كل شيء.»

«عدت إلى هذا مرة أخرى؟ لقد بدأ محمد علي جناح يحل محل الله بوصفه المتهم الرئيس في كل مشكلات حياتك. إخلاصك في هذا يفوق حتى أعتى مؤيدي الرابطة الإسلامية.»

سوت والدته ملابسها وأبت أن تبتسم. لقد بذلت جهدًا كبيرًا في بدء

المحادثات الرسمية بخصوص زواج سجاد وابنة المير يوسف، «شهربانو»، وبدا أن كل شيء يسير على ما يرام إلى أن أعلن والد «شهربانو» أن تلك البلد الجديدة ستصبح واقعًا بالتأكيد، وبالتأكيد سينتقل إلى هناك، وأنه بالطبع يتوقع من زوج ابنته أن ينحو نحوًا مشابهًا. لم يكن بوسع خديجة أشرف أن تفهم لماذا لم يدع الرجل محادثات الزواج للنساء، لكن الضرر وقع. انفتح مجال جديد للأسئلة، ثم أعلنت الفتاة نفسها أنه إن سارت في دلهي مظاهرات من أجل باكستان، مثل تلك التي كانت في «لاهور» ستفخر بأن تباري «فاطمة الصغرى»، الفتاة ابنة الثالثة عشرة التي أسقطت علم المملكة المتحدة من أعلى مبنى الأمانة العامة في البنجاب ووضعت مكانه علم الرابطة الإسلامية الأخضر الذي خاطته من دوباتتها. هل كانت البنت تضع دوباتة أخرى حين أتت بهذا العمل المشين، خديجة أشرف لا تعرف، وأشفقت أن تسأل.

قال سجاد محاولًا بصعوبة إيجاد كلمات توصِّل فكرته من دون أن يجرح والدته: «آمي جان، ما إن أتزوج ستدخل الفتاة بيتنا، لن أصير جزءًا من أسرتها. ولا يهم إذا كان والدها يريدني أن أنتقل معهم أم لا. وبالنسبة إلى المسألة الأخرى... لطالما قلت بنفسك إني أحتاج إلى زوجة قوية الإرادة، وإلا سأملُّ».

«أنا قوية الإرادة، وهذا لا يجعل دوباتتي تسقط عن رأسي.»

«أرغبُ في زوجة عصرية.» خرجت الكلمات فجأة، وعلى نحو غير متوقع، تعززها خيالات أغرمت بالفعل بفتاة تحلم برفع دوباتتها بدلًا من علم المملكة المتحدة. ليس لسجاد انتماءات سياسية، بل لديه خياراته القصصية - في قصص التاريخ كان اثنان من شخصياته المفضلة هما ملكة «جانسي»، ورضية المملوكة: نساء قادرات قدن جيوشًا، وجلسن في مشاورات مع

الرجال. وكانت والدته هي من قصت عليه قصصهن، وجعلته مغرمًا بهذه الصورة للنساء.

«عصرية؟» كررت والدته الكلمة الإنجليزية بقرف، وحاول سجاد ألا يتخيل الزوجين «برتون» يضحكان على طريقة نطقها للكلمة: «ماا-درن». «هل هذا ما يقوله لك أصدقاؤك الإنجليز عن أنفسهم؟ إنهم عصريون؟ هذه كلمات اخترعوها ليقطعوك عن ناسك وماضيك فقط.»

تحول سجاد عن أمه. لم تكن فكرة أن شيئًا ما قد ينزعه من ديلي سخيفة فقط، بل إهانة كذلك، وهو يعلم أن والدته تعلم هذا.

«تبدأ الهند العصرية يوم يرحل الإنجليز، ولعلها بدأت يوم بدأنا نستخدم لغتهم لنقول لهم عودوا إلى بيوتكم.»

تساءل بهدوء إن كان هذا حقًا. «لا، العصرية لا تخص الإنجليز. بل العكس في الحقيقة. لقد وصلوا إلى نهاية تاريخهم. سيعودون إلى جزيرتهم الباردة ويقضون الأجيال العشرة القادمة يحلمون بكل ما خسروه.»

«يبدون كمسلمي الهند.»

نهض سجاد وهو يضحك.

«حين أتزوج، آمي جان، ستظلين أنتِ التي أفضل احتساء شاي الصباح معها.» قبَّل جبينها والتقط كتابه ومسح عن غلافه دائرة الشاي، وهو في طريقه إلى باب الدار.

وهو يفتح الباب الخشبي الثقيل خرج أخوه «التتمش» من إحدى الحجرات المطلة على الفناء وهو يتثاءب وقال: «ماذا يفعل الرجل الإنجليزي الصغير مستيقظًا في هذه الساعة؟ نزهة شروق الشمس مع مندوب الملك؟».

تجاهل سجاد التعليق وخرج آخذًا دراجته معه. كما لو كانت «التكة» الناعمة لإغلاق الباب بمثابة إشارة، أذَّن مؤذن المسجد الجامع للصلاة. أدار سجاد رأسه لينظر سريعًا ناحية الجامع، على مبعدة دقائق قليلة سيرًا على الأقدام، تظهر قبابه ومآذنه الرخامية ذات بعدين تقريبًا. تذكر جلوسه ذات ليلة من ليالي دلهي على كتف أبيه على درَج الحجر الرملي المؤدي إلى الجامع. ذكراه كلها عن الجامع وظلمة السماء من خلفه. كان والده قد أخبره أن الإمبراطور «شاه جهان» قد جاء هنا ذات ليلة بمقص الرسول، وشق به السماء؛ وحين استيقظ أهل ديلي في الصباح، وجدوا المسجد الجامع بينهم، يكشف عن لمحة من معمار الجنة.

مرت أسابيع منذ صعد سجاد درج الحجر الرملي ذاك وعبر الباحة المليئة بالحَمَام ليؤدي صلاة الجمعة. باكستان هي كل ما يتحدث عنه الجميع الآن، سيقول الإمام والأعضاء الأكثر تحفُّظًا من جماعة المصلين إنه لا يمكن تقسيم الأمة، وإنه لا مجال لأمم في أخوة المسلمين؛ ويرد مؤيدو الرابطة الإسلامية بأنه قد اتضح بالفعل من سلوك الهندوس أنهم لن يوافقوا على اقتسام أي سلطة مع مسلمي الهند بعد جلاء الإنجليز، ألم يتدنَّ المغول واللوديون والتغلقيون بما يكفي بالفعل، ويصر مؤيدو حزب المؤتمر على أن حزبهم ليس حزبًا هندوسيًّا بل هنديًّا، وماذا يربط أهل ديلي بإقطاعيي البنجاب الذين سيحكمون باكستان هذه؟ وهكذا يطول الأمر ويطول، وفي كل مجموعة يجد سجاد من يتحدثون برشد، وفي كل مجموعة يجد أيضًا من تجعله آراؤهم يرغب في نثر بذور فوق المتحدثين؛ ليحط عليهم الحمام، ويخفي كلامهم في جلبة رفرفتها.

صاح أحدهم على سجاد من بعيد ـ وكان الأستاذ الجامعي المتقاعد من جامعة «أليجار»، وقد علَّمه وأخته الإنجليزية وهما صغيران، بينما فضَّل

إخوته الآخرون تعلم الخط من والدهم ـ ومع أنه كان غالبًا ما يتوقف؛ ليلقي التحية على الرجل العجوز، تظاهر هذه المرة بأنه لم يسمع، وبدأ في دفع بدالات الدراجة في الشوارع الملتفة التي كانت تستيقظ تمامًا مع الأذان، تجنَّب الطريق الطويل عبر النهر واتجه إلى الخطوط المدنية عبر بوابة «كاشميري» مباشرة.

لقد قالت: «مهما وصلت مبكرًا ستجدني مستيقظة». لم يتوقع أن يجدها في ملابسها وجاهزة في هذه الساعة حقًّا، إلا أن الدعوة ـ أم إنها كانت تحدِّيًا؟ ـ بدت عذرًا جيدًا ليقضي حاجة في نفسه ظل يتكتمها طويلًا في أن يرى حديقة «برتون» في الفجر. تخيل نفسه جالسًا في الشرفة بالخارج يشاهد الزهور تبزغ من ظل الليلِ وجميع من في المنزل نائمون.

لكن «هيروكو تاناكا» كانت تجلس في الشرفة بالفعل وسجاد يدخل دلهي، تغطي كتفيها النحيفتين بشال وترشف من فنجان شاي بالياسمين، ممتنة لرؤية العالم من منظور عمودي. لم تعرف هذا الشعور معظم هذين الأسبوعين في دلهي. نامت أول ليلة لها في منزل «آل برتون» في حجرة الضيوف بالطابق الأعلى، وكانت مرهقة بدرجة لا تسمح لها بالتجوال وحدها من دون مساعدة لتجد مكانًا تقيم فيه، لكنها كانت عازمة على أن ترحل اليوم التالي من هذا المنزل؛ حيث لم يعد لـ«كونراد» أثر ما خلا فكرة التقطتها في اليوم الأول الذي قضته مع «إليزابيث برتون» عما كانت ستكون عليه ملامحه لو قضى حياة تعيسة.

لكنها نهضت من الفراش في اليوم التالي وهي تشعر كأنها في قارب يرتج بشدة، وسلكت طريقها بالكاد هابطة درجات السلم قبل أن تخور قواها وتنهار على الأرض. حين استعادتْ وعيها كانت في غرفة النوم بالطابق الأرضي، وكانت مفعمة بعطر ما بعد الحلاقة الخاص بـ«برتون».

وصل دكتور «آجاركار»، طبيب «آل برتون»، خلال دقائق، ورأى أنها عدوى التقطتها على الأرجح في أثناء رحلتها إلى دلهي، وأن الأمر لا يحتاج سوى الراحة وتناول الدواء.

قال: «ستكونين بخير بالداخل، أسبوعًا أو عشرة أيام»، فأجابته «هيروكو» همسًا وهي في أشد حالاتها وهنًا: «هل تعرف مكانًا أستطيع الذهاب إليه؟».

«لا تكوني سخيفة.» كانت نبرة «إليزابيث» صارمة وعطوفًا في آن. «ستبقين هنا. لا نقاش في هذا.»

بعد ذلك، ودكتور «آجاركار» يغادر، سمعت «هيروكو» «جيمس» يتحدث معه عند مدخل الباب.

«نعم، نعم وصلت برقية من قريب «واتانابي» ـ ابن عم «جوليان فولر» في ناجازاكي. هل كنت تعرف «جوليان» ـ كان هنا في ٣٤ أو ٣٥. كان موظفًا في شركة. تزوج عمه من يابانية. على كل حال، تبيَّن أنه كان بينها وبين «كونراد» شيء ما حقًّا. وأنها فقدت الجميع، هكذا تقول البرقية. الجميع. مسكينة. أشعر أني متوحش.»

«ستبقى معكما إذن في أثناء إقامتها في دلهي؟»

«نعم. هذا ما أظن، على الأقل إلى أن تتحسن حالتها. بعد هذا، حسنًا، لا أعلم. سنرى كيف ننسجم معًا. وقد يفيد «إليزابيث» أن تجد أحدًا تكون له أمًّا مرة أخرى. هل صارت زوجتك هكذا حين ذهب «رافي» إلى «إيتون»؟»

سقطت «هيروكو» في النوم قبل أن يجيب الطبيب، حين استيقظت وجدتْ «إليزابيث» تجلس بجوارها على الفراش، ويوحي كتفاها المرتخيتان

أنها بقيت هناك فترة. ابتسمت «هيروكو»، فابتسمت «إليزابيث»، ثم سقطت «هيروكو» في النوم مجدَّدًا.

بعد ذلك بيومين، صارت «هيروكو» أخيرًا تستيقظ فترة طويلة بما يكفي لتشعر بالملل.

قالت «إليزابيث»: «سأقرأ لكِ، هل تفضلين شيئًا؟».

«إيفلين واه.»

«حقًّا؟ يا له من اختيار غريب.»

«هذا ما قاله «كونراد»، قال إن «واه» للقراء الذين يعرفون الإنجليزية ويفهمون ما يسخر منه، وأخبرته أنه ربما تكون الكتب أفضل حين لا تعرف أنها ساخرة وتظنها مجرد كتب كوميدية.»

فكرت «إليزابيث» في هذا.

«الأرجح أن معك حقًّا. فقد وجدته قاسيًا بشدة، وحزينًا غالبًا على نحو لا يُطاق.»

تحركت أصابع «هيروكو» قليلًا إلى أن كادت تمس يد «إليزابيث» وهي ترتاح على غطاء السرير، كانت إيماءة وقفت بذكاء شديد في المنتصف بين الرشد والتعاطف حتى إن «إليزابيث» وجدت نفسها تتخيل حياة جاء فيها «كونراد» لهذا المنزل بـ«هيروكو» زوجة له.

«لعلك ترين السخرية بعد أن تقضي وقتًا هنا معنا.»

«أوه، أراها بالفعل»، قالت «هيروكو» وهي تومئ، ثم صفقتْ بيدها على فمها.

غير أن «إليزابيث برتون» كانت تضحك كما لم تضحك منذ وقت طويل. أخذت يد «هيروكو» في يدها وقبضت عليها بحزم.

«انسي هراء البنسيون هذا. ستبقين هنا. نحن عمليًا أختان، على الرغم من كل شيء.»

شاهد «جيمس برتون»، وكان يقف عند المدخل، وجه زوجته يتوهج بالضحك، وأومأ برأسه. لم تكن «هيروكو» مقتنعة قط بأن بقاءها في منزل «برتون» هو الوضع المثالي، لكنها كانت أوهن من أن تشعر بأي شيء سوى الامتنان لوجود فراش تنام عليه.

قبل ذلك بيومين صحت في الصباح وهي تشعر بأنها أقوى كثيرًا - ارتاحت لهذا بقدر أكبر مما أباحت لأي أحد؛ إذ كانت تتخوف من أن يكون مرض الإشعاع الذي أعجزها عن الحركة عام ٤٥ قد عاد، أو أفاق ببساطة من حالة خمول، كما حذَّر الأطباء. لكنها ما إن شعرت باستعادتها لقواها حتى صرفت تلك الأفكار بالحزم الذي صرفت به ذات مرة التلميحات المتكررة لـ«كونراد» إلى أنه لم يعد من الحكمة لها أن تقابل ألمانيًا في ناجازاكي، وقرر أنه صار عليها أن تجد طريقة لملء أيامها. وفي أثناء فترة النقاهة شعرتْ تجاه الزوجين «برتون» بود أكبر مما تخيلتْه ممكنًا في يومها الأول في دلهي، لكنها كانت تدرك حاجتها إلى شيء آخر تنشغل به غير رفقتهما.

حسبتْ أن لديها حلًّا رائعًا إلا أن ظنها بوجود أحد ما في دلهي قد يكون في حاجة إلى مترجم يتحدث الإنجليزية والألمانية واليابانية قوبل بحماس ضعيف من قِبل الزوجين «برتون». حضر دكتور «آجاركار» ليخبرها أنها ليست بعد بحال جيدة بما يكفي لتهيم على وجهها، مع ذلك رأت «هيروكو» أن قوله هذا ليس سوى إيماءة صداقة بينه وبين الزوجين

«برتون»، اللذين على ما يبدو يظنان أن كرم ضيافتهما سيشوبه الشك إن وجدت ضيفتهما عملًا.

هكذا اتجهت «هيروكو» إلى الخيار الآخر الذي تبدَّى لها.

قالت: «أريد أن أتعلم اللغة التي يتحدثونها هنا».

قال «جيمس»: «ليس ضروريًّا. الإنجليزية تفيد بما يكفي. أبناء اللغة الذين ستقابلينهم أهل الـ«أكسبريدج» وزوجاتهم، أو خدم الأسر مثل «لالا باكش»، وهؤلاء يفهمون الإنجليزية قليلًا إن كنت لا تعرفين إلا عدة كلمات أردية تلقيها في الجمل، وبإمكان «إليزابيث» أن تعلمها لك».

كان ذلك أغرب ما سمعته «هيروكو» في حياتها.

قالت: «حتى مع ذلك، أريد أن أتعلم قراءتها وكتابتها، هل هناك أحد...؟».

قالت «إليزابيث»: «سجاد، كان يعلِّم «هنري» ـ ابني». لم تتصلب شفتها العليا حقًّا، فكرت «هيروكو»، بل كان ثمة تحول طفيف حول فمها ينمُّ عن ألم دفين بداخلها لذكر الولد الذي أُرسل منذ عام إلى مدرسة داخلية بإنجلترا؛ حيث يكتب لوالديه خطابات تقول إنه يرغب في العودة إلى «البيت، في الهند».

قال «جيمس»: «ليس لديه وقت لهذا، تعلمين أن ليس بوسعي أن أدعه يعمل نصف وقت الآن. لم يعد لديَّ مكتب مليء بالموظفين».

«ما زال المكتب لديك يا «جيمس». اخترْتَ فقط التظاهر بأن قدمك لم تتعافَ بعد حتى لا تذهب إليه. وعلى أية حال، أنت وسجاد لا تفعلان شيئًا سوى لعب الشطرنج طوال اليوم.» دع الفتى يعمل لقاء راتبه مرة أخرى. فكَّرتْ «إليزابيث» بينها وبين نفسها. ظل قبول سجاد علاوة الراتب التي

أعطاها له «جيمس» في بداية الشهر يزعجها بشدة؛ بدا قبوله هذا ليس فقط منافيًا للشرف بل وصفيقًا.

انزلقت «هيروكو» عن الأريكة وذهبت لتتصفح أرفف الكتب، على أمل أن تذكرهما بحركتها تلك أنها في الحجرة قبل أن يبدآ إحدى مشاجراتهما النكدة، وتساءلت هل سيمانع سجاد إن طُلب منه لعب دور المدرس. أدركتْ أن عليها أن تسأله أولًا؛ لأنه إذا طلب منه ذلك الزوجان «برتون» فسيكون أمرًا وليس طلبًا. لكن ما أراحها كثيرًا، أن «جيمس» حين ذكر الأمر ثانيةً على مضض في اليوم نفسه لاحقًا، بدا سجاد مسرورًا.

«سأعلمك أردية غالب و«مير»، وهي أردية بسيطة ليتسنى لك قراءة شعراء دلهي.» وإذ لحظ نظرة «جيمس» الحزينة أردف: «ولما كنت تقولين إنك تستيقظين مبكرًا يا مس «تاناكا»، فلعل بوسعنا أن نبدأ الدروس قبل أن نبدأ أنا ومستر «برتون» أعمالنا اليومية.»

ابتسم «جيمس» ابتسامة عريضة، ولم تعرف «إليزابيث» هل ترغب في ضرب سجاد أم «جيمس» أم ضرب نفسها، للطريقة التي يستطيع بها هذا الهندي إدخال السرور على قلب زوجها من دون أن يبذل أدنى جهد.

مالت «هيروكو» بوجهها في البخار المتصاعد من فنجان الشاي، لدفئه تناقض سار مع برودة هواء الصباح في شتاء دلهي. تمنت ألا يصل سجاد سريعًا لأن هذا الشعور بالوحدة في منزل أسرة «برتون» كان نادرًا وعزيزًا، حيث لا داعي لتعديل تعبيراتها لئلا يبدو عليها شيء يسبب إزعاجًا أو إساءة. عليها دائمًا، حين يكون «جيمس» أو «إليزابيث» في جوارها، أن تبدو مشغولة بشيء ما لتتجنب إثارة محادثة أو نشاط مذعور؛ يتصرفان كما لو أنها فقدت

ناجازاكي بالأمس، وأن دورهما المشترك في عالمها أن يصرفاها عن الحداد. كان عطفًا منهما، لكنه محاولة.

حكَّتْ بإبهامها عيدان الخيزران في ذراع الكرسي الأخضر. وكان لهذا العالم أيضًا نهاية. عام أو اثنان، ليس أكثر من هذا، هكذا أخبرها «جيمس»، ويرحل البريطانيون. بدا امتيازًا خارقًا للعادة ـ أن تتلقى تحذيرًا قبل أن ينعطف التاريخ، لتعد للطريقة التي ستحول بها حياتك في هذا المنعطف. لم تكن تعلم شيئًا عما خططت له بعد دلهي. بعد الأسبوع القادم. ولمَ التخطيط على كل حال؟ لقد تركت ذلك الترف وراءها. يكفيها في اللحظة الراهنة أنها هنا، في حديقة «آل برتون»، ممتنة لبطانية الصمت الموشاة برنين صيحات الطيور، وعلمها أن لا شيء هنا ستندم إن خلفته وراءها.

كانت قد رشفت أقل من نصف فنجانها حين رأت سجادًا يدخل الحديقة من الجانب. بدا مندهشًا ـ محبطًا تقريبًا ـ لرؤيتها هناك، إلا أن ذلك مرَّ في لمح البصر، قبل أن تستقر ابتسامته المهذبة في مكانها، وتمحو من فوق وجهه أي تعبير آخر. تساءلت هل كشف وجهها أيضًا أشياء وأخفاها كما فعل وجهه.

قالت وهي تشاهد وقع أقدامه يحول النجيل الفضي إلى أخضر: «ثمة كثير من الندى هذا الصباح».

«نعم.» أحس أن عليه إضافة شيء ما ذكي لهذا التعليق فقال: «العناكب تحب الندى، تنسج في الصباح الندي شبكات دقيقة، ولعل الشبكات تصبح مرئية حين يعلق الندى على خيوطها».

«العنكبوت محبوب من المسلمين.»

«نعم.» ابتسم مسرورًا بما يفوق الحد لأنها تعرف هذا، وهو يقف بجوار طاولة الـ«بريدج» وينتظرها لتنهض من فوق مقعدها وتنضم إليه.

«أخبرني «كونراد» بهذا.» يوم كانا واقفين معًا على جسر «ميجان باشي» وقفز قلبه في قلبها في بقعة فضية. لم تستطع تذكر تلك اللحظة نفسها من دون أن ترافقها ذكرى رقودها على فراش المستشفى ساعات بعد أن يخبرها «يوشي» بأنه لا أحد ممن كانوا قريبين من كاتدرائية «أوراكامي» نجا من الانفجار.

«كان مستر «كونراد».» شد سجاد شحمة أذنه يحاول إيجاد طريقة للتعبير عما يدور في خلده. «أحبُّه جدًّا.»

ابتسمت «هيروكو» وهي تجلس على طاولة الـ«بريدج». كان من السهل تمامًا أن تفهم لماذا قال «كونراد» إن هذا الرجل هو الوحيد في دلهي الجدير بملاقاته.

«حدثني عنك. قال إنك شخص رائع.»

«رائع؟»

«نعم.» شاهدتْه يلتهم الإطراء كما لو أنه وليمة. «لماذا لم ترد أن أخاطبك أمام الزوجين «برتون» يوم أن وصلت إلى هنا؟»

وضع سجاد كتاب التمارين المخطط الذي اشتراه من ماله لأجل الدرس، أزال بطرف كمه بقايا بقعة شاي.

«لم أكن أعرف ماذا كنت ستقولين. لكنه لم يبدُ صوابًا.»

«ما الذي لم يبدُ صوابًا؟»

«أنا أعمل لدى مستر «برتون».» أضاف سريعًا، «ليس مثل «لالا باكش». أنا لسْتُ خادمًا. سأصير محاميًا، يوما ما. إذ أعلم بالفعل كل ما يمكن علمه عن...» توقف مدركًا أنه يتفاخر. «لست خادمًا»، كرر بحزم. «لكن... أنتِ...»

«نعم؟»

«كنت قد وصلتِ للتو. كنتِ إحدى معارف أخيها المتوفى. لم يكن الوقت المناسب لتتوقفي وتتحدثي معي.» ما كان يقصده هو: «رأيت أنك ستتحدثين معي كنِدٍّ. وكانا سيحملان هذا ضدنا نحن الاثنين. ولم يكونا ليعرضا عليك البقاء في ضيافتهما.» «يجب أن نبدأ الدرس على ما أظن.» فتح كتاب التمارين. «بدايةً، سيكون عليك أن تنزعي من ذهنك فكرة أن الكتابة من اليسار إلى اليمين.»

بدأت «هيروكو» تضحك، وتساءلت هل سيبدو هذا وقاحة منها، لكنها رأت أنه لن ينزعج؛ إذ مال برأسه جانبًا بعض الشيء، ونظر إليها بعينين فضوليتين كأنه ينتظر أن تفرغ من ضحكها، وتفسر له الأمر، وليس قلقًا من أنه قال شيئًا يستحق التهكم. سحبت كتاب التمارين ناحيتها وخطت على الصفحة.

قالت: «هذا ياباني».

اتسعت عينا سجاد.

«بعد الأردية سيكون عليك أن تتعلمي الكتابة بحروف مائلة.»

ضحكت مرة أخرى، ونظر كل منهما إلى الآخر، ثم خفضا نظريهما. قرر كل منهما على حدة أن ملامح الآخر غير المألوفة فقط هي التي تزيد من حدة تلك الرغبة في التحديق والتحديق، الرغبة التي وُجِدتْ منذ التقيا أول مرة.

«أول حرف الألف»، قال سجاد، وبدأ الدرس.

اكتشف سجاد خلال دقائق قليلة ما اكتشفه من قبل مدرسها الذي درَّس لها الألمانية في المدرسة، والقس الذي درَّس لها الإنجليزية، أن اللغة تأتيها

بسهولة شديدة، حتى إنها بدت وكأنها تستعيد معرفة نسيتها أكثر مما بدا أنها تتعلم شيئًا جديدًا. وفي لمح البصر وصلا إلى الحرف الثالث عشر من الأبجدية.

«هذا حرف الذال، واحد من أربعة أحرف أردية تكرر صوت الحرف الإنجليزي زِد»، قال سجاد وهو يخط منحنى صغيرًا ويضع أعلاه نقطة. «ذال، زاي، زواد، ذوي.»

«لماذا أربعة أحرف لصوت واحد؟»

«لا تقولي لي إنك من هؤلاء الذين لا يرون جمالًا في الإفراط؟» صاح. كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها جانبه السخيف عمدًا.

«بمعنى آخر، أنت لا تعرفين كلمة «سينسي».»

«ماذا تعني هذه؟»

«مدرسًا.»

أدهشتها درجة الاحمرار التي يمكن أن يصل لها وجهه. أمسك بقلم، وأداره بين أصابعه، وضغط بإبهامه على سنه، ثم تفحص بعناية الحبر الأزرق الذي انتشر على جلده.

«أنتِ تنادينهما «إليزابيث» و«جيمس». وليس عليكِ أن تناديني بشيء آخر سوى سجاد يا مس «تاناكا».»

«وليس عليكَ أن تناديني بشيء آخر سوى «هيروكو» يا سجاد.» الشيء الوحيد الذي أحبته أكثر من أي شيء في الأمريكيين هو عدم تكلف بعضهم مع بعض. لا رسميات خانقة تحد كل علاقة داخل نفسها. رأت كم كانت سخيفة بينهم وهي تشير إلى الرجل الذي أحبته بـ«كونراد سان». حتى إنها

بدأت تصدق أنها لو كانت قالت له «كونراد» فقط لتقدم للزواج منها مبكِّرًا عن موعده، ولسار كل شيء على نحو مختلف. كل شيء ما عدا القنبلة.

رأى سجاد أن ذهنها يهيم بعيدًا عن دلهي وكل ما بها. يعلم ما يفعله الزوجان «برتون» في مثل هذا الموقف؛ يقطعان عليها هذا ويشدانها إلى الحاضر. حسب علمه، سألتها «إليزابيث» مرة واحدة فقط عن حياتها قبل أن تأتي إلى دلهي، كان سجاد يمر بباب حجرتها المفتوح حين طرحت «إليزابيث» السؤال، ولم يسعه سوى أن يتوقف ويصغي، فأذهلته واقعية ردها.

قالت: «مرضت بعد القنبلة بتسمم إشعاعي، على الرغم من أننا وقتها لم نكن نعرف له اسمًا. لكن لـ«يوشي واتانابي» صديق «كونراد» قريب في طوكيو يعمل طبيبًا. كان مستشفى ناجازاكي مشغولًا كله، فرافقني «يوشي سان» إلى طوكيو. كان يحس أنه مسؤول عني، أتعرفين، لأنه كان نادمًا على خيانته لـ«كونراد»، وكانت العناية بي إحدى طرقه للتكفير عن هذا. فأدخلني المستشفى الذي يعمل به ابن عمه، ثم عاد إلى ناجازاكي. وحين كنا هناك جاء بعض أطباء الجيش الأمريكي ليروني. كنت بالنسبة إليهم شيئًا مثيرًا للفضول. تحدثت معهم بالإنجليزية، وسألني أحدهم إن كنت مهتمة بالعمل مترجمة. العمل مع الأمريكيين! بعد القنبلة. قد تتعجبين من أنني وافقت علىٰ شيء كهذا. لكن الرجل الذي سألني، كان دمث الوجه، فكان من المستحيل تحميله مسؤولية ما حدث. من المستحيل، حقًّا، تحميل أي شخص مسؤولية ما حدث؛ كانت القنبلة شديدة الـ... بدا أنها تتجاوز كل ما هو آدمي. على أية حال، وافقت.

عملت مترجمة أكثر من عام. وصادقت ممرضة أمريكية على وجه الخصوص، أخذتني لأقص شعري مثل شعرها، وكانت تعيرني ملابسها حين نذهب إلى النوادي الليلية معًا. لقد كبرت في الحرب؛ كانت رفاهية

وقت السلم تلك كلها جديدة عليَّ. لم أشأ العودة إلى ناجازاكي قط، كنت راضية بالبقاء في طوكيو مع الأمريكيين. وذات يوم ـ في أواخر ٤٦ ـ قال الأمريكي ذو الوجه الدمث إن القنبلة شيء بشع إلا أنه كان لا بد منها لإنقاذ حياة الأمريكيين. عرفْتُ وقتها أني لن يكون بوسعي العمل معهم بعد هذا. جاءت الممرضة إليَّ حين سمعت أنني راحلة. وقالت ماذا ستفعلين. سأذهب بعيدًا ـ خرجت الكلمات من فمي من دون وعي. فقالت لي، لا ترحلي أنتِ أيضًا. ذاك الصديق الكندي الذي أخبرتك عنه سيبحر إلى الهند.

«الهند!» حين قالتها علمت على الفور أين سأذهب. أخبرتها وقالت إن هذا جنون. لكن لا بأس، لنرى إن كان ثمة أحد يمكنه مرافقتك. كم أحب هذا في الأمريكيين؛ تعاملهم مع أنواع معينة من الجنون بوصفها سمات شخصية. في تلك الليلة أخذنا أنا وهي الصديق الكندي إلى العشاء وسقيناه كميات من الساكي، وفي نهاية الأمسية، كنا نشرب أنخاب رفاق السفر. إذا كنت تتساءلين يا «إليزابيث» عما إذا كانت لديه دوافع خفية، نعم، كان لديه... ماذا قلتِ من قبل عن ابن عمك ويلي؟... ميول وايلدية».

بعد ذلك، حين ذكرت «إليزابيث» كل هذا لـ«جيمس»، على مسمع من سجاد، هزَّ رأسه وقال: «أرجو أن تكوني قد أشبعتِ فضولك. لكن ألا تظنين أن علينا أن ندعها تنسى كل هذا الآن ببساطة؟» ومنذ ذلك الحين لم يسألها الزوجان سؤالًا واحدًا عن اليابان، أو حتى سمحا لها بلحظة تأمل واحدة قد تحضرها فيها ذكرى.

فكر سجاد في هذا كله ونظرة «هيروكو» تتجه إلى الداخل، ثم استند بظهره على المقعد، ونظر إلى الحديقة، وتركها وشأنها.

٤

شاهدت «هيروكو» الظلال ملقاة على أطلال حيٍّ «حوض خاص»، وكانت تتقدم حولها نزهة خلوية في ضوء القمر. كانت الأطلالَ مجرد أطلال، لم تفعل الظلال سوى أن شوهت الانطباعات التي يخلقها تلاعب الضوء مع الظلام. حتى هذا أيضًا أمسى ماضيًا: مبنى منهار، لم تلهها رؤية ظل رجل يهوي وراء المبنى عن أن تستدير بابتسامة مهذبة لتستمع إلى سؤال المرأة التي تجلس بجوارها.

«كيف تتقدمين في دروس الأردية؟»

لم تتمكن «هيروكو» من تذكر اسم السيدة الإنجليزية صاحبة السؤال، كانت تعرف مع هذا أن زوجها يعمل مع رجال مندوب الملك وأن لديها أجمل أشجار الجاكراندا في نيودلهي.

«جيد، شكرًا لسؤالك، مضت ثلاثة أسابيع بالفعل حتى اتفقنا أخيرًا على أن أنطق صوت القاف بسطح حلقي، وليس من الخلف، مما جعل سجادًا يشعر بالأسف، لكن لا مفر من الأسف مع الأردية، وهو لذلك لا يلومني.»

«سجاد؟ أوه، تابع «جيمس»! هل قال ذلك: لا مفر من الأسف مع الأردية؟ إنهم يدَّعون أغرب الادعاءات، أليس كذلك؟»

تابع؟ قضمت «هيروكو» قطعة من الدجاج المدخن لتشغل فمها بشيء غير الرد بحسم على المرأة. لم تكن تعرف كيف تتصرف مع هؤلاء الناس؛ الأغنياء ذوي النفوذ، الذين سألها عدد منهم عن حياة «الساموراي» وظنوا أنه إنكار رائع للذات منها حين قالت إن أقرب ما وصلت إليه لعالم المحاربين هو أيام كانت عاملة في مصنع الذخيرة. أمكنهم بعد سنتين من الحرب قبول التحالف مع «هتلر» بأسرع مما يمكنهم قبول شخص من طبقة مختلفة، فكرت في ذلك وتمنتْ لو أنها دخلت الهند على نحو يسمح لها بالتواجد في بيوت ناس دلهي نظراء ناس «أوراكامي». مع أن ذلك كان إجحافًا لحق «آل برتون» وغير حقيقي على الأقل جزئيًّا. فقد كانت أكثر من ممتنة لتمتعها بالملاءات الناعمة، وكثرة مرات تناول الطعام، والأثواب ذات الألوان المذهلة التي أعارتها إياها «إليزابيث»، ورحابة مكتبة «برتون»، وعطف «آل برتون» نفسيهما... وواعية بحدةٍ وطوال الوقت لحقيقة أنها تتمتع بكل هذا على سبيل الكرم وليس لأنه حقها.

«لماذا تضيعين وقتك في الأردية؟» قال كمران علي، أحد الهنود الأكسبريدج، ووضع نظارته الضخمة على بطانية النزهات بجانب «هيروكو». «لغة المرتزقة واللصوص. هل تعلمين أن أصل كلمة «أردو» من اللاتينية «هورد»، ها هي اللاتينية، لغة جديرة بالدراسة.» رفع كأسه الفارغة فتقدم نادل يرتدي الزي الخاص بالخدم ليملأه له، قال كرمان: «فيني، فيدي، فينو»، فضحكت المرأة الإنجليزية الجالسة بجوار «هيروكو» وجذبته في محادثة عن النطق الغريب لعمالها الهنود.

شعرت «هيروكو» بأحد ما يلمس مرفقها فنظرت إلى أعلى لتجد «إليزابيث».

«إليزابيث هل ستنضمين إلينا؟» قالت سيدة «الجاكراندا» من دون أن تتحرك لتفسح مكانًا.

«لا شكرًا «فيوليت». الجو هنا خانق بشدة.» وتوقفت لحظة قبل أن تواصل: «أقصد بسبب هذه»، ولوحت بيدها ناحية عواميد بطول ست أقدام يتصاعد من أعلاها اللهب الذي ينير منطقة النزهة.

نهضت «هيروكو» واقفة وهي تغمغم باعتذار، في مأزق بين الاستمتاع بفظاظة «إليزابيث» مع هؤلاء المخلوقات المملة وغير المؤذية وبين الأسف لها. والاثنتان تبتعدان عن الجمع، تبعهما «جيمس» بنظره من بعيد، فلمح بريق الضوء في قلادة «إليزابيث» المرصعة بالزمرد؛ وضعها لأول مرة حول جيدها في عالم ناعم يتوهج بالحب حتى إن الجواهر الخضراء بدت باهتة بالمقارنة. رأى في إحدى التجليات النادرة لخياله «هيروكو» و«إليزابيث» كسلسلتي القلادة الذهبيتين التوأمين، تسيران جنبًا إلى جنب، تتباعدان فقط حين تضطرهما بعض التقاطعات البرَّاقة (مندوب الملك، زوجة أحد موكلي «جيمس»، نائب مكان ما) إلى الانفصال فترة على ثقة بلقائهما ثانية على الجانب الآخر. اعتقد «جيمس» أن «إليزابيث» لا بد جزعة على ضيفتها الأجنبية مما جعلها تتصرف على هذا النحو، لم يدرك قط مدى أهمية الأمر عند زوجته أن وجدت لنفسها أخيرًا صديقة وحليفة.

حتى إنها وجدت نفسها في مناسبات عديدة خلال الأسابيع القليلة الأخيرة تتطلع إلى الخروج فقط حين توافق «هيروكو» على مرافقتهما إلى أي تجمع اجتماعي يعقد في أي أمسية (لم تمر أمسية قط من دون تجمع اجتماعي).

«عذرًا على ابتعادي طويلًا، لم أكن لأسمع نهاية النقاش من «جيمس»

لو لم أقضِ بعض الوقت في مناقشة بعض تيمات حفلة رقص عيد الفصح مع السيدة العجوز. يبدو زوجها على استعداد للتمادي في تبرير أسلوب حياة «جيمس» في لعب الشطرنج.»

تعلمت «هيروكو» بالفعل أن التزام الصمت أفضل حين يتحدث أحد الزوجين عن الآخر، لكنها عزمت حينها على أن تجد طريقة لكسر حاجز الصمت المخلص لدى سجاد في كافة ما يتعلق بـ«جيمس برتون» لتعرف لماذا يُسمَح بالضبط لمحامٍ بالجلوس في شرفته، واحتساء الشاي وتحريك قطع الشطرنج على الرقعة من حين إلى آخر من دون أن يُبدي أحد أدنى اعتراض. الأغنياء! سخفاء! وجدت نفسها تفكر وتهز رأسها أمام كل ما لا يتغير أينما ذهبت في العالم.

حقيقة الأمر أن «جيمس برتون» منذ بدأ مسيرته القانونية ظلت مهارته الرئيسة والفذة تتلخص في السحر، والعلاقات الاجتماعية، والهالة الآمرة التي يحيط نفسه بها، يتحد كل هذا معًا لإقناع الموكلين ـ والأهم منهم الموكلون المحتملون ـ بأن «جيمس برتون» رجل يُعتمد عليه. كان يأتي بالمحتاجين لاستشارة قانونية إلى مكاتب «برتون» و«هوبكنز» و«برايس»، وما إن يصيروا هناك بالفعل كان يترك أصحاب المشكلات الشائكة بين يدي زملائه القادرين بما يكفي على ضمان ألا يندم الموكلون على اختياراتهم. ظل «جيمس» منذ كُسِرتْ ساقه غير قادر على صعود السلم إلى المكاتب القانونية في الطابق الثالث، إلا أنه لم يكن متعبًا في التزاماته الاجتماعية، كان يستغل التعاطف الذي تأتي به إصابته لتحسين ممارسة مهاراته.

كان سجاد يذهب إلى المكتب مرة في الأسبوع ويعود بعمل يمكن لـ«جيمس» أن ينشغل به، إلا أن الجميع كانوا يدركون أن ذلك مجرد ذريعة؛ فقد تعافت ساقه بشكل ملحوظ، لكن ما من أحد كان يعبأ بالتساؤل عن موعد

عودته إلى العمل، فبدا لـ«جيمس» أن من الحماقة أن يذكر بنفسه الموضوع، مثلما بدا له أن من الحماقة أن يذكر موضوع عودته إلى حجرة النوم بالطابق الأعلى، حتى وإن صارت لديه القدرة على صعود السلم. كان الفارق بين الموقفين أنه لم يكن يرغب في العودة إلى المكتب على وجه التحديد.

فقدان «هيروكو» وعيها في اليوم الثاني لوصولها دلهي هو فقط ما أعاد «جيمس» إلى فراش الزوجية أخيرًا؛ إذ اضطرا إلى نقلها إلى حجرة بالطابق الأرضي فطلبتْ «إليزابيث» من «لالا باكش» نقل أشياء «جيمس» إلى «الطابق الأعلى». كانت الأوامر مبهمة بما يكفي ليتساءل «جيمس» عما إذا كانت تعني «حجرة الضيوف بالطابق الأعلى»، إلا أن «لالا باكش» لم يفسرها على هذا النحو، مما جعل «جيمس» يشعر بكثير من الراحة. في ليلتهما الأولى على فراش واحد بعد بعاد زاد على شهرين، بدا من المستبعد تمامًا أن يفعلا شيئًا غير ممارسة الحب، لكنه كان مربكًا وغير مُرض، وزاده سوءًا أن ربت «جيمس» على رأس «إليزابيث» قبل أن يستدير عنها، ويحتضن وسادته مثلما كان، منذ وقت طويل، يحتضن زوجته. أفاق في منتصف الليل ليجد جسده يتألم من متطلباته، فقام بتلبية احتياجاته، بأهدأ ما يمكن، وهو يفكر في «إليزابيث»، لكنها ـ وكانت لا تزال راقدة بجواره مستيقظة لا تتحرك ـ مقتنعة أن الأمر لم يكن كذلك.

علّقت «إليزابيث» ذراعها في ذراع «هيروكو» وهما تبتعدان عن الفوانيس والمشاعل. قبل ذلك بقليل وسيارة «جيمس» الـ«بنتلي» تقترب من أطلال «حوض خاص»، راع «إليزابيث» مدى بلادة شعورها حين تأتي بـ«هيروكو» إلى مكان كهذا، تذكرت أن الزمن والإهمال هما السببان الوحيدان لمثل هذا الخراب. إننا نميل لتسريع إيقاع كل شيء في حداثتنا، فكّرت، حتى الخراب. بيد أن «هيروكو» جالت بنظرها بدهشة على الأطلال تحت ضوء

القمر، وخرجت من السيارة الـ«بنتلي» متجهة إلى ضوء المشعل، كما لو أنها تدخل في حكاية من حكايات الجنيات.

قالت «إليزابيث» وهي تجلس على السطح العلوي لبناء حجري صغير تعلو أعمدته قبة: «أنسى أحيانًا سحر دلهي، ثم تأتي ليلة كهذه، فأكاد أصدق أني سأشتاق إلى هذا المكان حين ينتهي هذا كله».

جلست «هيروكو» بجوارها.

«ألا تبالين إذن؟ على البريطانيين أن يرحلوا!»

ضحكت «إليزابيث» بهدوء.

«سأخبرك بشيء لم أخبر به أحدًا قط، ولا حتى «جيمس». تجعلني الإمبراطورية البريطانية أشعر أنني....» رمقت «هيروكو» بنظرة كأنها تزن مقدار الثقة التي يمكنها منحها لها، ثم قررت، «ألمانية جدًّا.» مدَّت يدها في الحقيبة الفضية الصغيرة المعلقة بمعصمها وسحبت سيجارة.

قَبِلتْ «هيروكو» السيجارَة بابتسامة ساخرة. لم تكن «إليزابيث» تدخن، لكنها كانت تستمتع بشكل ما برؤية «هيروكو» تدخن أمام موكلي «جيمس» المتجهمين، مثلما كانت تستمتع بارتفاع حواجب طبقة الموظفين حين يرون «هيروكو» ببنطلونها القصير الأنيق الذي جلبته معها من طوكيو.

مالت «هيروكو» إلى الخلف واتكأت بمرفقها على الأرضية الحجرية وعقدت ساقيها عند الكاحلين. لقد عاشت في طوكيو، باختصار، الحياة التي أرادت أن تعيشها ـ حياة «الفتاة العصرية» في الأربعينيات، نوادي موسيقى الجاز والسجائر ـ ولم تكن تنفق ما تكسبه من أعمال الترجمة إلا على نفسها. وقد استمتعت بها بعض الوقت. توافق الآن على الخروج أحيانًا ـ لتظل

فقط برفقة «إليزابيث» ـ إلى تلك التجمعات بقواعدها السلوكية المعقدة التي علمت أن بوسعها الاستهانة بها، لكن فقط بدرجة لا تسبب إحراجًا لـ«جيمس برتون». كانت أسعد كثيرًا وهي راقدة على الأريكة في «بنجل أوه». تحل تمارين الأردية التي حددها لها سجاد أو تقرأ كتابًا من مكتبة «برتون».

«افترضْتُ دائمًا أني أعرف لماذا كان «كونراد» شغوفًا إلى هذا الحد باكتشاف كل ما يمكنه اكتشافه عن حياة الأوروبيين واليابانيين في ناجازاكي.» يمكنها الآن التحدث عن «كونراد» مع أخته من دون ارتباك، على الرغم من عدم تخلص «جيمس» كليةً من هلعه الذي يوحي بأنه يتوقع عرض ميلودراما شرقية في غرفة معيشته كلما ذكرت شقيق زوجته. «كان يصر تمامًا على رؤية نمط من الناس يتحرك بعضهم في اتجاه بعض؛ لهذا ظل يقوم بأبحاث لكتابه من دون أن يكتبه، أتعرفين؟ كان في انتظار أن تنتهي الحرب ويعود الأجانب ويمنحوه نهاية منتصرة. ظن أن الحرب مجرد انقطاع، وليست نهاية القصة.» عادت تنظر في اتجاه الظلال المرتعشة فوق الحصى، وتنفث دخان سيجارتها. «ظننْتُ دائمًا أن شغفه ينبع من حاجته إلى الإيمان بعالم منفصل ما أمكن عن ألمانيا «قوانين حماية الدم الألماني والشرف الألماني».» ضحكت بلا رغبة. «تخيلي الأمل في العثور على ذلك العالم المنفصل في اليابان.»

«والآن؟ تظنين أن هناك سببًا آخر؟»

«نعم يا «إلزي»، أنتِ.»

«أوه!» هزت «إليزابيث» رأسها، وأتت بإيماءة إنكار مرتبكة. «لم أكن أي شيء في حياة «كونراد». لقد أرسلتني والدته ـ زوجة أبي ـ إلى مدرسة داخلية بإنجلترا قبل أن يولد. وكنت أقضي معظم عطلاتي مع أسرة والدتي في لندن. أنا و«كونراد» كنا غريبين، أحدنا عن الآخر.»

أومأت «هيروكو» بسرعة. سيكون قاسيًا جدًّا أن تقول إن «كونراد» كان يبحث في ناجازاكي عن عالم لا يكونان غرباء فيه، عالم يمكنه فيه أن يصل إلى دلهي؛ ليرى الأخت التي كبر أخيرًا بما يكفي ليعرفها ندًّا له، ولا يجد مشكلة في لغته الألمانية ولغتها الإنجليزية.

قالت «إليزابيث» ببطء: «لا أفتقده بالمرة، وحتى مع ذلك، حين جئتِ إلينا أول مرة، وقبل أن أراكِ، كانت ثمة لحظة ظننت فيها أن «كونراد» هو الذي أتى. وشعرْتُ...» ضغطت بأصابعها على جزء فوق قلبها مباشرة: «بفرح عميق للغاية لا أعرف مصدره». كذلك لم تكن تعلم مصدر كل هذا الجنون البائس عقب كارثة موت «كونراد»، حين كانت تذهب إلى «جيمس» ليلة بعد أخرى، ليس حزنًا على أخيها، بل لحاجتها إلى تأكيد ما على وجودها المادي؛ كانت لحمًا، كانت دمًا، لم تكن ظلًّا. لكن لحظة النشوة كانت ملاذها الوحيد، وكانت تبدو مثل لحظات التلاشي. أكان ذلك سخرية، أم مجرد شكل آخر من قسوة الحياة؟

نقلتْ «هيروكو» نظرها من «إليزابيث» إلى الرجال والنساء الذين يتسكعون ببطانيات النزهة، بينما يرفرف بغموض بينهم النُّدُل الهنود والفراشات، وهم يدعون أولئك ويبعدون تلك بحركة يد انسيابية. وكان كمران علي يتحدث، بأرديته المكسرة ذات اللكنة الإنجليزية، إلى نادل هندي. كل شيء هنا شنيع - نظرت إلى «إليزابيث» سريعًا - وحزين. ومع ذلك، إنها هنا وليس هناك مكان آخر تذهب إليه. هل يجعلها هذا شنيعة، أم فقط حزينة؟ في كلتا الحالتين عليها أن تفعل شيئًا حيال هذا - شيئًا! - للخروج من الإحساس بالمؤقت الذي يرافق كل لحظة ما عدا تلك اللحظات التي قضتها مع سجاد في شرفة «آل برتون» حين تتكشف لها أسرار لغة جديدة.

لف الخادم من الخلف ليقول إن السيد «برتون» يطلب من زوجته الانضمام إليه، فأدارت «إليزابيث» عينيها ونهضت.

قالت «هيروكو»: «كنتِ ستحبين «كونراد». لو تزوجْتُه، لضمنْتُ أن يحب أحدكما الآخر.»

مست «إليزابيث» شعر «هيروكو» برفق.

«ليس لديَّ شك في هذا. ولأنني لم أقل ذلك من قبل قط؛ كان عليَّ أن أقوله. أشعرُ بأسف شديد على كل ما فقدْتِ.»

عادتا معًا للتجمع حول النار، من دون أن تلحظ إحداهما أنهما ظلتا تتحدثان بالألمانية ما إن ذكرت «هيروكو» «كونراد»، وكان هذا يشبه مشاركة أكثر الأسرار حميمية.

٥

«ثم قالت ابنة أخي «سيكندار»...»

«أية واحدة؟ «رابيا بانو» أم شيرين؟»

«قالت شيرين..»

أغلقت «إليزابيث» الأبواب الخشبية الشبكية التي تؤدي من غرفة الجلوس إلى الشرفة؛ لتكتم صوت محادثة «هيروكو» وسجاد بالأردية. لم تكن ستة أسابيع من الدروس اليومية كافية لتجعل «هيروكو» محاورة جيدة هكذا، فكرت «إليزابيث» وسمحت لنفسها بأن تشعر بالحزن من الولع الذي تقضي به «هيروكو» أيامها، وهي تمرر سبابتها على الكتابة المتعرجة لقوائم المترادفات، وكتب الأطفال التي استخدمها «هنري» من قبل في دروسه مع سجاد.

جلست إلى طاولة الكتابة الخاصة بها وأقرت بتذمر، وهي تجدل شعرها إلى أعلى لترفع ثقله عن عنقها، أن من الحماقة سد منفذ النسيم الوحيد. كان على سطح الطاولة ورقتان من أوراق الخطابات، خط على كل منهما كلمتان بالحبر.

«العزيز «هنري»...»

«ويلي، «ليبلينج»...»

ثم تركت شعرها يسقط ليستقر مكانه، وخطرت لها سريعًا فكرة تقليد قَصة شعر «هيروكو». أمسكت قلمها ووجهته للخطاب الثاني. «ويلي» ـ ابن العم «ويلهلم» ـ الوحيد من أقاربها الألمان الذي شعرت تجاهه حقًّا بصلة قرابة. وربما يرجع ذلك، جزئيًّا، إلى أنه تفهم ـ بسبب ميله إلى الشبان الصغار المتأنقين ـ الإحساس بأن تكون دخيلًا في جماعة «فايس». ظنَّتْ أنه توفي في بداية الحرب ودُفن مع آخرين من ذوي «القناعة الوايلدية» ـ بتعبيره، وليس بتعبيرها. اكتشفتْ عام ٤٥ فقط أنه يعمل في مترو الأنفاق بألمانيا، يساعد اليهود والشواذ على الهروب من النازي، وأنه هاجر في نهاية الحرب إلى نيويورك. وقد كتب الآن ليخبرها أنها أجمل مدينة في العالم، ولا ينقصها سوى حضورها.

انقضَّت بالقلم كأنه انفجر بدفقة عزم كبير، ثم ـ وقبل أن يمس سنه الورقة ـ انحرف إلى الخطاب الآخر.

«العزيز «هنري»...»

ضغطت السن على الصفحة وكتبتْ بحزم:

«ستأتي بالطبع إلى الوطن هذا الصيف. نعم، ثمة متاعب في البنجاب، لكن دلهي آمنة تمامًا، و«مَسوري» في سلام كما كانت دائمًا. ينبغي حقًّا ألا تقلق جدتك كثيرًا بهذا الشأن.

والدك يتفاخر أمام الجميع بأهدافك في البولينج. يسعدنا نحن الاثنين سماع أخبار نجاحك المستمر.»

توقفت ووضعت القلم. لماذا كلما استقر المقام بـ«هنري» في المدرسة الداخلية صارت خطاباته لها أكثر رسمية، وخطاباتها له، هل صارت كذلك؟ ولماذا وافقت «جيمس» من الأصل على إرساله إلى مدرسة داخلية بإنجلترا؟ أبعدت ناموسة بيدها التي تمسك بالقلم، فظهرت بقعة حبر على الحائط قبالتها. ندوب ذوي الدماء الزرقاء، فكرت وهي تحرك صورة «هنري» في الإطار لتواري البقعة.

هذا هو المتَّبَع. ذلك ما كان يقوله «جيمس» في بداية أي نقاش حول «هنري» والمدرسة الداخلية وفي نهايته. لكنها في نهاية الأمر لديها أسبابها الخاصة للموافقة على إرساله بعيدًا عنها. كانت النهاية المعتمة للإمبراطورية تعني أنه سيكون عليهم جميعًا مغادرة الهند قريبًا، وكان الأفضل لها أن تفطم «هنري» بعيدًا عنها بأن يقضي الصيف في الهند وبقية العام في إنجلترا، من أن تمزق الرابطة بحركة مفاجئة واحدة. نظرت سريعًا نحو الباب الشبكي. ما زال يوغر صدرها أن ابنها حين حان وقت رحيله ألقى بذراعيه حول سجاد وبكى قائلًا: «سأفتقدك أكثر من أي أحد». ومع ذلك سخف من «جيمس» أن يصر على أن غيرتها على ابنها هي ما يجعلها تكره سجادًا - لقد كرهته من البداية. غريزة، هذا كل ما في الأمر.

«ألا يزال الدرس مستمرًّا؟»

دخل عطر ما بعد الحلاقة الخاص بـ«برتون»، ثم تبعه الرجل نفسه.

«حسنًا، إنهما في الخارج يتحدثان بالأردية. لا أعلم هل هو درس، أم مجرد دردشة. لقد جرحت نفسك وأنت تحلق ذقنك.»

مس «جيميس» الجرح على فكه بإصبعه قائلًا: «همممم... يبدو أنهما يبدآن مبكرًا عن المعتاد ويستمران إلى وقت متأخر يومًا بعد يوم.»

جعله الجمع بين نقطة الدم ونظرة الاستياء يبدو هشًّا على نحو غير عادي. استدارت «إليزابيث» ونهضتْ من فوق كرسيها وسارت ناحيته، تشعر بكلمة «زوجة» تنزلق حول كتفيها مع لمسات رقيقة.

«أنت رب عمله، تعرف هذا. لديك كل الحق لتخبره أن كنت غير راضٍ عن كيفية قضائه للوقت.» مررت إصبعها على فكه لتمسح الدم، ثم ـ وعفويًّا تقريبًا ـ وضعتْ إصبعها في فمها.

«مصاصة دماء»، قال «جيمس» مبتسمًا فأضاء الجو بينهما كما لم يحدث منذ مدة طويلة.

نظرت «إليزابيث» إلى فكه. كانت نقطة الدم لا تزال هناك، لوهلة كان كل ما تريد أن تميل عليه وتمس جلده بفمها لتشعر بالوخز الخفيف في شفتيها وتسمعه يتنهد برضا وارتياح، كما اعتاد أن يفعل في بدايات الزواج حين كانت أي بادرة رغبة جسدية من «إليزابيث» إشارة منها على انتهاء أي مشاجرات بينهما مهما تكن، لكنه كان بالفعل يزيل ما تبقى من الدم، وقد تجاوزها لينظر سريعًا في الخطابات على مكتبها.

«ويلي، «ليبلينج»...»

مرر «جيمس» أصابعه أسفل صيغة التحبب، يقتم لون الورقة حيث لمسها بيدين لم يجفَّا تمامًا بعد الحلاقة. بدت «ليبلينج» كأن أسفلها خط فصعقتهما وكأنها اتهام. اعتادت أن تدعوه به؛ وقت كانت الألمانية لغتها الحميمة. أي منهما غادرت أولًا، تساءل، الألمانية أم الحميمية؟ كيف لا يعرف؟

قال فجأة: «هل ستبقى «هيروكو» معنا إلى أجل غير مسمى؟».

«اخفض صوتك يا «جيمس»!»

«لا أقصد أني أريدها أن تذهب.» التقط الأقلام من حامل الأقلام، واحدًا بعد الآخر، ثم وضعها مكانها ثانية. عليه حقًّا أن يكتب خطابًا إلى «هنري»، لكن خطابات «إليزابيث» التفصيلية التي ترسلها أسبوعيًّا لابنهما لم تترك له شيئًا ليضيفه. «واضح أنك تستمتعين بوجودها.»

«ألسْتَ كذلك؟»

«لا. أستمتع. لم يعد المنزل يبدو خاليًا جدًّا.»

لمس «جيمس» البقعة الزرقاء على الحائط، خلف صورة «هنري» تمامًا، وأصدر صوتًا حادًّا ينم عن الاستنكار حين انتقل الحبر إلى يده. بأمانة، «إليزابيث»، لقد طُلي الحائط لتوه. فهم من التغير المحسوس في وقفتها أنها على أهبة الاستعداد لشجار آخر، وكان مجرد التفكير في هذا يرهقه.

«أسألُ فقط ماذا عليَّ أن أفعل... أو نفعل من أجل «هيروكو». هل نعرفها على شباب؟ بريطانيين، أو هنود؟ المسألة اليابانية كلها تجعل الأمر صعبًا بعض الشيء. هل نبحث عن يابانيين في مكان ما في دلهي؟»

«لا تبدو مهتمة كثيرًا بهذا. ذكرْتُ الأمر لها ذات مرة فقالت: لقد وصمتني القنبلة بالعنوسة.»

«ماذا من المفترض أن يعني هذا؟»

«أوه! «جيمس». لا تكن مغفلًا هكذا. لا يزال رأسها مليئًا بأحلام عن «كونراد». لا يمكن لأحد منافسته.»

«هذا أكثر مما ظننا بالنسبة إلى «كونراد»، أليس كذلك؟»

«نعم، أظن أن «كونراد» كان له أكثر بكثير مما كنا نظن.»

جلست إلى طاولة الكتابة ثانيةً وجلس «جيمس» على الأريكة التي تتيح له النظر إلى جانب وجهها وهي تكتب، وهو ينادي على «لالا باكش».

تناهى صوته إلى سمعي سجاد و«هيروكو» في الخارج.

«وقت الشطرنج؟» قالت «هيروكو» فوضع سجاد إصبعًا على شفتيه وهز رأسه بتواطؤ وقال مبتسمًا: «نحن في منتصف دور يعرف أنه سيخسره، لا أظنه يتعجل استئنافه مطلقًا.» حاولت «هيروكو» أن تبتسم بالفعل، لكن ابتسامتها تخونها، وتولد بالكاد، فلم ير سجاد سوى رعشة شفتيها. نظر إليها بقلق. ثمة خطب ما اليوم. ظل طوال الصباح يشغلها بقصصه لكنها ظلت تجيبه من باب الذوق.

نظرت «هيروكو» إلى الأبواب المغلقة المؤدية إلى البيت.

«عيد ميلاد «كونراد» اليوم، سجاد، وهي لا تعرف هذا حتى.»

لم يعرف سجاد قط كيف يفتح معها مسألة ناجازاكي و«كونراد»، مع أنه كلما طال الوقت الذي يقضيه معها تمنى أن يجد طريقة ليخبرها أنه لا يجوز أن يتحمل أحد في العالم هذا الأسى، وخصوصًا امرأة جديرة بالسعادة مثلها.

قال سجاد: «هل أخبرُكِ كيف التقينا؟ نعم؟ في ديلي، في ١٩٣٧، في الصيف، والجو حار جدًّا. الشمس متوهجة بهذه المدينة في الصيف ـ ترغب في أن تمتص كل جمالها لنفسها، فتظل تلاحق الجميع لتطردهم منها. الأغنياء إلى أكواخهم على التلة، وبقيتنا إلى حجرات معتمة، أو تحت الأشجار حيث يحد الظل من نطاق سيطرة الشمس. كنت في طريقي إلى محل الخط حيث ينتظرني إخوتي. ثم رأيت رجلًا إنجليزيًّا. في ديلي. في حيي. ليس في سوق «شاندني شوك» ولا عند القلعة، بل يتجول في الشوارع المحفوفة بمداخل البيوت.»

«ليس رجلًا إنجليزيًّا. «كونراد»!» مالت «هيروكو» إلى الأمام ووضعت خدها على راحة يدها، في إشارة إلى وضوح الأمر.

«نعم. لم أكن قد تحدثت مع رجل إنجليزي قط، ولا حتى فكرت في الأمر، لكن شيئًا ما في وجه هذا الرجل جعلني أذهب إليه. كان يقف على جانب الطريق، يتنسم الهواء. كان الجو صيفًا والهواء معبق برائحة المانجو. قلت له: «هل ضللت الطريق يا صاحبي؟» لم يفهم أني كنت أتحدث الإنجليزية، فكررت له. فقال، ببطء شديد كأنه يظن أني سأجد في لكنته صعوبة بقدر ما وجد في لكنتي: «هل تفسر لي سبب هذه الرائحة؟» لم أدرك ماذا يعني، إذ لم يخطر ببالي قط أنه لا يعرف رائحة المانجو. خمَّنْتُ أنه يبحث عن قصة. فقلت له: «مر إله من هنا فانتشرت رائحة عرقه.» رفع يده مصافحًا وهزَّ يدي قائلًا: «هذا أفضل ما سمعْتُ منذ وصلْتُ دلهي. أنا «كونراد».» ببساطة هكذا. «أنا «كونراد».» فلم أذهب إلى محل الخط قط. ظللنا طوال النهار نسير في شوارع دلهي نتحدى الشمس، وأحضرني آخر النهار إلى هنا وطلب من السيد «برتون» أن يجد لي عملًا. وهذه هي حياتي الآن. أنا هنا الآن، في هذا المكان، أتحدث معك لأن «كونراد فايس» أحب تفسيري لرائحة المانجو.» أنهى حديثه قلقًا من أن تكون القصة عنه هو، أكثر مما هي عن «كونراد». لكن «هيروكو» ابتسمتْ أخيرًا، فأحس بالنصر.

قال سجاد بحرص لئلا يتجاوز أي حدود أو يبدو متحذلقًا: «علمني في الأيام القليلة التي قضيناها معًا هنا كيف أنظر إلى الأشياء من منظور مختلف. كيف ألاحظ العالم. كان يعي الجمال تمامًا. فقط كان بودي أن أقول هذا منذ توفي، ولم تسنح لي الفرصة قط لأقوله لـ«آل برتون».» خفض رأسه ولم ينظر إليها وهو يقول: «يسرني أنك هنا.» وأضاف سريعًا: «لأقول لك هذا عن مستر «كونراد».»

نهضت «هيروكو» وسارت إلى حافة الشرفة، أمسكت بشجيرة مزهرة وشدتها إليها، وهي تستنشق الرائحة الحادة لبراعمها التي لم تزهر بعد. لم يستطع سجاد إرغام نفسه على أن يبعد نظره عنها على الرغم من علمه أن هذا ليس وقته.

قالت بنعومة شديدة حتى ظن سجاد أن الكلمات جاءت مع النسيم من مكان ناءٍ: «ما زلت أستيقظ أحيانًا وأنا أحسب الوقت الذي تركني فيه، سرعة سيره، المسافة إلى الكاتدرائية. النتيجة دائمًا واحدة. كان في الكاتدرائية أو قريبًا منها جدًّا وقت سقوط القنبلة. أتعرف، لم يتبقَّ ممن كانوا في الكاتدرائية سوى مسابح ذائبة. كان مركز الانفجار على مسافة أقل من خمسمائة متر منها. لكن لا أظن أن «كونراد» كان بالداخل، أظنه كان على بعد دقيقة أو اثنتين منها. وجدت صخرة عليها ظل. هل تعرف الظلال سجاد؟» لم تنظر إلى الخلف لتراه يومئ أو لترى أشكال الحبر التي ينظر إليها في الصفحة وهي تصير ضبابية أمام ناظريه.

كان يتذكر حين سار معه «كونراد فايس» في هذه الحديقة وأخبره بأسماء الأزهار، وشرح له أيها يجذب الطيور برائحته، وأيها يجذبها بلونه.

«الأقرب من مركز الانفجار تلاشوا تمامًا، بقيت فقط دهون أجسادهم ملتصقة بالجدران والحجارة حولهم مثل ظلال. حلمْتُ ذات ليلة، بعد الانفجار بوقت قصير، أنني كنت في موكب من الذين فقدوا أحباءهم، نسير عبر وادي «أوراكامي»، يحاول كل منا تحديد ظل من فقده. ذهبت في الصباح التالي إلى الوادي، وكان الوادي الذي تحدث عنه قس «أوراكامي» وهو يدرِّس لي الكتاب المقدس؛ وادي الموت. لم يكن هناك دليل على وجود آلهة، لا رائحة مانجو، يا سجاد، رائحة حريق فقط. لأيام ـ لا لأسابيع ـ بعد القنبلة ولم تزل رائحة الحريق. سِرتُ فيه أبحث عن ظل «كونراد» ـ صعقتني

تلك الأشجار ذات الزوايا الغريبة أعلى الأحجار الذائبة أكثر مما صعقني أي شيء. وجدْتُه. أو وجدْتُ شيئًا ما رأيت أنه ظله. كان على صخرة. كم كان نحيفًا. أرسلت إلى «يوشي واتانابي» ودحرجنا الصخرة معًا حتى المقبرة الدولية...» ضغطت يدها على عمودها الفقري إثر الذكرى. «ودفنَّاها.»

قطفت ثمرة خضراء من الشجرة ودوَّرتها بين أصابعها. لم يسعها أن تخبر أحدًا، حتى هذا الرجل بعينيه الطيبتين وتمييزه لرائحة الآلهة، كيف تركها «يوشي» مع الحجر لدقائق قليلة ريثما يجلب أدوات للحفر، فرقدت على ظل «كونراد» وفمها يضغط على ظلمة صدره. «لماذا لم تبق؟» همست للحجر الصلب.

«لماذا لم تبق؟» ضغطت الثمرة بين شفتيها. «لماذا لم أطلب منك مرة أخرى فقط أن تبقى؟»

نهض سجاد بهدوء وسار إليها.

«ثمة جملة سمعتها بالإنجليزية: اترك الآخرين وشأنهم. لا يوجد لها معادل في الأردية. لأن الأردية لا تفهم سوى أن نتجمع حول المصاب حتى نصير «غوم ـ خور» ـ آكلي الحزن ـ الذين يلتهمون حزن المصاب. فهل تودين الآن أن أكون بالإنجليزية أم بالأردية؟»

كانت ثمة لحظة تردد، ثم قالت: «هذه حصة أردية، «سينسي»». وعادت لتجلس إلى طاولة البريدج، مستعدة بالقلم لتكتب كلمة: «غوم ـ خور».

٦

نظرت «إليزابيث» على امتداد الأرض الترابية المحيطة بصرح «قطب منار» العالي على نحو يصيب بالدوار والذي كان «جيمس» و«هيروكو» يسيران حوله يتفحصان الحجارة الرملية، المزخرفة بالتجاويف، في صرح البرج. تمنت لو أنها لم تصرح بأن المبنى «ليس متقنًا»، وأصرت على الانتظار أسفل السلم المشيد على أعمدة القائم بين أطلال صرح قطب منار، بينما يستكشف الآخران العمود المستدق. وتمنت بحنق أكبر لو لم يتطوع سجاد بالانتظار مع مسز «برتون». من شأنه أن يكون مهذَّبًا جدًّا بشكل لا يقبل الخطأ بخصوص حقيقة أنه ليس من الحكمة ولا من المناسب أن تقف مسز «برتون» وحدها بينما تركض الكلاب الضالة بين الأطلال ويمر بها الغرباء. ومع ذلك، وبصراحة، من ذا الذي يزعم أن وجود رجل مسلم معها، مع كل هذا العنف المجتمعي بجوارهم مباشرة في البنجاب وتسريباته المتقطعة إلى دلهي، لن يؤدي في ذاته إلى مواقف خطيرة؟ شعرت بتوتر، فجالت بنظرها في المكان حولها بحثًا عن مخبأ، توقعت فجأة أن ترى مجموعة من الهندوس أو السيخ المسلحين يندفعون ناحية سجاد. لكن لم يكن هناك أحد، ولا حتى كلاب. ذلك الحمام الذي لا مفر منه فقط.

مرت براحة يدها على عنقها وأبعدتها وهي تلمع. كان عليهم أن ينتقلوا قريبًا إلى «مَسوري» لقضاء الصيف. من الصعب تخيل «مَسوري» من دون «هنري» ـ فقد قررا، على الرغم من كل شيء، أن الأفضل له أن يقضي العطلة في إنجلترا نتيجة الغموض الذي كانت عليه الأمور في الهند. تعمَّق شعورها بالحنق. لماذا بحق السماء كانوا هنا؟ خطة ما لم تعرف عنها شيئًا إلا حين أيقظها «جيمس» قائلًا: «سنذهب في نزهة. ارتدي ملابسك؛ سيصل سجاد سريعًا». أغاظها استبعادها من التخطيط، واغتاظت أكثر حين هبطت إلى الطابق السفلي فوجدت «هيروكو» جالسة على السلم المؤدي إلى الحديقة، تسند على أصيص زرع ترك بقعة حمراء على ثوبها، وكان في الحقيقة ثوب «إليزابيث»، كم مرة نبهت «هيروكو» ألا تفعل هذا تحديدًا؟

شعرت برذاذ ماء حول كاحليها فرفعت نظرها لتجد سجادًا أمامها يؤرجح ذراعه من جانب إلى آخر، وهو يمسك في يده بزجاجة يسد كل فوهتها بإبهامه ما عدا جزءًا صغيرًا.

«ماذا تفعل بحق الرب؟»

«هذا سيرطب الهواء من حولك.»

«أوه!» كانت رائحة الماء في ذاتها، وهو يضرب الأرض، تسبب شعورًا بالراحة. «شكرًا.»

«على الرحب والسعة.» وعاد ينثر رذاذ الماء على الأرض.

«لماذا نحن هنا سجاد؟ الشتاء وقت قطب منار، وليس إبريل. وإن كان بود «هيروكو» أن تذهب إلى مزارات سياحية فهناك بالتأكيد أماكن داخلية أهدأ، ومناسبة أكثر.»

كان سجاد يعرف أنه لا يمكن أن يخبرها بالحقيقة، وخصوصًا أنه كان واضحًا أن زوجها لا يريد ذلك. في اليوم السابق، قالت «هيروكو» والدرس على وشك الانتهاء: «بودي أن أرى دلهي الخاصة بك يا سجاد، هل تأخذني هناك ذات يوم؟».

لو قالتها بالأردية، لا يعرف ـ لا يمكنه تخيل هذا الآن ـ كيف كان سيجيبها. لكنها كانت بالإنجليزية، وكان «جيمس برتون» يخرج إلى الشرفة في الوقت نفسه فسمعها، فما كان منه سوى أن غمغم بشيء ما عن أن وقت الشطرنج حان، وأنه يأمل أن تكون هذه نهاية المحادثة.

لكن «جيمس» قال بعد هذا: «قطب منار. لقد أصررت مرة أن لك فيه علاقات عائلية قديمة، أليس كذلك؟ حسنًا، هذه دلهي الخاصة بك إذن، أليس كذلك؟ سنأخذها إلى هناك».

لم يقل سجاد لـ«إليزابيث» سوى: «أخشى أن يكون خطئي يا سيدة «برتون». ظننْتُ أنها قد تستمتع برؤية ما تبقى من أسلافي في دلهي».

تأكدت «إلزي فايس» ـ التي تربَّت على حكايات جدتها عن الأشباح ـ من حضورها، ونظرت حولها بذعر واستثارة معًا، تبحث عن أرواح أسلاف سجاد تجوس بين الأطلال.

قال سجاد من دون تهكم: «لا أعني ما تبقى منهم حرفيًّا. كان أسلافي جنودًا في جيوش المماليك ـ أعتقد أن مؤرخيكم الإنجليز يدعونهم «ملوك المماليك». قطب منار هي أعظم أثر تبقى من هؤلاء الملوك».

دهمتها الحيرة على الرغم منها: «ملوك المماليك؟ أظن أنهم لم يكونوا مماليك حقًّا».

«أوه! نعم. كانوا أول أسرة حاكمة في سلطنة دلهي. في القرن الثالث عشر بالتقويم المسيحي، أول حاكم كان قطب الدين أيبك، الذي سميت قطب منار تيمنًا باسمه ـ كان مملوكًا ارتقى لرتبة لواء ـ وخلفه زوج ابنته «التتمش»، الذي كان مملوكًا هو الآخر. دُفِن هناك.» أشار بيده إلى مكان ما خلف حطام المسجد الكبير. وأدهشه وهو يلوح بيده أن خطر له أن هذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر ـ أن يقوم هو، الهندي، بتعريف الإنجليز بالتاريخ الهندي، الذي هو تاريخه وليس تاريخهم. كان خاطرًا مفاجئًا، وجعله شيء ما فيه يضطرب. كان يظن أن العالم قد يتغير من حوله لكن حياته الخاصة ستظل بعيدة عن التأثر به.

قالت «إليزابيث» وعيناها تتبعان فراشة باهتة الجناحين حلقت بعيدًا عن الأعمدة الحجرية لتخرج، ثم ترنحت عائدة إذ غلبها الحر: «الهند وكل من غزاها. كيف نعود كلنا الآن إلى تلك الجزيرة الصغيرة وأنت الآن تنبذيننا؟ إنجلترا صغيرة جدًا، صغيرة للغاية. من عدة أوجه.»

نظر سجاد إلى «إليزابيث» وهي تستند على عمود، وجسدها يميل باتجاه الشخصين القريبين من قطب منار. لمن كانت تنظر بذلك الحزن؟ إلى «جيمس» أم إلى «هيروكو»؟ أمْ تراها تفكر في ابنها أيضًا؟ فكر لحظة في «هنري برتون» وتنهد. لم يكن يدرك أنه يتشوق إلى عودة الصبي إلى أن ذكر «جيمس» ـ عرضًا، كما لو لم يكن الأمر مهمًّا لسجاد ـ أن «هنري» سيبقى في إنجلترا هذا الصيف. سيدمرها هذا، فكَّر سجاد وهو ينظر إلى «إليزابيث برتون»، وقد حمَّلتْه جملتها «وأنت تنبذيننا» بشعور بالمسؤولية والسلطة سمح له، مرة، أن يخاطبها في لحظة تبدو فيها مشغولة البال بأمور أخرى.

«في الحقيقة، قصة أسرة المماليك التي أحبها أكثر من أي قصة أخرى هي قصة السلطانة راضية، ابنة «التتمش».»

«قصة حب مأسوية؟» بدا في نبرة «إليزابيث» امتنانًا ما لإخراجها من تأملاتها في المغزى الرمزي للأرض الخراب التي ملأت الفضاء بينها وبين «جيمس».

«للنساء أدوار في قصص من نوع آخر»، قال سجاد وينبوع خطوط ينفجر على جانبي عينيه وهو يبتسم. أشارت له أن يأتي ويقف في الردهة معها بعيدًا عن الشمس، فقبل بإيماءة شكر. لم يكن هذا الود المفاجئ متوقَّعًا، لكنه على الرحب والسعة. «لا. كانت السلطانة راضية أكثر أولاد «التتمش» قدرة، أكثر بكثير من أي من أولاده الصبيان، فجعلها خليفته على العرش. بالطبع قام أحد أولاده الصبيان بالاستيلاء على العرش بعد مماته، لكن سرعان ما انتصرت عليه راضية. كانت امرأة مذهلة. إدارية مذهلة، ومحاربة عتيدة.» ثم أضاف على استحياء تقريبًا: «إن رُزقت بابنة سأسميها راضية».

كانت لحظة حميمة مفاجئة. وسمحت «إليزابيث» بأن تطول بقدر خفقة قلب في الهواء بينهما، ثم أشارت برأسها ناحية «جيمس» و«هيروكو».

«دعنا نلحق بهذين الاثنين. بوسعك أن تعطينا كلنا درسًا عن تاريخ البرج.»

«المنارة.»

«هذا هو الدرس الأول. هل تعرف أني جئت إلى هنا أكثر من عشر مرات، لكني لم أعرف قط أي شيء عمن شيده ولماذا.»

«تاريخي أرض نزهتك»، علّق سجاد بلا اتهام، بل بسخرية فقط، أجابتها هي بابتسامة.

راقب «جيمس» بارتياح «إليزابيث» وسجادًا يسيران نحوهما. كانت «هيروكو» تتصرف بغرابة شديدة؛ كاد يظن أنه أزعجها بشكل ما؛ إذ خطط

لتلك الرحلة المفاجئة، ورافقها بنفسه من دون الاثنين الآخرين؛ ليشير لها شخصيًّا إلى الأماكن المهمة في منار قطب. وها هي لم تتجول في البرج العظيم بقدر ما طافت حوله. حين جاءت إلى المنزل أول مرة تصوَّرها طيرًا جريحًا، لكنه يرى فيها الآن شيئًا وحشيًّا.

يجب أن أذهب بعيدًا، يجب أن أذهب بعيدًا، فكرت «هيروكو» وهي تطوف حول المنارة. إنها لا شيء في هذا العالم. كان ذلك واضحًا حينذاك. أن تكون «هيباكوشا» أفضل من أن تكون لا شيء. ليلة أمس، حين همس «جيمس برتون» لها: «غدًا صباحًا سنذهب جميعًا لنرى دلهي سجاد». شعرتْ بوجهها يتمدد في ابتسامة لم تبدُ ممكنة. لم يكن عالمه مغلقًا في وجه من هم من خارجه إذن! لم يكن «آل برتون» يأبون تمامًا أن يطأوا هندًا أخرى خارج الراج! وهي «هيروكو» من سرِّي «آل برتون» وسجادًا أنه لا حاجة بهم لوضع تلك الحواجز بين عالميهما. كان «كونراد» على حق في قوله إن الحواجز مصنوعة من معدن يمكن صهره حين يلمسه الناس من الجانبين بعفوية.

لكنها حين وصل سجاد على دراجته، ولم يكن ينظر إليها تحديدًا، عرفت أنه لن يأخذهم إلى حيِّه. وبدا أن «جيمس برتون» قد نسي تمامًا أن لهذه الرحلة صلة بسجاد وأخذ يسير معها في المزار بين مبانيه المهدمة، يشير إلى الأرض التي يفضلها لاعبو البولو، والأهمية المعدنية لعمود حديدي قديم.

كانت تشعر بذهنها ينأى بعيدًا عن النهاية التي لا مفر منها، والتي تعلم أنها سيكون عليها مواجهتها سريعًا: إن عليها أن تعود إلى اليابان.

قالت «إليزابيث» وهي تقف بجوار زوجها: «جيمس! هل كنت تعلم أن عائلة سجاد جاءت إلى هنا من تركيا منذ سبعة قرون مضت؟».

ابتسم «جيمس» لسجاد وقال: «فتى تركي، هل أنت كذلك؟».

قال سجاد إذ لم يفهم التلميح: «لا مستر «جيمس»، أنا هندي». وألقى نظرة خاطفة على «هيروكو» التي كانت تدير ظهرها إلى ثلاثتهم، ترنو ببصرها إلى الكتابة العربية على المنارة، كانت منزعجة، يعلم، لكن ماذا بوسعه أن يفعل حيال هذا؟ نظر إلى «جيمس» كأنه يفكر في شيء لم يخطر له من قبل قط وقال: «لماذا ظل الإنجليز إنجليزًا للغاية هكذا؟ على مدار تاريخ الهند جاء الغزاة من كل مكان ـ أتراك، عرب، هَن، مغول، فرس ـ فصاروا جميعًا هنودًا. إن نشأت باكستان هذه، وحين تنشأ، فسيكون المسلمون الذين يرحلون من دلهي أو من «لكناو» أو من حيدر آباد مهاجرين عن أوطانهم. لكن حين سيرحل الإنجليز، سيكونون عائدين إلى أوطانهم».

التفتت «هيروكو» إلى سجاد مندهشة ومنتبهة بشدة. كانت تتحدث معه عن اهتمام «كونراد» بالأجانب الذين اتخذوا ناجازاكي وطنًا، والآن ترى كلماتها تنفذ إلى أفكاره وتصير جزءًا من رؤيته للعالم.

««هنري» يعتبر الهند وطنه.» قالت «إليزابيث» إذ رأت كيف جُرح «جيمس» من هجوم سجاد غير المتوقع فأرادت أن تصده.

«نعم.» كان ثمة ضيق في نبرة سجاد. «إنه كذلك»، وأراد أن يقول: «لذلك أرسلتماه بعيدًا عنها». لكن الحس الهجومي الذي بدأه لخلق انطباع لدى «هيروكو» لم يعد مختلَقًا. تذكر جيدًا جدًّا يوم أن تلاشت معارضتها لفكرة إرساله إلى المدرسة الداخلية. كان يلعب كريكيت مع «هنري» في الحديقة حين خرجت «إليزابيث» وأخبرت ابنها أنه «يا له من رجل إنجليزي صغير»، فعبس «هنري» وتراجع ناحية سجاد قائلًا: «أنا هندي». في اليوم التالي أخبر «جيمس» سجادًا عن مدى راحته إذ قررت زوجته فجأة سحب كل اعتراضاتها «العاطفية» على إرسال «هنري» إلى المدرسة الداخلية.

«هل تريد أن تقول شيئًا يا سجاد؟»

«لا يا مستر «برتون». فقط لا أظن أنه سيظل يعتبرها هكذا وقتًا طويلًا.»

«وذلك أفضل»، قالت «إليزابيث» وهي تنظر حولها وتشعر بما يكاد يكون أسفًا، لأن أحفاد الإنجليز لن يأتوا إلى كنائس الهند البريطانية وآثارها بعد سبعة قرون من الآن ويقولوا هذا تاريخ عائلتي وتاريخ الهند قد سارا معًا في نفس المسار نهائيًّا وإلى الأبد.

«لماذا أفضل؟» كان صوت سجاد أقرب إلى الغضب من أي وقت. يصعب تحديد أيهما كان أكثر اندهاشًا من نبرته تلك، «إليزابيث» أم سجاد نفسه، بعد أن ظل ثماني سنوات يعتمد نبرة التهذيب المفرط سلاحًا في مواجهتها. مع ذلك كانا يدركان كلاهما أن ذلك لم يكن ليحدث لو لم تكن «هيروكو» تقف هناك، تعبث بكل البنى الهرمية.

«اثبت هنا.» قال «جيمس» بنبرة تحذير، فاحمر وجه سجاد بشدة ونظر بعيدًا بغمغمة اعتذار.

أرادت «إليزابيث» أن تمسك بسجاد من ياقته وتهزه قائلة: «لقد أجبروني على الرحيل من برلين وأنا أصغر منه؛ أنا الأعلم بهذا الألم. ماذا تعرف أنت عن الرحيل وقد عاشت عائلتك هنا قرونًا؟»، لكن كان تحت هذا الغضب شيء يشبه الألم الشديد. كنَّا بدأنا نتفق، هذا ما كان يكمن تحت الغضب.

«سجاد.» شدت «هيروكو» كم قميصه، وقد نسيت غضبها في غمرة رغبتها وقف ذلك الغضب الذي يعتمل بين هذين الاثنين الذين صارا يعنيان لها كثيرًا. «تعال. انظرْ، وجدت كلمة أعرفها.» أشارت إلى قطعة من الكتابة العربية المنقوشة على المنارة، واقترب سجاد ليرى ما كانت تشير إليه عن كثب فتلامس رأساهما الداكنان تقريبًا.

صُعقت «إليزابيث» من أريحية تقاربهما بقدر ما صُعق «لالا باكش» أول يوم جاءت فيه «هيروكو» إلى المنزل. رأت «إليزابيث» النظرة السريعة من سجاد إلى «هيروكو» وفهمت مغزاها بأكثر مما فهمه سجاد نفسه. لم تتوقف لتتساءل كيف تشعر «هيروكو» أو منذ متى وهذا يحدث، فقط عرفت أنها وجدت أخيرًا طريقة لتتخطى حاجز السحر والبرود الذي جعل سجاد علي أشرف يكسب جميع أفراد أسرتها في صفه، بينما ظل منيعًا دائمًا تجاه كل ما تقوله أو تفعله.

«كنت أنا وسجاد ندردش»، قالت «إليزابيث» بصوت عالٍ وهي تلف ذراعها حول خصر «جيمس» في محاولة للتظاهر بالاستهتار، فقفز إلى الخلف تقريبًا من المفاجأة. «كان يخبرني بالاسم الذي يفكر فيه لابنته الأولى.»

قبَّل «جيمس» جانب رأسها، تاركًا شفاهه تتريث، بينما يتنشق عطرها. غطى بأصابعه أصابعها على خصره حتى كادت تتخلى عن مقصدها، كادت تلتفت لتهمس له أن عليهما أن يعيدا التعرف على الفجوات المقوسة المحفورة داخل جدران الممرات حيث كانا أحيانًا، في أوقات أسعد من هذه، يزوغان من ألعاب البولو في الحقول المتاخمة هروبًا من الشمس والمتلصصين الآخرين. لكنها حينها سمعت سجادًا يقول شيئًا ما بالأردية جعل وجه «هيروكو» يحمرُّ. كان ما قاله سجاد «قبل أن تدركي ما يحدث سيكون عليَّ أن آتي إليكِ لأدرس لكِ لغتي»، لكن «إليزابيث» لم تر سوى أن «هيروكو» ابتعدت عنها بخفة ناحية سجاد، كما فعل «جيمس» و«هنري» بالفعل.

قالت بتلقائية: «إذن، سجاد، كيف تسير أمور زواجك؟ أخبرني «جيمس» أنك في حاجة إلى عطلة عدة أيام قبل زفافك آخر العام».

مرت لحظة قصيرة للغاية لم يشغَلْها سوى ترقب ما قد يلي، استدارت «هيروكو» على كعبيها بحدة وسارت عائدة إلى السيارة.

«ماذا...؟» قال «جيمس» مندهشًا من الحسم الذي كانت تخطو به مبتعدة.

«الحر لا يناسبها.» شعرت الطفلة بداخل «إليزابيث» بأشباح هؤلاء الذين يربطهم الندم بالعالم يضغطون بأفواههم الساخنة على جلدها في طقس استهلالي. «يجب أن نغادر.»

«أوه! وهو كذلك.» نظر «جيمس» بحسرة ناحية الرواق المستتر. «سجاد. تعال.»

«سأعود وحدي، شكرًا لك مستر «برتون».»

«هيا «جيمس».»

نظر «جيمس» بحيرة إلى سجاد الذي أشار له تجاه السيارة.

«سأسير بين الأطلال أنظم قصائد عظيمة عن أسلافي يا مستر «برتون»، لا تقلق عليَّ أرجوك.»

راقب سجاد السيارة البنتلي تنطلق فتثير الغبار والحمام، وما إن غابت عن نظره حتى أسند ظهره على المنارة الشاهقة، وتطلع إلى السماء البيضاء باحثًا عن سبب للسرعة الجنونية التي يدق بها قلبه.

٧

في الصباح التالي كانت «الخطوط المدنية» تتوهج بأشجار الـ«جلموهار» وسجاد يبدِّل على دراجته في طريقه إلى العمل، تذكَّره كل حزمة زهور نارية بـ«هيروكو» وهي تجول في أرض قاحلة بين أطلال متناثرة هنا وهناك، وعلى ظهر ثوبها بقعة حمراء كما لو كان قلبها ينزف طوال الطريق.

فكر وهلة أن هناك تفسيرًا وحيدًا لرد فعلها بالأمس، لكنه سرعان ما أدرك غرور هذا الخاطر وسخافته. بالطبع كانت غاضبة منه؛ ولِمَ لا تغضب؟ فقد تحدثت معه عن «كونراد فايس»، وماذا قال لها عن حياته في المقابل؟ لا شيء سوى الأمور السطحية. لذلك كان على «إليزابيث برتون» أن تعلن عَرَضًا أخبارًا لا داعي لأن يخفيها صديق عن آخر.

صديقة. هز سجاد رأسه بدهشة حين لاحظ أن في حياته شيئًا كهذا. صديقة يابانية. أزَّت عجلات الدراجة وقعقع المقعد وهو يسرع، ثم أبطأ، ثم أبطأ أكثر، ثم أسرع ثانيةً. هل بإمكانه دعوتها إلى زفافه؟ ماذا تقول زوجته ـ مهما تكن ـ حين تعرف أن ثمة امرأة ليست من عائلته يعدُّها صديقته، امرأة ترتدي بنطلونًا وبلوزة بصدر مفتوح، وتدخن سجائر، ولا يخطر بذهنها حتى أن تسمح لأي شخص آخر بأن يختار

لها زوجًا، وجميلة. لا، لعل من الأفضل على الرغم من كل شيء ألا يدعوها إلى زفافه.

ومع ذلك لم يزل يراها هناك. كان بوسعه أن يراها تقف مبتعدة قليلًا عن نساء عائلته، تركز عينيها عليه بغيظ في اللحظة نفسها التي ينظر فيها إلى المرآة التي ستريه لأول مرة، وجه المرأة التي تجلس بجواره وقد صارت زوجته للتو.

لا، لا، لا يمكنها، لا يجب أن تحضر زفافه.

حين ترجل عن الدراجة في ممر سيارة «آل برتون» كان «لالا باكش» في انتظاره. أومأ له سجاد برأسه وهو يسند الدراجة على الجدار. خلال السنوات التي ظل فيها يأتي إلى هنا كان بالكاد يتحدث هو و«لالا باكش» معًا، إلا حين ينقل سجاد طلبًا من «جيمس» أو حين يهنئه بحلول العيد بتحية «عيد مبارك»، لكنهما في الأسابيع القليلة الماضية، وقد تواصلت الاحتجاجات، وبدا أن إنشاء دولة جديدة أمر مُرجح على نحو متزايد، بدأ الرجلان يحتسيان معًا كوب شاي في الصباح وهما يناقشان الأنباء التي حملها الأمس عن الموت والسياسة والحرية.

ناول «لالا باكش» سجادًا كوب شاي يتصاعد منه البخار، وسارا ناحية مدخل المطبخ حيث جلس سجاد على السلم المؤدي إلى الداخل، وجلس «لالا باكش» القرفصاء على الأرض كما لم يفعل قط أمام الإنجليز.

«سأذهب»، قال «لالا باكش» بصدق، نظر إليه سجاد بدهشة، وتركيزه مشتت لأنه سيرى «هيروكو» خلال دقائق قليلة، ولا يعرف ماذا يقول لها. «إلى بلد المسلمين هذه. سأذهب.»

مال سجاد برأسه إلى الخلف وسند على الباب.

«سيبقى الإنجليز هنا عامًا آخر. لماذا لا تنتظر لترى ما يكون عليه الأمر في ٤٨؟ الأمور الآن أهدأ بالفعل عما كانت عليه في الشهر الماضي.»

نظر «لالا باكش» إلى يديه وهو يقبضهما وينظر إليهما كما ينظر عالِمٌ إلى سلاح مميت من إبداعه الخاص بدأ يتشكل.

«لا أعرف ماذا أكون عام ٤٨.»

كان «لالا باكش»، على خلاف سجاد، يقطن في حي غالبيته من غير المسلمين. يتواجد فيه أيام الجمعة فقط، أيام عطلته من العمل عند «آل برتون»، لكنه اعترف لسجاد أنه في أيام الجمعة هذه ـ حين تصب عائلته في مسمعه حصيلة أسبوع من الحكايات الآتية من البنجاب، عن رجال مسلمين ذُبحوا، ومحلات مسلمين أُشعلت فيها النيران، ونساء مسلمات خُطفن ـ كان يجبر نفسه على البقاء في المنزل لأنه إن خرج والتقى بواحد من الهندوس ستفضح عيناه ما يعتمل في قلبه فيتسبب في قتل نفسه، أو بالعكس، قد تكشف عينا الهندوسي ما في قلبه هو، ومن ثم...

رشف سجاد شايه، وكان لا يعرف كيف يجيب «لالا باكش». ظل سنوات يشاهد «لالا باكش» يمازح طباخ «آل برتون»، «فيجاي»، ويغازل مربية «هنري»، «راني»، وكان يدخل المطبخ أحيانًا ليجد ثلاثتهم يغمغمون بود عن «آل برتون». والآن، لا يستريح «لالا باكش» من واجباته إلا مع سجاد. أدرك سجاد بالحديث مع «لالا باكش» أن الجرائم الوحشية التي تُرتكب في حق المسلمين تؤثر فيه على مستوى أعمق بكثير مما تؤثر فيه تلك التي يرتكبها المسلمون ـ كان يعلم أن هذا خطأ بقدر ما هو حقيقي.

ما إن أنهى سجاد شايه في جرعة أخيرة كبيرة ونهض، حتى قال «لالا باكش»:

«لم تعد معهم من قطب منار بالأمس». أتى سجاد بإيماءة حيادية. «كانت منزعجة بشدة لشيء ما.» ثم أخذ الكوب من سجاد ودخل المطبخ.

سمعتْ «هيروكو» وهي في الشرفة صرير باب المطبخ وعرفتْ أن سجادًا يقترب في سيره من الحديقة الخلفية. لم تكن واثقة أن بوسعها النظر إليه من دون أن يظهر حقدها.

حاولت الليلة الماضية بصعوبة شديدة أن تستدعي وجه «كونراد»، لكنه كان بعيدًا للغاية. كأنه في حياة أخرى. في هذه الحياة لم يكن سوى الرغبة في المزيد ـ المزيد من ذكرى أصابعه وهي تلمس عروق معصمها، المزيد من ذكرى لسانه يُدهشها. لكنها، على الرغم من ابتعاد «كونراد» أكثر كلما حاولت استدعاءه، فقد كان ذلك الشيء الذي أخذ يتسلل إلى جسدها حين انزلقت داخل كيمونو والدتها يستيقظ فيها مرة أخرى. حين كانت راقدة في حوض الاستحمام بالأمس، زلقت يداها على جسدها العاري، لكن لم تكن يدها ولم يكن جسدها ـ كانت يد سجاد وجسد زوجته ـ حتى في الخيال لا يمكن أن تصدق أن جسدها قد يكون موضع مثل هذه المداعبات من أي رجل، وحين تحركت اليد إلى أسفل ارتعش جسدها واصطدم فخذها بخزف حوض الاستحمام، فأصابها الذعر وسحبت سدادة الحوض، وأوت إلى الفراش؛ حيث أبقت يديها مضمومتين بصرامة بعيدًا عن بقية جسدها.

قال سجاد وهو يسير تجاه الشرفة: «صباح الخير، أتمنى أن تكوني أفضل اليوم».

«نعم. شكرًا لك.» نظرت إليه وتساءلتْ كيف ستشعر إذا شاهدت سجاد علي أشرف يقترب منها، وهي تعرف أن جسده ملكها لتلمسه. رمقته بنظرة اتهام خفيف. «لماذا لم تخبرني عنها؟»

«من؟»

«خطيبتك؟»

قطَّب سجاد وجهه: «أوه! لا. لا. لم يتحدد شيء بعد. ثمة واحدة في ذهن أمي وزوجات إخوتي، لكنني لا أعرف اسمها حتى. قد لا يكون هناك شيء». وضع يده على الطاولة ولمس كعب الكتاب الذي تريح عليه أصابعها.

أومأت برأسها في محاولة لتجاهل ذلك الشعور الغريب بامتزاج الأمل مع اليأس.

«لا بد أنك راشد جدًّا. مع ذلك... هل لي أن أسألك عن شيء؟»

«بالطبع. أي شيء.»

«لقد أخبرتني ذات مرة أنك ستصير محاميًا، لكنك تقضي أيامك في لعب الشطرنج مع «جيمس برتون». أنا أعرف أنك ترغب من العالم في أكثر من هذا.»

خلال كل هذا الوقت كانت أول من يقول له هذا على الإطلاق.

«لولا «جيمس برتون» لكنت الآن أعمل مع عائلتي، وأكرهها. لذلك طالما أرادني أن ألعب شطرنج سأفعل. لكنه قال، وعَد، أنه سيكون في مكتبه مكان لي على الدوام. قال ذات يوم إنه حين يرحل البريطانيون سيكون هناك كثير من أماكن العمل الشاغرة. بإمكاني الانتظار. وهو يتركني أستعير كتبًا في القانون من مكتبته وأقرؤها في المنزل. أنا لا أضيع وقتي. أنا أتعلم. أستعد.»

«لا أقصد التلميح إلى أنك تضيع وقتك. في اعتقادي أنك ستكون محاميًا رائعًا.» رأت أن هذا الإطراء يعني له كثيرًا حقًّا، مع ذلك لم يسعها سوى أن تتساءل عما إذا كان يمكن حقًّا أن يصير محاميًا من دون بعض المؤهلات المهنية.

«هل لي أن أسألك عن شيء ما الآن؟ هل يبدو الأمر غريبًا لكِ؟ أن أتزوج واحدة لم أقابلها من قبل قط؟ أعرف أن «آل برتون» يريان أنه أمر... رجعي للغاية.»

«أنا لسْتُ «آل برتون» سجاد. يبدو لي أن بوسعي أن أجد في عالمك ما يشبه التقاليد اليابانية أكثر مما أجد في عالم الإنجليز هذا.» قالت هذا بنبرة اتهام تقريبًا، قبل أن تبتسم مقرة بعدم اهتمامها بالتقاليد. «كانت الزيجات المرتبة أمرًا شائعًا للغاية في اليابان. وطالما اعتقدْتُ أنها لا بد تتطلب من الشجاعة أكثر مما أمتلك.»

لم يشعر سجاد بأنه شجاع جدًّا.

«هذا ما جرت عليه العادة.» قال وهو يتتبع بأصابعه مسار الحروف على كعب الكتاب ويتحاشى النظر إليها. «حين تتزوجين سيكون ذلك على الطريقة الإنجليزية؟»

«لن أتزوج أبدًا.»

جفل سجاد لبلادة حسه.

«أنا آسف. أعلم أن مستر «كونراد»... آسف. ليس هذا من شأني.»

كررتْ: «لن أتزوج أبدًا، وذلك ليس بسبب «كونراد».»

أومأ سجاد. ثم هز رأسه.

«لماذا إذن؟»

لم تتوقف «هيروكو» لتفكر هل أرادتْ منه أن يؤكد أم ينكر الحقيقة التي أدركتها في مستشفى طوكيو حين سمعت شهقة الذعر التي أطلقها الطبيب

المتحجر القلب وهو ينظر إليها مستلقية على بطنها. لكنها بدلًا من ذلك، نهضت وأدارت له ظهرها.

«بل بسبب هذا.» بدأت تحل أزرار بلوزتها لتكشف لحمها العاري.

أشاح سجاد بوجهه بعيدًا وهو يصدر صرخة خاطفة نتيجة الصدمة.

«أرجوكِ. ماذا تفعلين؟»

شدت «هيروكو» النسيج الذي يغطي ظهرها، فاصلة طرفي البلوزة كما لو أنها ستائر مسرح.

«هذا ليس سوى شيء آخر أخذته مني القنبلة. انظرْ إليَّ.»

«لا. أغلقي أزرار قميصك.»

«سجاد.»

جعلته حيادية صوتها يستدير ناحيتها. بقي ما كان يهم بقوله طي الكتمان إلى الأبد. خطت خارجة من ظل سقف الشرفة إلى قسوة ضوء الشمس لئلا يكون ثمة خطأ في رؤية الحروق الثلاثة المتفحمة التي اتخذت أشكال طيور على ظهرها، الأول أسفل عظام كتفها، والثاني في منتصف عمودها الفقري تقطعه حمالة صدرها، والثالث أعلى خصرها مباشرة.

لم يكن بوسعها رؤية الدموع تتجمع في عيني سجاد وهو ينظر إلى جلدها المتفحم المتجعد، وقد تُرِكَ لها تفسير صمته.

«هل يمكن أن تقرأ هذه الكتابة المائلة؟ يمكن لأي رجل. مكتوب: «ابق بعيدًا. ليس هذا ما تريده».»

حطم ألمها كل دفاعاته التي ظل يقيمها في اللاوعي منذ وقع نظره على

طابع الحسن أسفل عينيها وود أن يلمسه. في خطوات قليلة سريعة صار بجانبها، تتلمس يداه الفضاء بين الحرقين السفليين، ثم تبتعد سريعًا وهي ترتعش.

همس: «هل تؤلم؟»

«لا.» كان صوتها أهدأ حتى من صوته.

لمس بيده الظلمة المزخرفة أسفل عظام كتفها - بتردد وخوف - كما لو كانت أثرًا من آثار الجحيم، تصرُّ أسنانه معًا ضد غضب كتل اللحم تحت أصابعه. لم تشعر بيديه، لكن دفء أنفاسه في رقبتها كان كافيًا لإطلاق رعشة أخرى، رعشة ماجت في داخلها كله.

أغمض عينيه وحرك يده إلى الجلد ذي الملمس الذي ينبغي أن يكون للجلد. هذه المرة، حين ارتعش جسدها بطريقة عرف أنها تخلو من الخوف، استجاب جسده هو؛ لم يكن من مجال له في تلك اللحظة الحميمة ليشعر بأي تنسك. مر بظهر يده على كتفيها ثم على ثناياها حتى خصرها، ليذكرها بوجود تلك الأجزاء، إنها هناك، أيضًا، وهي منها أيضًا.

مرتْ ثوانٍ قبل أن تشعر بترف الإحساس بلمسته، مدركة أن هذه الذكرى ستضاف إلى قبلات «كونراد» لتؤلفا معًا مجمل خبرتها عن التقارب الجسدي.

قالت بعد وقت طويل وهي تقبض بيديها على نسيج البلوزة التي ظلت ممسكة به: «لا عليك من هذا العطف. أعرف كم هي قبيحة».

«قبيحة؟ لا.» لو لم يكن صوته رقيقًا هكذا لصدقته. «طيور الظهر»، قال وهو يريح بطن يده على الجرح الأوسط، ويده الأخرى تزيل دموعه بسرعة. «ألا تعلمين أن كل ما فيكِ جميل؟»

التفتتْ إليه، الغضب يجعل وجهها غير مألوف، ويجبره على إدراك كيف نقش كل تعبيراتها اليومية في ذاكرته لترافقه في الساعات التي يكون فيها بعيدًا عنها.

قالت وهي تضرب صدره بقبضتها: «لم تفعل القنبلة شيئًا جميلًا. هل تفهمني؟ لم تفعل شيئًا جميلًا!».

سمعت «إليزابيث برتون»، وقد استيقظت في الفجر مشمئزة من نفسها، الصراخ وهي تهم بالجلوس إلى طاولة كتابتها. فهرعت وفتحت مصراعي شباك الشرفة العليا في الوقت المناسب تمامًا لترى «هيروكو» عارية جزئيًا تصرخ وتضرب سجادًا الذي لم يكن بنطلونه يخفي انتصابه.

٨

لم يكن في العالم مكان بجمال «مَسوري»، فكرت «إليزابيث برتون» وهي تقف على قمة منحدر حديقتها تشاهد الضباب أو السحاب يتعلق بالقمم البيضاء لجبال الهيمالايا في الأفق وعبير غابات الصنوبر يندفع إلى أسفل من فوق قمة الجبل الذي تقبع فيلا «آل برتون» في حضنه. يا له من أمر محزن أن يكون الجمال بلا معنى تمامًا.

على الرغم من ذلك، فقد اعترفتْ لنفسها، وهي تسير نحو شجرة البلوط العجوز، أنه مهما كان سوء الأمر هنا فهو ليس بالسوء الذي يكون عليه في دلهي بحرارتها الخانقة في يونيو، وقد جاءت أسوأ من المعتاد هذا العام، حسب ما قالته جريدة الصباح. وغير الحر، حسنًا، نعم، غير هذا الحر كان هناك موضوع سجاد. بقدر ما تشارك «جيمس» حزنه للقرار البريطاني الذي صدر للتو بالانسحاب من الهند في منتصف أغسطس بدلًا من العام التالي؛ مما أنهى أي فرصة لأي شكل من أشكال التنظيم في التقسيم، بقدر ما يتمنى جزء منها أن تحدث معجزة ويختار سجاد باكستان، ويخرج من حياتهم قبل أن يعودوا إلى دلهي في أكتوبر. حتى مع أنهم لن يبقوا هناك إلا لحزم أمتعتهم ومغادرة الهند، فما زال هناك

كثير جدًّا مما قد يحدث. أوه، لماذا الهروب من الحقيقة: تربكها فكرة رؤية سجاد مرة أخرى.

لا تزال تشعر بالغثيان حين تتذكر ما حدث صبيحة ذلك اليوم من إبريل حين شهدت مصادفة هذا المشهد المرعب بين «هيروكو» وسجاد. قفز ذهنها إلى أسوأ استنتاج ممكن ـ هي أول من يقر بهذا ـ وصرخت في سجاد بأشياء فظيعة وهي تأمره بالخروج من بيتها. لا تتذكر حتى الآن كيف كان رد فعل «هيروكو»، إذ لم تدرك منها إلا القليل وقد ارتبكت الفتاة وهي تغلق أزرار قميصها وسجاد يتعثر في خطواته منصرفًا.

ما إن غادر سجاد حتى حاولت «إليزابيث» التحدث معها بهدوء، لكن الصغيرة أجهشت بالبكاء وحبست نفسها داخل حمام غرفتها، وأبت أن تستجيب لتوسلات «إليزابيث» ـ التي تحولت سريعًا إلى أوامر ـ بأن تفتح الباب.

في النهاية ذهبت «إليزابيث» إلى الطابق الأعلى لتوقظ «جيمس» وكان نائمًا، بشكل غريب، في أثناء كل هذا الصراخ.

قالت وهي تهز «جيمس» ليستيقظ: «إن كان قد حاول ما أظن فلن تمنعني من إرسال الشرطة وراءه». نظر إليها زوجها بارتباك يبدو كوميديًّا في أغلب الظروف. «سجاد. صبيك ذو العيون الزرقاء، وجدته للتو مع «هيروكو» في الدور الأرضي!»

قال «جيمس» وهو يجلس قبل أن يفوق: «لا بد أن الشرفة صارت حارة جدًّا بشكل يحول دون التدريس فيها. سأطلب منهما أن يستخدما حجرة مكتبي.»

«كانت عارية حقًّا وهي تبعده عنها. كف عن التغافل معي «جيمس». كان انتصابه ملحوظًا تمامًا. أتريد أن أرسم لك شكلًا توضيحيًّا؟»

بسبة من «جيمس» لم تسمعها «إليزابيث» منه من قبل قط، نهض على قدميه وتناول روبه وزأر بصوت عالٍ: «سجاد!».

«انصرف. طردْتُه.»

«سألاحقه بالسيارة.» أجابها وهو يضرب الباب بباطن يده ليفتحه، كان صوت اللحم يرتطم بالخشب عنيفًا ومؤلمًا. ارتفعت يدا «إليزابيث» بخوف لتقي وجهها.

سجاد، عاش فعليًّا في هذا البيت. ولم يخطر لها مرة واحدة أنه قد يمثل أي نوع من التهديد، ليس بهذه الطريقة. عرفت قبل أن يمر هذا الخاطر أنها ارتكبت خطأ مريعًا.

صاحتْ: «جيمس!».

عاد «جيمس» إلى الحجرة في اللحظة نفسها.

قال: «هل أنتِ متأكدة؟ «إليزابيث»، كيف يُمكن هذا؟».

سارت إليه وأمسكت يده، تذكرت لحظة أتاهما فيها خبر بأن «هنري» ألقى حجرًا على فتاة محلية وأعمى لها عينًا. ثم عرفا بعد ذلك أنه «هنري» آخر ـ «هنري وليمز»، وكان بلطجيًّا صغيرًا لم يتم الخامسة بعد ـ فأدركا وقتها أنهما اجتازا اختبارًا أبويًّا ما حين أبيا أن يصدقا أن ابنهما هو الفاعل.

هبطا متشابكي الأيدي إلى الطابق السفلي حيث خرجت «هيروكو» من حجرتها لتجدهما.

«أنا آسفة! كانت غلطتي. أنا فككت أزراري. جعلته ينظر إليَّ. كان فقط يحاول أن يبدي تعاطفه. أرجوكما. كنت أحاول أن أخبره بأشياء لم أكن على استعداد لأن أخبر بها أحدًا. أنا آسفة! سأغادر منزلكما. أرجوكما لا تعاقباه. أنا آسفة جدًّا!»

كان ثمة كثير في هذا مما لم تفهمه «إليزابيث»، لكنها فهمت ما يكفي لتعلم ما ينبغي فعله.

«سنغادر معًا. حان وقت الذهاب إلى «مَسوري» لقضاء الصيف. احزمي أمتعتك سريعًا «هيروكو». سنغادر في القطار التالي، «جيمس»، هل ترسل «لالا باكش» إلى بيت سجاد بمكافأة نهاية الخدمة. وتأكد أن يخبره بأنك ستزكيه في أي عمل يجده بعد ذلك.»

وهكذا، ها هم هنا ـ في «مَسوري»، أجمل المنتجعات الجبلية في الهند وأكثرها رومانسية. توقفت ثانيةً ترنو إلى المنظر الرائع؛ سرعان ما تغمر الرياح الموسمية الأفق بالمطر والضباب، لذلك قررت أن تظل تحدق طالما أمكنها في هذا الجمال الذي يشبه الفردوس. لا تعرف كيف كان يسعها البقاء في الهند لولا «مَسوري»، حيث يُنحَّى الجو الرسمي لدلهي جانبًا (أو بالأحرى ينتقل إلى «سيملا»، العاصمة الصيفية للراج)، ورحلات ركوب الخيل إلى «جون هيل»، والنزهات بالقرب من الشلالات، وحفلات الرقص في «سافوي»، كلها تجعل من العالم حلمًا، حتى في سني الحرب. توقعت ـ أو لعلها فقط تمنت ـ أن يكون لـ«مَسوري» على «هيروكو» الأثر نفسه، المنعش للروح، الذي تحس به هي دائمًا، غير أن «هيروكو» لم تتأثر بشيء، اللهم ما بدا عليها من أن رغد العيش ورومانسية المكان قد أقصياها أكثر إلى فضاء انطوائها فيما انسحبت إليه ذاك اليوم في دلهي مهما يكن.

وقفت «إليزابيث» أسفل شجرة البلوط ونظرت إلى «هيروكو» وكانت تجلس متقوقعة على فرع وتستند بظهرها على الجذع. تمزقت ساق بنطلونها القطني الأبيض حين تسلقت الشجرة من قبل إلى هذا المكان المفضل لديها. لم تعرفْ «إليزابيث» بعد مَنْ مِن جيرانهم علَّق لها هذا السلم المعقود من

حبال على الفرع الذي تحب الجلوس عليه، مع ذلك خمنت أنه كمران علي صاحب الفيلا المجاورة لهم.

«أنا صاعدة»، قالت «إليزابيث» وبدأت تتسلق سلم الحبال.

شعرت «هيروكو» بانحناء الفرع قليلًا و«إليزابيث» تصعد إلى طرفه الآخر وتدلي ساقيها الاثنتين من أحد جانبيه، لكنها لم تتفوه بشيء، ظلت فقط ترنو إلى القمم الجبلية المغطاة ببساط من الغابات والأزهار والفيلات. التقت في إحدى المناسبات النادرة التي امتثلت فيها لتوسلات «إليزابيث» بأن تخرج من البيت بجنرال إنجليزي متقاعد في الشارع التجاري، قال إنها لا بد تعرف زهورًا كثيرة هنا؛ «مَسوري» ليست سوى الجغرافيا النباتية الجنوبية للصين واليابان («أقصد فيما يتعلق بحياة الزهور»). في هذا المساء أرسل الجنرال سائقه إلى فيلا «آل برتون» بباقة زهور مقطوفة من الجبال المحيطة، لم تكن أُلْفَتُها فقط هي ما جعلت «هيروكو» ترغب في البكاء، بل حقيقة أنها لم تكن تعلم أسماءها باليابانية، وأنه لا يوجد أحد يمكنها أن تلجأ إليه لتعرفها.

تجلس كل يوم هنا في هذه الشجرة، تجول بناظريها على أشجار «مَسوري» وزهورها، بعضها مألوف لديها مثل ملمس حصيرة الـ«تاتامي» تحت قدميها، تتصل شتى ذكريات نجازاكي معًا مثل حبَّات المسبحة: الصوت الواهن لأبيها وهو يجهِّز الألوان في حَجَر الحبر، اللون الأرجواني العميق للسماء المرصعة بباقات وتشكيلات من الضوء في أمسية تحفل بأصوات مألوفة من جيرانها، الأطفال في المدرسة ينهضون وقوفًا حين تدخل حجرة الدرس، التمشية على ضفة الـ«أورا» مع «كونراد»، الحلم باستعادة كل هذا بعد انتهاء الحرب...

كان كل من في الهند يتحدثون عن المستقبل: الإنجليز يخططون لعودتهم

إلى إنجلترا، وكمران علي يتلقى يوميًّا برقيات من أبناء عمومته الذين وصلوا كراتشي بالفعل بخصوص أملاك وتوقعات وانقسامات عائلية، و«لالا باكش» أرسل للتو من دلهي رسالة يقول فيها إنه سيكون قد ذهب إلى باكستان قبل عودة «آل برتون» من «مَسوري». لم تجد «هيروكو» مكانًا لنفسها في أي حديث عن الغد، بل وجدت نفسها بدلًا من ذلك، للمرة الأولى في حياتها، تنظر إلى الخلف أبعد فأبعد. بدا أن مجموعة «آل برتون» قد قرروا تعويضها عما يعجز عنه خيالها بتقديم خيارات مستقبلية لها: رفيقة سفر... مربية... سكرتيرة... زوجة شابة لأرمل وحيد. وقالت «إليزابيث» منذ قليل ستأتين معنا، بالطبع، يبدو من صوتها أنها تعلم أن ما تقوله يبدو تهديدًا أكثر مما يبدو وعدًا. ومن وراء كل هذا كان صوت يقول، اليابان. في النهاية ستعودين إلى هناك.

قالت «إليزابيث»: «نعم، لا بد أن كمران علي هو من يجب أن تشكريه على سلم الحبال».

أبقت «هيروكو» عينيها بعيدًا عن «إليزابيث». كانت تدين لـ«آل برتون» بكثير. كيف أجازت لنفسها أن تَدين لـ«آل برتون» بكل هذا؟

بالكاد كان ثوب «إليزابيث» القطني يوفر الحماية من خشونة اللحاء التي كانت تجلس عليه، وثمة فرع مزعج يدغدغ قمة رأسها أينما مالت بوجهها.

قالت «إليزابيث»: «كفى، لقد فاض بي الكيل من كآبتك».

قالت «هيروكو» بكآبة: «آسفة».

أمرتها «إليزابيث»: «قوليها. فقط قوليها».

«أقول ماذا؟»

«سجاد. أنت غاضبة مني بسبب سجاد.»

«أنا؟» فكرت في الأمر. «نعم، أظن. غاضبة من نفسي أكثر لأني كنت ذريعتك للتخلص منه.» عرَّفتها عدمية توسلاتها لإعفاء سجاد من أي ذنب دورها في منزل «برتون» على وجه التحديد.

«لا خير في هذا الأمر. يومًا ما سترين هذا.»

«في ماذا؟»

«أنتِ وسجاد. ما شعر به كل منكما تجاه الآخر. كان مستحيلًا. عالمه غريب تمامًا عن عالمك.»

التفتت «هيروكو» أخيرًا إلى «إليزابيث»، تحاول فهم كلماتها. نفذ الضوء من بين أوراق الشجرة، كل شيء جميل للغاية، تذكرت «كونراد» يقول لها إنه لم يكن ليكون لجنة عدن قصة قط لو لم يكن بها حية. ثم فهمت.

«أتظنين... هل طردته لأنك تظنين أنه... أن ثمة شيئًا ما غير لائق في صداقتنا؟»

أجابت «إليزابيث» وهي ترفع ذقنها: «نعم، سترين يومًا ما أنني تصرفت لمصلحتك بأفضل شكل». قبضت على يد «هيروكو»: «لم تنشئي في عالم كالذي نشأ فيه، وقد تظلين خارجه إلى الأبد. وقد يتخلى عن هذا العالم من أجلك ـ إن كان هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه لتكوني في حياته ـ لكنه سيندم على ذلك حين ينحسر هذا الشغف الطاغي، ويلقي باللوم عليك أنتِ. النساء يدخلن عوالم أزواجهن «هيروكو» ـ في جميع أنحاء العالم. وليس العكس. نحن اللائي يمكننا التكيف. ليس هم. فهم لا يعلمون كيف يفعلون هذا. لا يرون سببًا له».

لم يسع «هيروكو» سوى أن تحدق في «إليزابيث». «شغف طاغٍ؟» هذه المرأة الإنجليزية مجنونة.

لكن ماذا لو لم تكن كذلك؟

مدت «هيروكو» يدها لما بين الحرقين على ظهرها حيث لمسها. رغب فيها. على الرغم من الطيور. اندفع الدم في خديها حين فهمتْ أخيرًا سبب البروز الغريب في سرواله. رغب فيها، وهي... رغبتْ في أن يواصل لمسها. في كل مكان. غطت وجهها بيديها، ورأت «إليزابيث» أن المرأة التي تجلس بجوارها لم تكن سوى طفلة.

«هيروكو هذا مستحيل.»

باعدتْ «هيروكو» ما بين أصابعها لتحدق من خلالها في «إليزابيث».

«لقد جعلك زواجك تشعرين بالمرارة. جعلك حانقة.»

كان مريحًا أن تقف أخيرًا موقف الحساب.

«ربما. إنها حقيقة أني بالتأكيد أغار من سجاد. من أن كل من أُحبهم يُحبونه أكثر مما يحبونني، وحانقة لأنني الوحيدة في العالم الذي لا يعنى بحبها له. ها أنا قد قلتها.»

رفعت «هيروكو» حاجبيها في حيرة مما يجب أن تقوله في هذا.

«هل أراحك هذا؟»

كوَّرت «إليزابيث» يديها على فمها وزفرت بعمق: «يا إلهي، نعم. يا إلهنا في السماء، نعم هذا مريح. أوه!». عقدت يديها على صدرها. «يا إلهي. يا لغرابتنا نحن البشر.»

لم يسع «هيروكو» سوى أن تضحك.

«لا تشملينا كلنا في هذا. غرابتك هذه تخصك أنتِ فقط.»

عادتا صديقتين مرة أخرى. اقتربت «إليزابيث» من «هيروكو» على الفرع.

«ما قلْتُه لا يغير من حقيقة أنك لا تنتمين إلى عالمه.»

صمتت «هيروكو» وقتًا طويلًا.

«لا أنتمي إلى عالمك أيضًا.» مالت برأسها في تمعن، ولم تعد فتاة صغيرة. «لقد أعطيتني للتو شيئًا ثمينًا. الإيمان بأنه لا يزال بالإمكان العثور على أشياء ذات قيمة. كان التفكير في الخسائر هو كل ما أفعله طوال هذا الوقت. أظل أفكر في ناجازاكي. قلتِ لي ذات يوم أن دلهي لا بد أن تبدو لي غريبة وبعيدة عني، إلا أنه لا شيء في العالم قد يكون أكثر غرابة من موطني ذاك اليوم. الذي لا يمكن وصفه. لا يمكن وصفه بكل معنى الكلمة. لا أعرف كلمات من أية لغة... أبي «إلزي». رأيته يلفظ أنفاسه الأخيرة في الحياة وأنا أظن أنه شيء غير آدمي، كان مغطى كله بحراشف. لا جلد ولا شعر ولا ملابس، فقط حراشف. لا أحد، لا أحد في العالم يمكن أن يرى أباه مغطى بحراشف.»

قبضت «إليزابيث» على يد «هيروكو» وأخذتها لشفتيها.

«والأمر أنني ما زلت لا أفهم، لماذا كان عليهم فعل هذا؟ لماذا قنبلة ثانية؟ حتى الأولى فاقت أي شيء يمكنني أن... لكن قنبلة ثانية. أن تفعلي شيئًا وترين عواقبه، ثم تفعلينه ثانيةً؟ كيف هذا...؟ أتعرفين أنهم كانوا سيقصفون «كوكورا» بدلًا من ناجازاكي ذلك اليوم؟ لكنها كانت تحت الغيوم فاتجهوا إلى الهدف الثاني: ناجازاكي. كانت أيضًا تحت الغيوم. أتذكر ذاك اليوم جيدًا

جدًّا. كانوا بالكاد قد عدلوا عن القصف، بالكاد عدلوا، حين رأوا انفراجة في الغيوم. وبووم.» قالت «بووم» بنعومة شديدة أقوى قليلًا من زفرة.

«كنت دومًا أخطط للسفر من ناجازاكي، أتعرفين. لم أكن عاطفية بشأنها قط. لكن قبل أن تري المكان الذي قضيتِ فيه عمرك يُختزل برمته إلى رماد، لا نعرف مدى اشتياقنا إلى الألفة. أترين تلك الأزهار على هذا التل يا «إلزي»؟ أريد أن أعرف اسمها باليابانية. أريد أن أسمع اليابانية، أريد شايًا بمذاق الشاي في وعيي بالشاي. أريد أن أبدو شبه المحيطين بي. أريد أن يستاء الناس مني حين أكسر القواعد ولا يفترضون ببساطة أنني أجهلها. أريد أن أرى أبوابًا تفتح بمجارير وليس بمصاريع. أريد كل هذه الأشياء التي لم تكن تعني أي شيء من قبل، وكانت ستظل هكذا ما لم أفقدْها. أترين، أعرف هذا. أعرف هذا لكنه لا ينفي أني أريدها. أريد أن أرى كاتدرائية «أوراكامي»، كنت أرى أنها تشوه المشهد، لم أحبها قط. لكنني الآن أريد رؤيتها، أريد أن أسمع رنين أجراسها. أريد أن أشم رائحة احتراق أشجار الكرز. أريد أن أشعر بجسدي يتحرك بحركة الراكب في ترام. أريد أن أتحرك بين الجبال والبحر. أريد أن آكل حلوى الـ«كاستيلا».»

«أريد». سمعت «إليزابيث» تكرار الكلمة وعرفت ما لا بد أن يكون عليه التحول من ديانة إلى أخرى. «أريد». تذكرت ذلك بصعوبة. في مكان ما. «أريد». عند أية نقطة صارت حياتها تراكمًا لأشياء لم تكن تريدها. لم تكن تريد إرسال «هنري» بعيدًا، لم تكن تريد الزواج من رجل لم تعد تعرف كيف تتحدث معه. لم تكن تريد الاستمرار في إخفاء حقيقة أنها شعرت في بعض الأوقات في أثناء الحرب ـ وخصوصًا حين كانت برلين تحت القصف ـ أنها ألمانية صرف. لم تكن تريد أن تعترف أن البريطانيين قد وصلوا إلى نهاية النوايا الطيبة. لم تكن تريد العودة إلى لندن والعيش في كنف حماتها التي

تحشر أنفها في كل شيء. لم تكن تريد أن تتسبب في تعاسة زوجها لعجزها عن أن تكون المرأة التي تمنى أن تصير إليها بالوقت والتعليمات. لم تكن تريد أن تكون غير مرغوبة. لم تكن تريد لمستقبلها أن يكون مثل حاضرها في أي شيء. قبضت بيدها على الفرع، فقد انتابها دوار فجأة، وحاولت التركيز على ما كانت تقوله «هيروكو».

«لكن هل أخبرك بما لا أريده؟ لا أريد العودة إلى ناجازاكي. أو إلى اليابان. لا أريد أن أخفي حروق ظهري تلك، لكنني كذلك لا أريد أن يحكم عليَّ الناس بناءً عليها. «هيباكوشا». أكره هذه الكلمة. تحط من شأنك إلى مستوى القنبلة. كل ذرة منك. هكذا عليَّ الآن أن أجد شيئًا مختلفًا لأريده يا «إليزابيث». وأنا آسفة ـ لقد كنْتِ عطوفًا جدًّا وكريمة على نحو غير معقول ـ لكن الانتقال إلى لندن معك أنت و«جيمس»، ليس هذا، ليس هذا ما أريده.»

«ماذا تريدين؟»

«لا أعرف. ربما... سجاد.» قالتها كأنها تجرِّب وقعها.

قالت «إليزابيث» بأقصى قدر من التلطف سمح به صوتها، على الرغم من كل ما كانت تفكر فيه توًّا بخصوص حياتها: «لا بد أن تجدي طريقة لتبعدي هذا عن ذهنك. عائلته...».

غاصت تلك الكلمات الأخيرة بثقل فظيع في أعماق «هيروكو».

«أعرف. أنت على حق. أعرف.»، ثم أغمضت عينيها وأراحت رأسها على ركبتيها.

٩

في ذلك الصباح بعد أن دفنوا خديجة أشرف، سار أبناؤها الأربعة وزوج ابنتها في صف في فناء المسجد الجامع، يتبعون رجلًا عجوزًا ينثر ماءً على الأرض من دلو في يده لترطيب الحجارة الحارة. كان العجوز شيخًا صوفيًّا ظل سنوات يرطب الحجارة الرملية لأهل المتوفين حديثًا الذين يسيرون في الفناء. يفرك الجلد المتكلس على باطن قدميه كل مساء؛ لئلا تخشنا ولا تحسا بألم الأرض الحارقة، كان عليه أن يتحمل ليتغلب على المعاناة في الدروب الروحية الصرف. لطالما رفضت خديجة أشرف هذا التفكير. «المسيحيون هم من يظنون أننا خلقنا في الأرض لنعاني. لكن المسلمين يعلمون أن الله ـ الرحمن الرحيم ـ غفر لآدم وحواء بعد أن أغواهما الشيطان.» ثم تشير بإصبعها إلى السماء. «وكنت أعلم أن الله سيفعل ذلك؛ إذ إنه هو من خلق الفاكهة التي أكلاها.»

أي رب هذا للمتنسكين، يريد أن يصلوا إليه عن طريق الحرمان؟ كرر سجاد لنفسه كلمات أمه، وشفتاه تتحركان من دون صوت.

همست خديجة أشرف، وهي في النفس الأخير، في أذنه بطقس تحية الوداع من الأكبر إلى الأصغر: «ابق حيًّا». والآن، الطريقة الوحيدة التي يسعه

بها تحمل فقدانها أن يصدق أن جزءًا من روحها دخله مع هذا النفس واستقر أمام قلبه. لم يمنعه عدم تصديقه في هذه الأشياء بأي حال من الأحوال من الشعور بالراحة لهذا الخاطر. كان بطريقة ما يعرف أنها بداخله؛ تبث فيه آراءها، تؤنبه، تُضحكه.

استدار من دون أن يتفوه بكلمة مبتعدًا عن الأرض الرطبة وانحرف إلى الرواق ذي الأعمدة الذي يمر بحدود الفناء الخارجية. ما إن خطا إلى الرواق حتى شعر من تحت مدخل مقنطر بامتنان لبرودة الحجارة المظلَّلة. سمع أخاه الأكبر «التتمش» ينادي عليه، لكنه أجابه بالكاد بحركة من أصابعه معناها أن يذهبوا من دونه، لف ذراعه حول أحد الأعمدة وشخص ببصره إلى «القلعة الحمراء» وأصابعه تداعب نتوءات العمود. ديلي. ديلاي أنا. لكن «المدينة القديمة» رددت صدى ندائه هذا اليوم بالغياب وليس الانتماء.

قال زوج أخته: «سجاد، عد إلى المنزل معنا. سنعود أنا وأختك بعد ظهر اليوم، وهناك أمور يجب أن نتحدث فيها قبل أن نذهب».

«سأكون هناك سريعًا»، أجاب سجاد من دون أن ينظر إلى رجال عائلته الذين يقفون خلفه ككتيبة حرس.

قال أخوه إقبال: «إن كانت هناك أمور يجب أن تتحدث فيها، تحدث فيها الآن، سأودعكم من هنا. إنني مشغول بقية اليوم».

«لقد أخبرت أختك أننا سنتحدث فيها حين تجتمع العائلة كلها. ألا يمكنك تأجيل أعمالك إقبال؟»

«لا.»

أصدر «التتمش» غمغمة استنكار. لسنوات الآن صار معروفًا في الحي كله أن إقبالًا اتخذ من إحدى عاهرات المدينة القديمة عشيقة له.

«أتظن أننا لا نعرف كلنا ما يشغلك؟ ألا تشعر بالعار. الوعد الوحيد الذي أخذته على نفسك لوالدتنا أنك ستظل دائمًا تعود إلى زوجتك قبل منتصف الليل، وفي الليلة الأولى لوفاتها تظل بالخارج حتى الفجر.»

قال إقبال: «إنها تهدد بالرحيل إلى باكستان». لم يكن بهم حاجة إلى سؤاله عن من التي يتحدث عنها. «أخبرتها ليلة أمس أنني سأقوم بأي شيء لأُبقيها هنا.»

استدار سجاد.

«هل هددت المرأة التي تزعم أنك تحبها؟»

«لم أهددها. لقد وعدتها بالزواج.»

أمسك «التتمش» أخاه من ذراعه وهو يسبُّه.

«هل نسيت أن على ذمتك زوجة؟»

«يحل لي أخرى.»

قال «سيكندار»، الأخ الأكثر هدوءًا وورعًا: «نعم، إن عدلت بين الاثنتين ووافقت زوجتك الأولى. كلنا نعلم أن لا هذا ولا ذاك سيحدث».

قال إقبال وهو يتخلص من قبضة «التتمش»: «حتى النبي كان لديه زوجة مفضلة. وإن لم توافق زوجتي على زواجي من أخرى فسيسرني أن أطلقها».

قبض «التتمش» على إقبال مجددًا.

«في ذمتك زوجة واحدة وستظل أختًا لإخوتك كلهم مهما ساءت

تصرفاتك. لن نقبل بهذه الأخرى أبدًا. لن نقبل أطفالك منها، ولن يكون لك مكان في بيتنا إذا كانت معك، ولن ندفع عنك بعد الآن أي ديون تتراكم عليك. كم يطول بها الوقت قبل أن تعود إلى الحياة الوحيدة التي عرفتها حين تكتشف أن زوجها العالة عاجز عن أي شيء آخر غير التهور؟»

استدار إقبال إلى زوج أخته.

«لن تكون قاسيًا معي، أليس كذلك يا أخي؟ هل ستدعنا نأتي لنعيش معكم في «لكناو»؟»

«لا. لا يمكنني، لا تنظر إليَّ هكذا يا إقبال. أنا لا أوافق على ما ترغب في فعله. وفوق ذلك...» أشاح ببصره بعيدًا عن الإخوة.

«فوق ذلك ماذا؟ أتنوي الرحيل إلى باكستان أيضًا؟» لم ينظر «التتمش» إلى زوج أخته حتى وهو يقول هذا، بل ركزت عيناه على نقل احتقاره إلى إقبال.

«نعم.»

أطلق سجاد تنهيدة طويلة وجلس على الجدار الواطئ الواصل بين الأعمدة. مال إلى الأمام وهو يسد بيديه أذنيه محاولًا إسكات الصراخ. كان كل شيء ينهار.

كان قد لمس جلد «هيروكو» منذ أقل من ثلاثة أشهر ـ لحظة يدرك الآن أنها لحظة مجد صافٍ؛ بيد أن المجد طالما كان البوق الذي يوقظ النحيب ـ ألم يقرأ ما يكفي من الشعر ليعرف هذا؟ لو عرف أن لحظة لمست يده ظهرها كانت هي اللحظة الأكثر مجدًا للتقارب الجسدي الذي قد يكون بينهما يومًا، لتحمل ذلك من دون مرارة، على الرغم من أنها لا تقترب حتى من

إرضاء رغبته، لكنه كان يعلم أن هذا ضروري وحتمي في آن. حتى الآن ليس بوسعه أن يتخيل ظروفًا قد تترتب عليها نتيجة أخرى. لكن الألم والحنق غير المتوقعين لم يكونا من «هيروكو»، بل من طرد «آل برتون» له. حين جاءه «لالا باكش» بالنقود وعرض التزكية في عمل آخر، فهم أن «هيروكو» قد أخبرتهما أنه ليس «حيوانًا»، وليس «مغتصِبًا». حتى وإن رغب جزء منه في أن يخر على ركبتيه بارتياح، فقد نظر جزء آخر منه إلى مكافأة نهاية الخدمة السخية وفهم أنها تعني أنه لن يتلقى أي نوع من الاعتذار غير هذا. حقيقة أن «إليزابيث»، وليس «جيمس»، هي من يدين له باعتذار لم تكن شيئًا ما ليتوقف عنده؛ إذ على الرغم من اختلافهما، فلا يزال الزوجان «برتون» يتصرفان معًا بطرق شتى ككيان واحد، وإن كان نصف هذا الكيان لا يمكنه الاعتراف بالظلم الذي وقع منه فما للنصف الآخر من سبيل لهذا.

«لقد انتهيت من الإنجليز»، قال وبدأ يفكر فيما يمكن أن يفعله في حياته الآن بعد أن أزاح عن كاهله الشعور بالواجب الذي أبقاه مقيدًا بـ«جيمس برتون» فترة طويلة، حتى بعد أن أدرك أنه لن يتقدم إلى أبعد من ذلك في هذا الموقع. طلب منه «التتمش» أن يساعد في أعمال الخط أسابيع قليلة، إلى أن وجد من يحل محل الإخوة «ناظر» الذين عملوا مع العائلة سنوات، وهم الآن في طريقهم إلى كراتشي محملين بأحلام عن نقش أسمائهم كأمهر حرفيين في اللغة في تلك البلدة، المعسكر الإنجليزي الكبير، بأحلامها الخاصة بها عن مستقبلها في دولة باكستان التي لم تتأكد بعد. كانت والدته قد طلبت منه أن يتحمل مسؤولية الجانب المالي من العمل، فوافق سجاد «مدة ستة أسابيع فقط». لكن في نهاية الأسابيع الستة جاء الإعلان الإنجليزي بأن ١٥ أغسطس ـ بعد ما يزيد على شهرين فقط ـ تاريخ جلاء الإنجليز وإنشاء دولتين مستقلتين، الهند وباكستان. كان بالكاد وقتًا ملائمًا للتفكير

في المستقبل المهني؛ حيث كل شيء في دوامة، كل يوم ينبئ بمزيد من الجرائم الوحشية، وعلاقات بدت كأنها قُدَّت من حديد تذوب في السؤال اللاذع: هل أنت مع الهند أم مع باكستان؟ حتى سجاد نفسه لم يعد قادرًا على الزعم بأن هذا لا يمس حياته، وهو يحس حين يستمع إلى حكايات الجرائم الوحشية بأظافره تُغرَس في كفه وقلبه ينقش وشم وداع لكل أهل «ديلي»، هؤلاء الذين قالوا إنه ليس بوسعهم البقاء.

ثم سقطت والدته فريسة المرض، فتراجع كل ما عدا هذا في العالم إلى الخلف.

لا تزال يداه تغطيان أذنيه، نظر إلى الرجال الآخرين، يصيحون جميعًا ويأتون بإيماءات. كان يحبهم جميعًا، لكن ـ أدرك ذلك للتو ـ لم يكن يعني كثيرًا بخيبة آمال أي منهم. نظر إلى أخ تلو الآخر، وازنًا شخصية كل منهم، ومستخدمًا ذلك التقييم للتنبؤ بالمستقبل: لن يتزوج إقبال بامرأته تلك إن توقف «التتمش» عن دعمه ماديًّا، لكنه سينأى بنفسه عنهم، ويبدل عشيقة بأخرى ويصير غريبًا عن أطفاله. سينتقل «علي زمان» ـ زوج أخته، الذي لا يلتزم بأقل من الإخلاص التام ـ إلى باكستان ويضحى وطنيًّا متحمسًا، مما سيجلب عليهم المتاعب حين يعود لزيارة ديلي. «سيكندار»، الذي اتخذ ورعه المتزايد شكلًا باطنيًّا تأمليًّا، سينأى بنفسه أكثر إلى عالمه، وسيكون أسعدهم حين يسيل قلمه في تشكيلات آيات قرآنية في ورود متفتحة تعبر عما وجده في القرآن العظيم من هُدى. و«التتمش»، البطريركي والشاعر بالقدر نفسه، سيتحجر في هذين الدورين، فينظم الحكم المأثورة شعرًا لكل من في البيت، ويتقبل كل شيء من أسرته ما عدا العصيان.

لم يسعه رؤية نفسه جزءًا من العائلة. ليس جزءًا منها من دون والدته. كانت تهدئ مبالغات إقبال، وتجذب «سيكندار» من عالمه إلى عالم الحياة

والضحك، كانت السبب الأساس لمجيء ابنتها المحبة من «لكناو» لزيارتهم مرتين في السنة، وكانت بنظرة واحدة تهبط بـ«التمش» من منزلة الملك إلى منزلة الطفل. وبالنسبة إلى سجاد، كانت اليقين الذي يعود به دائمًا إلى ديلي مهما طال به التيه في دلهي.

لكن هذا العالم نفسه كان ينتهي. ربما لم يكن بمقدور والدته حتى أن تُبقي على أشلاء هذا العالم متماسكة، كيف يمكنه البقاء وسط الحطام؟ وبالقدر نفسه، كيف يمكنه الرحيل عنه، وحيدًا، هو الذي لم تكن العزلة بالنسبة إليه أكثر من توقع العودة مرة أخرى إلى عالم الرفقة؟

نهض سجاد، فأسكتت فجائية حركته إخوته.

«سأتقدم للزواج من امرأة يابانية، إن وافقت فسنقيم في نيودلهي، وجميعكم مرحب بكم في بيتنا. لكني لن أذهب أبدًا إلى مكان لا يرحب بها.» دفع إخوته جانبًا وهو يمد ذراعيه الاثنتين أمامه في حركة سباحين وسار يخرج إلى الفناء، خطوة، خطوتين، ثم قفز قلبه بداخله وراح يركض بسرعة شديدة حتى ظن صاحب حانوت كان يخلع نعليه عند بوابة المسجد الجامع أن الأرض ساخنة جدًّا كما لم تكن من قبل فأعاد قدميه في نعليه واستدار عائدًا.

لم يكد صاحب الحانوت يبلغ منتصف درجات السلم حين تخطاه الراكض الذي توقف بما يكفي ليدس قدمه في حذائه ويركض ثانيةً مارًّا بالحوانيت والأطفال والشيوخ، يثير الحمام حيثما يمر وهو يقترب منه فيحلق في السماء خالقًا سربًا رماديًّا مجنحًا يمكن لأي أحد تتبعه من المسجد الجامع حتى منزل أشرف.

وهناك توقف الرجل.

قد تعد خيانة لوالدته أن يفعل ما كان يفكر فيه، يعرف هذا. لكنها أوصته بأن يبقى حيًّا، وإذا كان الموت قد حلها من العهد فربما ستفهم أن هذا على وجه التحديد ما كان يحاول فعله. كان هذا المكان، هذا الحي، من الماضي بالفعل. سرعان ما يفوق عدد الأشباح عدد من لهم حضور مادي من معارفه. وكان ثمة شيء آخر. كان ثمة فتاة وثقت فيه بما يكفي لتتعرى أمامه وتريه علامات أعمق ألم رآه في حياته.

كانت يده على الباب، مستعدًّا ليدفعه ويفتحه ويكرر على مسامع النساء ما أخبر به أزواجهن للتو. لكنه لحظ بطرف عينه حركة ما ـ قطة بنية اندفعت تمر به تذكره بلون ثوب «إليزابيث برتون» آخر مرة رآها فيها ـ جعلته يتوقف.

ماذا لو وافقت «هيروكو»، وانتقلا إلى منزل يخلو من إخوته وزوجاتهم وأبنائهم وبناتهم، ثم يحدث لهما ما حدث للزوجين «برتون»؟

لم يكونا تعساء معًا حين دخل حياتهما. نعم كانا يتشاجران من حين إلى آخر، لكنهما كانا مرحين. كان «هنري» متعة مشتركة بينهما، وليس أرضًا يتنازعان عليها. ومن وقت إلى آخر كانت أكثر الإيماءات اعتيادية ـ كأن يضع يده على معصمها، أو تعدل بأصابعها رابطة عنقه ـ توحي لسجاد بعالم جسدي يجعله يرغب في النهوض والانصراف من الحجرة؛ هربًا من المزيج المعقد من الانفعالات التي تولدها. وتدريجيًّا، تدريجيًّا تمامًا، صارت تلك المشاهد ضربًا من ضروب التعذيب، فقد كان يرى كل ما بينهما مكسورًا.

لم يكن ثمة لحظة واحدة تضطرب فيها الأمور، بل فقط تراكمات راسخة للجراح وسوء الفهم. كان ثمة مشاجرات بشأن تربية «هنري»، حياة «جيمس» المهنية، سلوك «إليزابيث» في أداء الدور الاجتماعي لمسز «برتون»، الطعام الذي تقدمه في الحفلات، متى ينتقلون إلى «مَسوري»، هل يرسلان «هنري»

إلى مدرسة داخلية أم لا، كم تبعد عن الجدار الفاصل لتزرع شجرة معينة. وقد تعتبر كل تلك المشاجرات ثانوية، لكنها ليست كذلك. باعد الزمن بينهما. هذا أفضل تفسير توصل إليه سجاد.

ما الذي يمنع الزمن إذن من فعل مثل هذا معه هو و«هيروكو»، أن يتركهما في منزل من دون حلفاء آخرين يلجآن إليهم، أقارب آخرين يملؤون الصمت ضحكًا؟

حين عاد إخوته إلى البيت بعد عدة دقائق وجدوا سجادًا واقفًا أمام مدخل الباب تتبع أصابعه أشكال الطيور المحفورة في الخشب.

«أنت أكثر من أحب أمنا من بيننا جميعًا»، قال «التتمش» وهو يلف ذراعه حول كتف شقيقه. «لا جرم أن تسلبك وفاتها رشدك. تعال. تشبث بعائلتك.» قرع الباب بحدة، وحين انفتح قاد سجادًا الذي امتثل له إلى الداخل، مطمئنًا لمرور الأزمة فلا داعي لذكرها مرة أخرى.

١٠

«إلزي! لا يمكنك قتل هذا العنكبوت. إن المسلمين يحبونه. أخبرني «كونراد» بقصته ذات يوم ونحن على «ميجان باشي»، جسر النظارة. يدعى كذلك لأنه حين يكون المد عاليًا تنعكس صورة مدخلي الجسر المقنطرين على صفحة الماء في هيئة نظارة.»

«هناك حيث قفزت السمكة الفضية من قلبه إلى قلبك.»

«نعم، أوه! لقد أخبرتك بهذا بالفعل. هل أخبرتك بقصة العنكبوت؟ كيف غزل شبكته ـ بسرعة البرق ـ على مدخل الغار الذي اختبأ فيه محمد وصاحبه في هروبهما من مكة، فظن مطاردوهما أنه لا أحد قد دخل الغار منذ أمد طويل.»

«قصة رائعة. من أين التقطها «كونراد»؟»

مرَّتْ فترة صمت، ثم قالت «هيروكو» بصوت غريب: «من سجاد».

كان «جيمس» يهم بدخول غرفة الجلوس، لكنه تردد على عتبة الباب من الخارج؛ إذ كانت المرأتان تتحدثان بالألمانية، وأحيانًا يبدو من الوقاحة إجبارهما على إعادة الحوار إلى الإنجليزية فقط لأنه معهما، استدار بالفعل

حين سمع كلمة «سجاد» وخرج من الباب الأمامي، ساحبًا في طريقه معطف المطر.

في الخارج، توقفت الأمطار الموسمية للمرة الأولى خلال أيام، لكن ذلك لم يُحسِّن الرؤية. كان الضباب يغلف «مَسوري»، يجعل من المستحيل معرفة إذا كانت الكتلة الكائنة في أقصى الحديقة شجرة أم مجرد تجمع كثيف للأمطار بشكل خاص، سميك للتفكير فيه، فكر «جيمس» متذكرًا وصف جدته الأسكتلندية لضباب البرية الذي كان يحيط بالمنزل الذي قضت فيه طفولتها. تخيل نفسه رجلًا عجوزًا، يقطن في المرتفعات في محاولة لا طائل منها لاستعادة مواسم الصيف في «مَسوري».

لم يتبقَّ سوى أسابيع على رحيلهم من الهند. افترض أن «هيروكو» ستأتي معهم إلى إنجلترا، وطئ العشب المبلل بحذائه. يبدو أن الجميع يتصرفون على أساس صحة هذا الافتراض. حسنًا، لِمَ لا؟ فهي تجعل «إليزابيث» تضحك، وكانت موهبة تمتع بها ذات يوم من دون أن يعي أنها موهبة.

سار «جيمس» حول المنزل، وقد ترك الحذاء آثارًا في الحديقة المشبعة بالمياه، إلى أن صار قريبًا من نافذة حجرة الجلوس. ماذا ترى فيه «إليزابيث» إن أطلت من النافذة؟ الرجل الذي تزوجته، أم تجمعًا كثيفًا للأمطار؟ لا أحد يتخيل أبدًا أن بوسعه التفكير في نفسه على هذا النحو، يعرف هذا، ولا حتى «إليزابيث». حسنًا، والحقيقة أنه نادرًا ما فعل ذلك. لكنه منذ ذهب سجاد ـ أو طُرد بسبب ما جلبه على نفسه بالطبع، لكن حتى مع ذلك ـ حسنًا، لا يزال يشعر بشيء ما خطأ في العالم.

لن يرى سجادًا ثانيةً أبدًا. ظل هذا الخاطر يراوده، بإلحاح يثير الغيظ. ظل يخبر نفسه أن طريقة إنهاء الأمور هي ما تثير لديه هذا الأسف. حتى

تأنيب الضمير. لكنه في لحظات أمانة حقيقية حين يسمع زوجته و«هيروكو» تضحكان معًا، يتشكل بينه وبينهما حاجز ما أكبر من اللغة، عرف ببساطة أنه يشتاق إلى رفقة سجاد. وكان ذلك سخفًا، بالطبع كان كذلك.

«جيمس برتون.»

والآن أسمع أصواتًا، فكَّر «جيمس».

«جيمس برتون!»

استدار «جيمس». كان سجاد يسير ناحيته في الضباب، مرتديًا كما كان يرتدي في المرة الأولى التي رآه فيها «جيمس» ولم يكررها قط، بيجامة «كورتا» من الموسلين الأبيض، ومظلة كبيرة تحت ذراعه تترك بقعة مبللة على أحد جانبيه.

«صديقي العزيز.» اقترب «جيمس» منه يمد يده. فنظر سجاد إليها بارتباك، فضحك «جيمس» وهمَّ بعناق الرجل الآخر من كتفه. «لم تحضر معك رقعة الشطرنج، على ما أظن.»

ابتعد سجاد عنه.

«لسْتُ هنا لأعود للعمل.»

«لا. بالطبع لا.» توقفت يد «جيمس» في الهواء في منتصف وضعية الإمساك بكتف سجاد، فنظر إليها بحيرة كأنه لا يعرف ماذا يفعل بها. أشفق سجاد عليه ووجد نفسه عاجزًا عن الاستمرار في الموقف الهجومي الذي بدأه بكلامه هذا، ووضع يده على يد الرجل الإنجليزي ليعيدها إلى أسفل.

قال «جيمس»: «انتهيت للتو من قراءة «ممر إلى الهند»، كتاب سخيف.

نهاية مشينة. يريد الإنجليزي والهندي أن يتعانقا، لكن الأرض والسماء والأحصنة تأبى ذلك، وهكذا يظلان منفصلين.»

«نعم، قرأت الكتاب.»

«إنه ليس عن الأرض والسماء والأحصنة، أليس كذلك يا سجاد؟»

«بلى. مستر «برتون».»

«لا أمانع أن تناديني «جيمس»، أنت تعرف.» ثنى سجاد كتفيه إلى الأمام في واحدة من طرقه في الرد حين يسمع تعليقًا ليس عليه بالضرورة أن يعقب عليه. «أنا آسف على ما قالته «إليزابيث» لك، و«إليزابيث» أيضًا آسفة. يجب أن تعلم أننا كنا ندرك أننا على خطأ حتى قبل أن تخبرنا «هيروكو» بما حدث.»

«لا سيدي، لم أكن أعلم هذا. ولم تراسلني خلال تلك الأشهر الماضية لتخبرني بهذا.»

«ظننت أنك ستتفهم هذا من الرسالة التي أرسلناها إليك مع «لالا باكش».»

«فهمت منها أن الإنجليز قد يعترفون بأخطائهم حفاظًا على وهمهم عن العدل وحس العدالة لديهم، لكنهم لن يعتذروا فعليًّا عن تلك الأخطاء حين تُرتكب في حق هندي.»

تراجع «جيمس» إلى الخلف.

«متى صرنا أنا وأنت الإنجليزي والهندي وليس «جيمس» وسجادًا.»

«معك حق. المسألة ليست في القوم، بل في الطبقة. كنت ستعتذر لي لو أنني درسْتُ في أكسفورد.»

«كنت محرجًا سجاد، ألا تفهم هذا؟ و«إليزابيث» أيضًا كانت محرجة. عليك اللعنة يا رجل، كان ينبغي أن تجد ما هو أفضل من الوقوف ومشاهدة امرأة تتعرى أمامك. لسْتَ معفيًّا من اللوم في هذا الموقف، على الرغم من كل ما قالته «هيروكو». كيف كنت سأعيدك مرة أخرى إلى المنزل و«هيروكو» لا تزال تقيم معنا؟ وكيف يمكن أن أعتذر بطريقة ذات معنى لو لم أكن أرغب في عودتك؟ اللعنة على كل هذا.» وبعنف ضرب بقبضته نباتًا متسلقًا، فتألمت أصابعه لارتطامها بطوب الجدار خلف النبات.

جفل سجاد كما لو كان هو من جُرِح، حركة لم تَفُت أيًّا منهما.

«لماذا أنت هنا إن لم يكن للعب الشطرنج؟» قال «جيمس» بهدوء، محاولًا تجاهل نبض الألم في أطراف أصابعه.

«لقد توفيت أمي.»

«أنا آسف جدًّا سجاد، بحق.»

«هذا يغير كل شيء.»

«أنت لا تقصد «هيروكو»؟»

«هل ستمنعني من رؤيتها؟»

«لا. بالطبع لا.»

«بودي إذن أن أقابلها.»

«أنا هنا.» كانت الكلمات بالأردية. نظر «جيمس» من أعلى كتف سجاد ليرى «إليزابيث» و«هيروكو» واقفتين هناك.

قالت «إليزابيث» وهي تسير ناحية «جيمس»: «نحن هنا منذ «إي إم فورستر»،

لسْتَ جيد الملاحظة. هيا لنفعل شيئًا ما ليدك.» شدت كمه وقادته إلى الداخل من دون أن تتوقف سوى فقط لترمق سجادًا بنظرة اعتذار بلا حدود قابلها بإيماءة تعني أن المسألة انتهت بينهما، لكنها لم تُنس.»

حين أُغلِق الباب خلف الزوجين تحركت «هيروكو» ناحية سجاد، وعيناها منكبتان على وجهه بقدر ما تنكب عيناه على وجهها. أمسكت معصمه بين إصبعها وإبهامها، كما أمسكها يوم وصلت دلهي.

«كيف توفيت؟»

«مرض مهد الطريق إلى آخر. كان الأخير التهابًا رئويًّا.» استراحت يده على يدها بينما ظلت ممسكة بمعصمه. «آخر مرة التقينا... لم أقصد قط أن القنبلة ليست أمرًا مريعًا.»

«لا. بالطبع لم تقصد»، تركت معصمه وابتعدتْ خطوات قليلة قبل أن تستدير له ثانيةً. «أنت هنا إذن لمقابلتي. لأن والدتك توفيت.»

«أنا هنا لأراكِ. والدتي... نعم، هذا حقيقي. لم أكن لآتي لو ظلت على قيد الحياة.»

خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية ظلت مرات لا تحصى تتخيله يأتي ليراها، على الرغم من إيمانها بأن ذلك مستحيل. لكن ليس هكذا أبدًا.

«ما الأمر؟ هل أعاقت وفاتها خطط زواجك؟ هل أسرعت إلى هنا بحثًا عن أول امرأة متاحة لتعد لك الشاي صباحًا وتدلك رأسك بالزيت ليلًا؟»

«لو كنت أبحث عن أول امرأة متاحة ما كنت قطعت الطريق كله من دلهي إلى «مَسوري».»

«أنت مختال بشكل غيرِ طبيعي»، قالت وهي تدير إليه ظهرها، وتسير ناحية شجرة البلوط في الطرف القصي من الحديقة.

«ابقي. أرجوكِ. من فضلكِ ابقي.»

توقفت وظهرها لا يزال إليه وانتظرت إلى أن لحق بها.

«نشأْتُ على الإيمان بالاستمرارية «هيروكو».» كان صوته مكدَّرًا بشكل لم تسمعه منه من قبل. «نشأت على تقديسها.»

«لا تكن سخيفًا. كان الخط بالنسبة إليك استمرارية أيضًا. لا الحياة في لعب الشطرنج مع رجل إنجليزي.»

«لديَّ أعمام وأخوال يعملون لدى الإنجليز. هذا ما نفعله خلال اليوم. إنها وظيفة. نعود منها إلى المنزل ونغير قمصاننا وسراويلنا بالـ«كورتا» ونصير أبناء حيِّنا ثانيةً. هذا عالمنا الحقيقي.»

«فهمْتُ. لم أركَ إذن في عالمك الحقيقي قط.»

«لا. لم تريني.» رفع يدًا في الفراغ بينهما. «وكذلك أنا لم أركِ في عالمكِ.»

«عالمي لم يعد له وجود.»

«ولا عالمي أيضًا. لا أعني بسبب والدتي فقط. بل باكستان هذا يأخذ أصدقائي وأختي، يأخذ الألفة من شوارع ديلي. الآلاف راحلون، وآلاف آخرون سيرحلون. بمَ أتمسك؟ مجرد خيوط طائرة ورقية معلقة في الهواء من طرفيها الاثنين.»

«ومن ثم؟»

«عليَّ أن أتعلم كيف أعيش في عالم آخر. بقواعد أخرى. كما كان عليك. لعل وطأة الوحدة ستكون أقل على كل منا لو كان ثمة رفيق. بعض الثبات مريح في أثناء التغيير.»

بلل العشب الرطب حذاءها من الداخل. كانت تشعر بالبرد والحنق وكان فيه كثير جدًّا مما لم تفهمه.

«لن يمكنني أبدًا أن أعيش الحياة التي تعيشها زوجات إخوتك.»

كانت تلك الجملة تعني عندها إلى اللقاء. لكن سجادًا رأى فيها عَرْضًا.

قال مبتسمًا بسعادة لم تستطع تفسيرها: «نعم، هناك خيارات أخرى، بالطبع. هناك نيودلهي، عالم آخر غير ديلي، والاثنتان عالم يبعد عن المدينة القديمة عدة دقائق بالدراجة. على المدينة العظيمة أن تقدم لك الخيارات دائمًا، وديلي ـ دلهي أعظم المدن، كنت أفكر في الانتقال إلى هناك، تعرفين.»

«حقًّا؟» ارتبكت جدًّا حينذاك.

«نعم، سأشتري منزلًا، منزلًا صغيرًا. أحد تلك المنازل العصرية. وسأعمل في مكتب محاماة. ذهبت إلى هناك منذ أيام قليلة فقط لأتحدث مع محام أعرفه. أخبرني أن أبدأ وقتما أشاء.»

كان المحامي هنديًّا عمل سابقًا في مكتب «جيمس»، وحين انتقل لممارسة المحاماة في مكتب آخر أخبر سجادًا أن يأتي إليه في أي وقت إن احتاج إلى عمل. قال حين ذهب سجاد إليه في مكتبه بداية ذلك الأسبوع: «حان الوقت لنوقف الإنجليز عن أن يعزو الفضل إلى أنفسهم في كل ما نقوم به. لست مؤهلًا فعليًّا، لكننا سنجد طريقة للاهتمام بهذا. تعرف عن القانون

أكثر من هؤلاء الفتية ذوي الوجوه المنفوخة بدبلوماتهم الجامعية وحبرها الذي لم يجف بعد. إنه لعار أن أهدر «جيمس برتون» مواهبك.»

«تهانيَّ يا سجاد.» وجدت نفسها سعيدة حقًّا من أجله. «أنا مسرورة لك.»

بدا رزينًا جدًّا: «ثمة مشكلة واحدة فقط. لعل بإمكانك مساعدتي فيها. من سيعد لي الشاي في الصباح؟»

رمقته بنظرة سريعة: «أوه، أكرهُ شاي الهند.»

«آه.» كان قد قام بما في وسعه، في أعماق قلبه لم يصدق قط أنها ستقول نعم. «حسنًا، تمنياتي لك بالأفضل.» مد يده. صافحتها. ولم يترك أحد منهما يد الآخر.

وقفا هناك لما بدا وقتًا طويلًا، أصابع كل منهما جامدة في قبضة الآخر. ثم تنفست عميقًا كما لو كانت تتأهب للغطس في عالم تحت الماء.

«تعال معي. أريد أن أخبرك بشيء.» قادته وما زالت ممسكة بيده إلى دكة وسط مقصورة مغطاة على منحدر قريب من أملاك «برتون». تتيح المقصورة معظم الأيام مشهدًا واضحًا لجبال الهيمالايا، لكنها اليوم بدت كالمحطة الأخيرة قبل حافة العالم.

وهناك، وللمرة الأولى منذ وقع الأمر، تحدثت «هيروكو» عما حدث لها حين سقطت القنبلة.

سال الضباب مطرًا وهي تتحدث؛ ليس مطرًا رقيقًا يهمس بالبشائر والخير، بل مطرًا قاسيًا يدق كالمطارق. بدا كصحف من فولاذ سائل تكنس من الحياة المخلوقات الصغيرة في طريقها. تكونت وتفككت أمام سجاد

كيانات مائية ضارية؛ إذ تشق دموعه المطر. إن ترك «هيروكو» ستذوب سريعًا إلى حالتها السائلة. كل شيء فيها مؤقت للغاية.

حين انتهت كانت ترقد على الدكة ورأسها في حجر سجاد ويده تداعب شعرها برقة فائقة كأنه يخشى أن يسقط إن لمسه بقوة أكبر.

قالت وهي تنهض جالسة: «هكذا ترى أنني للعدل لا أستطيع الموافقة على أن أكون زوجة أحد. لا أحد يعلم تأثيرات هذا الشيء على المدى الطويل. لا يعلمون أن كانت ستؤثر على قدرتي على إنجاب أطفال. لا يجزمون أنها لن تقضي على حياتي خلال خمس سنوات أخرى.»

مال إلى الأمام حتى كاد جبيناهما أن يتلامسا.

«أحب أن أكون معكِ. أحب أن أظل معك. كدت أن أركن ذلك جانبًا في دخيلتي خوفًا من الغد، لكن إن كان لهذه الأيام أن تعلمنا درسًا فهو أن ليس بمقدورنا أن نفعل أي شيء استعدادًا للغد. لذلك دعينا نتحدث عن اليوم.»

ابتسمت. كان التفاؤل هدية سجاد. فتحت فمها والتقطتها في تنفسها.

«هل لي أن أسأل: هل قبَّلْتَ امرأة من قبل؟»

«الرجل المحترم لا يجيب عن مثل تلك الأسئلة.»

«بودي فقط أن أتأكد أنك تعرف كيف تفعل هذا. قد يتوقف قراري على هذا.»

«أرى أن عليَّ أن أُظهر معرفتي.»

١١

«أين تظنين أنهما ذهبا؟» سأل «جيمس» للمرة السابعة عشرة اليوم (كانت «إليزابيث» تعدُّ له وهي تلاحظ قِصر الفترة الفاصلة بين السؤال والآخر). نظر من نافذة حجرة الجلوس فلم ير شيئًا في الخارج سوى حلول المساء.

«ما تريد أن تعرفه حقًّا هو ماذا يفعلان؟» أجابت «إليزابيث» وهي تجلس على الأريكة تضم ركبتيها إلى صدرها وتأخذ الكتاب الذي ظلت تتظاهر بقراءته منذ عادت هي و«جيمس» إلى الفيلا وتركا «هيروكو» وسجادًا في الخارج. «إن لم يكن ما اعتدنا أن نفعله نحن في كل لحظاتنا الخاصة في وقت ما من حياتنا حين كان كل منا ينظر إلى الآخر بتلك الطريقة شيئًا تهتدي به...»

«بحق السماء «إليزابيث».»

قالت بحيادية: «تذكُّر هذا يحرجك.»

«لا. لا يحرجني.» جلس بجوارها على مقعد بذراعين. «فقط لا أظن أنه الموقف نفسه على الإطلاق. لا يمكن أن يفكر في الزواج منها.»

«لماذا لا؟ لأنه سيجعل الأمر مربكًا اجتماعيًّا لنا إن دعوناه إلى حفلة وداعنا في دلهي مع «مجموعة الأذكياء»؟ أم لأن «هيروكو» قد تعتبر أن

عرض «بيتنا بيتكِ» يظل ساريًا عليه، وماذا لو جاءت معه إلى لندن وتوقعت أن يقيما في بيتنا؟ ماذا تقول والدتك؟ ماذا يقول الجيران؟» وحين رأت نظرة حانقة في عيني «جيمس» (ذات مرة ضحك ورماها بوسادة لردها الفطن). أضافت: «لقد توفيت والدته. هذا يغير كل شيء. ولم يكن ليأتي هنا لو كان سيعرض شيئًا غير الزواج. وهذا يمنحها خيارين: هو أو نحن. ماذا كنت ستختار إن كنت مكانها؟»

«بإمكانك على الأقل التحدث معها.»

قالت: «لن تستمع».

«أنتِ أيضًا لا توافقين؟» مال إلى الأمام، لكن قليلًا فقط. «عجزي عن تخيل حياتها زوجةً لسجاد يثير أعصابي. نحن حقًّا لا نعلم عن دلهي شيئًا سوى دائرتنا الضيقة.»

«إنه رجل طيب.»

«الرجال الطيبون لا يعنون بالضرورة زيجات طيبة.»

نظر كل منهما إلى الآخر وتحرك «جيمس» ليجلس بجانبها على الأريكة.

«بداية جديدة حين نعود إلى لندن؟»

في الجانب الآخر من الحجرة كان ثمة ظرف مختوم يحوي الخطاب الذي أنهت كتابته أخيرًا لابن عمها «ويلهلم». يقول الخطاب بالألمانية:

> عزيزي ويلي،
> تجعل نيويورك جذابة. نعم! سآتي إلى هناك. لكن ليس مع «جيمس». سأتركه. أرجوك، أرجوك لا تقل شيئًا من هذا لأحد مهما يكن. حتى هو لا يعلم بعد. سأعود إلى إنجلترا

معه وأجعله يستقر في حياته هناك. ثم آتي إلى نيويورك لأرى إن كان قد تبقى في ابنة عمك «إلزي» شيئًا يمكن إنقاذه من حطام مسز «برتون» الوحيدة المرورة، (لكنها معتنى بها جيدًا مع ذلك، سيسعدك أن تعرف هذا).

عزيزي، لماذا لم أصغِ إليك حين قلت إنه سيقضي عليَّ أن أكون الزوجة الصالحة؟ سأكتب لك من لندن حين تتأكد خططي أكثر.

حبي، إ.

لمست «إليزابيث» وجنته برقة.

«بداية جديدة، «جيمس».»

ربت «جيمس» على يديها ونهض واقفًا بسرعة لئلا ترى الدموع في عينيه. فقضى بذلك على كل ما خطر لـ«إليزابيث» من أفكار عن تمزيق الخطاب.

«على ذكر لندن، أظن أن علينا الرحيل مبكرًا عما خططنا له. أظن أن علينا أن نرحل بأسرع ما يمكن.»

«ظننتُ أننا نرغب في قضاء صيف أخير في «مَسوري».»

أخذ يذرع الحجرة بخطاه: «لا أعرف ما سيحدث في هذه البلاد يوم ينتهي الحكم البريطاني. حتى إنهم لم يضعوا الحدود بعد. ملايين لا يعلمون في أي بلد سيجدون أنفسهم خلال أقل من شهر من الآن. إنه جنون أن ننتظر حدوث هذا. ودلهي... مسلمون كثيرون جدًّا، هندوس كثيرون جدًّا. إن وصل مد العنف هناك ستصير مجزرة».

«لكن «جيمس» كيف نترك «هيروكو» في هذا؟ فعلى الرغم من كل شيء ألم تعانِ بالفعل؟»

«حسنًا، أخبريها ألا تتزوجه إذن.»

لكن هذا قد فات أوانه بالفعل. فلو خرج كمران علي حينئذ من فيلته المجاورة لهما إلى كراجه لوجد سيارته الـ«إم جي»، التي أعطى «هيروكو» دروسًا في قيادتها، قد اختفت.

«أين نذهب؟» قال سجاد قبل ذلك وهو يجلس في المقعد المجاور لمقعد القيادة بعد أن دفع السيارة بعيدًا عن الفيلات بما يكفي لتدير «هيروكو» محركها من دون أن يسمع أحد «ولأكرر سؤالي ثانيةً، إن لم يكن لديه مانع من أن تستخدمي سيارته لماذا لم تديريها هناك في الكراج؟»

«نذهب لنتزوج»، أجابت «هيروكو»، مما محا السؤال الثاني من ذهن سجاد: «ماذا نحتاج؟ جامع؟»

«علينا أن نتزوج مدنيًّا»، قال وقد بدا له أنه ليس من الحكمة احتضانها بذراعيه وهي منهمكة تمامًا في الضغط على مقابض ورافعات لوحة المفاتيح. «بالشريعة الإسلامية، لا يمكنني الزواج بغير المسلمة ما لم تكن مسيحية أو يهودية. وأنت لست مسيحية أو يهودية أليس كذلك؟»

«لا.» وجدت أخيرًا حركة نقل السرعة التي تريدها وأضاءت الكشافات الأمامية. كادت الأزهار المبهجة تتفجر بألوانها في الضباب، لكن الطريق أمامهما بدا بعيدًا تمامًا عن الوضوح. «كيف يصير المرء مسلمًا؟»

«يكرر الشهادة: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله ـ ثلاث مرات.»

«قل هذا ببطء.» والسيارة تنحدر على التل، مسرعة، بدت الأزهار أقل وضوحًا في توقها للانطلاق خارج المنطقة الرمادية المحيطة.

«لماذا؟»

«لأكررها ثلاث مرات.»

صمت سجاد فترة، وقال أخيرًا: «ألا ترغبين في معرفة معناها على الأقل؟».

«لا. لا أقولها لأني أؤمن بها، بل لأني لا أرى داعيًا لتصعيب الأمور عليك مع عائلتك أكثر مما يلزم.»

صمت مرة أخرى، وهذه المرة انتابها القلق.

«هل أسأت لعقيدتك؟»

قال وهو يلمس ذراعها: «أنا فقط مذهول من تصرفك العملي. وممتن له».

حين وجدا جامعًا كانت قد أسلمت. وحين سأل «جيمس» للمرة السابعة «أين تظنين أنهما...؟» كانت «هيروكو» تمسك يد زوجها وتقوده إلى أيكة معزولة بعشب ربيعي يتغضن تحت أقدامهما الحافية، وبطانية على كتفي سجاد (تصرُّف «هيروكو» بشكل عملي مميز جعلها تتوقف في الطريق من الجامع لشرائها، على الرغم من أن غرضها من شرائها لم ينكشف لسجاد إلا حينها).

وجيمس يطرح سؤاله للمرة الثامنة، كانت ملابس سجاد و«هيروكو» تتدلى من فرع شجرة وينثر النسيم عليهما زهورًا صفراء صغيرة.

وفي المرة التاسعة، كان سجاد يحاول استعادة صوته ليشرح لـ«هيروكو» أن من الأفضل ترك أجزاء معينة من جسم الذكر بلا ضغط.

في المرة العاشرة، كان رأس «هيروكو» تحت ذقن سجاد، تنفش أنفاسها السريعة شعر صدره ويداه تقتفيان أثر حدود حروقها.

في المرة الحادية عشرة، كانا يرقدان على البطانية، وكانت «هيروكو» على وشك التخلي عن البحث عن معنى كلمة سعادة في اللغات الأربع لتنتبه إلى سيل رفيع من المطر ينسكب من ورقة شجر على صرة سجاد وتغمس فيه طرف لسانها. «سعادة لها نكهة»، قال سجاد. ومع أنها لا تشعر بيده، لكنها عرفت أنها تلمس أحد طيورها إذ يقول هذا فجعلتها الكلمات والإيماءات معًا تقبل فمه.

في المرة الثانية عشرة، كانت تفكر في أن الألم الذي تشعر به معناه أنه لا يعرف ماذا يفعل وكادت أن تخبره بهذا.

في المرة الثالثة عشرة، جاء ثعلب فضي يتسمع مصدر الأصوات، ثم اندفع في لمح البصر، نفذ من شعاع شمس نحيل كان يغرب، تاركًا سجادًا مقتنعًا أنه رأى لحظة الذروة بزوغ نجم.

في المرة الرابعة عشرة، أراحت «هيروكو»، التي عرفت حقيقة الثعلب، رأسها على ذراع سجاد وأخبرته أن الثعلب باليابانية «كوستيون»، وهو رمز أسطوري شهير. قالت إن أكبر الثعالب سنًّا وأكثرها حكمة هو الكيوبي ـ ذو الذيول التسعة ـ ويكون فراؤها فضيًّا أو ذهبيًّا. وبوسعها بهزة خفيفة من ذيل واحد من ذيولها أن تسبب هطول الأمطار الموسمية. لذلك دعنا نفترض أن استراحة المطر إشارة للصنيع الذي أسداه لنا كيوبنا. «كيوبنا؟» سأل. «نعم، ظني أننا وجدنا لأنفسنا حارسًا ودليلًا.»

في المرة الخامسة عشرة، أرادت أن تعرف لماذا تحرك ليريح رأسه على فخذها، وحرمها بذلك من ذراعه كوسادة. فأوضح لها، فتوقفت عن التذمر.

في المرة السادسة عشرة، اكتشفا أن الفرع الذي علقا عليه ملابسهما مبلل، ولم يسعهما سوى أن يضحكا.

في المرة السابعة عشرة، كانا في طريقهما إلى فيلا «آل برتون»، حيث قررا أن تبقى «هيروكو» إلى أن يعود سجاد إلى دلهي؛ ليجد لهما مكانًا يعيشان فيه. كان الضباب قد انقشع تمامًا، وظن سجاد الذي لم يرَ جبالًا من قبل أن قمم الهيمالايا تحيط بها أنهار جليدية سريعة إلى أن قالت «هيروكو»: «لا تكن سخيفًا زوجي. إنها سحب».

لن يستمر النحيب، فكر سجاد وهو يلف ذراعه حول كتف «هيروكو». هذا مجد عظيم. لا أسف يباري هذه المتعة أبدًا.

١٢

وقف سجاد على ضفاف مضيق البسفور، وتعجب كيف ظنَّ باستمرار أن مساجد إسطنبول جميلة. كان الأمر واضحًا حينذاك: المباني قصيرة للغاية ومآذنها رفيعة للغاية. البسفور نفسه كان مضيقًا وليس نهرًا، كان ينبغي أن يكون نهرًا. واللغة المكتوبة ـ بحروف رومانية! كيف لأمة أن تتجاهل جمال الكتابة العربية (بكت أجيال من خطاطي آل أشرف في قبورها لهذا الخاطر). لا. لا شيء هنا يشبع حبه للجمال؛ حتى الخراب الشديد لهذه المدينة التي كانت عظيمة ذات يوم لم يكن بالإيقاع المناسب، النسيج المناسب، النوع المناسب للحسرة.

إنه «جيمس برتون»، وجودهما هنا غلطته.

كان مُقنعًا تمامًا ذاك المساء حين وصل سجاد و«هيروكو» إلى فيلا «برتون»، قال سجاد حذرًا بشكل بائس بسبب البقع المبللة في ملابسه، إنهما تزوجا. كان واضحًا أن الزوجين «برتون» كانا يتوقعان الأمر، وإن لم يتوقعا توقيته. على الأقل تظاهرت «إليزابيث» ببعض السرور، لكن «جيمس» أمسك بذراع سجاد وقاده إلى الخارج.

قال: «لا يمكنك أخذها إلى دلهي». ثم أخذ يتحدث بنبرة المحاماة كما لم يسمعه سجاد منذ أمد طويل. «ها هي الأسباب»، قال «جيمس». تحدث عن احتمال ازدياد حدة وتيرة العنف الذي يؤدي إلى التقسيم وينتج عنه. التكوين الاجتماعي لدلهي وقد وضحه بتفصيل عميق. أفكاره الخاصة عن طبيعة العنف وآثاره على ما يبدو أنهم البشر الأكثر عقلانية. الأفعال التي قد يدفع إليها اليأس أو الغضب أو الدفاع عن الذات. طرح على سجاد أسئلة من تلك التي تبدأ بـ«ماذا تفعل لو...» طالبًا من الشاب أن يفكر في ردود أفعاله الممكنة إزاء تنويعة من الانتهاكات الشخصية والدينية والمجتمعية والعائلية. وسجاد يجلس القرفصاء على الأرض، ورأسه في يديه، انحنى «جيمس» ووضع يده على كتف سجاد وألقى بالقاضية: «وفوق كل هذا لقد حظيت «هيروكو» بنصيبها من هذا على الرغم منها، هل ترغب في إضافة مزيد إلى معاناتها؟».

نظر سجاد إلى أعلى، كأنه مريد أمام رجل من أهل الحكمة.

«لكن ما الخيارات الأخرى لديَّ؟»

مد «جيمس» يده وأوقف سجادًا على قدميه. كانت تلك آخر حركة يؤديها قبل مغادرة هذا المكان وهؤلاء البشر. الإجراء الأخير لحكم الخَيِّرين في مواجهة مد رحيل الإمبراطورية، الرحيل المخضب بالدماء من الهند.

«ثمة جنرال عجوز في «مَسوري» يرغب في تقديم هدية زفاف لكما.»

كانت تلك فكرة «إليزابيث». لما كان لا جدوى من إقناع «هيروكو» بألا تتزوج سجادًا، هكذا قالت لـ«جيمس»؛ ينبغي بدلًا من ذلك إيجاد طريقة لإبعادهما عن دلهي «إلى أن يتضح كل هراء التقسيم». كانت قد انضمت إليه في المشي في الحجرة فترة، ثم صاحت «إسطنبول!» واتجهت إلى التليفون.

طلبت الاتصال بالجنرال الذي أوقف «هيروكو» في السوق وتحدث معها عن الأزهار. كانت زوجته الأولى يابانية وقد توفيت منذ سنوات عديدة، ولم تجد «إليزابيث» مانعًا من أن تستغل عواطف الرجل العجوز إزاء شبيهة حبيبته الفقيدة.

«لديه منزل في إسطنبول، كانت زوجته الثانية تركية، لكنه لم يذهب إلى هناك منذ توفيت عام ٤٣. مع ذلك يوجد خادم بالمنزل، وطالما قدم الجنرال وهو ثمل عروضًا لأي شخص يستمع إليه بأن يذهب ويقيم في عوَّامته على ضفة البسفور. وهو الآن يعرض عليك وعلى «هيروكو»، وهو يقظ تمامًا، أن تقضيا هناك شهر عسل ممتدًّا.»

شهور العسل أمر يخص الإنجليز. حتى وإن كان سجاد قد فكر في شهر عسل، فلن يتحمل أعباءه المادية. «هيروكو» تتفهم هذا. إذ يجب تخصيص كل مدخراته لشراء منزل لهما في نيودلهي. لكنه كان قد سمع ما يتردد في المدينة القديمة عن الدفاع والثأر والخائنين والعدالة، وكان يعلم أن «جيمس برتون» على حق في قوله إنه لا ينبغي تعريض «هيروكو» لمشاهدة مزيد من الوحشية. عليه إذن حين يعود إلى دلهي أن يجد طريقة لاقتراض المال لشراء المنزل.

بدا الأمر كله حتميًا ويتسم بالحكمة تمامًا.

أدار سجاد ظهره إلى جمال «الجامع الأزرق»، الجمال المذهل، ومشى بتثاقل إلى المعدية التي تقله إلى عوامة الجنرال حيث توجد «هيروكو». قد تكون الآن جالسة بجوار النافذة تنظر إلى ضوء البسفور المشع، تخيَّلها سجاد، تبحث عن لمحة هدوء في المشهد.

لكن في الحقيقة كانت «هيروكو» وقتئذ تقف على طاولة، وتضغط بكفها

السقف الرطب المتدلي، تحاول أن تحدد ما إذا كان ثمة خطر محدق من انهيار السقف إلى الداخل. كانت العوامة، على الرغم من وضوح أنها كانت فخمة ذات يوم، في حاجة ماسة إلى الترميم. كان خشبها يتعفن، وطلاؤها الخارجي الأحمر الداكن يتقشر، وأغلب نوافذها بأطر مكسورة، أو بلا أطر أساسًا. مع كل ذلك صارت بمرور الأشهر التي قضتْها هي وسجاد هنا تحب المكان. استخدما غرفة واحدة فقط، تلك التي بها فجوة في الجدار تشبه المحراب وتطل على البسفور، يصر سجاد أنها تمددت إلى الخارج عدة درجات منذ أن عاشا فيها، لكنها كانت كافية تمامًا لهما.

هبطت «هيروكو» من فوق الطاولة إلى كرسي ثم إلى الأرض، وعادت إلى غرفة المحراب تتوقع أن تشم فيها الرائحة الطفيفة لممارسة الحب هذا الصباح. لمست وهي تمر بالخزانة المصنوعة من خشب الورد درجها الأعلى كأنها تلمس تميمة السعد، كان بداخلها هدية زفافها من «إليزابيث».

«كان هذا لـ«كونراد».» قالت «إليزابيث» بعد دقائق من إمساك «جيمس» بذراع سجاد وخروجهما معًا من الفيلا. فتحت دولابًا وأخذت صندوقًا مخمليًّا: «أعطته له جدتنا، ليقدمه لعروسه. كان سيسره أن يقدمه لكِ».

فتحت «هيروكو» الصندوق، وإذ رأت طقم الألماس بداخله، دفعت به تعيده إلى «إليزابيث».

قالت «إليزابيث»: «لنترك التعبيرات المهيبة للرجال. أنتِ صاحبة الحق الوحيدة في هذا. لا أقول هذا لأؤنبك على زواجك من آخر. قد أكون بالكاد أعرفه، لكني أعرف بما يكفي لأتأكد من أن «كونراد» كان سيسره أن تكوني سعيدة. خذيه».

قالت «هيروكو»: «دعيه لعروس ابنك». لم تكن تشعر بأي ذنب تجاه

«كونراد»، بل رأت تقريبًا طريقته الجميلة في إحضارها وسجاد إلى «بنجل أوه»! وإحضار أحدهما إلى الآخر. لكنها لم تكن لتدعي حقًّا في أشياء تعلم أنها ليست من حقها. «في أية مناسبة سأضعه على كل حال؟»

«أحيانًا تكونين بليدة الحس فعلًا، أنا أعطيه لكِ. إنه ملكك. ما تفعلين به شأنك، إن لم ترغبي في ارتدائه، حسنًا...» ورفعت كتفيها، وفهمت «هيروكو» بوضوح كما لو كانت «إليزابيث» قد قالتها بصوت عالٍ، «بيعيه!»

رفعت «هيروكو» يدها لتأخذ الصندوق. لوهلة شعرت «إليزابيث» برغبتها في التراجع ـ كان «جيمس» من أهداها طاقم الألماس هذا ليلة زفافهما، وضع القلادة حول جيدها، والسوار في معصمها، والقرطين في أذنيها، بينما كانت ترقد عارية على فراشهما ـ لكنها وضعته في يد «هيروكو».

ابتعدت «هيروكو» عن الدولاب واتخذت جلسة مريحة وسط الوسائد على مقعد النافذة. سرعان ما سيعودان إلى دلهي، وبيبع سجاد هدية «إليزابيث» لبائع مجوهرات يثق فيه، ويشتريان بثمنه منزلًا لهما. أبدى في أول الأمر إصرارًا عنيدًا ضد فكرة أن يكون مدينًا هكذا لـ«إليزابيث برتون». قضيا معظم شهر أغسطس في الشجار حول الأمر، لكنه إذ تتضاءل مدخراته ويأتي كل يوم بدليل آخر على أن «هيروكو» غير ملائمة بالمرة لحياة داخل نظام عائلي مشترك، كان إصراره يبلى. طغت عليهما الراحة التي شعرا بها بعد أن حسما الأمر فقضيا الأسابيع القليلة الماضية في تناغم تام، يحرص كل منهما على أن يقدِّر الآخر، ويرغب كل منهما ـ بامتنان تقريبًا ـ في التنازل عن الخلافات الثانوية. كان هذا ما تعنيه فترة «شهر العسل»، هكذا فكرت «هيروكو» الليلة الماضية حين جلس سجاد ليسرح لها شعرها بالفرشاة وهو يقول: «لا». بالطبع لم يكن يتمنى لو كان شعرها أطول، وإنه لم يلحظ قط عدم وجود امرأة في حيه تقص شعرها كالأولاد. ثم تساءلت عما سيحدث حين ينتهي شهر العسل.

مالت تطل من النافذة، تتنفس الهواء البارد الآتي من سطح البسفور. دلهي في أكتوبر! قال سجاد إن بإمكانهما البقاء مدة أطول قليلًا قبل أن يعودا ليصلا في وقت أقرب إلى الشتاء، لكنها عرفت أنه يقول هذا على أمل أن ترفض هي، لهذا رفضت. لقد رأت تألمه لبعده عن وطنه في سبتمبر حين اندلعت مظاهرات التقسيم في دلهي، وباتت المدينة القديمة تحت حصار حقيقي.

«الأمر ليس أنني أريد أن أكون هناك»، قال ذات ليلة وهو يستلقي على بطنه وثقلها المريح أعلاه، أصابعهما تتشابك بحرية. «إذ ماذا سأفعل؟ أنضم إلى الرجال المسلحين في حراسة كل مداخل حيي القديم؟ أرفض الانضمام إليهم وألوذ جبنًا بمنزل أسرتي بدلًا من ذلك؟ هذا ما كنا سنفعله، أنت تعرفين... منازل المسلمين في نيودلهي يتم تدميرها. يسحبون النساء من فراشهن ليلًا...» أدار إليها وجهه وسبر ضوء القمر لـ«هيروكو» غور تعبير وجهه غير المألوف. «كان «جيمس برتون» على حق في كل ما قاله عن العنف. إنه الجنون المطبق. لا أريد أن أعرف مَن مِن أصدقاء طفولتي صار قاتلًا حين كنا بعيدين. لا أريد أن أعرف ماذا فعل إقبال في حبه المحبط. لا أريد أن أكون هناك. لكنه الشعور بالخيانة، الأمر كله سواء.» لم يخبرها وقتئذ، أو في أي وقت آخر، أنه غادر من أجلها.

لكن حل سبتمبر، وقد انتهى العنف، وعلى الرغم من قول سجاد إنه يعرف أنه عائد إلى نيودلهي مختلفة، إلا أنه لا شيء بوسعه تغيير الطبيعة الأصيلة لديلي في المكان، قالها وهو يؤكد على مقطع «ديل» (أخبرها في درسهما الأول أن ديل بالأردية تعني قلب. رأت حينها وجهه يحمر خجلًا، فاحمر وجهها خجلًا كرد فعل. جعلها تذكُّر كل هذا الاحمرار خجلًا في بداية دروسهما ترغب في الضحك. كيف كانا غريبين أحدهما عن الآخر وعن نفسيهما).

سمعت صوت فتح الباب. وصل البيت أخيرًا. يا للسخف فقد اضطر إلى الذهاب إلى القنصلية الهندية لإنهاء بعض الإجراءات الرسمية ليعودوا إلى دلهي.

دخل إلى الغرفة، فحبست أنفاسها حين رأت هيئته.

سار ناحيتها من دون أن ينبس بكلمة ـ بخطوات بطيئة للغاية، مثقلة للغاية، كل شيء به منهزم.

«ما الخطب؟ ماذا حدث؟»، قالت وهو يجلس بجانبها، بحرص، كما لو كانت عظامه ستنكسر.

«قالوا إنني رحلت باختياري.» نطق الكلمات ببطء وحرص كأنها بلغة أجنبية ولا يزال يحاول فهم ما تعنيه. «قالوا إنني من المسلمين الذين اختاروا الرحيل عن الهند. لا يمكن ألا يكون باختياري. قالوا، «هيروكو»، إنه لا يمكنني العودة إلى ديلي. لا يمكنني العودة إلى وطني.»

لم يسع «هيروكو» سوى أن ترقب زوجها وهو يرفع ساقه ويتقوقع على نفسه على غطاء الفراش. رددت اسمه، كررته بكل نداءات التحبب التي تعرفها بالإنجليزية والأردية واليابانية، لكنه لم يكن يسمعها من صوت رفرفة أجنحة الحمامات، وصوت آذان المسجد الجامع، وضجة نزاعات إخوته، وجلبة التجار والمشترين بـ«شاندني شوك»، وحفيف النخيل في الرياح الموسمية، وضحكات أولاد إخوته، وصيحات أصحاب الطيارات الورقية، وخرير النوافير في ساحات الدور والصوت الأجش للجار الذي لم يره من قبل قط يغني غزليات قبل الغروب، ودقات قلبه، دقات قلبه اللاهثة...

مقاتلون أنصاف ملائكة

باكستان، ١٩٨٢-١٩٨٣

١٣

راقبت هيروكو أشرف بقعة ضوء الشمس تنزلق عبر طاولة الطعام ناحية ابنها رضا، الذي كان منكبًّا بحزم على الكلمات المتقاطعة التي وضعتها له أمه. اصطدمت بقعة الضوء بذراع رضا التي تحيط بالكلمات المتقاطعة في وضعية الدفاع التي يتخذها أذكى تلميذ في الفصل، وقد اعتاد أن يحاول الجميع غش إجاباته من ورقته. وإذ فشل وكزها الرقيق له في حمله على تحريك ذراعه، زحف ضوء الشمس على كتفيه حيث يمكن اختلاس النظر إلى المربع بكلماته المفتاحية باليابانية والأردية وحلوله بالإنجليزية والألمانية.

طرفت عينا «هيروكو» مرة، اثنتين، ثم اختفت الصورة. حل محل الولد الصغير الذي لا يسره في العالم سوى شيئين اثنين: الكلمات المتقاطعة متعددة اللغات، والحكايات التي تحكيها له والدته، ويتحول فيها كل ما هو مألوف: الطيور والأثاث وضوء الشمس والفتات وكل شيء إلى شخصية لها دور. ولد في السادسة عشرة من عمره يمرر إصبعه على صور المجلات البراقة لأجهزة إلكترونية صغيرة يدَّعي ابن عمه في الخليج أنه يمتلكها. («ألا يملك كاميرا؟» قال له سجاد مرة. «لماذا لا يرسل إليك

صورًا فوتوغرافية لجهاز الفيديو الفخم وماكينة الرد الآلي الفخمة وسيارته الفخمة التي يمتلكها بدلًا من قصاصات المجلات التي يمكن شراؤها من البازار الأردي؟ الله وحده يعلم أن كان قد سافر خارج البلد ـ إنه ابن إقبال على الرغم من كل شيء.»)

أمر غريب، فكرت «هيروكو»، خلال أكثر من خمسة عقود لم تسمح قط للحنين إلى الوطن بأكثر من مرور عابر في حياتها، على الرغم من كل الأجزاء الساطعة في ذاكرتها ـ السير في ناجازاكي مع «كونراد»، رغد العيش في منزل «آل برتون»، أيام اكتشاف الحب مع سجاد في إسطنبول ـ لكنها منذ خطف البلوغ ابنها رضا من طفولته تعلمت الرغبة في السير إلى الخلف في الزمن. امرأة يابانية راشدة في نهاية اليوم، فكرت بينها وبين نفسها، ثم ابتسمت، ببعض الرضا عن النفس، لسخافة الفكرة.

نظر رضا فوجد والدته تراقبه، فأدرك أن الصور البراقة التي لصقها في كتابه، حين أصر والده أول مرة أن عليه أن يقضي على الأقل ست ساعات يوميًّا في الاستذكار لامتحاناته، كانت ظاهرة بوضوح لها. أخفى ارتباكه في غمغمة ساخطة قبل أن يخرج إلى الفناء.

كان من المستحيل في تلك الأيام معرفة من يبزغ بين لحظة وأخرى من هيئة ابنها: ولد طيب محبوب، أم مخلوق يحدق بسخط بين الصمت والانفجار. تتذكر تلك اللحظة بوضوح، لحظة أن أعلن الأخير عن نفسه؛ منذ ثلاث سنوات، حين سألت ولدها وهو في الثالثة عشرة من عمره عن سبب عدم حضور أصدقائه لزيارته في المنزل خلال الأسابيع القليلة الماضية. «ليس بإمكاني دعوة أحد من أصدقائي إلى المنزل»، صاح بصوت غير متوقع على الإطلاق حتى إن سجادًا هرع إلى الحجرة. «وأنتِ تتجولين بساقين عاريتين، لماذا لستِ باكستانية أكثر من هذا؟» بعد ذلك لم تعرف هي

وسجاد هل ينفجران بالضحك أم بالبكاء؛ إذ تعبر ثورة ولدهما في مراهقته عن نفسها بالشعور بالوطنية. ومع ذلك، قامت فترة باستبعاد أثوابها والتعود على ارتداء «الشالوار كاميز» في المنزل، بعد أن كانت تتركه من قبل لمناسبات كالجنازات والطقوس الدينية الأخرى؛ لم يعلق سجاد بشيء، رمقها فقط بالنظرة المجروحة قليلًا لرجل يدرك أن زوجته ترحب بتقديم تنازلات من أجل ولدها، لا تقبل بتقديمها من أجل زوجها، لكنها بعد شهور قليلة، حين قال رضا إن كاميزها ضيق جيدًا، عادت مرة أخرى لأثوابها.

وضعت «هيروكو» جريدتها وهمَّت بأن تصيح على رضا؛ لتذكره بأن اليوم عطلة «شوتا» وأن عليه أن ينظف مكان أكله بنفسه، حين لفت انتباهها الصداح الفجائي للقبرات التي تلتقط طعامها من الآنية الخزفية المليئة بالبذور التي تتدلى من شجرة النيم في الفناء. طلت من النافذة ورأت رضا يقف تحت الشجرة، وينظر إلى السماء وهو ينظف ما بين أسنانه بتكاسل بغُصَيْنٍ نزعه من الشجرة للتو. ابتسمت «هيروكو». كان نسيم الصباح المبكر في إبريل منعشًا، وابنها على وشك أن ينتهي من امتحاناته، وسرعان ما يعود إلى عالم الكريكيت والأحلام التي تسره بشدة، وغدًا تتناول الغداء مع صديقة من المركز الثقافي الياباني، وربما تسمع عن بعض أعمال الترجمة التي قد تمكنها من شراء تلك اللوحة الفنية لدلهي القديمة هدية لسجاد في عيد ميلاده الستين.

حركت نظرها عن الفناء إلى حائط الحجرة أمامها، أعلى طاولة الطعام مباشرة. على حوائط أغلب غرف المعيشة في بيوت الحي صور فوتوغرافية أو لوحات زيتية، أو حتى نسخ كبيرة لمناظر طبيعية جميلة أو (من بين الأكثر ورعًا) صور لحجيج الكعبة. لكن «هيروكو» أصرت دائمًا على أن الحجرة لا تحتمل سوى عمل فني واحد ليكون بؤرتها. ظلت البؤرة في هذه الغرفة

لخمس وعشرين سنة لوحة بالحبر الأسود لثعلبين يختبئان معًا، كان سجاد قد وفق لشرائها بثمن آيس كريم بالصودا وفرشاة شعر ملونة من الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا ابنة إحدى صديقاتها بالمركز الثقافي؛ كانت هديته لها في الذكرى السنوية العاشرة لزواجهما. غضنت أنفها بحب للثعلبين، ستنقلهما إلى غرفة النوم إن أتت بلوحة دلهي.

خمسة وثلاثون عامًا من الحياة الزوجية! وزوجها على أبواب الستين. لم تبتعد كثيرًا خلف نفسها. جربت كلمة «عجوز» بلغاتها المختلفة، لكنها جعلتها تقهقه فقط. لا. لم تشعر بأنها عجوز على الإطلاق، ويقينًا لم تفكر في سجاد على هذا النحو. ومع ذلك، لا يزال شيء ما يفصلهما بمسافة لا يمكن حسابها عن الزوجين الشابين اللذين وصلا إلى كراتشي في أواخر ٤٧ غير واثقين من الغد. لم يُعجِزنا الزمن، بل أرضانا، فكرت وهي تومئ لنفسها برضا؛ في العشرين كانت ستحتقر الكلمة. بمَ كانت تحلم حينذاك؟ عالم مليء بالملابس الحريرية وبلا واجبات. فكرت في الفجوة بين الكلمتين «واجبات» و«مطيعة»، بعد مرور ما يقرب من أربعة عقود على ناجازاكي وليس لديها بعدُ وقتٌ للأخيرة، لكن الأولى اندمجت مع كلمة «أسرة»، كلمة «حب».

سمعت صوت فتح باب الغرفة المجاورة. دخل سجاد غرفة المعيشة يتثاءب، ومال ليلتقط الجريدة التي تركتها زوجته، وهو يمر بإبهامه على طابع الحسن على خدها. كانت حركة طقسية، بدأت في أول صباح استيقظا فيه معًا، على متن سفينة في طريقها من بومباي إلى إسطنبول. وحين سألته ماذا يفعل أجابها: «أتحقق فقط من أن الخنفساء لم تحلق بعيدًا».

«ألم يستيقظ رضا بعد؟» قال وهو يتجه إلى طاولة الطعام حيث سكب لنفسه كوبًا من الشاي باللبن من تُرْمُس ومسح بكم كورتته القطرات التي

انسكبت على المفرش البلاستيكي على الطاولة، فصدر عن «هيروكو» لهذا صوت سخط شبه حقيقي ـ كان هذا الصوت، مثله مثل هزة رأس سجاد وهو يحكم إغلاق التُّرْمُس ـ أحد بقايا المشاجرات المتقدة. بالنسبة إلى «هيروكو» كانت العناية بالتفاصيل مرادفًا للأخلاق الحميدة. بالنسبة إلى سجاد، كان كوب شاي يتصاعد منه البخار تحضره ربة البيت أول شيء إلى الرجل في الصباح أحد المكونات الأساسية للمنظومة المعقدة من الملاطفات التي تؤلف حياة أسرة.

أحيانًا حين تنظر «هيروكو» وراءها إلى السنوات الأولى من الزواج لا تجد شيئًا واضحًا لها تقريبًا سوى سلسلة من المفاوضات: بين تصوره للبيت فضاء اجتماعيًا، وتصورها له ملاذًا خاصًا. بين ظنه بأنها سيكون مُرحبًا بها بين من يعيشون وسطهم إن ارتدت كما يرتدون واحتفلت بعطلاتهم الدينية، وإصرارها على أنهم سيرون ذلك زيفًا وأن عليهم أن يتعلموا قبولها بطريقتها الخاصة. بين قراره بأن الرجل هو من يكسب قوت الأسرة، وقرارها بأن تعمل مدرِّسة. بين رغبته في الاسترخاء، وغريزتها الثورية. كان جليًّا لها أن نجاح زواجهما قام على قدرتهما المشتركة على الالتزام بنتائج تلك المفاوضات من دون إحساس بالمرارة لخسارة أرض أكثر في الصدامات الفردية. ساعدهما أيضًا، أضاف سجاد وهو يمسك يدها حين أخبرته بهذا ذات مرة، أن كلًّا منهما وجد صحبة الآخر أفضل من صحبة أي أحد آخر في العالم. ساعدت أشياء أخرى أيضًا، همست «هيروكو» في أذنه، في وقت متأخر من الليل.

جلست بجوار سجاد ولمست ذراعه: «نعم، استيقظ. الآن، لا تلقِ عليه محاضرة إبعاد قدمه عن البدَّال قبل خط النهاية. أنت تعرف أنها ستضايقه فقط».

«وعدتك بالفعل، ألم أعدك؟ متى خلفت وعودي لكِ؟» غمس منديلًا ورقيًّا في الماء ومر به على منبت شعرها. منذ بدأ الشيب يغزو شعرها، صار بالإمكان دائمًا معرفة أن كانت قد قرأت جريدة الصباح أم لا بالنظر إلى منبت شعرها. كانت لطخات مطبعية تشهد على عادتها تمرير أصابعها على منبت شعرها وهي تقرأ.

قالت بهدوء: «لا ينبغي أن تفعل هذا من أجلي. ينبغي أن تفعله من أجله».

أسند سجاد ظهره يرشف شايه. يتساءل أحيانًا كيف كانت علاقته بابنه ستختلف إن كان الصبي قد ولد مبكرًا عن وقت ولادته. كان سيكون رجلًا كبيرًا الآن، مستقرًّا ويكسب دخلًا جيدًا، وكان سجاد سيُعفى من نوبات الذعر التي تداهمه حين يفكر في المستقبل المالي لرضا و«هيروكو» في كل مرة يشعر بأخف وخزة في صدره أو يستيقظ بألم لم يشعر به قبل أن ينام. لكن «هيروكو» بعد سقوط حملها عام ١٩٤٨ تعلمت الخوف من تصور ما قد يفعله جسدها الذي تعرض للإشعاعات في أي طفل قد يحمله، ولم يكن بمقدور شيء مما يقوله سجاد أن يغير تفكيرها هذا. لكنها وجدت نفسها حبلى وهي في الحادية والأربعين من عمرها. ووجد سجاد نفسه فجأة يحسب بذعر متزايد السنوات الباقية له حتى سن التقاعد، مع أنه حتى ذلك الحين كان يتعامل مع موقفه المالي باستخفاف صاحب الأملاك (كان المنزل الذي يعيشان فيه ملكهما بفضل ألماسات «إليزابيث برتون»)، ولا أطفال، وخطة معاش معقولة وزوجة تكسب دخلًا إضافيًّا لا بأس به من التدريس.

غريبة وغير متوقعة، تلك الأزقة التي تتفرع من أزقة أمام رجل يشق طريقه في هذا العالم، فكر سجاد وهو يغمس كسرة خبز في كوب الشاي ويمضغ القطعة التي تبللت تمامًا بتلذذ. في بداية ١٩٤٧ كان يؤمن أنه بنهاية العام سيكون متزوجًا بامرأة سيتعلم أن يقدِّرها بعد توقيع عقد الزواج الذي يربط

حياته بحياتها، كان يعرف أن هذه المرأة سيتم اختيارها له، إلى حد كبير، على أساس قدرتها على الاندماج في العالم الذي كبُر فيه. وأن هذا العالم، عالم حيِّه، سيكون عالمه إلى آخر عمره، وعمر أبنائه وأبنائهم من بعد ذلك.

لو علم حينها أنه وديلي سيغتربان أحدهما عن الآخر بحلول الخريف - بسبب امرأة اختارها ضد رغبة أسرته - لبكى حينها وأنشد أشعار غالب حين انتحب الشاعر العظيم وهو يرحل من دلهي، لعن ظلم الهوى وغباءه، وسجل كل المشاهد والأصوات والتلاحم اليومي لحياة ديلي التي كان مؤمنًا أنها ستظل تلاحقه إلى الأبد، لتجعل أي مكان آخر في العالم برية من الضياع. لم يكن ليصدق أنه سيفكر في كراتشي وطنًا، وأن مُرَّ أساه في فراقه لديلي سيكون لغياب شبكات الأمان الذي كان يتيحها نظام العائلة المشترك ذات يوم.

لكن حتى ذلك الأسى صار هيِّنًا. كان رضا في السادسة عشرة من عمره وقد أوشك بالفعل على اجتياز امتحانات الثانوية، وهو أصغر بعام من كل أولاد جيرانهم الآخرين - رمق سجاد زوجته بنظرة تقدير سريعة، فقد عرف دومًا أنها صاحبة الفضل المباشر في حدة ذكاء رضا، وسرعان ما يدخل كلية الحقوق، خطوات قليلة فقط ثم يصل إلى دخل مطمئن، ومستقبل واعد يفخر به أي والد. ثم، عاهد سجاد نفسه، أن يتوقف عن التسلط بشدة على ولده - عن إصراره على النتائج والإنجازات، عن ضيق خلقه إزاء الجانب المحب للهو فيه - ويتيح لنفسه رفاهية الاسترخاء ببساطة وهو برفقة رضا.

«ها هو»، قال سجاد وهو ينهض؛ إذ عاد رضا يدخل غرفة المعيشة بسرواله الرمادي وقميصه الأبيض مكويان جيدًا، وشعره مصفف إلى الخلف في إقرار بأن اليوم آخر يوم يرتدي فيه الزي المدرسي. في العادة يترك شعره ساقطًا على عينيه ليبقي وجهه بعيدًا عن أنظار العالم. الآن كانت الدهشة في عيني أمه ووجنتيها تُفسح المجال لأنف أبيه وفمه على نحو بيِّن تمامًا،

وجميل كذلك. «نسيت كم تبدو جميلًا حين تعتني بنفسك». حين سمع صوت سخط «هيروكو» أضاف: «ماذا؟ هذا إطراء».

قال رضا: «يجب أن أذهب. لا أريد أن أتأخر على الامتحان».

«انتظر. انتظر. هل ستخرج للاحتفال مع أصدقائك الليلة؟»

هز رضا رأسه نفيًا.

«لا يزال لدى أغلبهم مادة أو اثنتان. سنخرج يوم الجمعة.»

«سنخرج الليلة إذن لتناول طعام صيني»، قال سجاد بتعاظم وهو ينظر إلى «هيروكو» ليلتقط ابتسامة السرور على وجهها. «وقد ترتدي هذه ـ هنا، لا أريد أن أنتظر حتى المساء لأعطيك إياها.» وأشار برأسه لابنه ناحية الحقيبة الكبيرة التي وضعت كطاولة، وأزاح بحرص قطعة قماش مطبوعة بالورد كانت تغطيها وفتحها لتنطلق في الغرفة رائحة كرات النفتلين. «كان عليَّ أن أتركها في الهواء قليلًا.» تمتم سجاد وهو يُخرج شيئًا ملفوفًا في نسيج رقيق، وأشار برأسه لابنه أن يقترب. «هنا.» نهض ممسكًا بسترة بيج من الكشمير من أجل رضا. «إنها من «سافيل رو»».

«من دلهي؟» سأل رضا وهو يلمس كم السترة.

«لندن.»

رأت «هيروكو» رضا يرفع يده عن السترة. يرفع كفيه في الشمس؛ ليتحقق من أنه ليس بهما أي وسخ قبل أن يمرر أصابعه على الكشمير ببطء، بمداعبات لطيفة.

ابتسمت «هيروكو» وهي ترى سجادًا يساعد ابنهما في ارتداء السترة التي كان يرتديها يوم أن رأته أول مرة.

قالت بقليل من اللهو: «أميريَّ، كم أكره أن أكون أنا من يقول هذا، لكن الشتاء انتهى».

«أوه! عملية يا أشرف! المطعم مكيَّف الهواء. قد يرتديها حين يكون بالداخل.» مسح سجاد بالفرشاة طية صدر السترة ولم يكن عليها شيء وهو يشعر أنه يبحث عن عذر ليلمس ابنه. كان يشعر بحبه لابنه بهذه القوة في حضور «هيروكو»؛ فقد كان جزءًا لا يتجزأ من حبه لزوجته. كان يتذكر من السنوات الأولى من الزواج ما تطلق عليه «هيروكو» «مفاوضات»، ولا تزال تذهله أحيانًا لغتها العملية التي تضفيها على المواقف الحميمة، على نحو مختلف تمامًا. في البداية كان خائفًا دومًا من فقدانها. إذ كانت امرأة قد تعلمت أن بإمكانها ترك كل شيء وراءها، والبقاء حية. كان يستيقظ في بعض الليالي ليجدها تحدق فيه بثبات، فيظن أنها تتخيل ـ تتدرب على ـ حياة من دونه. بالنسبة إليه، كان لفقدان الوطن أثر مختلف تمامًا؛ فقد جعله يؤمن بأنه بقي حيًّا فقط لأنها معه. إنه سينجو من أي شيء لو بقيت معه؛ إنه سيفقد كل شيء إن فقدها. كل تلك «المفاوضات»، كان سيستسلم في كل واحدة منها لولا علمه بأنها ستحتقره إن فعل. لهذا كان من وراء كل تفاوض له حساباته الخاصة بموضع الاستسلام، وموضع البقاء على إصراره؛ ليظل محتفظًا بحبها واحترامها.

بمرور السنين انكمش خوفه من رحيلها، لكنه لم يتلاشَ تمامًا إلى أن وُلِد رضا ودخل سجاد غرفة المستشفى ليرى زوجته تحمل طفلهما بنظرة رعب، تقول إنها تلقت من لن يكون بمقدورها أن تتركه وراءها أبدًا، ولن تبقى حية أبدًا إن فقدته. ثم نظرت إلى سجاد، على نحو مختلف تمامًا عن أي مرة من قبل، وعلم هو أن هذا المخلوق الضئيل الباكي قد قيدها بزوجها.

حين اعترف لها بكل هذا، بعد ذلك بسنوات، سألته تغيظه: «أي أنك لو كنا

رزقنا بطفل على الفور كنت ستتحول إلى زوج طاغية بدلًا من الرجل الكريم المتفهم الذي عشت معه طوال هذه السنين؟». لم تنكر قط أنها تخيلت حياة من دونه ـ حين صارحها بمخاوفه ـ أو أن هذه الحياة كانت ستكون برفقة «إليزابيث برتون»، وقد صارت «إلزي فايس»، التي كانت تتوسل إليها في كل خطاباتها خلال السنوات الأولى أن تأتي وتقيم معها في نيويورك، من دون أن تأتي على ذكر سجاد أبدًا.

«ستدعينني أرتدي هذه السترة الليلة؟» قال رضا ويداه تربت برفق على كمي السترة ويتساءل إن كان ابن عمه في دبي لديه شيء بهذه الروعة.

قبَّل سجاد جبين ابنه.

«إنها سترتك. هدية لمحاميَّ الصغير. أنا فخور بك.»

خلع رضا السترة وطواها بحرص.

قال: «لست محاميًا بعد».

«إنها مسألة وقت فقط وتصير محاميًا.» بدا سجاد شاردًا على غير عادته بالمرة. «هذه هي الطريقة الصحيحة. أن تذهب إلى المدرسة، تذهب إلى الكلية، تجتاز كل الامتحانات، تثبت ما أنت قادر عليه وما تعرفه. ثم لن يكون بوسع أحد أن يسلبك هذا.»

«نعم، بابا» قال رضا بتلقائية. لدى كل أب في حي المهاجرين هذا حكايات عما فقده، وما بدأ إعادة بنائه بعد التقسيم، ويلقي هذا الخطاب نفسه على ابنه. لعل عليه أن يكون ممتنًا لأن أباه اختار القانون، وليس الطب أو الهندسة، ليكون عليه أن يقضي مسعى حياته فيه، إلا أن الامتنان لهذا بدا صعبًا مع وجود عالم الكثبان الرملية، الذي يمكن فيه لفتية مثل ابن عمه

«التتمش»، الذي لم يجتز امتحان التسجيل حتى، العمل في فنادق بها مصاعد ورافعات وأرضيات رخامية في مكاتب الموظفين، ورواتب تكفي لشراء أي شيء جديد وبراق ويتبقى منها فوق ذلك ما يمكن إرساله إلى عائلاتهم.

كل تلك السنين التي أصر فيها سجاد على أنه سعيد بالعمل مديرًا عامًّا في مصنع صابون، فكرت «هيروكو» وهي تنظر إلى زوجها، ولم يكف منذ وُلد رضا عن استخدام كلمة «محامي». قام بمحاولة واحدة فقط حين وصلا إلى كراتشي ليعاود دخول مهنة القانون التي طالما تخيل أنه سيتميز فيها يومًا ما. قال أول محامٍ طرق باب مكتبه إن بإمكانه أن يبدأ في اليوم التالي، براتب موظف، مبلغ زهيد. حين أدرج سجاد كل ما كان بمقدوره عمله، كل ما يعلمه عن القانون، قال له الرجل: «ليست لديك مؤهلات من أي نوع». انتصب سجاد في جلسته، سأل عن محامي دلهي الذي عرض عليه عمل، وعلم أنه توفي؛ لا، ليس في مظاهرات التقسيم، بل في حادث صيد. قضى سجاد ليلة واحدة يمسك رأسه بيأس، ثم ذهب في اليوم التالي ليعثر على كمران علي الذي هاجر حديثًا ولديه اتصالات جيدة، والذي قام هو و«هيروكو» بقيادة سيارته في ضباب زفافهما في «مَسوري»، ثم عاد إلى المنزل يتألق فخرًا وهو يقول: «مدير عام! في مصنع به أكثر من مائة عامل تحت إشرافي!» كما لو كان ذلك كل ما يريده من العالم.

وكان ذلك حقيقيًّا، كانت «هيروكو» تعرف أنه يسره أن يكون في موقع سلطة، يحظى بالقبول واحترام الآخرين، قادرًا على الإنفاق على زوجته وابنه وكذلك، إلى حد كبير، على أسرة أخيه إقبال المنغمس في الملذات في لاهور. لكن كل تلك الأحلام الأخرى - بمستقبل مهني يحمل أكثر من مجرد الرضا - قد وُضعت على كاهل رضا. وفقط إن صرح رضا برغبته في شيء آخر، حينها ستجد طريقة لتُبيِّن لسجاد الضرر الذي يسببه. لكن رضا

لم يفعل شيئًا سوى أنه ضحك حين واجهته بصراحة وقالت: «هابيوس كوربوس! آبريوري! سنضيف اللاتينية إلى قائمة لغاتي يا صغيري».

«لماذا يجب أن تكون موقّرًا هكذا»، غمغمت «هيروكو» لزوجها وهي تحمل السترة برائحة النفتلين الثقيلة وتأخذها إلى الفناء لتهويتها.

صاح عليها: «موقِّرًا أكثر من موقَّرًا»، ثم أراح يده على ظهر رضا ودفعه برفق. «اذهب يا أميري. اذهب، حقق الفتوحات.»

علق رضا حقيبته المدرسية على كتفه ـ بداخلها كتب ينوي الاستذكار فيها في أثناء استراحة الغداء بين امتحاني التاريخ والدراسات الإسلامية ـ وقبّل أمه على خدها قبل أن ينطلق سائرًا مسافة قصيرة من شارعه السكني الهادئ إلى الطريق التجاري حيث كان ثلاثة فتية آخرون من حيه في انتظار الحافلة. كان الوقت لا يزال مبكرًا وكانت أغلب المتاجر مغلقة، مع ذلك كانت الإعلانات المرسومة على المصاريع الحديدية للحوانيت تطمئن المارة على أنه يسري دائمًا نوع من الحياة المالية هنا. على الجانب الآخر من الشارع، كان رجال يفرغون شحنة صناديق بها دجاجات تصيح من حافلة إلى محل الجزارة الكائن مباشرة بجوار بائع زهور، كانت تجارته رائجة، على الرغم من رائحة الدم النتنة التي تنبعث من الباب المجاور. كان بائع الزهور يحب أن يقول: «إن كانت تجارتك تتعلق بالأفراح والجنازات لن يقف بينك وبين النجاح شيء، اللهم إذا كان بائع زهور آخر».

«جونيور!» قال أحد الفتية، بلال، محييًا رضا وذراعه تستدير أعلى كتفه ليقذف بلب ثمرة تفاح بقوة دفع كبيرة بين قدمي رضا.

كان رضا، تأهبًا له، قد أخرج كتبه من حقيبته واستخدمها برشاقة ليضرب بها لب التفاحة على الرصيف الترابي حيث انقض عليها غراب ينقِّر فيها.

«لقد صار «جونيورنا» بطلًا»، قال بلال وهو يأخذ برأس رضا بود. «انظر إليه، كل شيء فيه مكوي جيدًا ومصفف إلى الخلف. كان اسم الشهرة «جونيور» قد التصق برضا منذ كان في العاشرة من عمره، وقرر مدرسوه أن يجتاز سنة دراسية ويأخذ مكانه بين من هم في الحادية عشرة.

«بلال، أنا الذي كويْتُ هذا القميص، وإن جعدته سأغضب جدًّا.»

عند سماع صوت «هيروكو»، التفت الفتية مبتسمين ومعتدلين في وقفتهم، تجلَّتْ فجأة كل الطفولة التي بقيت في وجوههم حتى السابعة عشرة من عمرهم. في حين كانت كل الأمهات الأخريات في الحي «خالة»، كانت «هيروكو» مسز أشرف ـ مدرستهم السابقة المعبودة ـ التي لم يكن عليها سوى أن تهدد فقط بالاستهجان ليرتفع مستوى شعورهم بالقلق والطاعة. حين انتقلت هي وسجاد إلى هذا الحي المشيد حديثًا في بداية الخمسينيات، وعملت مدرسة في مدرسةٍ قريبة من منزلهما كان تلاميذها طليعة حلفائها؛ فقد رأوا فيها امرأة لا يمكن استغفالها أو تملقها، لكن ابتسامة الاستحسان أو التشجيع منها قد تجعل يومك يشع مجْدًا. فازت من خلال الأطفال بالأمهات اللائي كن حذرات بشأن المرأة اليابانية ذات الأثواب بأحزمة عند الوسط. وما إن حددت الأمهات موقفهن، حدد الحي كله موقفه.

«لم تأخذ نقودًا للغداء»، قالت لرضا وهي تناوله ورقة بخمس روبيات. «وشارك أصدقاءك. والآن أسرع أسرع، الحافلة.»

كانت الحافلة ذات الألوان الفاقعة تندفع في الشارع الهادئ في الصباح الباكر، وتقترب من الفتية وهي تبطئ أكثر منها تتوقف؛ إذ تحاذيهم فيقفزون إليها بصيحات النصر.

«سايونارا»، صاحوا جميعًا لـ«هيروكو» والحافلة تنطلق بسرعة مرة

أخرى. أو على الأقل صاح جميعهم ما عدا رضا. لا يتحدث اليابانية سوى في داخل بيته، ولن يكسر تلك القاعدة حتى وأصدقاؤه يستعرضون بسعادة أمام والدته الكلمة اليابانية، أو الكلمتين، التي وجدوها في كتاب أو فيلم ما. لماذا يسمح للعالم بأن يعرف أن ذهنه يحوي كلمات من بلد لم يزرها قط؟ ألم تكن عيناه وعظام وجنتيه وعُرْي ساقي والدته عوامل إبعاد كافية؟ كل تلك السنين منذ أن التحق بصف دراسي مع الفتية الأكبر منه في سن تعتبر السنة الواحدة فيها فجوة عمرية مهمة، وعلق مدرسه على سهولة تكيفه. لم يجد داعيًا لإخبارها بأنها لم تكن السهولة هي التي جعلت الأمر ممكنًا، بل وعي مدروس ـ وعي اكتسبه منذ سن صغيرة جدًّا ـ بكيفية التقليل من شأن اختلافه الواضح.

١٤

خرجت «هيروكو» من حرم المكتبة بجدرانها السميكة ومراوحها التي تدور ببطء إلى الفوضى والحرارة التي تشبه حرارة الفرن في شارع «سَدار». وكان مكانها المفضل في أيامها الأولى في كراتشي، حين كان بكل مبنى تقريبًا من المباني الاستعمارية المبنية بالطوب الأصفر مقهى أو مكتبة، قبل أن يصير الشارع معرضًا شاملًا للحافلات بدخان عوادمها البغيضة ويختفي منه طلبة الجامعة المتقدين حماسة إلى مساكن جامعية جديدة شُيدت بعيدًا، بينما ينتقل المهاجرونِ الذين تكدسوا في مخيمات اللاجئين على مقربة مسافة قصيرة من هنا في شاحنات نقل إلى بلدات نائية تابعة للولاية. الآن كلما تأتي إلى هنا تجد مقهى آخر، أو مكتبة، قد اختفى، يحل محلها غالبًا متاجر الأجهزة الإلكترونية التي يحب ابنها التجوال بينها.

أكثر ما تفتقده مقهى «جيمي» بالديكور الفني لسلمه المؤدي إلى «قسم العائلات» وجدرانه الخضراء الفاقعة، حيث دأبتْ سنواتٍ على لقاء مجموعة من النسوة اليابانيات في السبت الأول من كل شهر في الساعة الخامسة مساءً. بدأت تلك اللقاءات الشهرية في بداية عام ٤٨، وهي وسجاد لا يزالان يعيشان في مخيم اللاجئين، ليس بعيدًا عن هنا، وقد أتى إليها ركضًا ذات

مساء، وقال إنه التقى بسيدة يابانية يعمل زوجها في السفارة، وإنها تجلس في أحد المقاهي في انتظار أن يأتي بـ«هيروكو» لمقابلتها. من خلال السيدة اليابانية، التقتْ «هيروكو» بالزوجات اليابانيات الأخريات في كراتشي، وانضمت إلى لقاءاتهن الأسبوعية بمقهى «جيمي»، كان ذلك يعني كثيرًا، أكثر مما كانت تظن، أن يكون لديها وعد أسبوعي بأمسية تجلس فيها وتمزح باليابانية. لم تخبر أي واحدة منهن بطيور ظهرها، مع ذلك. بالتفكير في هذا حينئذ، قررت أن اليوم الذي انحرفت فيه حياتها على النحو الذي جعلها تشعر في كراتشي بأنها في وطنها، هو يوم أن وجدت أن بوسعها أن تخبر صديقاتها في الحي بأنها من الناجين من قصف ناجازاكي، بينما لا تزال تصر مع السيدات اليابانيات على أنها كانت في طوكيو وقت سقوط القنبلة، لكنها تربت في ناجازاكي.

كانت المثلجات بالمكسرات في المقهى ـ أغمضت عينيها لتتذكرها ـ رائعة بشكل خاص. لكن جوهر هذه اللقاءات غاب حقًّا حين انتقلت العاصمة إلى إسلام آباد عام ١٩٦٠ آخذة معها السفارة اليابانية، توقف المقهى عن تخصيص قسم العائلات برمته لهن، مع ذلك استمرت اللقاءات ـ صارت مشاركة «هيروكو» على فترات أبعد بعد ولادة رضا ـ إلى أن أنهى هدم المقهى منذ سنوات قليلة اللقاءات الأسبوعية تمامًا. وجدت نفسها تحزن لهذه الخسارة، حتى مع حقيقة أنها في السنوات القليلة السابقة لإغلاق المقهى كانت تذهب إلى اللقاء بشكل أساسي من باب الواجب؛ إذ صارت ينبوع الحكمة في المجموعة بخصوص كل ما يتعلق بكراتشي.

تساءلت ذات مرة في اللقاءات الأخيرة إن كانت تبدو للأعضاء الجديدات أجنبية بقدر ما يبدون لها يابانيات جدًّا! تقبض على نفسها أحيانًا وهي تفكر هكذا. لم يكن بوسعها التحدث في هذا إلا مع عضو باكستانية في المجموعة:

ريحانة التي قضت عشرين سنة في طوكيو قبل أن يأتي زوجها الياباني إلى كراتشي؛ لبناء مصنع سيارات. نشأت ريحانة في مرتفعات «أبوت آباد»، وقالت إن كراتشي قد تكون جزءًا من البلد نفسه الذي فيه بيت طفولتها، لكنها ما زالت أجنبية عنها بقدر ما كانت أجنبية عن طوكيو، «لكني وجدت وطني في فكرة الغربة.» عرفت «هيروكو» حين سمعتها تقول هذا أنها وجدت لنفسها صديقة. لكن ريحانة عادت الآن إلى «أبوت آباد» ـ انتقلت إلى هناك منذ عامين حين توفي زوجها ـ وقد تمر شهور قبل أن تذهب «هيروكو» إلى المركز الثقافي الياباني وتلتقي بأعضاء أخريات من الماضي، مع ذلك ظلت تكنُّ لعديدات منهن ودًا.

كما تكنُّ ودًا لـ«سدار»، على الرغم من محلات الأجهزة الإلكترونية وغياب مقهى «جيمي»، فكرت بينها وبين نفسها وهي تجول بنظرها. كان ثمة عالم واحد على مستوى الشارع هائج، متصادم، كليةً فيما هو الآن: باعة جائلون، نوافذ عرض زجاجية كبيرة، يافطات نيون، بلاعات واسعة، مساومة لاهثة، مكابح وأبواق وحشرجة محركات، وهرع وضجيج الحياة المدنية، ثم أعلى الرأس، إن وقفت ساكنًا، وكتفاك في مواجهة المارة، ونظرت إلى النوافذ المقوسة والقباب والنقوش الدقيقة، كان ثمة عالم آخر من مبانٍ شيدت بإيمان بأن الحياة تتحرك بوتيرة أخرى، أكثر أناقة، أكثر أبَّهة.

كانت سعيدة تمامًا باستبدال الأبَّهة، بيد أنه كان ثمة شيء ما آخر في المحيط، شيء ما أسوأ من محلات الأجهزة الإلكترونية، شيء ينذر بالشر. منذ دقائق قليلة كانت تمسك بنسخة من «الحرب والسلم» بدلًا من نسختها التي بليتْ، هزت رأسها بسخط حنون؛ لتذكرها ابنها يخبرها مرارًا وتكرارًا أنه في النهاية سيتعلم الروسية ويقرؤها، حين قال رجل ـ عادي على نحو ما ـ يقف بجوارها: «لا يجوز أن تقرئي كتبهم. إنهم أعداء الإسلام».

بعد أن غادر الرجل اعتذر لها بائع الكتب.

قال: «نعيش أوقاتًا غريبة. ذاك اليوم دخلت مجموعة شباب لم تنبت ذقونهم سوى مؤخرًا، وأخذوا يلقون بالكتب من فوق الأرفف، يبحثون عن الأغلفة التي ليست إسلامية».

سألت «هيروكو»: «ما الذي يجعل الغلاف ليس إسلاميًّا؟».

أجاب الرجل: «التصوير. خصوصًا صور النساء. لحسن الحظ، كان رجل شرطة يمر ورأى ما يفعلونه، فجاء وأوقفهم، لكنني لا أعلم ماذا يجري في هذه البلاد».

«لن يستمر طويلًا»، طمأنته «هيروكو». كانت دائمًا تخبر زملاءها في غرفة المدرسين حين يشكو أحدهم من تلك الموجة الجديدة من القمع الديني التي بدأت تظهر على السطح لدى بعض تلاميذهم أنه بالمقارنة بالتلاميذ الذين درَّست لهم في بداية عملها، الذين كانوا يحلمون بطائرات «الكاميكيز»، فإن صبية كراتشي هؤلاء بحماستهم تلك لعالم يفتقر إلى المرونة كانوا فقط يقلدون الشباب، وفي جميع الأحوال لا شيء ينازع الكريكيت في كونه عبادتهم الحقيقية.

تجاهلت المتسول القعيد الذي اندفع يعبر الشارع بجنون على صندوقه ذي العجلات ليصل إلى الأجنبية التي رأى فيها احتمالًا كبيرًا للشفقة لحاله، الأمر الذي كان المحليون قد تجاوزوه منذ أمد طويل، نظرت حولها تبحث عن ابنها. لقد تأخر، لم يكن ذلك من شيمه، لكن كل ما في رضا صار غريبًا قليلًا خلال تلك الأسابيع الأخيرة منذ أن أنهى امتحاناته. لم تستطع أن تشرح لسجاد ما يقلقها بالتحديد، سوى أن قالت إن ثمة خطأ في ولدهما وهو ينهمك في الاستمتاع بوقته قبل الدراسة في الكلية، تحدثه عن القانون

بصوت عالٍ وحماس، وتفاخره بأنه سيكون من الأوائل حين تظهر نتيجة الامتحانات ـ هو الذي كان حريصًا جدًّا بشأن نجاحه. وجدت نفسها تفكر في أنه لم يكن لها أن توافق حين اقترح المدرس أن يجتاز رضا للصف الدراسي التالي، ذهنيًّا كان مستعدًّا، مع ذلك لا يزال يحتاج إلى قدر كبير من النمو في السنة بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، لكنها تساءلت عن استعداده للمرحلة التالية من الحياة.

«مَا!» أوقف رضا سيارة سجاد، ومال بجذعه خارج النافذة ليأخذ من يديها حقائب الكتب الثقيلة، غير عابئ بأبواق السيارات من خلفه.

قالت: «انتظر، نسيت حقائبي الأخرى بالداخل، لف حول المبنى وعد ثانيةً». ومن دون أن تنتظر رده انطلقت عائدة إلى المتجر.

بقي رضا جالسًا حيث كان، يستمتع بـ«مازوخية» غريبة بسكون الرطوبة مما يجعل بقع العرق تبزغ في قميصه. حين ارتفع صخب الأبواق أشار إلى السيارات من خلفه أن تنحرف على الرغم من عدم وجود مساحة لها للمناورة. رفع الشحاذ القعيد يده توسلًا ناحية نافذة السيارة المفتوحة، لكن لا مبالاة رضا في قوله «سامحني» ـ كلمات يرددها من باب العادة وليس لمعناها؛ أقنعته أنه لا طائل من البقاء هنا. والرجل يبتعد على عجلاته، ألقى رضا يده بسرعة على جريدة الظهيرة الموجودة على لوحة المفاتيح، يبدو في انعكاسها على زجاج السيارة الأمامي قوائم أسماء نتيجة الامتحانات. التقط الجريدة عابسًا ودسها أسفل الدواسة التي يريح عليها قدميه، ثم عدل عن ذلك على الفور تقريبًا وأعادها على لوحة المفاتيح.

على الأقل وقع الأمر أخيرًا. لا كذب ثانيةً، لا تصنُّع. ما إن عاد إلى الحي حتى أدرك أن جميع الفتية قد رأوا الجريدة، تساءل في نفسه من منهم كان

أول من توقف عن فحص قوائم المرشحين الذين «اجتازوا»؟ وأدرك أنه ليس خطأه أنه لم يجد اسم رضا حيث يجب أن يكون.

وحين سألوه عما حدث، حثُّوه على التقدم إلى هيئة التدريس؛ لأنه من الواضح أن ثمة خطأً في الأمر، لا يمكن أن يكون شيئًا آخر، صحيح، «جونيور»، صحيح، حتى الأغبياء تمامًا يحصلون على أكثر من الثلاثة والثلاثين في المائة اللازمة لاجتياز الامتحان، ماذا يقول حينها؟ كيف يشرح لأحد ـ وهو نفسه لا يفهم ـ ما حدث آخر يوم في الامتحانات حين جلس أمام ورقة امتحان الدراسات الإسلامية؟

لم تكن لحظة الجزع الأولى عند النظر إلى ورقة الأسئلة لأول وهلة أمرًا جديدًا عليه، إذ أَلِف سنواتٍ هذا الشعور بالتهاوي الذي يسبب الغثيان حين تقفز عيناه من سؤال إلى آخر، عاجزًا عن قراءة سؤال واحد بأكمله قبل أن يبدأ في قراءة الآخر، فتتشابك الجمل والكلمات المنفردة من مختلف الأسئلة لتخلق فوضى مبهمة. لكنه حينها يتأهب ويجبر ذهنه على الهدوء ويقرأ ببطء أكثر، فيلحق المعنى بالكلمات، وتحلق الإجابات من قلمه إلى الورقة بأسرع ما يسعه كتابتها. كانت هناك أوقات، خلال امتحانات الثانوية هذا العام، طالت فيه تلك اللحظة عن المعتاد واضطر إلى قراءة الأسئلة ثلاث مرات أو أربعًا قبل أن يستقر كل شيء في مكانه. لكن تلك الظهيرة، في آخر امتحانات أيامه المدرسية، لم يستقر شيء في مكانه. فقط صار دغل الكلمات أكثر كثافة، تبدت لعينيه بقع من الضوء وهو يجاهد في القراءة، لكن ظلت تخطر في ذهنه باليابانية إجابات حمقاء لأسئلة لا يعيها حتى. كان يعرف أن عليه أن يهدأ، فهذا الجزع لا يولد سوى الجزع، لكنه تذكر حينها أنه امتحان إجباري، وأن الرسوب فيه يعني الفشل في كل شيء، وأنه لن يمكنه النظر في عيني أبيه بعد هذا أبدًا. ما إن فكر في سجاد أشرف ـ وتخيل وجهه

المتوقَّع يقينًا ـ خلا ذهنه من كل شيء. ثم كان المراقب يجمع أوراق الإجابة. هكذا في لمح البصر. وكانت ورقته فارغة. أمسك بقلمه وكتب على الورقة بحسم: «لا وساطة في الإسلام. الله عليم بذات صدري». وسلَّم الورقة.

حين خرج من قاعة الامتحانات، ربت أصدقاؤه على كتفه: «كل شيء تمام يا بطل! لن ندعوك «جونيور» مرة أخرى، يا فتى الكلية». علق أحدهم ـ علي ـ ذراعه على كتف رضا، وصاح على مجموعة فتيات كن يمررن بهم: «من منكن تريد الخروج في نزهة على الفيسبا مع صديقي فتى الكلية؟ سيحصل على أعلى الدرجات». وألقى بمفاتيح فيسبته في يد رضا ودفعه ناحية الفتيات، كانت اثنتان منهن تبتسمان لرضا صراحةً بلا خجل أو تصنع، كما تبتسم الفتيات الجامعيات للفتية الجامعيين. حينئذ عرف رضا أنه لن يخبر أحدًا بما حدث. سيستمتع أسابيع قليلة قادمة بكونه رضا الألمعي، رضا الواعد، رضا الابن الذي يحقق أحلام أبيه.

حين جلست والدته على المقعد المجاور له في السيارة ناولها الجريدة وانطلق مبتعدًا عن الرصيف، وقال بصوت هادئ على نحو غريب: «لم أنجح. تركت ورقة الإجابة الأخيرة فارغة».

فلت منها صوت رقيق ينم عن صدمة وخيبة أمل قبل أن توقف نفسها وتقول: «ماذا حدث؟».

«لا أعلم.» تمنى أن تصرخ فيه ليبرر شعوره بالحنق والاستياء. «لم أفهم الكلمات في ورقة الامتحان. ثم نفد الوقت.»

عملتْ مدرِّسةً وقتًا طويلًا بما يكفي لتعرف أن أشياء كهذه تحدث أحيانًا لأفضل الطلبة.

«كان امتحان الدراسات الإسلامية؟»، حين أومأ سمحت لنفسها بإطلاق

تعبير مطول ووفير من الاحتقار، لم يكن موجهًا له مع ذلك، بل للتفاني بصفة عامة، بوصفه مطلبًا قوميًّا. جعلها ذلك تفكر في اليابان والإمبراطور في أثناء الحرب. «وفيمَ تحتاجها لدراسة القانون؟ سخف!» ربتت على رأسه من الخلف. «لماذا لم تخبرني بهذا من قبل رضا-شان؟»

جعلت صيغة التدليل عينيه تغرورقان بالدموع.

«لا أريد أن أكون حمار الحي الجديد.» كان عباس الذي يسكن على الجانب الآخر من الشارع قد اكتسب هذا اللقب وهو في الثامنة، واضطر إلى إعادة عام دراسي بعد أن رسب في الامتحانات. ثم تقدم بشق الأنفس لثلاث سنوات حتى صار في المؤخرة، ثم رسب مرة أخرى. بعد ذلك لم يدعُه أحد بغير حمار. كان الرسوب هو الإحراج التام في الحي، عار على الأسرة كلها، وكان الأطفال يلتقطون هذا مبكرًا وسرعان ما ينأون بأنفسهم عنه بالإهانة والسخرية.

«رضا! لن ينظر إليك أحد بهذه الطريقة. إنها مجرد مادة واحدة. وستعيد امتحانها بعد أشهر قليلة. كل شيء سيكون بخير.»

«لكن كيف سأخبر بابا؟»

قالت بحسم: «سأخبره أنا، وإن وجَّه إليك كلمة غضب واحدة فسأجعله يندم عليها»، ثم أردفت حين رأت ابتسامة الراحة على وجهه: «في المقابل، عليك أن تسدي لي صنيعًا. قل لي ماذا تريد حقًّا من حياتك. أنا أعرف أنه ليس القانون».

رفع رضا كتفيه وأشار برأسه ناحية محلات الأجهزة الإلكترونية. وقال بخيلاء: «أريد أن يكون لديَّ كل ما هناك».

«أنا لا أسأل عما تريد أن تمتلكه، بل عما تريد أن تعمله؟»

توقفا في إشارة مرور بجوار «ريكشو» مرسوم عليها زوج من العيون الشهوانية كتب تحتها بأردية مزركشة، «انظر ـ لكن بحب». وجد رضا ذهنه يترجم الكلمات فورًا إلى اليابانية والإنجليزية والألمانية والباشتو، في رد فعل لاإرادي تجاه أي كلمات مكتوبة يلمحها وهو يقود في شوارع المدينة.

قال رضا وهو يرفع يده عن عجلة القيادة سريعًا في إيماءة يأس: «أريد كلمات من كل اللغات. ظني أنني سيسرني أن أعيش في غرفة باردة عارية إن استطعت فقط أن أقضي أيامي أنقب في لغات جديدة».

أراحت «هيروكو» يدها على يد رضا، لا تعرف ماذا تقول في لحظة الأمانة الطازجة غير المتوقعة تلك. كان اكتساب اللغة موهبة بالنسبة إليها، وكان شغفًا بالنسبة إلى ابنها. لكنه شغف لن يرتوي هنا. في مكان ما في العالم ربما توجد مؤسسات بوسعك فيها الإبحار من مفردة جديدة إلى أخرى، وتجعل من ذلك حياتك. لكن ليس هنا. لم يكن تعدد اللغات شيئًا يقترب حتى من أن يكون أحد خيارات مستقبل مهني من الناحية العملية. اجتاحها الشعور بالأسف لولدها، لتلك النظرة في عينيه التي تنبؤها بأنه يعلم هذا، وأنه كان يعلم دائمًا أنه سيكون عليه أن ينحي هذا الجزء الاستثنائي من نفسه جانبًا. تعلم ماذا سيقول سجاد إن ناقشته في هذا الأمر: «إن كان أعظم ما فقده في حياته ليس سوى حلم كان يعرف دائمًا أنه مجرد حلم، فهو إذن من المحظوظين». معه حق بالطبع، لكن ذلك لم يمنع هذا التمزق في قلبها. كان ثمة شيء ما تعلمت تمييزه بعد ناجازاكي، وبعد التقسيم: من يتخطون الخسارة، ومن يتورطون فيها. كان رضا ممن يتورطون فيها، على الرغم مما كان يجب أن يرثه من والديه كليهما، اثنين مِن أعظم مَن مضوا إلى الأمام في العالم.

حين وصلا إلى البيت دخلت «هيروكو» أولًا، انتظرها رضا في الخارج يستند على السيارة إلى أن تناقش الأمر مع سجاد.

كذَّبها سجاد أول الأمر مقتنعًا أنها تلعب عليه بنكتة سخيفة. ثم رفع صوته هادرًا أن الفتى لم يذاكر بما يكفي. لكنها حين أخبرته في أي مادة رسب، وبما حدث، هز سجاد رأسه فقط غير مصدق وجلس، كالعادة، عاجزًا عن مواصلة غضبه.

قالت «هيروكو» وهي تجلس بجانبه وتشبك يدها بيده: «سيعيد الامتحان ثانيةً في الخريف. ستظهر النتيجة قبل بدء الدراسة بالجامعة وسيبقون على مكانه خاليًا له حتى ظهور نتيجة تلك المادة. حدث هذا مع طلبة عندنا من قبل».

ظل سجاد صامتًا دقائق قليلة، لكنه أخيرًا أومأ برأسه، ورفع يدها إلى شفتيه.

«وهو كذلك. لن أغضب منه. وقد لا أعاقبه على تفويت درجة في السلم. لكنه المرة القادمة سيقفز فوقها مباشرة».

خرج ليرى ابنه ويخبره «أن مثل هذه الأشياء تحدث»؛ نبهت عليه «هيروكو» أن يستخدم تلك الكلمات. في طريقه إلى الخارج كان في دخيلته يصب اللعنات على الحكومة التي ما فتئت تحشر الدين في كل شأن عام. كانت أمه، بعلاقتها القريبة جدًّا بالله، ستذهب وتطرق باب «دار الجيش» بنفسها وتخبر الرئيس بأن عليه أن يخجل من نفسه قبل أن يطلب من الجميع ممارسة حبهم للرحمن فوق الملأ.

خرج سجاد ورأى ما يلي: بلال وعلي، أقرب صديقين لابنه على فيسبا تعبر الشارع، وبلال يلوح بالجريدة في الهواء كأنها علم النصر، ورضا يتوارى بعيدًا عن أنظارهما خلف سيارة سجاد.

١٥

الطيران إلى كراتشي ليلًا، نظر الأمريكي «هاري برتون»؛ «هنري» سابقًا، إلى أسفل على الامتداد المضيء الزاهي إلى واحدة من أسرع المدن نموًّا في العالم، وشعر بموجة حنين إلى العودة إلى الوطن، موجة تنتاب قبائل العالم المدنية وهم يدخلون إلى مشاهد غير مألوفة من الفوضى والاحتمالات. الوضع أقرب إلى ذلك، فكَّر في نفسه وهو يخرج من باب المطار إلى مزيج أبواق سيارات من شتى الأنواع تتبادل على نحو معقد لا يلين رسائل عن القوة والضمير والغدر، حتى المتسول رد له عملة الخمسة والعشرين بيزا باستهزاء فابتسم «هاري» له.

يا إلهي، كم هو جيد الابتعاد عن إسلام آباد؛ تلك الفقاعة الواقفة على المرتفعات، مدينة لم تبلغ عقدين من الزمان بالكاد، تتميز بالحكومة وليس بالتاريخ، لكل شيء فيها تلك الهالة الدبلوماسية المعقمة بينما تتفشى الجراثيم تحت السطح. «مملة، لكنها جميلة»، وصفوها له سلفًا. لكن جميلة لم تكن كافية لرجل قضى مواسم الصيف في طفولته في «مَسوري». كان يريد فوضى مدنه ولا أقل من جمال بلداته الجبلية. فقط في المرة الوحيدة التي قاد فيها سيارته إلى خارج إسلام آباد إلى البلدة الجبلية «موري»، وتوقف

عند نقطة تفتيش كشمير لينظر إلى قمم الجبال المكسوة بالجليد على البعد ورائحة أشجار الصنوبر تملأ المكان حوله، حينها فقط شعر بخيط الزمان والمكان المعقد الذي يفصله عن طفولته ينحل إلى خيوط عنكبوت.

كراتشي، كراتشي، غناها تقريبًا بصوت عالٍ، والسيارة ذات لوحة الأرقام الدبلوماسية تندفع مسرعة في طريقها إلى المدينة. انحرفت شاحنة تسير في الاتجاه المعاكس مبتعدة عن سيارة «هاري» في آخر لحظة ممكنة ولوح السائق بيده باستمتاع. ستة أشهر في إسلام آباد من دون راحة. كيف أمكنه هذا؟ التضحيات التي يقوم بها المرء من أجل وطنه، فكر «هاري» وهو يلقي التحية على انعكاس صورته في زجاج السيارة المائل.

لكنه كان ظهيرة اليوم التالي أقل نشاطًا إلى حد ما؛ ذهنيًّا على الأقل، على الرغم من أنه بدنيًّا لم يستطع أن يوقف جسده عن الاهتزاز إلى أعلى وأسفل على المقعد الجامد لريكشو بخارية بثلاث عجلات، بينما تتسلل أبخرة العادم إلى مسامه، ويتزاحم المرور حوله عن قرب شديد، حتى أمكنه رؤية كل منابت شعر شارب الرئيس؛ الجنرال الذي يزين وجهه مؤخرة الشاحنة التي تلتصق خلفها الريكشو في زحفها البطيء في القلب التجاري لكراتشي. كانت شمس الظهيرة لا تزال ساخنة مع أنه كان شهر ديسمبر، وبدا نسيم البحر الذي كان منعشًا بشدة قبل ميلين فقط عاجزًا عن المرور بين العوادم الثقيلة. شغل «هاري» نفسه بالمعمار، أعجبته روعة شرفة مغلقة تبرز من مبنى استعماري بالطوب الأصفر، نصفها السفلي من أرابيسك مصنع بدقة، والعلوي من زجاج ملون.

لكن في النهاية تركت الريكشو خلفها كل بقايا الاستعمار، خلفت بيوت النخبة الفخمة التي قضى فيها «هاري» أغلب أوقاته في زياراته السابقة لكراتشي، وتسللت في شوارع المدينة التي نمت سريعًا جدًّا مقارنة بأي

تخطيط مدني، أسمنت وصلب في كل مكان بلا مساحات خضراء تقريبًا، تستولي أشجار السنط الشائكة على كل مساحة أرض خالية، ما عدا الأماكن التي اقتلعت منها؛ لتفسح مجالًا للعشوائيات المبنية بالجوت ويقطنها الفقراء، وكلما ابتعدت الريكشو عن المألوف، ازداد خوف «هاري» من الظروف التي قد يجد فيها الرجل الذي ينشده.

«كيف هي ناظم آباد؟» قال منذ ليلتين في إسلام آباد لرجل أعمال قابله في حفلة، كان الرجل يحاول التقاط سمكة بيديه من بركة أسماك مضيفهما، بينما بدا الحرس المسلحون الواقفون لإطلاق النار على الطيور الكاسرة مترددين.

رفع الرجل بصره بالكاد وأجابه: «محطة مهاجرين»، ثم أردف: «لم أذهب إلى هناك قط. طبقة متوسطة جدًّا».

وجد «هاري» أن من الأشياء الأكثر إثارة للحيرة في باكستان ميل النخبة إلى قول «طبقة متوسطة» كما لو كانت أبشع الإهانات. لم يكن متأكدًا تمامًا بعد مما يفهمه من «محطة مهاجرين». كان يعلم كلمة «مهاجر» بالأردية ويعرف معناها بالإنجليزية ـ ومن ثم تنطبق عليه هو نفسه ـ يعلم أيضًا أنها تستخدم في باكستان تحديدًا للإشارة إلى هؤلاء الذين هاجروا إليها وقت التقسيم مما يعرف الآن بالهند. لكنه مع علمه بالكلمة لم يكن يعلم إحالاتها في ذهن رجل الأعمال هذا الذي لا يعلم «هاري» شيئًا عن خلفيته العرقية. في الحقيقة كان على درجة لا بأس بها من العلم بمختلف العرقيات في أفغانستان، قد يستفيض في شرح التوترات والعداوات والأحلاف بين البشتون والأوزبكيين، والطاجكيين والهزاره، لكنه لا يعلم سوى القليل عن أية مجموعات في باكستان باستثناء وكالة الاستخبارات الداخلية.

ما كان يعلمه أن كراتشي لم تكن مثل إسلام آباد في شيء. كان يرى بوضوح كيف يختلط الأمر على من في إسلام آباد في تقدير مدى إيجابية هذه الملاحظة في حق المدينة الساحلية.

كان رجل الأعمال لدى بركة السمك بعيدًا تمامًا عن إطرائها.

قال: «ليست سوى مدينة مخيِّبة للآمال».

لكن سيدة كانت تقف بجوارهما لها شعر كالماء الأسود اختلفت معه.

قالت ببساطة: «لكن بها حياة. لم يكن الناس ليهاجروا إليها من جميع أنحاء البلاد لو كانت كل آمالهم تخيب عند اقترابهم من البحر».

كان لهذا التعليق بقدر ما كان لشعرها أن ذهب معها «هاري» إلى الفراش. وبعد ذلك، لم يكن من حديث سري، أو ذكر لأرقام تليفونات أو ألقاب عائلية. في الحقيقة، لا شيء بعد ذلك. ارتدت ملابسها وخرجت من المنزل بعد دقائق من ابتعاده عنها. لم يعهد «هاري» قط جنسًا جعله يشعر بكل هذا القدر من الوحدة.

كان يعلم أن الوحدة هي التي أحضرته إلى هنا، في بحث عن ماضٍ يتعذر إصلاحه مثله مثل زواج والديه أو طفولته. أشهرًا الآن ظل يتجاهل رغبته في الطيران إلى كراتشي وطرق باب منزل بعينه في ناظم آباد، والآن كانت الرغبة في الانتهاء من تلك الرغبة، أكثر من أي نوع من الأمل، هي ما حدا به مؤخرًا لأن يذهب للبحث عن أول شخص أحس بحبه على الإطلاق.

انعطفت الريكشو في شارع هادئ بحي سكني: منطقة أكثر شعبية من كل المناطق التي عرفها «هاري» في كراتشي؛ لا جدران تفصل بين البيوت، لا حدائق، لا ممرات للسيارات التي تشغل المساحات بين بيت وآخر، وكان

هناك بدلًا من ذلك صف طويل من البيوت المتاخمة بعضها لبعض، لا يفصل مداخلها عن الشارع سوى درجة سلم واحدة. أطلق «هاري» تنهيدة لم يكن يعرف أنه يحبسها، لم يكن الشارع فخمًا، لكنه كان خاليًا من أي مسحة من الفشل أو خيبة الأمل.

استدار سائق الريكشو ينظر إليه إذ تنهد بعمق فهز «هاري» رأسه بما معناه أن لا شيء. أخبره السائق بمبلغ الأجرة باقتضاب، فرفع «هاري» حاجبيه، فرد السائق: «إن لم أرفع الأجرة لأمريكي فسيعرف الجميع أنني أعمل مع الـ«سي آي إيه».» مع أنه لم يكن من أحد حولهما تقريبًا ليرى مبلغ الأجرة، إلا أن وقاحته الملحوظة أمتعت «هارِي» بما يكفي ليدفع المبلغ بالكامل.

«يمكن أن أبقى بعض الوقت.» أشار «هاري» له نحو شجرة امتدت جذورها على الطريق أمام منزل: «الأفضل أن تنتظر في الظل».

أومأ الرجل برأسه.

«أرديتك جيدة جيدًا.»

أرخى «هاري» جسده بعد جلسة الريكشو، كان ثمة صوت امتصاص مزعج إذ تنفصل صلعته المتعرقة عن المظلة الفينيل، وأشار برأسه ناحية المنزل رقم ١٧.

«أول معلم لي بالداخل هنا. سأخبره أنك قلت هذا».

توقف الفتية الذين كانوا يلعبون الكريكيت في الشارع من الداخل؛ ليراقبوا «هاري» وهو يعبر الشارع ويتجه إلى باب المنزل ويدق الجرس. استدار ينظر إليهم مستمتعًا بملابس الكريكيت التي يرتديها بعضهم في فترة ما بعد ظهيرة معتدلة.

تناهى إلى سمعه صوت خطوات على الجانب الآخر من الباب، عاد «هاري» خطوة إلى الخلف وشاب يفتح الباب ـ فتى كبير قليلًا ـ يرتدي جينز وتيشيرت أحمر باهت وعرف «هاري» فورًا ملامح وجه على أصولها في قبائل المغول والهزاره، في ظنه. ربما طاجكي. أوزبكي حتى. أربكته شدة إحباطه. هل توقع حقًّا أن يجد الرجل الذي يبحث عنه في عنوان لم يتم التحقق من صحته منذ عشرين عامًا؟ لكن ربما، أوه تشبثْ بتلك القشة يا «برتون»، قد يعلم السكان الحاليون أين يمكن العثور عليه.

قال: «مرحبًا، أبحث عن سجاد أشرف. كان يعيش هنا».

وقف رضا يحدق في الرجل الطويل ذي الشعر الأحمر والعيون الخضراء الذي لم تفعل صلعته اللامعة وخصره النحيف شيئًا لتبديد السحر المتدفق من لكنته، لكنة «ستارسكي آند هاتش».

كرر «هاري» السؤال بالأردية، وهو يتساءل بأي لغة عساه يخاطب الفتى، وما الذي يفعله هنا.

قال الفتى بنبرة انزعاج: «أتحدث الإنجليزية واليابانية والألمانية». لأول مرة منذ شهور لديه سبب للتفاخر، ما جعل التفاخر ضرورة. «والأردية بالطبع، والباشتو أيضًا. أنت ماذا تتحدث؟».

لم يتذكر «هاري برتون» متى كانت آخر مرة بُهِت هكذا.

«الإنجليزية والألمانية والأردية، والفارسية قليلًا.»

«أنا أغلبك»، قال رضا بالألمانية. لم يكن من غرور بالجملة، فقط كبرياء صامتٍ غير واثقٍ من أحقيته في الوجود.

«قطعًا»، أجابه «هاري» بالإنجليزية وهو يقاوم رغبة ملحة سخيفة في

أن يعانقه. ثم انتقل إلى الألمانية قائلًا: «أنا «هنري». لا بد أنك ابن سجاد و«هيروكو»».

«نعم.» ابتسم الولد. «أنا رضا. كيف حالك؟» ومد يده بتردد شخص يقوم بحركة لم يتدرب عليها إلا في المرآة، فصافحه «هاري» بحمية. «تفضَّلْ»، قال الفتى وهو يأخذ بذراع «هاري» بالألفة الجسدية المميزة للرجال الباكستانيين، ألفة لم يعتدها الأمريكان قط، ودفعه إلى الداخل. «سأخبر أبي».

خطا «هاري» من المدخل إلى نسخة أصغر من بيت أشرف الذي يتذكره منذ طفولته: حجرات بأسقف واطئة مبنية حول فناء مفتوح للهواء الطلق تهيمن عليه شجرة كبيرة. لكن أصص زهور المخملية وأنف العجل والقبس التي تجمعت بالقرب من الشجرة كانت توحي بعالم آخر لدلهي.

كان رجل بشعر رمادي في «كورتا» من الكتان الأبيض يروي أصص الزرع، وضحك «هاري» بصوت عالٍ تقريبًا مستمتعًا بهذا المنظر. بالطبع كان سيجده هكذا. في هذه المدينة، حيث تشق جذور الأشجار الأسمنت، وجذوعها الضخمة لوحات للرسم، وتصير الفروع جزءًا من معمار المدينة حين يسدل عليها باعة الأرصفة قطع قماش ليجعلوا منها مظلات كيفما اتفق، بالطبع كان سيجد سجاد أشرف في فناء مشمس محاط بزهور وظلال أوراق الشجر.

«أبي، الخال «هاري» هنا ليراك»، قال رضا، وهو متحير في تفسير التعبير الذي كان هذا الأجنبي الغريب يحدق به في أبيه.

اعتدل الرجل ذو الشعر الرمادي في وقفته، ولوهلة كان سجاد القديم، وقد ارتسمت على وجهه، بخطوط رقيقة حول عينيه وفمه، الضحكة التي كانت تحت السطح طوال الوقت، ونظر إلى الضيف من دون أن يبدو عليه

أنه عرفه. كانت «هيروكو»، وهي تخرج من غرفة النوم، هي التي رأت في شعره الأحمر والتدلي الطفيف لجفنيه شيئًا مألوفًا، لكنه قال قبل أن تحضر ملامح «كونراد» إلى ذاكرتها: «أنا «هنري برتون». ابن «جيمس» و«إلزي»».

تراجع سجاد خطوة إلى الوراء، ثم خطوة أخرى.

قال: «لكنك كنت طفلًا. حقًّا؟ «هنري»... «هنري بابا»!».

«هاري فقط الآن. أعمل الآن منذ ستة أشهر في السفارة الأمريكية بإسلام آباد. موظف قنصلية، تعرف التأشيرات وما إلى ذلك. ولم يكن بوسعي أن أكون في باكستان دون أن آتي لأراك.»

تقدم الأمريكي ومد يده إلى سجاد الذي ضحك وقال: «لقد كنت أحملك فوق كتفيَّ. أليس لنا بأكثر من المصافحة بالأيدي؟» ربت بإحدى يديه على منتصف ظهر «هاري» ومد رأسه إلى الأمام حتى صارت ذقنه أعلى كتف «هاري» تمامًا وأذنه تبعد عن أذن الأخير عدة بوصات. ثم حرك رأسه ناحية كتف «هاري» الآخر لتصير أذنه وكتفه على الجانب الآخر يؤطران وجه سجاد. جرى ذلك كله بسرعة شديدة على «هاري» أعجزته عن الاستجابة قبل أن يعتدل سجاد في وقفته مبتسمًا: «ألا تتذكر، جعلتني أعلمك الـ«جالا ميلاو» حين جئت لعزاء والدي. حينها دخلت الفناء وخلعت حذاءك ووقفت على ديوان وعانقت كل أخ من إخوتي هكذا. رأى جميعهم أنك ألطف رجل إنجليزي في الهند. لا بد أنك كنت في التاسعة تقريبًا».

«السابعة. كنت في السابعة، إنها إحدى أوضح ذكرياتي عن الطفولة. المرة الأولى لي في بيت ليس إنجليزيًّا. لماذا كنت هناك من دون والدي؟ لا أتذكر هذا الجزء.»

بالكاد وسعت سجاد سعادته وهو يسمع الجمل الأردية تتهادى بخفة

على لسان تلميذه السابق. عاجزًا عن قول أي شيء يقع بالخطأ في نفس هذا الغريب الذي لم يكن غريبًا، خلع نظارته ومسح العدسات بطرف كم كورتته. وأومأ وهو يعيدها ثانيةً كما لو أنه الآن يرى عام ١٩٤٤ بشكل أفضل.

«أردْتَ أن تأتي، هكذا قلْتَ. بودي أن أعزي أسرتك بالنيابة عن أسرتي.» ابتسم سجاد وأومأ لرضا كأنه ينقل درسًا: «كنْتُ فخورًا جدًّا بـ«هنري بابا» ذاك اليوم».

احمرَّتْ أطراف أذني «هاري» لهذا الشرف الذي ناله الطفل فيه. وأعفاه سجاد من التفكير في رد عليه بأن رفع يده مشيرًا إلى المرأة التي تسير نحوهم.

«زوجتي، «هيروكو».»

«هيروكو سان.» انحنى «هاري». لم يكن ممن تعودوا الانحناء وكان واعيًا أنه يبدو كمن داهمته آلام الظهر.

أخذت «هيروكو» يد «هاري» في يدها.

«هيروكو فقط. يسرني جدًّا أن أراك «هاري».» دلت ابتسامتها على أنها فهمت إدراك «هاري» المذهول لعلاقتها بهذا الاسم ورفضته. «ثمة جزء من قلبي محجوز لأفراد أسرة «فايس».» ثم وجهت كلامها لابنها: «رضا، هذا ابن أخت «كونراد»».

«أوه!» نظر الفتى إلى «هاري» باهتمام جديد. «اسمي الأوسط «كونراد».»

أومأ «هاري» برأسه بما يعني أن الأمر يمتعه ولا يدهشه. ظل «هاري» وطليقته في الشهور التي سبقت ولادة ابنتهما، ولم يكونا قد علما جنس المولود بعد، يبحثان في العالم حولهما عن اسم يمكن أن يلتزما به بقية حياتهما (كانا قد عرفا وقتها أن الالتزام بينهما قد يتقوض، إلا أن هذا

لم يضف سوى زخم لرغبتهما في إيجاد مقطع أو اثنين يستطيعان أن يتشبثا به طويلًا بعد أن يترك أحدهما الآخر). كانت هي من اقترحت «كونراد» إن كان صبيًّا بعد زيارة عطلة الأسبوع لـ«إلزي» في نيويورك، لكن «هاري» لوح لها بيده في ضيق، وعلمها الكلمة الأردية «مانهووز» أو «فأل سيئ». ومع ذلك، ها هو سجاد الذي علمه معنى هذه الكلمة يبتسم لابنه وهو يتذكر اسم الرجل الذي أحبته «هيروكو» في البداية، وقد مُحِيَ من فوق وجه البسيطة قبل أن يتم الثلاثين من عمره.

«هل أنت في الجامعة إذن أم في المدرسة رضا كونراد؟» استدار «هاري» إلى الفتى؛ شيء ما في اكتشافه لاسم الفتى أشعره أنه بمثابة خاله.

مال رضا برأسه إلى الأمام فتهدل شعره أعلى عينه وهو يقول: «لم يذهب والدي إلى الجامعة قط، لماذا يجب أن أذهب أنا؟». تحدث بالألمانية فلاحظ «هاري» توترًا ما في الجو وسجاد ينظر بطرف عينه إلى «هيروكو» طلبًا لترجمة لن تأتي.

«لا لسبب محدد»، أجاب «هاري» بالألمانية، بينما يرسل إلى سجاد نظرة معناها أنه لا يوجد مؤامرة هنا. «إن كنت تقرأ العالم بخمس لغات فالأرجح أن الأفضل لك الابتعاد عن الفصول الدراسية التي تعبئ أفكارك في صناديق لتتماشى مع أحدث أساليب التفكير في العالم.»

راقب سجاد ابنه يفرد قامته، يبتسم، ويوسع وقفته في شيء يبدو تقريبًا كالاختيال، وتعجب من مفارقات الحياة وتناقضاتها حين تذكر سهولة علاقته الأولى بـ«هنري» نقيضًا لعلاقة «برتون الأب» بالابن.

«كيف حال والدك يا «هنري»؟»

«أبي، إنه... لا يلين، حتى مع الموت. رعبَنا على قلبه منذ شهور، لم يكن

من سبيل له لينجو منها، ليس في مثل سنه. لكنه ما زال حيًّا، يذهب إلى الحفلات كثيرًا. بعد أن تركته أمي شعر أنه يرغب في الزواج بواحدة تحب تلك الأشياء، لا أعرف هل تحبه أم لا، لكنني أعرف أنها تحب أسلوبه في الحياة. وهذا يكفيه. لديه أصدقاؤه من السادة المحترمين في النادي يؤنسونه.»

شعر «هاري» باستياء يحلق في الفناء. بالطبع لا يجوز له أن يقول شيئًا في حق والده، ولا حتى مع أشخاص يعرفون نواقص «جيمس برتون» جيدًا، كانت تلك آداب السلوك الهندية (ما زال يعتبر سجادًا هنديًّا مع أنه جاء إلى باكستان منذ وقت طويل بما يكفي ليمنعه عن التعبير عن هذا الخاطر بصوت عالٍ). «والدتي بحال جيدة»، قال وهو يومئ لـ«هيروكو» اعترافًا بالصداقة بين المرأتين التي استمرت عبر الخطابات أكثر من عشرين سنة بعد التقسيم، قبل أن تقضي عليها فوضى البريد الدولي. «سيسرها بشدة أني وجدتكم. لا تزال تحتفظ بصورة لها معكِ تضعها على رف المدفأة.»

بالكاد عرف رضا ماذا يفعل بنفسه بعد أن جلس «هاري» على المقعد الذي عرضه عليه، وقبل عرض الشاي، وأوضح أنه لا يفضل عمل شيء في أمسيته أكثر من قضائها مع آل أشرف. كان ما يذهله أكثر من حضور الأمريكي موقف سجاد و«هيروكو»، اللذين بدا أنهما يريان وجوده في فنائهما وحديثهم عن «أيام دلهي» أمرًا طبيعيًّا تمامًا. كان رضا مفتونًا بكل شيء في «هاري برتون» ـ أريحية إيماءاته، طريقته في الإيحاء بأن كل ما يقوله سجاد و«هيروكو» عن حياتهما، مهما كان مملًّا، أكثر إمتاعًا من أي شيء يمكنه أن يحضره ذهنه للمحادثة، الطريقة التي ينطق بها الكلمات بالإنجليزية والأردية. («ناو ـ شوس، توم ـ إيتو، سكيدي وال»، كررها رضا بينه وبين نفسه كأنها تعويذة.)

حين طلب «هاري» كوب ماء، قفز رضا ليأتيه به، وحصل على مكافأته

وهو يدخل المطبخ إذ أتاه صوت الأمريكي عبر الفناء قائلًا: «ولد رائع! ألديكما دليل تربية للوالدين يمكنني استعارته؟».

لكن الفخر بنفسه تسرب منه في لحظة تقريبًا. فسيسأل الأمريكي فيما يلي: «في أي سنة دراسية هو؟ ما أكثر مادة يحب دراستها؟» ثم سيخبره والداه، أو الأسوأ من ذلك، إن اضطرا إلى الكذب.

غطى رضا وجهه بيديه واستند على حائط المطبخ. إذ داهمه من دون إنذار هذا الهجوم المباغت للمستحيل، لليأس.

لقد رسب في الامتحان مرة أخرى. كانت المرة الثانية أسوأ كثيرًا من الأولى. فقد قدرته على فهم الكلمات حتى قبل أن يدخل قاعة الامتحانات؛ نظر وهو في الحافلة في طريقه للامتحان إلى لوحات الإعلانات والرسوم، فاختلطت الكلمات كلها، وفقدت وضوحها أمامه. حين أذن المراقب ببدء وقت الإجابة كان بالفعل يحس بقلبه يدق بقوة شديدة، حتى بدا من المستحيل ألا يشق صدره ويندفع منه. ولم يفهم شيئًا. لم تستطع يده الإمساك بالقلم. خرج من القاعة بعد خمس دقائق وعاد إلى المنزل مباشرة، غير قادر على النظر مباشرة إلى والديه وهما يريانه يدخل ويدركان أن الوقت مبكر، مبكر جدًّا، على أن ينهي الامتحان ويعود.

رأى الدموع في عيني والده ذاك اليوم، ولأول مرة بدا سجاد علي أشرف هرِمًا وهو يتوسل إلى ابنه: «لماذا؟ لماذا لا يمكنك أن تقوم بهذا الشيء الصغير؟ أرجوك يا بني، افعل هذا لخاطري».

كل فتية الحي الذين تضاحكوا من رسوبه المرة الأولى وقالوا إنها «مجرد دراما، إذ يحتاج كل الأبطال الطيبين إلى دراما في حياتهم، وإنها ليست سوى مادة واحدة، ستعيدها ويسير كل شيء على ما يرام»، لم يعرفوا ماذا يقولون له

في تلك الجولة الثانية. كانت محادثاتهم تتوقف حين يدخل الحجرة. كانوا قبل أيام قليلة من دخول الجامعة، وكان هذا كل ما يحلمون به ويتحدثون عنه. لم يستطع تحمل عطفهم حين يجتهدون بصعوبة شديدة ليتحدثوا عن أشياء أخرى وهو معهم ـ احتل صمت متكلف المساحة بينه وبينهم ـ فبقي أغلب الوقت في المنزل، ومع أنهم كانوا من حين إلى آخر يحاولون إقناعه بالخروج، إلا أنه كان يشعر حين يتركهم أن عبئًا قد انزاح، عنه وعنهم.

صب الماء في كوب طويل وطلّ من نافذة المطبخ يحاول أن يرى من وضع كتفي «هاري برتون» هل اكتشف بعدُ أن «الفتى الرائع» كان الحمار الثاني في الحي.

كان ثمة امتحان آخر خلال الشهور القليلة اللاحقة. يصر والده على أن يجتازه. لكنه يعرف أنه لن يفعل شيئًا سوى الرسوب مرة أخرى فأصر أن لا. توقف شيء ما بداخله عن العمل، كان الأمر بهذه البساطة. وضع الكوب بحرص على صينية، محا أثر بصمته عن سطحها وهو يفكر أن كل ما له قيمة في الحياة يمكن محوه بهذه السهولة.

١٦

«ليس الميناء، بل سوق السمك!»

انحرف سائق الريكشو ـ شير محمد ـ لدى سماعه زعيق تعليمات «هاري» من المقعد الخلفي.

«آسف. آسف. نسيت. الوقت مبكر جدًّا. لا يزال دماغي نائمًا.»

ليست الجملة التي تطمئنك حين تأتي من مقعد السائق، ومع ذلك فقد سبق وقرر «هاري» أن شير محمد يجول في الشوارع بمزيج من الحدس والتوفيق الإلهي. على الأقل يلتزم في زحام منتصف النهار ببعض قواعد المرور، لكنه في الصباح المبكر يقود في الشوارع الخالية تقريبًا بروح رجل لا يعي قدرة المركبات الأخرى على إعاقته عن المضي قدمًا، معتبرًا «حق الطريق» حرية شخصية سلمية يحملها معه عند كل تقاطع وإشارة مرور.

لف «هاري» وشاحه حوله بإحكام والريكشو تندفع إلى الأمام، تصفر فيها الريح. يمكن أن تصبح كراتشي باردة، فكر بينه وبين نفسه وهو يراقب البخار المتصاعد من تنفسه في هواء الفجر.

حين وصلا إلى مدخل سوق السمك كان سجاد ورضا قد سبقاه إلى هناك في سيارة سجاد، سقط رضا على كتف والده نائمًا.

«استيقظ يا أميري.» مسد سجاد أعلى رأس رضا بمفاصل أصابعه، وطرفت عينا ابنه تتفتحان، تغمضان، ثم تمتم «سمك» قبل أن يسقط في النوم ثانيةً. بحرص ـ كما رآه «هاري» ذات مرة يعامل بيضة سقطت من عُش سليمة بمعجزة ـ حرَّك سجاد رأس ابنه عن كتفه، وأسنده بأقصى ما يستطيع في وضع مريح على باب مقعد الراكب بجوار السائق. «سنوقظه وقت الإفطار»، قال وهو يترجل من السيارة، يبدو خارجًا عن السياق بسترة صوفية ثقيلة وحذاء مفتوح من الأمام. «فرصة لنتحدث معًا يا «هنري بابا».» نظر إلى حذاء «هاري»، هز رأسه، عاد يدخل السيارة وخرج حاملًا النعل المطاطي الصلب الذي نزعه من قدمي رضا. وقال: «البس هذا».

تقوست أصابع «هاري» على حافة نعل رضا، تذكره على نحو لا معنى له بقطه «بيلي» ـ في أيامه الأولى في أمريكا ـ وقد اعتاد أن ينتظر عودته من المدرسة وهو جاثم على الأرض في وضع الانقضاض بالضبط. لوى أصابعه، فمسد القط الهواء بمخالبه.

قال سجاد وهو يأخذ ذراع «هاري» ويقوده إلى السوق: «صدقني. سيريحك أن تنتعله».

لعلها كانت ذكرى القط الذي يرى في كافة أشكال حياة الحشرات فريسة، ما جعل «هاري» ـ حين عبر البوابة الصدئة ودخل السوق مجال رؤيته ـ لا يفكر في شيء سوى أن سرب قوارب الصيد الخشبية بحبالها وصواريها يرسم على السماء لوحة لجنادب ترقد على ظهورها، تلوح بأطرافها الحشرية في النسيم. كان هناك المئات منها ـ في سيول من الطلاء من درجات الأزرق

والأبيض والأخضر ـ تصطف بحذاء رصيف المرسى مكدسة بعضها بجوار بعض بعمق أربعة صفوف، أو خمسة، أو ستة.

«تنفس من فمك إلى أن نصل إلى السوق»، نصحه سجاد وهو يسير بخفة ناحية القوارب.

«لماذا؟» قال «هاري»، ثم التقط هبَّة رائحة نفاذة بشدة حتى إنه تخيل سمكة عملاقة بحجم منزل، قام أحدهم بتقطيعها شرائح وتركها تتعفن سنوات تحت الشمس الحارقة.

«تعال، تعال.» أمسك سجاد بذراعه وسحبه ليمرا من بوابة أخرى. «الآن بوسعك استخدام أنفك ثانيةً.»

دخلا سوقًا للأطعمة البحرية، بضاعة طازجة بما لا يتيح الفرصة لأي رائحة مزعجة. صُفَّتْ بطول الرصيف الأسمنتي ألواح من الثلج ترقد عليها الأسماك. كان رجال بعربات يدوية يرصون ألواح الثلج على الأرض لاستبدال ما ذاب، وآخرون وراءهم يحملون سلال السمك مدرجة حسب وزن أحمالهم. وماء في كل موطئ قدم؛ ليس موج البحر العالي، كما ظن «هاري» أول الأمر، بل الثلج الذائب. كان بالكاد أول الصباح إلا أن العمل كان يجري على قدم وساق بالفعل. أمسك «هاري» بمرفق سجاد، والأخير يتقدم إلى الأمام في الممر بين صفي السمك. سمك موسى وسمك السلمون وقدور من السمك المفلطح. القرش. الحنكليس. أشياء بشوارب ضخمة وفكوك من عصر الديناصورات.

توقف سجاد ليفاصل مع بائع سمك حاول بدعابة أن يلفت نظره بعيدًا عن التونة لسمكة بحجم رجل.

ضحك سجاد: «ماذا أفعل بها؟ أنام معها؟».

اقترب من «هاري» رجل يمسك في يديه بسمكة قرش صغيرة وأصابعه تهز زعنفتها.

قال بالإنجليزية: «للجنس».

«ليس بالضرورة»، أجابه «هاري» بالأردية وضحك كل من حوله باستحسان.

«من أين أنت؟» سأل الرجل الذي يمسك بالسمكة القرش.

«أمريكا، وأنت؟ من كراتشي؟»

«لا. ميانوالي.» أشار الرجل برأسه إلى من حوله. «الناس هنا من كل بلد في باكستان. بلشيون، بشتون، سند، هندوس، وسيخ حتى. يمكن للجميع، حتى الأمريكي أن يأتي ويبيع السمك هنا إن شاء.»

«شكرًا.» ابتسم «هاري». يحب الطريقة التي يصير بها كل باكستاني مرشدًا سياحيًّا فور أن يرى أجنبيًّا. «سأتذكر هذا.»

أمسك سجاد، وهو يصغي إلى المحادثة، بصبي يبيع السمك ولفت انتباه «هاري» له، موجِّهًا الجولة.

«لكن هؤلاء هم السكان الأصليون لكراتشي. المكرانيون. ينحدرون من العبيد الأفارقة. أترى؟»، وأشار إلى شعر الصبي وملامحه بطريقة استاء لها الأمريكي بشدة، لكنها كما كان واضحًا لم تقع في نفس الصبي بشيء. «كان هذا الساحل في طريق العبيد ـ ليس طريق العبيد الخاص بكم بالطبع، بل الطريق الشرقي.»

«لم أكن لأدعوه طريق العبيد الخاص بي.»

«بالطبع لم تكن لتدعوه هكذا»، قال سجاد بحسم وهو يدع الصبي يذهب بنقرة خفيفة على رأسه. «ما أقوله هو أن هذه مدينة ذهاب وإياب، حتى قبل التقسيم. هذه الأيام للأفغانيين. لماذا تبقى في مخيم لاجئين بينما يمكنك المجيء إلى كراتشي؟» ومال على كوم من أسماك وردية مرصوصة بطريقة جميلة، وغمس إصبعه في لحم واحدة. «علامَ تضحك يا «هنري برتون»؟»

«عليك، سجاد، اعتدت أن تتحدث عن دلهي كما لو كانت المدينة الوحيدة التي تستحق الانتماء إليها، والآن أصغِ إلى نفسك تتحدث بهذا الفخر عن مكان كنت تتهكم منه ذات مرة لافتقاره إلى التاريخ والتراث الجمالي والشعري.»

توقف سجاد عن الابتسام، والتقط حصاة ثلجية ومسح فيها إصبعه.

«ديلي هي ديلي»، قال ومال قليلًا وهو يسير على أحد الجانبين، بين سمك البركودا وصناديق مملوءة بالكابوريا، هكذا ابتعد قليلًا عن دفع الباعة والمشترين. «غرامي الأول. لم أكن لأتركها بإرادتي أبدًا، لكن أولئك الأوغاد لم يدعوني أعود إلى وطني.»

«آسف»، قال «هاري» بحزن، مع ذلك لم يكن متأكدًا تمامًا من سبب شعوره بأنه الملوم على هذا. «ماذا حدث لأشقائك كلهم؟ هل بقوا هناك؟»

«قُتل أخي الأكبر، «التتمش»، في شغب التقسيم»، قال سجاد وهو يومئ ويردد الكلمات كأنه يؤكد لنفسه، بعد كل تلك السنين، أن هذا ما حدث حقًّا. «كنت في إسطنبول؛ ولم يخبرني أحد. كانوا في انتظار عودتي. ورحل أخي إقبال إلى لاهور. قال إنه لا يستطيع البقاء في المدينة التي قتلت «التتمش». ترك وراءه زوجته وأولاده؛ حاولوا اللحاق به على أحد تلك القطارات. تلك القطارات التي تصل بحمولتها من الموتى.»

«يا مسيح، سجاد، لم يكن لديَّ أدنى فكرة. كان لك أخ آخر، أليس كذلك؟»

«بلى. «سيكندار». بقي هناك. لكن لأن اثنين منا جاءا إلى باكستان أُعلنت دارنا ملكية خالية، لعله كان بإمكانه الاجتهاد لاستعادة جزء منها، لكنه لم يكن قط الرجل المناسب لهذه التفاصيل العملية. لذلك انتقل من البيت، بأسرته وأسرة «التمش»، ويعيشون في هذه الحال البائسة، حتى إنني لا أتحمل زيارتهم. لذلك لا أذهب أبدًا.» قال هذا ببهجة زائدة كادت تكون قسوة، إلا أن خبرة «هاري» بالمهاجرين كانت كافية لتمييز إستراتيجية البقاء حين يسمعها. «أتعرف، ظللت وقتًا ألقي باللوم على والدك.»

«لماذا؟»

قال سجاد مبتسمًا: «لكل شيء».

«نعم. أنا نفسي أفعل ذلك. شيء ما به يجعل لومه سهلًا جدًّا. ألم تعد تلقي باللوم عليه الآن؟»

«الآن أقول إن هذه حياتي. يجب أن أعيشها.»

«إيمان المسلم بالقضاء والقدر.»

«لا. لا. استسلام باكستاني. أمر مختلف تمامًا.» أتى بإيماءة استفسار للرجل الذي كان يتفحص صيده وبدأ الفصال مجدَّدًا. التقت عينا «هاري» بعيني صياد كان يدخن سيجارة فمال الأخير برأسه تجاه «هاري» بطريقة معروفة. لم يكن «هاري» متأكدًا أن كان ثمة رسالة في تلك التحية. فتساءل في نفسه عن عدد الرجال في هذه السوق ممن يعملون في تهريب الأسلحة التي تشتريها المخابرات الأمريكية وتنقلها الـ«آي. إس. آي»،

وكالة الاستخبارات الداخلية، من السفن بكراتشي إلى معسكرات التدريب على طول الحدود؟

كان ثمة حرية معينة في وجوده بكراتشي وعدم معرفته بأي عملاء محليين سوى شير محمد. حرية معينة أيضًا في ألا يكون معروفًا لأحد، على الرغم من أن جميع الباكستانيين يفترضون بالطبع أن جميع الأمريكيين في بلدهم عملاء للمخابرات الأمريكية. نظر «هاري» إلى سجاد الذي يحمل الآن كيسين أزرقين كبيرين من البوليثين يتدليان من معصميه، يتكدس بداخلهما السمك، ضُغِطتْ إحدى العيون الزجاجية في المادة الزرقاء الرقيقة، فتذكر «هاري» جليد الشتاء المبكر، وبركة سمك في حديقة بها سمك متجمد أسفل قشرة من الثلج. تساءل عما إذا كان السبب في عدم سؤال أحد من آل أشرف عن أي تفاصيل تتعلق بعمله قنصلًا في السفارة، هو اعتقادهم بأنه غطاء لعمله في المخابرات الأمريكية. يا للسخف. أزعجه التفكير في أن صدقه قد يكون محل شبهات من الأسرة التي قضى معها جزءًا من كل عطلة خلال آخر ثلاثة أسابيع. كان قد بدأ بالفعل يأسف لذوبان الجليد في أفغانستان؛ إذ حينها تتسارع وتيرة الحرب الأمريكية بالوكالة وتتضاءل فرص الرحيل العشوائي.

«الآن إلى الكابوريا»، قال سجاد وهو يناول «هاري» أحد الكيسين. «حتى يكون ثمة شيء أستطيع أن آكله على العشاء. هل أكلت سمكًا نيئًا من قبل يا «هنري بابا»؟»

«سوشي؟ أحبُّ السوشي.»

«حقًّا؟ بعد خمسة وثلاثين سنة زواج، ولم تقنعني بعدُ أن أضعه في فمي. تعلمت أن أحب كل أكلاتها اليابانية الأخرى. أظل أخبرها أنني سآكل أي شيء تطهيه، شريطة أن تطهيه.»

استدار «هاري» إلى صبي أسقط سمكة على الأرض وحاول أن يرفعها، لكنها ظلت تنزلق من يده كلما حاول الإمساك بها.

«أنتما الاثنان. أتعرف أنني في مراهقتي، حين وقعت في الحب للمرة الأولى، وكنت أسمع ذلك النوع من الموسيقى، الذي يضمن لك الشعور بحزن أكبر مما تشعر به في ظروف حياتك الأخرى، اعتدت أن أفكر فيكما أنتما الاثنين كأعظم عاشقين من بين كل العشاق.»

«أوه! لا. لا. فقط كنا صغيرين ومغفلين. ماذا كان يعلم أحدنا عن الآخر؟ لا شيء تقريبًا. كان ذلك حظًّا. محض حظ. أن اكتشفنا بعد الزواج أن طبع كل منا التعاطف بشدة مع الآخر. وأيضًا...» ـ توقف ولف كيس البوليثين حتى التفَّ كله على معصمه ـ «كان كل منا قد فقد كثيرًا جدًّا في حياته، مبكِّرًا جدًّا، مما جعل كلًّا منا يفهم تلك الأجزاء التي شكَّلها الفقدان في الآخر.» غضَّن أنفه؛ اختلاجة اكتسبها من زوجته. «إن سمِعَتني أقول هذا فستقول إنه الشاعر الديلي الميلودرامي بداخلي. انظرْ، محار. أظننا سنأخذ بعضًا منه. مع المحار لا يمكن أن تضل الطريق. افتحها وستجد لؤلؤة أو منشِّط جنسي. تبتسمُ يا «هنري بابا»، لم أظنك تعرف الكلمة الأردية التي تعني «منشِّط جنسي». قل لي بسرعة لماذا تعرفها. لا بد أن ثمة قصة خلف هذا.»

كيف يمكن هذا، فكر «هاري»، أن يكون والدك رجلًا كهذا وتكبر متحيرًا بشأن موقعك من العالم كما يبدو علي رضا. إن كنت ابن سجاد أشرف كيف لا تعد العالم محارتك سواء كنت تعد نفسك لؤلؤة أو شيئًا رخوًا؟

في تلك اللحظة، مع هذا، لم يكن رضا يعتبر نفسه لا لؤلؤة ولا شيئًا رخوًا، بل فقط ولدًا استيقظ ليجد أن أحدهم سرق نعليه من قدميه وهو نائم. لم ير

حذاء «هاري» وجوربيه محشورين فيهما أسفل مقعد القيادة؛ إذ يفرك عينيه ليتأكد أنه مستيقظ تمامًا قبل أن يشمر شالواره حتى قصبة ساقه، ويترجل بتردد خارج السيارة، لعن بالألمانية حين مست قدميه الطريق البارد القذر. لا إشارة على وجود لصوص، فقط شاحنة تقف على بعد أقدام قليلة. على ارتفاع خمس عشرة قدمًا تقريبًا عن سطح الأرض، كان رجل «بشتوني» يجثم كميزاب بوجه مسخ على حافة حاوية الشاحنة يراقب الحركة المرورية الصباحية في المحيط.

«أثمة أمر مثير يجري هنا؟» صاح رضا بالباشتو؛ اللغة الوحيدة التي لم يتعلمها من «هيروكو»؛ بل تعلمها خلال كل تلك السنوات التي ظل فيها يذهب إلى المدرسة ويعود منها في حافلة يقودها رجل بشتوني حلو المعشر، كان يصر أن يجلس رضا في المقدمة معه منذ أن عبَّر، وهو في السادسة من عمره، عن اهتمامه بتعلم اللغة الأم للسائق. لعقد تقريبًا من حياة رضا ظل سائق الحافلة أحد أفضل مدرسيه.

ظلل الرجل عينيه بيديه فيما يشبه التحية.

«هل أنت أفغاني؟»

لمس رضا عظام وجنتيه بحركة عفوية. لم يكن يسمع هذا السؤال إلى أن غزا السوفييت أفغانستان؛ لكنه خلال السنوات الأربع الأخيرة، وقد وجد عدد متزايد من اللاجئين طريقهم إلى باكستان، صار أقل من المعتاد لرضا أن يُظَنَّ أنه أفغاني من إحدى قبائل المغول.

«نعم»، قال وهو يشعر بالكذبة تضغط على عموده الفقري فيستقيم ظهره.

تدلى الرجل من الحاوية لينظر إلى رضا عن كثب.

«من أي قوم؟»

«هزاره.» أجابه رضا بثقة. وكان يعلم أن «هاري برتون» ظنه هكذا حين رآه أول مرة.

«تعال، قابل أحدهم.» قال الرجل وهو يقفز إلى الأرض ويلف ذراعه حول كتف رضا. «عبد الله! استيقظ.»

فُتِح الباب الخشبي المنحوت لمقعد السائق بركلة من قدم شاحبة، وبعد ثوانٍ قليلة قفز من كابينة القيادة فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. لم يفعل فمه الواسع الملتوي ووجنتاه المكتنزتان شيئًا للتقليل من نظرة البالغين التي حدق بها في رضا بعينيه البندقيتين.

قال الرجل: «لك أخ هنا من أفغانستان، هزاره.»

تجاهل الفتى رضا ولوى ملامحه في وجه الرجل.

«ماذا تفعل في باكستان بأدمغة الناس؟ أهو شيء ما في الهواء؟ هل سأصير أغبى إن قضيت وقتًا أطول هنا؟ منذ متى والهزاره والبشتون إخوة؟»

لاحظ رضا أنها بشتون، وليست بتهان.

ابتسم الرجل كأنه يعتبر الإهانة تعبيرًا عن الحب، وكان رضا الذي أجاب فقط ليؤكد لنفسه أنه لا يهاب ولدًا أقصر منه بست بوصات.

«منذ دخل السوفييت منازلنا واضطررنا إلى الهرب من النافذة، صار الهزاره والبشتون إخوة.»

قطب الولد حاجبيه.

«منذ متى وأنت بعيد عن أفغانستان؟ تتحدث الباشتو مثل هؤلاء

الباكستانيين هنا.» وأشار إلى الرجل، الذي بدا منزعجًا هذه المرة. «هل تتحدث الدارية؟».

«رضا!» كان والده، يسير ناحية السيارة، ملوِّحًا بأكياس السمك نحوه بينما أشار «هاري» إلى قدم رضا وهو يومئ باعتذار قبل أن يشير إلى قدميه هو.

قال رضا: «يجب أن أذهب».

سأل عبد الله: «هل هذا الرجل أمريكي؟»

ابتسم رضا.

قال ثانيةً: «يجب أن أذهب».

أومأ الولد برأسه وعيناه لا تزالان مركزتين على «هاري».

«أين تقيم؟ لم أرك من قبل في «سهراب كوته».»

كان رضا يهم بالابتعاد، لكنه توقف لذكر «سهراب كوته» وهو يزن بين إمكانية تعرضه لمهانة افتضاح أكاذيبه والنفع العائد من معرفة شخص في «سهراب كوته»، حيث يمكن، كما أقسم أحد فتية الحي، شراء مسجلات وتلفزيونات وهواتف بميكروفونات بجزء من أقل سعر في أي مكان آخر في المدينة. كان من الواضح أن بإمكان هذا الولد أن يفاصل تاجرًا أفغانيًّا للوصول إلى سعر لم يكن في وسع رضا النطق به من دون أن تعلن نبرة صوته عن شكه في أنه بذلك إنما يوجه إلى البائع إهانة.

قال: «قد أكون هناك قريبًا، كيف أجدك؟» لم يُعْنَ حتى باختلاق إجابة على سؤال عبد الله عن مكان إقامته. فقد أدرك بالفعل أن الولد لا يطرح أسئلة لغرض تلقي إجابات، بل فقط ليبقي على أسلوب استجوابي تأكيدًا للسيطرة.

«هناك موقف شاحنات بجوار سوق «بارا». فقط قل لأي أحد هناك إنك تبحث عن عبد الله، الذي يقود الشاحنة المرسوم عليها سوفيتي ميت.»

تراجع رضا خطوة إلى الوراء، حذرًا، ثم رأى الفتى يشير على أحد جانبي شاحنته، رُسم على أطرها الخشبية بطلاء فاقع صور لطيور وجبال وزهور - نظر رضا إلى ما يشير إليه إصبع الفتى - ولوحة صغيرة جدًّا لرجل بزي الجيش السوفيتي راقدًا على الأرض والدم يتدفق من جسده كما لو كان يتدفق من ينبوع غزير.

ضحك الفتى.

«الجميع هناك يعرفونني، ويعرفون شاحنتي.» أصدر الرجل صوتًا من أعماق حنجرته فقال الولد: «إنها حقًّا شاحنة «أفريدي» هذا. لكني أنا من طلبْتُ رسم السوفيتي عليها».

أومأ رضا برأسه قائلًا: «في المرة القادمة التي سأذهب فيها إلى هناك سأبحث عنك».

قال الفتى: «إن كنت وقتها هناك. لا أحد يعلم أبدًا. يوم في كراتشي، يوم في «سركودها»، يوم في «بشاور». لقد رأيْتُ كل شيء في هذا البلد». ثم رمق بنظره «هاري» الذي خلع نعليه وسار حافي القدمين ناحية رضا وهو يمسك بالنعلين أمامه كأنه يعرضهما عليه. «لكني لم أظن قط أني سأرى هذا.»

وصل «هاري» إلى رضا، معتذرًا بإسراف حتى وهو يخر على إحدى ركبتيه ويضع الحذاء على الأرض ليخطو فيه رضا. في الظروف العادية، كان رضا سيعترض ويصر على أن يرتدي «هاري» الحذاء متقدًا بالإحراج من معاملته بمثل هذا الاحترام من شخص يكبره بسنوات. لكنه وقد

رأى نظرة الروع في عيني عبد الله؛ نظرة لا تختلف عن النظرات التي اعتاد أقرانه في المدرسة توجيهها له حين يحرز الدرجات النهائية في أكثر الامتحانات صعوبة، غمز فقط بعينه للفتى الصغير ووضع قدميه في الحذاء المطاطي، ويده تلمس الهواء أعلى رأس الأمريكي كما لو كان يمنحه البركة.

١٧

ناولت البنت ذات الخمسة عشر عامًا شريط الفيديو المهرَّب للرجل خلف المنضدة، وقد همَّ بوضعه في كيس ورقي بني حين لمح عنوانه وقطب حاجبيه.

«ليس لائقًا»، قال وهو يضع شريط الفيديو بخفة في فتحة صغيرة أسفل مكتبه. عرض عليها شريط فيديو آخر. «لماذا لا تأخذين هذا؟» قرأت البنت العنوان المكتوب بخط رديء، وأصدرت من الفتحة الصغيرة بين سنيها الأماميتين صفيرًا ينمُّ عن قرف، نظرت بعينيها الخضراوين اللوزيتين في عينيه مباشرة على نحو وجده غير مألوف ومحرجًا.

«إن كان ثمة قانون يمنعني من أخذ هذا الشريط فلا بأس. لكن «اللياقة» ليست شيئًا يمكنك أنت أن تقرره.»

ضحك تقريبًا على تلك الهرمية التي تضع القانون فوق نصيحة الكبار، لكن شيئًا في تلك العينين الخضراوين الواضحتين نمَّ عن أن ذلك ربما لا يكون تصرُّفًا حكيمًا.

«إن وافق والدك فسأعطيه لك.» قال بلهجة من وجد حلًّا وسطًا ويتوقع عليه شكرًا.

أصدرت البنت صوتًا غير مألوف، لكنه يعبر بوضوح عن القرف، وخرجت من متجره، تاركة الرجل حائرًا بشأن تلك المخلوقة الغريبة بسترتها الجلدية المرصعة بالمعدن، والطلاء الأسود على شفتيها، وشعرها النحاسي القصير تتدلى منه خصلة واحدة طويلة على كتفيها كذيل فأر مجعد.

«دادي وارباكس!» صاحت «كيم برتون» على أبيها وهي تخرج من المتجر. «يريدني أن أشاهد فيلم «آني». ما هذا المكان؟»

أشار «هاري» لابنته فيما معناه أن تعود إلى المتجر وتنتظره هناك، وواصل الحديث مع الرجل الذي يبيع مكسرات وفاكهة مجففة على عربة خشبية ذات عجلات. اقتربت البنت منه متجاهلة تعليماته، وقد حاولت أن تتجاهل نظرات المارة الذين يحدقون فيها في زحام الميدان التجاري؛ كانت النساء يحدقن أكثر من غيرهن، هذا ما لاحظته خلال إقامتها التي استمرت أربعة أيام في إسلام آباد، وقد جاء إليها عديدات بالفعل وأمسكن بخصلات شعرها الطويل المدهون بالكريم المثبت، وهن يرددن كلمة «كووها»؛ التي ترجمها لها أبوها مرددًا بحماسة «فأر».

واصل أبوها حديثه مع الرجل بالأردية. تقف بجواره وترفع ذراعه على كتفها لتؤكد له أنها هناك. شعرت بتلك الدفقة من الدفء والأمان حين شدها له، حتى جعلها تبتعد وهي مكفهرة. كان مختلفًا هنا، فاشلًا بشكل ما. إنه يفضل البقاء هنا، هذا ما كان عليه الأمر. قالت جدتها إنه يفضل المكان هنا.

لاحقًا، وهما ينطلقان بالسيارة في شارع عريض تحفه الأشجار إلى موقع بناء الجامع الفسيح في نهايته، في حجرها شريط فيديو لـ«توتسي»، (وقد خانتها شجاعتها في آخر لحظة لم تعترف له بأنها كانت تريد «بوركيز»)، قالت: «لماذا تظل تقول إنك تكره إسلام آباد، بينما من

الواضح جدًّا أنك هنا أسعد مما أنت عليه حتى في نيويورك، ناهيك عن واشنطن أو برلين؟».

رمق «هاري برتون» ابنته بنظرة دهشة. مثلها مثل جدتها الغالية، لديها القدرة على رؤية أشياء بداخله كان متأكدًا أن لا أحد غيرهما بإمكانه تخمينها. ضايقه ذلك. كانت «إلزي فايس» شيئًا مختلفًا ـ إذ كانت تعرفه طيلة حياته ـ لكنه بالنسبة إلى هذه الفتاة ليس سوى حضور عابر منذ أن كانت في الرابعة من عمرها، وأنهى الطلاق الحياة الأسرية في واشنطن، محرِّرًا كلًّا من والديها من قيود الآخر ومن المدينة التي كرهاها، لكنها مع ذلك أثبتت جدارتها بوصفها حلًّا وسطًا بين إصرار الزوجة على تربية طفلتها في أمريكا، وإصراره على سلوك المسار المهني الذي اختاره. كان والدًا فاشلًا، يعلم هذا، لذلك حين تجيء «كيم» لزيارته ـ في برلين من قبل، والآن هنا ـ أو حتى حين يتوقف أيامًا قليلة في نيويورك ليراها، يتقبل تجهمها ونوبات غضبها كما لو لم تكن سوى تحلية؛ لكن لحظات البصيرة تلك التي تظهر له لمحات من المرأة التي ستصير إليها ما إن تجتاز سن المراهقة تجعله يرتبك. كان هناك كثير جدًّا عنه مما لا يريدها أن تعرفه.

قال بحسم: «أنا أكره إسلام آباد حقًّا».

توقف في إشارة مرور، ومال راكب دراجة بجواره على نافذة «هاري» المفتوحة قليلًا وهو يومئ برأسه إعجابًا بالموسيقى المنبعثة من كاسيت سيارته. أخرج «هاري» شريط الكاسيت وناوله للرجل؛ مما دفع «كيم» لإطلاق شهقة غضب حتى مع أن لديها في المنزل نسخة أصلية منه، وما كانت تلك سوى نسخة صنعتها للسيارة من باب عادتها في استهلاك شرائط الكاسيت. أخذ الرجل شريط الكاسيت بتردد ينم عن عدم تصديقه تمامًا أنه له، وسأل «هاري»: «أمريكي؟»، حين أومأ «هاري» برأسه، حشر الرجل

خنصره في إحدى فتحتي شريط الكاسيت ورفعه في ذهول وهو يحرك يده هنا وهناك كما لو كان معجبًا بخاتم خطبة. ثم أخذ كيس تفاح يتدلى من مقود دراجته ومرره لـ«هاري» قبل أن ينطلق وهو يرن بجرس دراجته وشريط الكاسيت لا يزال مثبتًا في إصبعه.

قال «هاري»: «أكره إسلام آباد حقًّا، لكني أحب شعبها. لا أقصد طبقة الموظفين، بل الشعب الحقيقي».

قالت «كيم» وهي تلتهم تلك المعلومة: «هاه، هذا غريب. كنت أجد العبارة التي تقول لا يمكنك أن تصير رئيسًا لأمريكا لو ولدْتَ في مكان آخر، عبارة غبية حقًّا لأنه بالقطع سيكون من هاجروا إلى أمريكا مواطنين أكثر ولاءً من هؤلاء الذين يعتبرونها من المسلَّمات. كنت أظن هذا بسببك، وكيف أن إنجلترا لا تعني لك شيئًا. لكني أعتقد أن إنجلترا ليست الوطن الذي تركته وراءك، أليس كذلك؟».

«إنجلترا كانت محطة في الطريق»، قال «هاري» شاعرًا ببعض الرضا لتخيله «كيم» تعيد هذا على مسامع جدها. قد يغص حلق «جيمس برتون» مرارة لهذه المعلومة، لكن «إلزي فايس»، على الجانب الآخر، سيثلج لها صدرها.

كانت «كيم» تعرف قصة طفولة «هاري» جيدًا؛ واحدة من القصص القليلة التي يمكن الوثوق في حكي «هاري» لها من دون مراوغات، لأنها، حقًّا، عن تلك الفترة من حياته قبل أن تصير السرية والأكاذيب ضرورة.

كان الأسوأ من مغادرة الهند هو الوصول إلى إنجلترا. كان «هاري» يبدأ القصة بهذه العبارة دائمًا. كانت الحرب لا تزال في كل مكان، ولم يكن هناك من شمس في أي مكان، وضحك كل الصبية في المدرسة على «تعبيراته

الهندية» (اللغوية والجسدية) وأرادوا أن يعرفوا ماذا فعل والده في الحرب. ثم كان الرعب الأخير: قال الولد الآخر الوحيد الذي وصل للتو من الهند، والذي اعتبره «هاري» حليفه: «إن أمه ألمانية». هكذا مر أغلب العام الأول في بؤس مرير. لم تتحسن الأمور تقريبًا إلا عند اقتراب عيد الفصح حين رمى أحد الفتية بكرة كريكيت ناحيته وهو يقول: «هاي، «مهراجا فريتز». هل تعرف كيف ترمي؟» حينها حولته المهارات التي علمها له سجاد ـ ودائمًا ما يبدو حزينًا على نحو ما حين يذكر هذا الاسم ـ إلى أحد أبطال المدرسة.

بعد ذلك بعامين، حين أعلن والده في أثناء عطلة عيد الفصح أن «رحلة والدته القصيرة إلى نيويورك»، وقد بدأت قبل ثلاثة أشهر، سوف تكون دائمة، وأن على «هاري» اللحاق بها هناك. تمزق الفتى في الحادية عشرة من عمره. كان يرغب في أن يكون قريبًا من أمه، لكنه يعلم أن مهاراته في الكريكيت لن تجدي نفعًا في نيويورك. وماذا كان لديه غير هذا؟ على الرغم من كل شيء. لا شيء سوى لكنة أجنبية أخرى. كانت الهند وقتها قد غادرت لغته ولم يتبق منها سوى «مارمايت» و«سردين» حسب رواية والدته.

قرر «هاري» أن ثمة شيئًا واحدًا فقط يمكن عمله. سيذهب إلى نيويورك منذ بداية الصيف وليس نهايته كما كان مخططًا، ويستعد. «علمني التحدث بالأمريكية»، قال في يومه الأول في نيويورك للشاب الأنيق الذي قاده إلى منزل الخال «ويلي» بمنطقة الـ«آبر أيست سايد». («شقة وليس منزلًا. هذا درسك الأول.») أبى أن يخضع لكل محاولات والدته لتعريفه بفتية قد يكونون من زملائه في الصف الدراسي («mate» وليس «classmate») في الخريف («fall» وليس «autumn»). تعلم قواعد البيسبول، وأهداف كل لاعبي «اليانكيز» خلال العشرين سنة الأخيرة، ووجد نفسه يبكي وهو واقف أمام النصب التذكاري لـ«بيب روث» وقد أزيل عنه الستار مؤخرًا.

حتى مع ذلك، غلبته غربته في يومه الأول في المدرسة حتى أصيب بالخرس. ظل طوال الساعات الأولى يغمغم وهو يسير حانيًا رأسه، ولا يعير اهتمامًا لأحد سوى المدرسين. في أثناء استراحة الغداء فقط، وهو يجلس وحده على درجة سلم أسمنتية يسمع بعض الطلبة من حوله، أدرك أنه محاط بمجموعة من المهاجرين، ألمانيين وبولنديين وروسيين. كانوا جميعًا مثله، قُدِّر لهم وحدهم أن يكونوا من الطبقة نفسها في هذه المدرسة الخصوصية («خاصة، «هنري»، خاصة»)، وقُدِّر لهم أيضًا أن والدَيْ كل منهم، لم يعودا لسبب ما أو لآخر، في حاجة لأي شيء يربطهم بأوروبا بعد الحرب.

نظر «هاري» إليهم، ثم نظر إلى مجموعة فتية آخرين يتسكعون تحت الشجرة، ليس بهم شيء من العالم القديم.

نهض واقفًا، وتوقف مدركًا أنه على وشك أن يرمي بنفسه في أول مرمى خطر حقيقي في حياته، ثم سار إلى مجموعة الفتية الثانية وقال «هاي، أنا «هاري».»

كان «جيمس برتون»، ذاك الشتاء، في لندن، يخبر ابنه أن الثقة بالنفس تذهب بك بعيدًا في الحياة، وأنه لو كان «هاري» أقل تزعزعًا حين وصل المدرسة الداخلية في إنجلترا أول مرة، لوجد استقبالًا وودًا كذلك. لكن «هاري» لم يراقب نفسه فقط، بل راقب أيضًا الآخرين من أبناء المهاجرين وهم يشقون طرقهم في العام الدراسي، وفهم أن أمريكا تسمح ـ بل تصر ـ على نحو لا يحدث في أي بلد آخر، على دمج المهاجرين جزءًا من نسيجها الوطني. كل ما عليك هو أن تعبر عن رغبتك في أن تكون أمريكيًّا ـ لو لم تكن أمريكيًّا عام ١٩٤٩ فماذا تود أن تكون؟ («وهل يوافقك الطلبة الزنوج في مدرستك على هذا الرأي، «هنري»؟» «لم أقل قط إنها البلد الكامل، أبي، إنها الأفضل فقط.»).

قالت «كيم» وهي تغمض عينيها وتستنشق عبير الياسمين الذي تدفق إلى النافذة سريعًا: «لقد قمْتَ بتضحية كبرى، أن تقيم خارج أفضل البلاد لتخدمها».

رمقها «هاري» بنظرة جانبية، وتنهد.

«أفتقدُكِ حقًا. تعرفين. وإن كان ثمة حاجة إلى موظف قنصلية في نيويورك، صدقيني، لانتقلْتُ إلى هناك في لمح البصر.»

قالت «كيم» وعيناها لا تزالان مغمضتين: «توقف عن هراء موظف القنصلية هذا أبي».

كان هناك صوت صرير و«هاري» ينحرف إلى أحد جانبي الطريق ويوقف السيارة بحدة.

قال: «اعتذري».

فتحت «كيم» فمها لتنطق بشيء غير الاعتذار، لكنها حينئذ فكرت في احتمال وجود أجهزة تنصت في سيارته؛ قد يعرف الحقيقة شخص لا يجب أن يعرفها مما قد يلحق به الضرر.

مالت بجذعها وأحاطت «هاري» بذراعيها، فأصابه الذهول.

«آسفة يا بابا. آسفة. أنفِّس فقط عن غضبي بالكلام.»

قبَّل «هاري» جبينها بحرارة. كانت تلك أول لمحة يراها لطفلته من خلال أشواك مرحلة المراهقة منذ وصلت إسلام آباد لتقضي معه عطلة عيد الميلاد. أراد أن يقول إنه يتمنى لو اختار مسارًا مختلفًا، لكنه ارتعب من إدراكها للكذبة. يعلم الآن، في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى، أنه كان يفعل بحياته بالضبط ما يصل بها إلى أقصى درجة من الإثارة. متى

حدث هذا التحوُّل. تساءل بينه وبين نفسه و«كيم» تعتدل في جلستها وتعقد ذراعيها، ويبدو عليها الخجل من غضبتها. متى صار الأمر يتعلق بالإثارة أكثر مما يتعلق بالمثالية؟ شعر بصلةٍ ضئيلة فقط مع الشاب الذي انحرف عام ٦٤ عن مساره الأكاديمي، وتقدم إلى مسار عمل آخر مختلف كليةً، مبرِّرًا للرجال الذين أجروا معه المقابلة أنه يرغب في الانضمام إليهم؛ لأنه يؤمن من صميم قلبه بضرورة القضاء على الشيوعية عن بكرة أبيها، ليتسنى للولايات المتحدة أن تضحى القوة العظمى الوحيدة في العالم. لم تكن رؤية القوة في ذاتها ما يعني «هاري»، بل فكرة تمركز هذه القوة في بلد المهاجرين. لم يكن في وسع الحالمين والشعراء التوصل إلى نظام أكثر حكمة لسياسة العالم: بلد واحد ديمقراطي يمتلك القوة، يرتبط مواطنوه بكل بلاد العالم. كيف يمكن لأي شيء سوى العدالة أن يكون المزية الأكثر ثباتًا التي تحكم تعاملات هذا البلد مع العالم؟ كان هذا هو المستقبل الذي رآه «هاري برتون»، المستقبل الذي عزم على أن يكون جزءًا منه. ولم يكن من هؤلاء الرجال الذين يبقون بعيدًا عن الحرب وهم يظهرون اهتمامًا متحمسًا بما ستسفر عنه.

حسنًا، إنه يهتم الآن بالقدر نفسه من الحماس، إلا أنه قد مضى وقت طويل منذ أن فكر في صلة هذا الأمر بالعدالة، ناهيك عن الحالمين والشعراء.

أوقف السيارة بجوار الجامع الفسيح وكان تحت الإنشاء منذ اثني عشر عامًا أمام خضرة مرتفعات «مارجالا» في الخلفية، وراقب ابنته تبتسم لموقع البناء كما لم تبتسم لشيء آخر في إسلام آباد.

«ما هذا الشيء المشيد على هيئة الحيوان المدرَّع، محاطًا بأربعة رماح؟» سألت في أول أمسية أخذها فيها في جولة بالسيارة في إسلام آباد. كانت أول جملة تنطقها تخلو من كلمة «ممل».

راقبها الآن تخلع سترتها الجلدية وتدس ذيل شعرها المثير لرفع الحاجبين في التِّيشيرت وتمسح شفاهها بمنديل بهمة، اختفى فجأة من مظهرها كل ما يمت بصلة للحالة العدائية، وصارت مجرد فتاة صغيرة، تلمع عيناها وهي تقترب من المقاول الذي صار الشخص الوحيد في إسلام آباد الذي تعيره اهتمامًا. تساءل «هاري» بينه وبين نفسه عن أي نسخة ـ العدائية أم غير العدائية ـ كانت ستتبدى منها أمام آل أشرف إن أخذها إلى كراتشي. عبَّر كل من «هيروكو» وسجاد عن رغبتهما في لقائها، لكن «هاري» لم يسعه سوى أن يستحضر صورة ذهنية للفروق بين الفتى المهذب المحترم الذي رباه الزوجان أشرف وتلك المخلوقة المشاكسة من نسله؛ ليعرف أن هذا اللقاء قد يؤول إلى كارثة. ومع ذلك تمنى في تلك اللحظة لو أنه فكر على نحو مختلف؛ ليس لأنه يفتقد آل أشرف فقط، وقد رأى كيف يمكن لعطلة عيد الميلاد أن تكون في صحبتهم عطلة عائلية حقيقية. لا يهم، سيراهم خلال أسبوعين. ستغادر «كيم» وقد تدبر أن يحصل من زميل له في القنصلية هناك على مفاتيح شاليه على البحر في كراتشي. ابتسم وهو يتخيل سرور رضا بالخطط التي رتبها. ثم نظر إلى «كيم» نظرة خاطفة وتنهد. كان من السهل جدًّا إدخال السرور على قلب مراهق ابن أحد غيرك.

قالت «كيم»، مشيرة إلى المقاول الذي يسير ناحيتهما بابتسامة: «هل يمكنك أن تخبره أنني رأيت ونحن نصعد بالسيارة كيف أن السطح على شكل خيمة، وليس هيكل مدرَّع، مع أن المنارات الأربع لا تزال تبدو كالرماح».

ترجم «هاري» جزئيًّا، متجاهلًا الجزء الخاص بالرماح، وقد ارتاب في أن وقعه لن يكون جيدًا، حتى مع شعوره بأن المقاول يعرف ما يكفي من الإنجليزية ليفهم قدرًا لا بأس به مما قالته «كيم». أومأ المقاول برأسه، ابتسم، ثم قادهما إلى داخل الجامع الفسيح؛ حامت يد «هاري» فوق رأس «كيم»

لحمايتها في غياب أية خوذات، غير أن ابنته كانت تشعر بغبطة شديدة ألهتها عن الاستنكار الذي كان يمكن أن تبديه في ظروف أخرى.

ظلت «كيم» تقول «واو»، والمقاول يتجول بهما ـ أول مرة يوافق على أن يريهما الجامع من الداخل ـ ويعرض لهما كيف يستند السطح المشيد على نحو غير تقليدي على عوارض خشبية عملاقة.

حكاية أجيال. فكر «هاري» في نفسه. شهد «جيمس برتون» انهيار إمبراطورية بفزع، كان «هاري برتون» يعمل على انهيار الشيوعية، وفقط «كيم برتون» من تريد أن تعرف كيف تبني صرحًا بعد آخر، عملية البناء في ذاتها هي كل ما يهم، سواء كان نتاجها جامعًا أو قاعة فنون أو سجنًا. فكر «هاري» في واحدة من اندفاعاته العاطفية المفاجئة أن «كيم» وحدها من بينهم جميعًا التي يمكن الاعتماد عليها في التعامل مع العالم من دون إحداث أي ضرر.

١٨

بدا من بعيد كأنهما يصليان.

ركع «هاري برتون» وهيروكو أشرف على كل من جانبي حوض صخري، وأيديهما على ركبهما، لا ينظران يسارًا إلى طيور النورس التي تنزلق على سطح الماء ولا يمينًا إلى الحياة الوديعة على الرمال: تجلس عائلات على ملاءات، يأكلون البرتقال للتغلب على ملوحة الهواء، يقذف مجموعة فتية بكرة تنس ملصق بها قطعة ورق مكتوبٌ فيها شيء ناحية مجموعة فتيات فيقهقهن ويتجمعن معًا؛ جِمال بمقاعد مصنوعة من مرايا ثقيلة تثير صرخات الراكبين الصغار، وهم يرتجون إلى الأمام والخلف على مرأى من الواقفين، يبني رضا قلعة رمال مفصلة، لأن «هاري» قال إن هذا ما كان يستمتع بعمله على الشاطئ في شبابه، بينما ينقش سجاد أبياتًا من الشعر الأردي على جدران القلعة بالطرف الحاد لصدفة بحرية.

«لا تعرف بوجود الـ«سلمندر» أحيانًا إلا لأنها تقلِّب الوحل. تنكُّرها أفضل قليلًا من تنكرك.» لوحت «هيروكو» بيدها تجاه شعر «هاري» المخضب بظلال عديدة أزهى من لونه الطبيعي.

ضحك «هاري».

«لا تسخري. حتى البشتون يظنونني بشتونيًّا حين أرتدي «الشالوار كاميز». أخبرهم أن اسمي «لالا باكش»، ثم يخذلني عجزي عن قول كثير بالباشتو. هل لديك فكرة عما حدث له؟ «لالا باكش» الحقيقي؟»

هزَّتْ «هيروكو» رأسها. أدارت وجهها ناحية البحر، أغمضت عينيها وابتسمت.

«إنها سعادة حقيقية أن أكون هنا. نعيش بداخل اليابسة كثيرًا حتى أنسى أحيانًا أنها مدينة ساحلية أيضًا.»

«أيضًا؟»

«مثل ناجازاكي.»

نظرتْ إلى قوارب الصيد الخشبية الثلاثة التي تتقدم ناحية الأفق في صف واحد، بلا أشرعة، ولا أصوات محركات من فوق هذه المسافة، فبدت لها مدفوعة بإرادة البحر فقط. من ناجازاكي إلى بومباي. من بومباي إلى إسطنبول. من إسطنبول إلى كراتشي. قطعت البحر كله سفرًا في عام واحد، ليس شيئًا عاديًّا، وخصوصًا حين تضيف إليه حقيقة أنها قبل هذا العام لم تبرح اليابان قط، وبعده لم تبرح باكستان قط، بل نادرًا ما خرجتْ من كراتشي. كان سجاد أحيانًا يأخذ رضا ويذهبان لزيارة أخيه إقبال في لاهور، أو أخته في بشاور، ومرة كل عشر سنوات أو ما يقرب كانا يعبران الحدود لزيارة ما تبقى من العائلة في دلهي، مع أن تلك الرحلات كانت دائمًا تحطم معنوياته. لكن «هيروكو» لم تكن ترافقهما في أي من تلك الرحلات العائلية، أدرك سجاد منذ زمن طويل أن زوجته اليابانية ستظل دائمًا غريبة عن أسرته، وسيبقى حضورها سببًا في إزعاج كل الأطراف، وكف أخيرًا عن أن يطلب

منها أن ترافقهما. لذلك كانت من حين إلى آخر تقضي تلك الأيام وحدها في كراتشي، وكانت دائمًا تشعر بتلك الإثارة السرية حين يخطر لها أن تنقض على مدخراتهما وتحجز تذكرة طيران إلى أي مكان ـ مصر، هونج كونج، نيويورك ـ وتعود في الوقت المناسب لتكون في استقبال زوجها وابنها.

«هل ما زلتِ تفكرين فيها كثيرًا؟ في ناجازاكي؟» لم يكن ليوجه مثل هذا السؤال إلى شخص لم يقابله سوى من شهرين فقط، لكنه كان بالفعل يعتبرها شخصًا عرفه فترة طويلة جدًّا من حياته.

لمست ظهرها، أعلى الخصر قليلًا.

«إنها دائمًا هناك.»

أومأ «هاري» برأسه ونظر إلى وجهه المنعكس في الماء الصافي في الحوض الصخري، تنمو منه نباتات بحرية.

«كيف شرحْتِ الأمر لرضا؟ حين سألَتْ «كيم» أول مرة عن «كونراد»، قمْتُ واستأذنْتُ وغادرت الحجرة، فأخبرتها أمي بشيء ما ـ لا أعرفه حتى الآن ـ جعل «كيم» حين خرجت من الغرفة تبدو كبيرة في السن بشكل مرعب. كانت وقتها في الثامنة من عمرها فقط.»

رفعت «هيروكو» نظرها لتنظر إلى رضا، منكبًّا بتركيز على قلعته. في تلك اللحظة، كان طفلًا.

قالت: «حكايات الجنيات، كنت أختلق حكايات الجنيات».

هزَّ «هاري» رأسه بحركة تعني أنه لم يفهم.

أخذت نفسًا عميقًا.

قالت: «سأخبرك»، وعرف من صوتها أنه سيستمع إلى شيء لم تكن لتتحدث عنه مع أي شخص آخر. «كانت هناك حكاية عن بنت يزحف ناحيتها أبوها المحتضر في هيئة سحلية، وقد أرعبتها بشاعته حتى إنها استغرقت سنوات لتفهم أن آخر حركة قام بها كانت ناحيتها بعد أن قضى عمره كله يبتعد عنها. وأخرى عن ولد هزوه ليوقظوه من حياته ويخبروه أنها كانت حلمًا، وكذلك كان كل من أحبهم فيها؛ وأن هذا العالم المتفحم، هذا السجن، هذه الوحدة، هي الحياة الحقيقية. عن كائنات في كتب، بظهور قرمزية، وأعمدة فقرية مكسورة، قدمت نفسها قربانًا؛ لئلا تعيش في عالم يعتبر كل ما خُطَّ فيه ضربًا من الخيال. عن امرأة فقدت شعورها فنفذت النار من ظهرها وحرقت قلبها حتى ترى جثة مولود صغير؛ ولا تفكر في شيء سوى أنه سيكون هناك جثة أخرى. عن رجال ونساء يسيرون في عالم من الظلال يبحثون عن أحبائهم. عن وحوش تبسط أجنحتها وتحط على جلد البشر وترقد هناك، في انتظار انقضاء مدتها. عن جيش أبالسة جهنمي أسقطته السماء ليقتل بمجرد أن يعانق. عن معلمة تعيش في عالم تدب فيه الحياة في الكتب، ولا تستطيع الهرب من كتاب التشريح الذي تلاحقها صور منه في كل مكان تذهب إليه، صور لأجساد من دون جلد، أعضاء عارية، أجساد تبين ما يحدث للأجساد حين يتوقف كل شيء فيها عن العمل.»

«يا إلهي، «هيروكو».»

كان يتوقع حين تقدم للعمل في إدارة العمليات بالمخابرات الأمريكية أن يلقى مشاكل تتعلق بمولده في بلد أجنبي ومسألة انقسام الولاء؛ غير أن سنوات الهند وإنجلترا لم تُذكر إلا قليلًا في المقابلة التي أجريت معه، وكانت اللحظة الحرجة الوحيدة حين سألوه عن رأيه في قصف هيروشيما

وناجازاكي بالقنبلتين. قال وهو واعٍ بشدة لجهاز كشف الكذب الموصل به: «أنا مثل الرئيس «أيزنهاور»، أرى أنه ما كان لنا أن نفعل هذا».

الآن كانت باكستان تعمل على تطوير برنامجها النووي. المخابرات الأمريكية تعلم هذا. وحسب فهم «هاري»، لم تستجب لهذا سوى بجمع المعلومات التي تؤكده، ثم ضخ المزيد من الأموال في البلاد لتوفير النفقات الهائلة اللازمة لمثل هذا البرنامج. لم يكن «هاري» يتذكر شيئًا عن «كونراد»، لكن ذلك لم يمنعه من الحلم بسحب الفطر بشكل منتظم منذ ذاك اليوم عام ١٩٤٥ حين وقعت يده على المجلة التي أتت بها والدته إلى المنزل، ورأى فيها صور ضحايا القنبلة الذرية، وقتها رفع بصره عن صور الأطراف البشرية المحترقة إلى صورة الخال «كونراد» وهو طفل صغير، أكبر قليلًا من «هاري» وقتئذ، يبتسم للكاميرا بابتسامة «هاري» نفسها.

كانت «إلزي فايس» ـ وليس أحد الأطباء النفسيين في المخابرات الأمريكية ـ من رأت أن السبب الجذري لإصرار «هاري» على الالتحاق بالمخابرات الأمريكية في ذروة الحرب الباردة هو رعبه من نشوب حرب نووية، ذلك التهديد الذي لن يُقضَى عليه إلا بإنهاء المعركة بين روسيا وأمريكا إلى الأبد. ضحك «هاري» بتعالٍ، دائمًا ما يرفض الاعتراف لأمه بعمله في المخابرات، مع أنها توصلت إلى هذا بطريقة ما وهو لا يزال تحت التدريب في المزرعة، لكنه منذ قرأ تقرير زميل له مرسل إلى «لانجلي» عن المشروع النووي الباكستاني، كانت ثمة لحظات، حين يجلس أمام مسؤولي المخابرات الأمريكية، يشعر فيها بحنق يفوق الشك والضيق والغضب الذين يصاحبون عادةً كل خطوة تحالف بين المخابرات الأمريكية والباكستانية، ثم لم يسعه سوى أن يتساءل عما إن كان لرأي والدته وجاهته.

قالت «هيروكو»: «لكنني لم أحكِ لرضا حكايات الجنيات قط. ولا واحدة

منها. ظننت دومًا أنه سيكبر يومًا ما بما يكفي. لماذا يكون عليَّ من الأساس أن أجعل ابني يتخيل كل هذا؟» غرفت ماءً بيديها ونثرته على فروة رأس «هاري» وقد بدأت تحمرُّ تحت أشعة الشمس. «إنه يعلم بوجود القنبلة. يعلم أنها كانت أمرًا بشعًا، وأن أبي والرجل الذي كنت خطيبته راحا ضحيتها. تلقَّى مرة كتاب تاريخ هدية في عيد ميلاده به صفحة كاملة عن هيروشيما بها فقرة عن ناجازاكي. كان به صورة لرجل ياباني عجوز يبدو حزينًا وعلى رأسه ضمادة دامية، بدا أنه خدش إثر سقوطه عن فرع شجرة واطئ. عرضها رضا عليَّ، أومأ برأسه، ثم لم يذكر الأمر مرة أخرى قط.»

«والحروق على ظهرك؟»

لم يكن مستعدًّا للغضب الذي ارتسم على وجهها، ولا للألم المبرح في صوتها وهي تقول: «لم يكن لوالدتك أن تخبرك بهذا».

«أنا آسف جدًّا.» فزع حقًّا من ضيقها، صعقتْه غرابةُ ملامحها من دون حُسن طبعها المعتاد.

مررت إحدى يديها على وجهها كما لو لمسح الضيق الذي حط عليه، ومدت أخرى لتربت على معصم «هاري».

«اعذرني على غروري. سجاد هو الوحيد في العالم الذي أسمح له بـ...» سكتت وابتسمت بطريقة أخبرت «هاري» أنها إذا استرسلت ستتحدث عن أسرار حميمة بين الزوج وزوجته، ثم أضافت: «في الحقيقة لم يرها رضا قط».

«لم يرها؟» كان من المستحيل إخفاء الدهشة في صوته.

«أوه! إنه يعلم بوجودها. يعلم أن ثمة أماكن بلا إحساس. كان وهو

صغير يحب أن يتسلل من خلفي وينغز ظهري بشوكة أو قلم، ويضحك حين أستمر في عمل ما أعمله من دون أن ألاحظ ما يفعله. كان ذلك يغضب سجادًا جدًّا، لكنني كنت ممتنة لتعامله مع الأمر بهذه الخفة.» بدت مستمتعة لاستمرار ذهول «هاري». «ليس هذا عالم يرى فيه الصغار ظهور أمهاتهم عارية، أنت تعرف. لم أختر عن وعي قط ألا أجعله يراها، فقط لم أظن أن عليَّ أن أخرج عن طبيعتي لأريه ما فعلوه بي. ونعم، «هاري برتون»، إنها قبيحة. وأنا مغرورة.»

أراد ـ على نحو غريب وعنيف ـ أن يعتذر لها، أن يتوسل إليها لتغفر له. ولم يمنعه سوى يقينه بأن مهما يقلْ فلن يكون كافيًا، وسيكون محرجًا لها.

استرسلت «هيروكو»: «لكني لا أريد أن تظن أن حياتي مسكونة بالماضي. قيل لي إن أغلب الهيباكوشا يعانون من عقدة ذنب لأنهم نجوا. صدقني، لست منهم. هأنذي، أستنشق هواء البحر، أبحث عن الـ«سلمندر» وأصداف بحرية مع واحد من «آل فايس» وزوجي وابني يبنيان قلاعًا على الرمال. أمس رفعت سماعة الهاتف حين دق جرسه فسمعت صوت صديقتي القديمة «إلزي» لأول مرة منذ خمس وثلاثين سنة». ابتسمتْ بسرور شديد. كان أمرًا يفوق المعقول، الطريقة التي اختُزلت بها السنين إلى لا شيء، وظلتا تتحدثان ساعة تقريبًا بلا انقطاع. صوت «إلزي» سعيد كما لم يكن قط خلال سنين زواجها بـ«جيمس برتون» «وغدًا صباحًا أسير في فناء المدرسة مع جارتي وصديقتي بلقيس، التي تعمل مدرسة معي، ويتجمع حولي تلاميذي يحكون لي عن رحلتهم إلى حديقة الحيوان، يتحدث أكثرهم في الوقت نفسه، حتى إنني لا أفهم كلمة مما يقولونه. نعم، أعلم، قد يختفي كل شيء في لمح البصر. لكن هذا لا يقلل من قيمته.»

مالت إلى الخلف وأغرقت قدميها في الحوض الصخري. لم تكن

تعرف كيف تخبره ـ من دون أن تضايقه ـ بأنه صار جزءًا من كل ما له قيمة في حياتها. طريقته في دخول منزلهم في ناظم آباد، دخول حياتهم اليومية، كان فيها شيء بسيط على نحو مذهل. منذ قليل وهي تراقب «هاري» يلعب كريكيت على الرمل مع رضا ومجموعة من الفتية الصغار فكرت أنه في حين كان «كونراد» يصر على التجوال في مدينة ظلت شقيقته تنأى بنفسها عنها، إلا أنه كان يفعل هذا بوعي ذاتي، واعيًا بإثمه الخاص. وستظل «إلزي»، بكل هذه السنين التي قضتها في نيويورك تختلط «بناس من كل نوع» بتعبيرها، عاجزة عن أن تكون في حضرة سجاد من دون أن تتذكر أنه ذات مرة كان أعلى بدرجة واحدة فقط من منزلة خادم؛ كان ذلك واضحًا في اللحظة المتكلفة الوحيدة في محادثتهما، حين قالت «إلزي»، «وكيف حال زوجك؟» لكن «هاري»، كان ببساطة يشعر بالامتنان لأنه بينهم.

الأمريكيون! فكرت «هيروكو» وهي تراقب «هاري» يُخرج من جيب بنطلونه القصير أنبوبة مرطب ضد الشمس ويدهن أعلى رأسه ببعضه. وقد قررت في طوكيو، منذ خمسة وثلاثين عامًا، أن تعاليهم ليس على سبيل الطبقية، بل القومية («لقد أنقذت القنبلة حياة الأمريكيين!» حتى الآن، حتى الآن يمكن أن تشعر بحرارة في وجهها حين تتذكر هذا). لكنها مع «هاري برتون» كانت تعود عن هذا القرار. كان موظف قنصلية، ابن أخت «كونراد»، موظف قنصلية. بدا ذلك في غاية الصواب. كان هو حارس البوابة بين أمة وأخرى، وكان كل ما رأته منه خلال تلك الأسابيع الأخيرة يحدو بها إلى الإيمان بأنه يُبقي البوابة مفتوحة على مصراعيها.

قال «هاري» يقاطعها: «الانقسام والقنبلة، أنتما الاثنان إثبات لقدرة البشر على التغلب على كل شيء».

التغلُّب. يا لها من كلمة أمريكية. ماذا تعني حقًّا؟ لكنها كانت تعرف

حسن نيته لذلك بدا من الفظاظة أن تعيد له الكلمة في وجهه بحكايات عن الجنين «غير السليم» الذي لفظه جسدها، أو الدموع التي زرفها سجاد بعد زيارته الأولى لعالمه المنهار في دلهي.

بل قالت فقط: «أنظر أحيانًا إلى ابني وأظن أنه ربما كلما قل ما علينا أن «نتغلب عليه» زادت همومنا».

احتد الإحساس باليأس الجارف الذي استولى على حياة رضا بعد فشله للمرة الثانية في الامتحان إلى رثاء للذات خلال تلك الأسابيع الأخيرة، وسجاد يأخذه معه كل صباح للعمل في مصنع الصابون الذي يعمل فيه مديرًا عامًّا، بينما يستقل كل أصدقاء رضا الحافلة إلى جامعاتهم.

«على الأقل دعه يعمل في المبنى الإداري»، قالت «هيروكو» في نهاية أول يوم، حين عاد رضا ملطَّخًا بوسخ الماكينات ورفض أن يغسل يديه لأن رائحة الصابون تصيبه بالغثيان.

«لقد أخبرته أنه سيظل يعمل في المصنع حتى يقرر أنه سيعيد الامتحان مرة أخرى. ألا تفهمين أنني أريده أن يكره العمل في المصنع بما يكفي؛ ليختار السبيل الوحيد أمامه للخروج منه؟ أنتِ فقط تدعيه يبقى في البيت مكتئبًا طوال اليوم. لقد قلتِ امنحْه وقتًا، حسنًا، ها هو لديه كل الوقت. الآن أرجوكِ دعيني أتعامل بطريقتي. لم يتبق على الامتحان سوى أسابيع قليلة.»

كانت «هيروكو» قلقة بما يكفي من حالة البلادة التي حطت على ابنها لتوافق سجادًا، وتهز رأسها رفضًا أمام كل توسلات ابنها لتتدخل لدى سجاد نيابة عنه، مع ذلك كانت تحرص دائمًا على أن تضع كومًا من الرماد وشرائح ليمون بجانب الحوض ليغسل بها رضا يديه بدلًا من الصابون عند عودته

من المصنع. كانت تتذكر بوضوح رائحة مصنع الذخيرة النتنة، وكيف كانت تبقى في فتحتي أنفها طوال اليوم.

قال «هاري»: «لا أفهم، إنه ذكي لدرجة لا يمكن تصديقها. ما المشكلة؟».

حاولتْ أن تشرح له حسب ما فهمته من تمتمة تعليقات رضا، مسألة الكلمات التي تختفي في دفقات من الضوء، والأصابع العاجزة عن الإمساك بالقلم ـ والأسوأ من هذا وذاك ـ ومضات الوضوح السريعة حين تظهر الإجابات في ذهنه، كل حقيقة تفضي حتمًا إلى الأخرى بحيث يصبح كل ما عليه أن يلتقط الأولى ويليها الباقي مثل صف من الراقصين متشابكي الأذرع، وكيف تتناثر تلك الحقائق عند نقطة ما في الرحلة من ذهنه للقلم وتنزلق وتتفرق بعضها عن بعض من دون نمط مميز.

«هذا هو الأمر؟» قال وهو ينهض ويدلك ركبتيه حيث انطبعت عليهما أشكال الصخور. «إن سمحْتِ لي، أحتاج ابنك في كلمة.»

راقبت «هيروكو» «هاري» يسير ناحية رضا وسجاد، ثم يأخذ رضا من كتفه ويتنحى به جانبًا. تمنت لو كانت تؤمن بالجنة لتعرف هل يرى «كونراد» هذا من هناك. ابتعد نظرها عن أفراد أسرتها إلى الكراتشيين الآخرين الذي يستجمُّون على الشاطئ. كان هناك هؤلاء الصغار الأشقياء الذين رقصوا حول رضا منذ قليل وهم يشدون جلد وجوههم حول طرفي أعينهم ويغنون: «صيني، ياباني، أعطني نقودًا أعطني...» حتى هدر «هاري» فجعلهم يركضون بعيدًا. لم يضايقها الأطفال كثيرًا بقدر ما أزعجها عجز رضا عن استيعاب سخريتهم بوصفها جهلًا طفوليًّا خالٍ من أي ضغينة. تساءلت عما إذا كانت حساسيته المفرطة نتيجة قلقها في أثناء الحمل وهي تتواصل معه وهو ينمو بداخلها.

ابتعدت عيناها عن الأطفال إلى النساء الأخريات على الشاطئ. وفرة من الأكمام الممتدة إلى المعاصم بدلًا من تغطية الذراع لما تحت المرفق وفقط، ورؤوس مغطاة هنا وهناك. لم يكن هذا معقولًا بالنسبة إليها. كانت «الأسلمة» كلمة يدرك الجميع أنها أداة سياسية في يد الديكتاتورية، وما زالوا يسمحون لها بتغيير حياتهم. لم تكن قلقة على نفسها، لكن رضا لم يكن قد تشكل تمامًا بعد، وكان يزعجها التفكير فيما يمكن أن يفعله له ارتباك أمة في طور التشكيل.

«هل لك في تمشية في الغروب مع زوجك؟» قال سجاد وهو يصعد لها، فهزت يده الممتدة لها ممتنة لمقاطعتها، وهبطت من فوق الصخور تمامًا في اللحظة التي بدأ فيها «هاري» ورضا السير في الاتجاه المعاكس على حافة الماء.

قال «هاري» وهو يفتح حقيبة كتفه ويمد يده فيها: «لم تواتني الفرصة لأعطيك هذا، مع أنني ما زلت لا أعرف لماذا تريدها». سحب من الحقيبة كيسًا شفافًا وضعه في يد رضا. نظر رضا إلى الأشياء التي تشبه القطن المغزول محشورة بعضها مع بعض ونكز الكيس بأصابعه بحذر.

«هذه حلوى الخطمي؟» ارتطمتْ موجةٌ على بعد أمتار منه، لكنه بالكاد انتبه إلى رذاذ الماء البارد فوضع يده على الكيس لحمايته.

«أوه هاه. والآن هل ستخبرني لماذا كان عليَّ أن أطلب من ابنتي أن تحملها كل هذا الطريق من نيويورك، في أمتعة يدها بالمناسبة حتى لا تنهرس تمامًا.»

كان قد أخبر «كيم» أنها لطفلة صغيرة ابنة أحد العاملين معه في القنصلية، لم يرغب في رؤية رد فعلها لفكرة وجود فتى باكستاني في السادسة عشرة من عمره لا يريد من أمريكا سوى حلوى الخطمي.

نظر إلى الكيس من جانبيه: «طالما تساءلت عن شكلها. تُذكر كثيرًا في المجلات الأمريكية المصورة. شكرًا لك خال «هاري»».

راقب «هاري» وجه الفتى، ينبض بعبادة بطولية تقترب من التعبير التجريدي. لم يدعه أحد من قبل «خال «هاري»»، ولم يكن، إلى أن قابل رضا، يعتبر هذا أمرًا ذا قيمة.

«هل ستأكلها مع صديقتك؟»

ابتسم رضا، فحوَّلته الابتسامة من فتى مهموم إلى قبرة نشيطة زاهية، تنبض بالسحر. كان شعاع الضوء الوحيد في تلك الأسابيع الأخيرة ـ فيما عدا الخال «هاري» ونظرة الروع تلك في عيني عبد الله فتى الشاحنة ـ هي المحادثات الهاتفية الرومانسية التي بدأت بينه وبين سلمى شقيقة بلال. لم يخبر أحدًا بها إلى أن همس بها في أذن الخال «هاري» صباح اليوم.

«هل تعلم من كان يسألني هل لديك صاحبة أم لا؟» قال «هاري» ليواصل الحوار وهو يلتقط حصاة ويقذفها في الماء. «ابنتي «كيم».» راقب احمرار وجه رضا وحاول أن يتخيل ماذا كانت «كيم» بأحمر شفاهها الأسود والتِّيشيرت الممزق ستقول لهذا الفتى الذي أبلى ملابس الكريكيت البيضاء على الشاطئ. بالفعل سألته «كيم» عما إذا كان لرضا صاحبة، لكنه كان سؤالًا يتوقع الإجابة عليه بالنفي؛ لتفنيد مديح «هاري» في رضا؛ في ذكائه وحسن خلقه.

«كيف حالها؟ هل هي بخير؟» قال رضا، كما توقع «هاري»، بحسن الخلق الذي يجعل «كيم» تصرخ من الضحك. لو كانت هنا لكانت الآن تركض بين الأمواج، متجاهلة بحركة من رأسها هؤلاء الذين جاءوا إلى الشاطئ من أجل الرمال والهواء لا يعرفون ماذا يفعلون بأطرافهم في الماء. يشتاق

إليها بشدة، حتى مع أن تفاعلهما مؤخرًا لم يكن إلا مباريات في الصراخ وفترات تجهم وصمت.

كذلك لم تفعل محادثات طليقته الهاتفية الضبابية من باريس ـ حيث تقضي عطلتها مع خطيبها ـ شيئًا لإضفاء أي بهجة على الموقف. قالت: «على أحدنا أن يتعامل مع صراع حقيقي بشكل يومي «هاري»، بينما يقوم الآخر بألعاب صبيانية في مواقع مثيرة من العالم. أحظى بوقت راحتي من هذا الصراع». كما لو كان لا يعلم أن والدته هي من قامت بكل ما يُفترض أن يقوم به الوالدان بينما تقفز زوجته السابقة من العمل إلى ارتباطاتها الاجتماعية. يتساءل أحيانًا عما إذا كانت قد انتقلت إلى نيويورك بعد الطلاق فقط لتكون قريبة من «إلزي» بوصفها جليسة أطفال دائمة، والخال «ويلي» بوصفه بديلًا.

قال لرضا: «نعم، «كيم» بخير، مع ذلك كنت قلقًا عليها أحيانًا. مراهقة مبكرة، كما تعرف. بعض الفتيات يظهر لهن بثرات، وأخريات يظهر لهن صدور». راقب ببعض التلذذ وجه رضا يحمر ثانيةً. ««كيم» ظهر لها قلق الامتحانات.» نظر رضا إليه بتساؤل. «كان ذلك أسوأ شيء. شرحت لي الأمر ذات مرة، قالت إنها تعرف إجابات الأسئلة حتى اللحظة التي تجلس فيها أمام ورقة الامتحان. لحسن الحظ كان هناك مدرسة تفهمت ما يحدث لها. مسز «أونيل». ملاك «كيم» الحارس، فعلمتها إستراتيجيات معينة للتغلب على هذا.» كان يحرف الحقيقة قليلًا فقط، لم ينتبْ «كيم» قلق الامتحانات قط، بل زميل له في إسلام آباد، «ستيف»، ثمل ذات ليلة وشرب في صحة مدرسته في الصف التاسع الدراسي، مسز «أونيل»، وهو يشرح له بتفصيل مطول وممل كيف ساعدته في التغلب على عادته في الفشل؛ إذ ظلت تغرس فيه الإيمان بإمكانية حل أي مشكلة فقط إن كان لديك الإستراتيجية الصحيحة.

قلق الامتحانات. كان شيئًا حقيقيًّا له مسمى حقيقي. وابنة الخال «هاري» تعاني منه أيضًا. قبض رضا على ذراع الرجل الآخر.

«هل تتذكرها؟ أي من تلك الإستراتيجيات؟»

أومأ «هاري» برأسه.

قال: «سأعلمها لك». سيكون عليه أن يتصل بـ«ستيف» فيما بعد. «غدًا. نجعل والدتك تساعدك. وبعد أن تتغلب على تلك العقبة، يفتح لك العالم ذراعيه يا رضا كونراد أشرف. أمريكا مليئة بالجامعات التي ترحب بشدة بإضافة باكستاني لامع ومحب للاطلاع إلى جموع طلابها. فقط اجتهد في امتحانات التقديم وسيرغبون في ضمك حتى إنهم يدفعون لك نفقات السفر إلى هناك. سأساعدك في كل شيء في التقديم. ما رأيك في هذا؟» تساءل لحظة عما إذا كان عليه أن يناقش هذا مع «هيروكو» وسجاد أولًا، لكنه لم يتخيل أن يكون لهما رد فعل آخر إزاء هذا الاقتراح غير الامتنان، مع اعتبار المكانة المرموقة لتعليم الجامعات الأمريكية في بيوت الطبقة المتوسطة في باكستان.

أومأ رضا محاولًا أن يحتفظ برزانته.

قال: «رائع».

قال «هاري» وهو يرفع كفه ليضربها بكف رضا عاليًا: «رائع. وحينها قد تلتقيان أنت و«كيم»».

«كيم.» لم ينطق رضا اسمها بصوت عالٍ من قبل، لكن قلق الامتحانات خلق بينهما رابطة ما. «اسم جيد.»

«نعم»، قال «هاري». قبل المخابرات الأمريكية بوقت طويل كان هناك

«كيبلينج» وفتى يقف منفرج الساقين فوق مدفع «لا أعرف كيف سيكون الأمر بينك وبين «كيم»، لكني متأكد تمامًا أنك وأمريكا ستنسجمان معًا. لا أقول تتقبلان أحدكما الآخر. بل سيكون الحب من أول نظرة، هكذا كان الأمر بيني وبين أمريكا، كنت في الثانية عشرة من عمري حين ذهبْتُ إلى هناك، وعرفْتُ منذ اللحظة الأولى أنني وجدت وطني.»

«أبي يقول إنك أحببت دلهي.»

«حقًّا. أحببت دلهي حقًّا، لكنني في الهند كنت سأظل دائمًا الرجل الإنجليزي. لم ألمس ذلك وأنا صغير. لكنه حقيقي. في أمريكا لكل فرد أن يكون أمريكيًّا. هذا هو الجميل فيها.»

قال رضا: «لا ينطبق الأمر عليَّ. أنت تشبه «كلينت إيستوود»، «جون فيتزجيرالد كينيدي»، لذلك بالطبع لك أن تكون أمريكيًّا. لكنني لا أشبه هذا ولا ذاك».

«لكل فرد»، قال «هاري» بحسم وهو يعلم أنه سيؤذي رضا إن ضحك على المقارنات التي لا معنى لها. «لكل فرد أن يكون أمريكيًّا. حتى أنت. أقسم لك».

«أمريكا.» ردد رضا الكلمة على شفتيه.

نظر «هاري» إلى الفتى صاحب موهبة اللغات، إلى عينيه الحالمتين، وألم التوق إلى شيء يؤمن به، وملامح قد تمر غير ملحوظة في كثير من دول وسط آسيا، وأجزاء من أفغانستان أيضًا، وخطرت على ذهنه فكرة.

فقط لوهلة، ثم طردها بعيدًا.

١٩

اتصل ثلاث مرات قبل أن ترد هي بدلًا من والدتها.

قالت حين رفعت السماعة: «مرحبًا، فاطمة؟ لديَّ تلك الملاحظات لكِ. انتظري، دعيني أرفع السماعة من الغرفة الأخرى بالداخل». انتظرها عدة ثوانٍ وهو يبتسم لنفسه إذ يمر بيده على كيس الخطمي الذي لم يفتحه بعد. حين عادت على الخط مرة أخرى كان صوتها أجش وساخرًا، لا شيء يباري طبيعية النبرة السابقة. «يا له من كرم بالغ منك أن تقطع أشغالك وتتصل بي رضا.»

قال بنبرة العشق الهائم وكان يعرف أنها تحبها: «سلمى، لا تكوني هكذا. كنت في الشاطئ مع الخال «هاري»، وقد وصلت المنزل للتو».

قالت: «أوه! حسنًا، إن كنت تفضل أن تبقى مع صديقك الأمريكي»، لكنه أدرك أنها انبهرت.

«لقد طلبت منه أن يأتيكِ بهدية من نيويورك.» ضغط قطعة خطمي طرية في الكيس وتساءل عما إذا كان لصدر سلمى الطراوة نفسها.

«لِمَ تفعل!» قالت وبدت أضعف قليلًا. ثم تغير صوتها. «هل أخبرته عني؟»

«بالطبع لا. أخبرته أنها لي. هل تريدينها؟ إن كنت تريدينها يجب أن نلتقي. بشكل لائق.»

«ماذا تعني «بشكل لائق»؟»

تردد لحظة. كان ذلك محرجًا. لكن أي جامعة أمريكية سيسعدها أن يدرس بها! «كيم برتون» أيضًا عانت من قلق الامتحانات! تضخمت ذاته فجأة في الغرفة.

«تعني... تعرفين. لقد سئمت من تجاهلك لي كلما أتيت إلى منزلكم.» الأمر الذي كان نادرًا تلك الأيام، لكنه كان في حالة مزاجية لا تسمح له بأن يفكر في هذا.

«وماذا في ظنك سيفعل أخي إن علم أن صديقه كان يقابلني لـ... أنت تعرف!»

«لا أقصد «تعرفين» هكذا، سلمى. لقد ظللنا نتحدث يوميًّا حوالي شهر الآن. كيف تشكين في احترامي لكِ؟»

لم يحرز هذا القول نجاحًا أكثر مما أحرزه في كل المرات السابقة التي جربه فيها. كانت الحاجة إلى تكنيك جديد واضحة.

«تعرفين، سوف تندمين على هذا الموقف حين أرحل.»

«ترحل إلى أين؟ إلى مصنع الصابون!»

كانت تلك أول مرة تذكر فيها أنها تعلم أين يذهب مع والده كل صباح، وفي أي يوم آخر كان من شأن هذا أن يدمره. لكنه الآن ابتسم فقط.

«سأذهب إلى الجامعة هناك. في أمريكا. الخال «هاري» يقول إنه

سيساعدني في التسجيل، حتى إنه سيجعلهم يدفعون لي نفقات ذهابي. هذا ما يفعلونه هناك.»

«لا أصدقك.»

«هذا حقيقي. قابليني وسأشرح لكِ كل شيء.»

«لماذا تلح هكذا؟ لن أقابلك. ماذا سيلحق بسمعتي إن اكتشف أحد الأمر.»

«ماذا يجب أن أفعل، هل أرسل والدتي لتطلب يدك؟ سأفعل. أنت تعرفين أني سأفعل. هيا سلمى، تزوجيني ونسافر معًا إلى أمريكا.» كان يقصد فقط إثبات أنه لن يتصرف معها على نحو مسيء أبدًا، لم يفكر في الأمر لكنه أدرك، بإعياء، في فترة الصمت التي تلت قوله أنها ستأخذه بجدية أكثر مما كان ينوي.

«رضا، لن يسمح والداي بزواجي منك أبدًا»، قالت أخيرًا وهو يفكر في طريقة ليفلت من المأزق الذي وضع نفسه فيه.

ابتسم بارتياح وهو يمدد ذراعه على مسند الكنبة بجو من الرفاهية يبز «جيمس برتون» في منزله بدلهي.

«لا أعلم لماذا يعد فرق السن مشكلة كبيرة. تكبرينني بعامين فقط. لكن كيف نواجه التقاليد؟»

«ليس بسبب السن، بل بسبب والدتك. الجميع يعرفون بشأن والدتك.»

«ماذا بشأنها؟»

«ناجازاكي. القنبلة. لن يقبل أحد بزواجك من ابنته إلا إذا كان يائسًا يا رضا. قد تكون مشوَّهًا. كيف نعلم أنك لست مشوَّهًا؟»

اعتدل رضا في جلسته، قابضًا بإحكام على سماعة الهاتف.

«مشوَّهًا؟ لست مشوَّهًا يا سلمى، والدك طبيبي. لسْتُ مشوَّهًا.»

«لعلك لست مشوَّهًا بطريقة يمكن أن نراها. لكن لا ضمانة. قد يكون لديك شيء ما قد تنقله إلى أطفالك. لقد رأيت صورًا لأطفال ولدوا في ناجازاكي بعد القنبلة.»

«لم أسافر إلى ناجازاكي قط. لقد ولدت بعد عشرين سنة من القنبلة. أرجوكِ. أنتِ لا ترغبين في محادثتي بعد الآن، حسنًا، قولي هذا. لكن لا تقولي إنك تظنين أني مشوه.»

«يجب أن تعرف. هذا ما يظنه الناس بشأنك. اذهب إلى أمريكا، يا عزيزي.» خرجت صيغة التحبب ـ بالإنجليزية ـ بلا أناقة. «ولا تخبر أحدًا هناك بالحقيقة. وداعًا رضا. أرجوك لا تتصل بي مرة أخرى.»

ضغط منحنى سماعة الهاتف على أسفل ذقن رضا وصوت انقطاع الاتصال يئز في أذنه. ألقى ضوء الشفق بظلال فروع الشجرة على النافذة لتقطع ظلال الشبكة الحديدية بزخارفها المستلهمة من مفتاح السلم الموسيقي.

أدرك، وهو يعيد السماعة إلى موضعها بحرص، وقد توقف أولًا ليمسح الدموع التي سالت حتى فمه، أنه انتظر وقتًا طويلًا ليتلقى تأكيدًا على أنه لم يكن... من الخارج، لا، ليس هذا بالضبط. ليس وقد عاش عمره كله في هذا الحي، بركبتيه جلطات وندوب من كل شارع في نطاق دائرة قطرها نصف ميل تقريبًا. لا ليس غريبًا، بل فقط على خط تماس. على اتصال بعالم حيه، لكنه لا يتقاطع معه. فعلى الرغم من كل شيء، تخلق التقاطعاتِ القصصُ المشتركةُ والتاريخُ الواحدُ من الزيجات والزيجات المحتملة بين أسر الجيران، كان رضا كونراد أشرف منبوذًا من هذا العالم المتداخل.

خرج إلى الفناء يستنشق نسيم المساء الحاد بعمق. هز رأسه نفيًا لدعوة أبيه له لأن يجلس ويستمع لخطاب «سيكندار» من دلهي وهو يخرج إلى الشارع المهجور تمامًا باستثناء قط وحشي ربض على قدميه الأماميتين، وظل يموء ناحيته حتى استدار رضا وسار في الاتجاه المعاكس وهو يومئ برأسه للقط كما لو كان يرشده، ولا يهدده.

كانت ستتزوج ابن «سيكندار» لو تقدم لخطبتها.

خطرت الفكرة إلى ذهنه ـ على سخفها وبعدها عن الواقع ـ وكأنها تعبير عن الحقيقة. نعم، قد يوافق والدا سلمى على زواجها من «التتمش» الابن الأصغر لعمه «سيكندار» الذي يحمل اسم أكبر إخوة آل أشرف. قد تتزوج «التتمش» حتى مع أنه هندي وفقير ولا يعلمان عنه شيئًا ذا قيمة سوى أنه ابن شقيق سجاد أشرف، ابن عم رضا. أحنى رضا ظهره ولف ذراعيه حول جسده بطريقة جعلت المرأة التي تطل من شرفتها تتساءل عما إذا كان هذا الشاب اللافت للنظر مصابًا بآلام المعدة.

ما زال الناس في الحي يسألون عن «التتمش»، على الرغم من مرور خمس سنوات على زيارته لكراتشي مع أمه، التي جاءت تأمل أن تجد في حي الطبقة المتوسطة هذا عروسًا بمهر معقول لشقيقه الكبير الذي لم يتزوج بعد. كان «التتمش» الوحيد من أبناء عمومته في دلهي الذي يقرب لرضا في السن، حين التقيا قفز كل منهما على الآخر في اشتباك خشن ومضطرب لغرام من أول لحظة. لكنهما حين خرجا معًا، رأى الجميع أن «التتمش» هو ابن سجاد وليس رضا.

ثم ظهر الجمعة ذاك، ومجموعة من الفتية في طريقهم من الجامع إلى ملعب الكريكيت، وانقلب «التتمش» غاضبًا من بلال لأنه صاح على سائق

ريكشو وأشار إلى ابني العم، وقال: «حزر من منهما ليس باكستانيًا؟» لعبة أمتعته كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية. صرح «التتمش»: «إن هذا ليس مضحكًا، في الهند حين يريدون إهانة المسلمين يدعوننا باكستانيين». ضحك بلال بصوت عال، وأجاب: «في باكستان حين يريدون إهانة المهاجرين يدعوننا هنودًا». ضرب كل منهما الآخر في كتفه، ورضا يقف بجوارهما مرتبكًا، خلع قلنسوته عن رأسه وحاول أن يفهم كيف يعد هذا الظلم مزاحًا.

لم يكن يعلم حتى هذه اللحظة أن لعبة بلال هي ما أزعجه للغاية، مثلما لم يفكر قط في مبرره لإخفاء مفرداته اليابانية. لكنه الآن في هذه اللحظة، عاجز عن تجنب المعرفة التي، فوق كل شيء آخر، تشفق سلمى عليه لأجلها، يعلم أن هذا قدره: لا يتلاءم مع هذا الحي. فاشل، عامل في مصنع صابون، هجين القنبلة. لفظ الكلمات من فمه مرارًا وتكرارًا: رضا كونراد أشرف. «كونراد». انفرجت شفتاه تكشف عن أسنانه إذ يردد الاسم. أراد أن يصل إلى اسمه وينزع منه اسم الرجل الذي مات وترك اسمه جسدًا وسطًا بين جناحي الاسمين الباكستانيين.

انعطف ويداه منقبضتان في شارع تحفه واجهات متاجر متراصة، ورأى المشهد المألوف لفتية صغار يلعبون كريكيت بكرة من الشرائط في وسط الطريق، صيحات من قبيل «أو ـ هو، خليفة!» تحية المدرب الذي وضع نفسه للتو فوق النظام. جاءت سيارة تندفع على الطريق، انحرفت بعيدًا عن الفتية وبكرات الكريكيت، كان زجاج نافذتها مفتوحًا وانسكب منها إلى الشارع صوت المراهقة الجميلة التي تغني الأغنية الرائجة مؤخرًا «بووم! بووم!». منذ أشهر قليلة مضت لم يكن ليترك لا هو ولا أصحابه في المدرسة مباراة الكريكيت هذه، أو أي مباراة قريبة منهم... وهو يفكر في هذا، رأى اثنين من أصحابه هؤلاء يسيران تجاهه على مهل، يفضان الورق من حول شطائر

الكباب. كان كلاهما قد بدأ يدرس الهندسة، ومن إشارات أيديهما عرف أنهما يناقشان أمرًا ما درساه اليوم، يستخدمان شطائر الكباب كأنها... ماذا؟ طائرات؟ تيارات؟ مسارات سكة حديد. لم يكن يعلم شيئًا عن اللغة التي تملأ أيامهم الآن. نظر أحدهما في تجاهه، وتراجع رضا إلى الظل. قد تكون هجين قنبلة أو فاشلًا، لكن ليس الاثنين معًا. ولا لحظة واحدة، الاثنين معًا.

ثم خطرت له فجأة كلمة واحدة. أمريكا.

زفر ببطء وبسط قبضتيه. نعم، سيذهب إلى هناك. الخال «هاري» سيحقق هذا. لم يعد يعنيه شيئًا من هذا طالما لديه الوعد بأمريكا.

٢٠

وقف رضا عند باب غرفة والديه، يسمع تأوهات والده بمزيج من القلق والشعور بالذنب. «أوه الله ـ يا رحمن يا رحيم ـ هذا ما كنت تقينا إياه!»

لم يعرف رضا ما علاقة الله بطرد «هاري برتون» من بيتهم ليلة أمس، لكنه يعرف أنه السبب في تصرف والده على هذا النحو المنافي تمامًا لكرم ضيافته المعتاد حتى إنه يعاني جراءه آلامًا بدنية.

ما زال لا يصدق كيف آل الأمر إلى هذا. بدأت الأمسية على نحو رائع ـ عشاء في الفناء احتفالًا بقرار رضا أنه سيدخل الامتحان مسلَّحًا ضد قلق الامتحانات بإستراتيجيات الخال «هاري». كان رضا قد استغل نسيم فبراير البارد ليرتدي سترته الكشمير التي ظل نصف وقت العشاء تقريبًا يشعر بأن عليه أن «يعيدها» إلى «هاري». رفض الخال «هاري» بالطبع، وأضاف وهو يغمز: «كوني سرقت حذاءك مرة من قبل لا يعني أن أسطو على دولابك كله».

كان الجميع سعداء، متخمين بالضحك، وأغدق كل من والديه في كرم ضيافتهما حتى إنهما شربا كميات كبيرة من الزجاجة التي أتى بها الخال «هاري» لـ«هيروكو»، مع أنه كان واضحًا لرضا من شمها مرة واحدة أن

السائل الذي بها كان مخمرًا بشكل سيئ. كان الفشل كلمة بعيدة عن أمسية كهذه، تنسف عالمًا كاملًا وتعزله بعيدًا.

لكن بعد العشاء سأل رضا إن كانت أضواء نيويورك حقًّا متوهجة بحيث لا يمكن رؤية النجوم في السماء، لأنه إن كانت كذلك، فسيأخذ معه حين يذهب إلى الجامعة صورة لسماء ليل كراتشي ليثبتها على سقف حجرته.

ثم استدار عرضًا إلى والديه اللذين كانا ينظران إليه بتساؤل وقال: «أوه نعم، نسيت أن أخبركما. سيجعل الخال «هاري» جامعة أمريكية تدفع لي نفقات الذهاب إلى هناك».

عند هذه اللحظة انهار كل شيء. قال الخال «هاري»: «حسنًا، لا». لم يكن هذا ما قاله بالتحديد، مع أنه لا يوجد ما يمنع دخول رضا أي جامعة إن اجتاز الامتحان بشكل جيد. بالطبع لن يكون الدعم المالي أمرًا سهلًا، لكنه بالطبع سيأتي لرضا بأحد تلك الكتب التي تجمع تفاصيل كافة الجامعات الأمريكية وسياسات التسجيل فيها وإجراءاته والحصول على دعم مالي منها.

استغرق رضا دقائق قليلة ليدرك أنه لم يكن يمزح.

«لكنك قلت...؟» استدار إلى والده «لقد قال!»

مال «هاري» إلى الأمام مقطِّبًا جبينه: «هيا رضا. قلت إني سأعلمك إستراتيجيات للتعامل مع قلق الامتحانات. كان هذا هو الوعد الوحيد الذي قطعته وقد وفيت به، أليس كذلك؟ حسنًا، ألم أفعل؟».

قال رضا مستاءً: «تلك التمارين الغبية لن تجدي في شيء».

«ثمة فرق بين غبي وبسيط. انضج. يا للمسيح، يا لسخف هذا البلد الذي

يجعلك تعتقد أن كل شيء ممكن إن عرفت الأشخاص المناسبين. هل تظن حقًا أن بوسعي أن أفرقع بأصابعي وأُدخلك الجامعة؟»

«لقد قلت «سأساعدك في كل شيء في التقديم» كانت تلك كلماتك.» كان قد نقش الكلمات في قلبه خلال تلك الأسابيع القليلة.

«حسنًا، بالطبع سأساعدك في عملية التسجيل. بالطبع سأفعل هذا. وسأمدك بأية معلومات لدى السفارة عن امتحانات تحديد المستوى.» قال باسطًا يديه بكرم. «وسألقي نظرة حتى على بياناتك الشخصية. ليس بوسعي أكثر من هذا. إن كنت قد عنيت شيئًا آخر ـ إن كان لديَّ أي نوع من الضمانات ـ لم أكن لأؤكد على حاجتك إلى إعادة امتحان الدراسات الإسلامية. لن تحتاج الجامعات الأمريكية إلى هذا. لكن لا. كان عليك أن تعيد الامتحان في حال التحقت بالتعليم العالي هنا. لم أخبرك قط أن تعتمد على الذهاب إلى أمريكا.»

ذُعر رضا من الدموع التي سالت من عينيه، وزاد ذعره حين خبط سجاد كأسه على الطاولة بعنف والتفت إلى «هاري».

«أنتم «آل برتون»! أنت مثل والدك تمامًا «هنري»، وعودكم الضمنية تختلقونها فقط لتبقينا مربوطين بكم. كان يقول لي إنه لا أحد أكثر مقدرة مني، لم أكن أفهم أنه يعني بذلك خادمه الأكثر طاعة والأقل شكوى.» بعض الغضب الذي ظل دفينًا منذ زمن طفا على السطح ما إن رأى الإحباط الساحق على وجه ابنه، جعله ينهض ويشير إلى الباب: «نحن آل أشرف لا نريد «آل برتون» بعد الآن في حياتنا. من فضلك دع أسرتي وشأنها».

راقب رضا أباه وهو يرقد على الفراش ويداه تضغطان جانبي رأسه وكأنه يعصر ذكرى الأمس، وتساءل لماذا كان من الأسهل عليه أن يزيد الأمر سوءًا

بدلًا من تحسينه. اندفع بوحي مفاجئ يخرج إلى غرفة الجلوس، نزع الوصلة الكهربية لأقرب شيء لقلب سجاد ـ مسجِّله ـ وذهب به إلى غرفة والديه مع شريط كاسيت لموسيقى الـ«سارانجي» كان قد اشتراه له من أجره من العمل بمصنع الصابون. كان قد خطط أن يقدمه له بعد عشاء الأمس، لكن طرد «هاري برتون» دمر المزاج الاحتفالي.

أوصل رضا المسجل بالكهرباء، أدخل شريط الكاسيت وضغط زر التشغيل بينما ترتسم على وجهه بالفعل ابتسامة توقع رؤية سرور سجاد. لكن سجادًا صرخ ما إن سمع أولى نغمات الآلة: «أطفئه!»، فضغط رضا مصعوقًا على زر التوقيف بقوة، فتسببت الحركة في اهتزاز المسجل الذي وُضع بلا توازن على المنضدة المجاورة للفراش فسقط على الأرض وتهشم بشكل رهيب.

استدار سجاد برأسه ورأى قطع المسجل على الأرض، ثم نظر إلى ابنه فقط ليقول بنبرة يأس عارم: «رضا...» ويستلقي على جانبه مُديرًا للولد ظهره.

دخلت «هيروكو» الغرفة في يدها قطعة توست ورأت الجهاز المهشم وأصدرت صوتًا ينم عن حزن.

قالت: «لقد تهشم، أوه! رضا. مسجل أبيك».

خرج رضا من الغرفة.

قال لها: «آسف!» لكنها كانت بالفعل تميل على زوجها وتخبره أن عليه أن يأكل بعض التوست.

قال سجاد: «أنا أحتضر. أنا مُت بالفعل. أنا في الجحيم».

اعترضت «هيروكو» وضربت فخذها بيدها: «إن كان هذا الجحيم فلماذا أنا هنا؟».

فتح سجاد عينًا واحدة.

قال بأمل: «هل أتيْتِ لنجدتي؟».

قالت: «نعم، بالتوست. تناوله وتوقف عن الشكوى أيها السكران السخيف».

لم يسمع رضا شيئًا من هذا الحديث. كان في غرفته يحشر كل ما ادخره من أجره بمصنع الصابون في جيب كورتته، وعلى وجهه تعبير عزم.

بعد ذلك بساعة كان يفسح بمرفقيه طريقًا لنفسه في ميني باص «العفريت الأصفر» متوجِّهًا إلى موقف الشاحنات في سوق «سهراب كوته».

عرف رضا من سائق حافلة المدرسة البشتوني أن «سهراب كوته» كانت قبل الغزو السوفيتي لأفغانستان قرية على حدود كراتشي يقيم فيها أفغان بدو في بيوت عشوائية خلال الشتاء حين لا تنبت أراضيهم في أفغانستان شيئًا سوى القحل، وتغوي المتطلبات الأبدية لكراتشي ـ لعمل أو لبضائع ـ الرجال للخروج من جبالهم وسهولهم والتوجه إلى البحر. لكنها تمددت الآن في كراتشي كجزء ينمو سريعًا من «القطاع الشعبي» بالمدينة، يقدم خدماته للجميع من رجال الشرطة الذين تجعلهم مرتباتهم الهزيلة يعتمدون على الرشوة، لأصحاب المصانع الباحثين عن عمالة رخيصة، والمهربين الذين في حاجة إلى أسواق وسماسرة للتكنولوجيا الجديدة اللامعة، التي ينعكس بريقها في عيون المراهقين الباحثين عن طريقة لتعويض آبائهم عما فقدوه.

أبقى رضا يده في جيب كورتته وهو يسير في «سهراب كوته»، تقبض على حزمة النقود، يتساءل هل عليه أن يعود إلى العمل في المصنع الأسبوع المقبل ببساطة بدلًا من تضييع وقته في محاولة أخرى مع الامتحان. بدت الآن فكرة نجاح إستراتيجيات «هاري» في التغلب على قلق الامتحانات

فكرة غبية بقدر ما كانت فكرة أن أي جامعة أمريكية ستدفع له ليدرس فيها. لعله ما عليه سوى أن يتقبل قدره. الفشل. هجين القنبلة. ما من تميمة حظ تعوضه عن انفلات أمريكا من بين أصابع قبضته وانسحاقها تحت كعب حذاء الخال «هاري».

لم يكن هناك أحد في موقف الشاحنات بجوار «سوق بارا»، لكنْ ثمة طفل، في قطعة أرض خلاء مجاورة، يلتقط من القمامة ما يمكن إعادة تصنيعه ويعبئه في حقيبة قماش معلقة على ظهره، أومأ لرضا حين سأله عن «عبد الله صاحب الشاحنة التي عليها السوفيتي الميت» ودله على مساكن عشوائية على الجانب الآخر من السوق.

لم يسبق لرضا أن سار في عشوائيات من قبل، وكادت أنفة عِرق «تاناكا» تجعله يستدير ويعود أدراجه وهو يشق طريقه بحذر شديد في الأزقة الضيقة غير الممهدة، ونتن برك المياه يعلن عن وجوده كمجاري للصرف. لكنه تقدم إلى الأمام، متحيرًا كيف سيجد عبد الله في هذا التجمع الكثيف لمساكن اللاجئين. تشابكت أسلاك عارية على مستوى منخفض على نحو خطير موصولة بكابل الكهرباء الذي نشأت بجواره المساكن. من فوق بُعد بدت الأسلاك كانشقاقات في السماء تكشف عن الظلمة خلفها. حاول رضا ألا يفكر في الصحة العامة ورجل يحمل دلوين مليئين بمياه لها رائحة كريهة يمر به.

«عبد الله... الشاحنة التي عليها السوفيتي الميت»، ظل يكرر للرجال الذين يمرون به (أحس أنه من الأفضل أن يتجاهل النساء، كلهن منقبات). رفع بعض الرجال كتفيهم، تجاهله آخرون، لكن كان هناك ما يكفي منهم ممن يعلمون من يقصد فدلُّوه في متاهة المساكن ـ البيوت الأكثر ثباتًا منها من الطين وبقيتها واهية من الخيش والجوت ـ إلى أن وصل إلى مسكن

طيني أمامه فراش من الحبال يجلس عليه عبد الله وبجواره طفلة صغيرة جدًّا، كان إصبع عبد الله يتحرك ببطء على كلمات في كتاب مصور، وفمه يصدر أصواتًا مشجعة والصغيرة تقرأ المقاطع ببطء وتلضمها في كلمات.

«عبد الله؟»

نظر الفتى وابتسم.

«رضا هزاره!» قال من دون تردد، كما لو أنه ظل يستعيد ذكرى لقائهما كثيرًا جدًّا خلال الأسابيع الماضية حتى احتفظ بصورة رضا محفورة بعمق في ذهنه. تلك النظرة في عينيه ـ لمعة الروع الثانية بعد تلك التي راقب بها «هاري برتون» يركع أمام رضا ـ جعلت رضا يستقيم في وقفته، ويعيد تهيئتها من تلك التي لفتى يحتاج مساعدة في الفصال لوقفة رجل تكرَّم ومر ليلقي التحية على شاب يعرفه.

لمس عبد الله ذراع الصغيرة وهمس بشيء، فانزلقت من فوق الفراش وركضت إلى البيت الطيني.

قال رضا: «شقيقتك؟».

«نعم، لكن ليس بالدم. أقيم مع عائلتها هنا. أبناء قرية واحدة.»

أومأ رضا برأسه وهو يتساءل أين عائلة عبد الله إذن.

«لم أعرف كيف أجدك هنا. أنا سعيد لأني وجدتك.»

بدا الفتى مسرورًا لهذا بحق.

«أنا أيضًا. فقد أخذ الشاحنة «أفريدي» إلى بِشَاور واضطررت أن أبقى هنا من أجل النساء. لأن أخي، رب البيت، مسافر لعدة أيام. اجلسْ.»

أمسك رضا بكتاب الصور وهو يجلس. كان شيء ما يخلب اللب في تركيز وجه الصغيرة وهي تترجم الأشكال إلى أصوات، لقد كان يقفز دائمًا إلى الجمل والمترادفات بدرجة من السهولة منعته من اعتبار هذا إنجازًا من أي نوع.

سأله عبد الله: «هل ذهبت إلى المدرسة؟».

«ماذا؟ اليوم؟»

«لا تكن مضحكًا.» أخذ عبد الله الكتاب من يد رضا ووضعه جانبًا بوقار «من قبل. قَط.»

لم يخطر على بال رضا قط أن أحدًا قد يظن أنه أميٌّ. تساءل عما إذا كان هذا لأنه ليس من المعتاد في عالم هذا الفتى أن يكون المرء متعلمًا، أم إن نطق سائق حافلة المدرسة الذي علمه الباشتو هو ما ينم عن جهل ما.

قال إذ وجد نفسه لن يكذب في هذا: «نعم، من قبل».

قال عبد الله وهو يستند بظهره على الجدار الطيني: «أنا كنت الأول على فصلي. هل عشت في الشمال؟».

طوت الصغيرة قطعة القماش البديلة عن باب البيت فلمح رضا بالداخل حركة خفيفة ـ فهم أنها من نساء عدة ـ قبل أن يبعد نظره سريعًا. ناولته الصغيرة كوب شاي أخضر وهي تبتسم بخجل لكلمات الشكر التي رددها وتركض عائدة إلى المسكن.

بلع رضا الشاي بصعوبة.

«لا أريد أن أضايقك لكن ليس بوسعي إخبارك بأي شيء عن حياتي قبل أن آتي هنا. لقد أقسمت يمينًا. حين قتل السوفييت أبي.» لم يتفوه عبد الله

بشيء وهو يضع يده على كتف رضا. كان عطفه مشينًا، لكن أيضًا كان الرجوع عن هذا مستحيلًا. «لم أعد أتحدث لغتي بعد الآن حتى. فقط تلك اللهجة المستعارة. لن أتحدث بلغة أبي، لن أنطق اسم أبي، أو اسم قريتي أو أدعي قرابتي لأي من الهزاره إلى اليوم الذي يرحل فيه آخر سوفيتي عن أفغانستان. وسأكون أنا من يطارد هذا السوفيتي الأخير.»

خلال الصمت الذي أعقب ما قاله تساءل رضا في نفسه عما إذا كان عبد الله قد شاهد المسلسل التلفزيوني الذي ملك عقله منذ أشهر مضت، بممثليه من الهند وكشمير بدلًا من الهزاره والسوفييت، وإن كان قد شاهده، فما كفارة الكذب في هذا المكان حيث تحتل الشرائع منزلة القوانين؟

شدد عبد الله قبضته على كتف رضا.

«قد نتصارع على من منا سيطارد هذا السوفيتي الأخير. لكن حتى هذا الحين، نحن إخوة.»

ابتسم رضا.

«أخ عبد الله، هل تساعدني في شراء شيء؟ أظن أن الباعة هنا يعلمون أن ليس بإمكانهم استغفالك.»

عقد عبد الله ذراعيه أمام صدره.

«هل هذا الشيء يأتي من حقول الخشخاش؟»

«ماذا؟ لا. لا!»

ابتسم عبد الله لحدة رضا في النفي.

«أوه! الشيء الآخر. انتظر هنا.» صاح عاليًا «أنا داخل»، ثم دخل المسكن.

تحسس رضا بروز ورقة عشر الروبيات في جيبه وهو ينظر حوله. بالكاد نظر إليه أحد مرتين منذ أن ترجل من الحافلة. كان شعورًا مثيرًا، محبِطًا تقريبًا. رأى فتى بملامح بدا أنها صُبَّتْ في نفس القالب الذي صُبَّ فيه وأراد أن يصيح: «محتال». مر بيده على وجهه. رضا هزاره. قلَّب الاسم في ذهنه. رضا هزاره. هرازه اضر. كان ثمة توازن في الاسم. بالقطع أكثر توازنًا من رضا كونراد أشرف. أخذ رشفة أخرى من الشاي وشعر بالاطمئنان؛ لأنه يرتدي أقدم كورتة وأبلى كورتة لديه.

«خذ.» قال عبد الله وهو يخرج حاملًا شيئًا ملفوفًا في قطعة قماش. «ارفع ذراعيك.» أطاع رضا قلقًا من أن يكون شيئًا حيًّا.

كان شيئًا من معدن بارد وخشب مصقول، أثقل مما توحي به السهولة التي يحمله بها عبد الله. مرر أصابعه على خطوطه المستقيمة، مال إلى الأمام وأحس بمنحنى الخزنة عند بطنه تمامًا. أزاح عبد الله قطعة القماش، مثل ساحر، فلمع «كلاشنكوف إيه كي ٤٧»، من معدن وخشب مصقولين.

قال عبد الله: «لم تحمل واحدًا من قبل».

هز رضا رأسه نفيًا بحذر لئلا تقترب يداه في تجوالهما من الزناد.

«لن تستطيع مطاردة آخر سوفيتي من دون أن تعرف كيف تستخدمه»، قال عبد الله وهو يأخذ السلاح من يد رضا، ويضعه على كتفه. بدا بطوليًّا. ثم ناوله لرضا وهو يبتسم بزهو.

مسح رضا كونراد أشرف يديه في كورتته ونهض واقفًا. لكن رضا هزاره من أخذ الـ«إيه كي ٤٧» بين ذراعيه وعرف كيف يمكن أن يتغير كل شيء في الرجل إثر هذا الفعل البسيط، رفع السلاح الآلي في الهواء، مستشعرًا ثقله على كتفه وهو يقلد وقفة عبد الله، فحياه الأخير، وعرف رضا شعور

المرء بأن يكون «أميتاب بتشان» أو «كلينيت إيستوود». ركض مجموعة من الصغار في الطريق إليهما كأن رفع رضا للسلاح أشعل منارة فدار رضا على عقبيه موجِّهًا السلاح نحوهم وضحك حين ركضوا أمامه هاربين بصرخات فرحة مذعورة.

تركه عبد الله يتخذ أوضاعًا واستدارات بالسلاح فترة ثم أخذه منه، وفي لحظات فكك أجزاءه.

«سأريك كيف تعيد تركيبه مرة أخرى، إن أخبرتني ماذا كنت تفعل مع الأمريكي.»

أمسك رضا خزنة السلاح وحاول إدارتها في الهواء باستهانة، لكنها سقطت على الأرض، ركله عبد الله في قدمه وأخذ الخزنة من فوق الأرض ومسحها بقطعة القماش بحركة بطيئة سلسة.

قال رضا في محاولة لاستعادة بعض هيبته: «لا أستطيع أن أخبرك بما كنت أفعله مع الأمريكي. لكن ثمة سبل أخرى لطرد السوفييت من دون حمل «الكلاشنكوف» مباشرة. إن كنت تفهم ما أقصده». عاد يسند بمرفقيه على فراش الحبال، مسرورًا بنظرة عبد الله التي تكاد تكون تبجيلًا.

«هل يتحدث الباشتو؟ صاحبك الأمريكي.»

«قليلًا. أغلب الوقت نتحدث بالإنجليزية.»

«هل تتحدث الإنجليزية؟»

رفع رضا كتفيه كما لو أن ذلك شيء لا يذكر.

«هل تعلمني؟»

أتت اللغات لرضا بسهولة دائمًا، لكن ذلك لا يعني أنه لا يقدر قيمة دروس اللغة. لم تكن أمه لتقابل «كونراد فايس» قط (الرجل الألماني الذي أرادت أن تتزوجه! لم تقل الفكرة غرابة بمرور السنين) لو لم تدرس الألمانية لابن شقيق «يوشي واتانابي»، كذلك لم تكن لتسافر إلى الهند لتجد «آل برتون» ما لم تكن قابلت «كونراد فايس». في الهند، كانت دروس اللغة هي التي أتت بسجاد و«هيروكو» إلى نفس الطاولة وعكست الانفصال الذي كان سيحكم علاقتهما لولا دروس اللغة. كافة ذكريات طفولته الأكثر معزَّة إلى قلبه من غيرها ترتبط بمنح أمه له موهبة اللغات؛ تلك الكلمات المتقاطعة التي كانت تضعها له في وقت متأخر من الليل وهو صغير، الأسرار التي كان بوسعهما تشاركها من دون أن يخفضا صوتيهما، الأفكار التي أمكنهما شرحها أحدهما للآخر بكلمات معينة في لغة معينة («لا وابي سابي»، التي كان يقولها أحدهما للآخر أحيانًا، للتعبير عن رفض قصيدة أو لوحة فنية تفتقر إلى التناغم بينما يشيد بها سجاد، وكان يدهش رضا أن ظل والده عاجزًا عن فهم فلسفة الـ«وابي» والـ«سابي» التي بدت لرضا طبيعية بقدر ما إن «أداس» بالأردية لا تعني بالضرورة الشعور بالكآبة بالإنجليزية.

قال لعبد الله بالإنجليزية: «بندقة».

كرر عبد الله الكلمة الإنجليزية ببطء.

«ماذا تعني؟»

أخبره رضا ومال عبد الله برأسه إلى الخلف وهو يضحك.

«لم أفهم قط لماذا يدعوننا هكذا.»

«لأن البندقة تبدو مثل دماغ صغير أيها البشتوني المغفل.»

ابتسم عبد الله ابتسامة واسعة.

«لو لم تكن أخي لأرديتك صريعًا لقولك هذا.»

«أنا أخوك. ومدرسك. آتني بورقة وقلم. سنبدأ بالأبجدية.»

جمع عبد الله أجزاء «الكلاشنكوف إيه كي ٤٧» في ذراعه وهو ينهض واقفًا.

«أنت تعلمني، وأنا سأعطيك واحدًا من هذه مجانًا. لا أحد سيلاحظ إن اختفى واحد أو اثنان منها. في الشحنة التالية أحصل لك على واحد.»

كتم رضا أسئلته واعتراضاته. كيف تخبر فتى يعدك بـ«كلاشنكوف إيه كي ٤٧» أنك لم تكن تريد منه سوى مهاراته في الفصال لشراء جهاز مسجل رخيص وعالي الجودة ليسمع عليه سجاد علي أشرف موسيقي الـ«سارانجي» تدوي في المنزل لتغلف مبادئ الـ«وابي سابي» وتستحضر الـ«أداس»؟

٢١

أمالَ «هاري برتون» كأس الويسكي على فمه وهو يتساءل في نفسه، ليس للمرة الأولى منذ أن جاء إلى باكستان، عما إذا كان الغرض من المناديل الورقية حول الكؤوس تجفيف تكثف بخار الماء لئلا يرطب الأصابع، أم حجب محتوياتها عن الأنظار في عاصمة جمهورية باكستان الإسلامية. كشف الحجاب عن الكأس واستخدم المنديل ليجفف قطرات العرق التي سالت في خط متعرج من صدغه إلى خده بالبلادة التي بدا أنها تميز كل شيء في هذا الحر الخانق.

نظر سريعًا ناحية الباب الزجاجي الذي يفصله عن حضور الحفلة الذين تزاحموا في غرفة الجلوس مكيفة الهواء في منزل أحد رجال الأعمال من ذوي النفوذ، كان عند نقطة ما من الأمسية قد صافح شخصًا ما زعم أنه «مضيفُك»، لكنه لا يتذكر منه سوى غرابة نعومة راحة يده المكتنزة. كان الهواء البارد بالداخل مغريًا، لكن ضغط البشر لم يكن كذلك. كان أسعد حالًا، بالمقارنة، وهو بالخارج في الحديقة التي تنبعث فيها رائحة، وينبعث دخان الكباب من ممر السيارات المحفوف بموائد أطعمة ورجال يتصبب منهم العرق، يقومون بشي اللحم في أسياخ. كان بوسعه أن يغمض عينيه، يركز في الرائحة، ويتذكر مرافقة سجاد للمدينة القديمة في طفولته.

سجاد. تنهد «هاري» بعمق. مر أربعة أشهر على هذا العشاء في فناء آل أشرف حين طلب منه سجاد أن ينصرف وسارت معه «هيروكو» إلى الباب الأمامي وشدت على يديه بيديها بقوة.

«ما زال رضا طفلًا في أشياء كثيرة؛ تأسره بشدة القصص التي يتخيلها عن حياته. وبالنسبة إلى سجاد؛ لا يعرف غضبُه كيف يدوم أكثر من دقائق قليلة. اتصل بنا حين تأتي لكراتشي المرة القادمة. ولا تجلب معك مزيدًا من الساكي.» قبلته على خده قبل أن يخرج إلى الشارع الخالي.

لم يكن لديه حينها نية للابتعاد طويلًا، لكن الفرصة لم تسنح له مؤخرًا للتفكير في حياته الشخصية حتى، التي على ذكرها، أتت امرأة جميلة تسير في الحديقة وثبتت نظرتها وقتًا طويلًا بما يكفي لإرسال إشارة تنم عن اهتمامها.

قال صوت عند مرفقه: «لا تنظر «برتون»، إنها في سجلات «وكالة الاستفزاز الداخلي»».

نظرت المرأة من أعلى كتفيها إلى «هاري» الذي أدار لها ظهره فورًا، إنما بلعنة غيظ مهني أكثر منه شخصي.

«أفضل تسميتها «الوكالة الإسلامية الداخلية».» قال للرجل الأشقر البدين الجالس بجواره.

رفع «ستيف» زميله في العمل كأسه تحية للتعليق. كانت إحدى متع «ستيف» إطلاق أسماء بديلة بنفس حروف اختصارات وكالة الاستخبارات الداخلية.

قال «ستيف»: «ماذا تظن؟ هل تقوم المخابرات الباكستانية بعمل أفضل في تجسسهم علينا مما نقوم به في تجسسنا عليهم؟ هل تظن أنهم

لم يكتشفوا بعد أن عليهم شكر إسرائيل لمدِّهم بالأسلحة اللازمة في حروبهم المقدسة؟».

في ذهن «هاري» كانت ثمة خريطة للعالم ببلاد مرسومة بالخطوط العريضة فقط، في انتظار أن تُظلل بخطوط حمراء وبيضاء وزرقاء إذ تنجذب إلى المعركة الإقليمية المحتدمة بين الأفغان والسوفييت، التي لا يزعم آخرون المشاركة فيها. حين وصل إسلام آباد أول مرة، كانت هناك ثلاثة أطراف فقط. مصر توفر الأسلحة المصنوعة في الاتحاد السوفيتي، أمريكا توفر المال والتدريب والتقنيات، وباكستان توفر القاعدة لمعسكرات التدريب. لكن الحرب الآن صارت عالمية بحق. أسلحة من مصر والصين ـ وقريبًا ـ من إسرائيل. مجندون من كل حدب وصوب من العالم الإسلامي. معسكرات تدريب في أسكتلندا! حتى إن ثمة إشاعات عن رغبة الهند في بيع بعض الأسلحة التي اشترتها من أصدقائها الروس؛ مع احتمال صحة تلك الإشاعات لم يسع «هاري» سوى أن يستمتع بفكرة أن باكستان والهند وإسرائيل يعملون معًا في الحرب الأمريكية.

كانت سياسة التعاون الدولي، تحكمها الرأسمالية. عوالم شتى تتحرك من مداراتها المختلفة لتشكل نوعًا مختلفًا من علم الهندسة. رفع كأسه لشبح «كونراد فايس» بمزيج من التسليم والسخرية واليأس.

على الجانب الآخر من البلاد في كراتشي، كانت هيروكو أشرف تفكر في «كونراد» أيضًا، ترقد في الفراش تقرأ خطاب من «يوشي واتانابي» يقول فيه إنه وصل سن التقاعد من عمله ناظرًا للمدرسة التي كانت من قبل عزبة «الأزاليا». عقب الحرب، زعم «كاجاوا سان» مستأجر «كونراد» السابق ملكيته لعزبة «الأزاليا» ـ ألم يقم هناك سنوات قبل القنبلة؟ لمن تعود ملكية المنزل إذن إن لم تعد له؟ وعلى الرغم من أن «يوشي» راسل «إلزي»

لإعلامها بما كان يجري. لم يحاول أحد من عائلتي «فايس» أو «برتون» منازعة «كاجاوا» على المنزل. لكن أبناء «كاجاوا» حين ورثوا الملكية عام ١٩٥٥ طلبوا من «يوشي»، الذي عمل مدرسًا بعد الحرب، أن يدير المدرسة الدولية التي قاموا ببنائها على الأرض إحياءً لذكرى «كونراد فايس». كانت تلك لفتة اعتذارهم الوحيدة عن تلك الشهور الأخيرة من حياة «كونراد» حين كانوا يعبرون الشارع تجنبًا للقائه.

«أرجو أن يواصل الناظر الجديد التقليد الرسمي بالخروج بتلاميذ المدرسة إلى المقبرة الدولية حيث يرقد حجر «كونراد».»

وضعت «هيروكو» الخطاب جانبًا، ضغطت بيدها على ظهرها. يومًا ما قد تأخذ رضا إلى ناجازاكي. وسجاد أيضًا.

نظرت سريعًا إلى زوجها النائم بجوارها وهي تمسك الصورة الفوتوغرافية التي أرفقها «يوشي» لنفسه واقفًا في فناء عزبة «الأزاليا» مع مجموعة من تلاميذ المدرسة جالسين على ركبهم أمامه. كانت المجموعة التي ستنطلق إلى أمريكا قريبًا في تبادل زيارات مع مدرسة أخرى بالقرب من «لوس ألاموس». تساءلت كيف سيتعامل رضا مع مجموعة من الطلبة اليابانيين يقربونه سنًّا. لم يكن يزعجها على الإطلاق علمها بأنها ستظل دائمًا أجنبية في باكستان ـ لم يكن يعنيها في شيء أن تنتمي إلى شيء غير ذي قيمة ومؤذٍ على نحو متضارب مثلما هو الوطن ـ بيد أن ذلك لم يمنعها من ملاحظة إجفال رضا كلما سأله باكستاني عن بلده.

تفكر أحيانًا في «كونراد» بشكل مجرد، وتتساءل عن طبيعة حياتهما إن لم يمت. هل كانا سيزوران «إلزي» و«جيمس» في دلهي، وهل كانت ستقابل سجادًا وتشعر بوميض للحياة التي كانا سيقضيانها معًا لو

لم يكن...؟ لا، بالطبع لا. لم يكن الأمر حتميًّا بهذه الطريقة، لا علاقة ولا تداخل بين الأحداث... فقط آل المآل ببعض الأمور إلى ما هي عليه الآن. أراحت أصابعها على فم سجاد، وطرف إصبع يحكُّ برقة نعومة شاربه الرمادي الفضي.

لا، لم يكن شيئًا حتميًّا، كان ثمة فرصة لأن تؤول الأمور مآلًا مختلفًا. كأن تعيش ابنتهما، تلك التي أُسقطت حملها في الشهر الخامس، التي قتلتها القنبلة (لم تخبرها الطبيبة بدقة قط عما أصاب جنينها، فقط قالت إن بعض حالات الإجهاض رحمة من الله). كانت ستكون في الخامسة والثلاثين من عمرها الآن. تبدد حزنها لوفاة «كونراد» وأبيها بمرور السنين، لكن الأسى على الطفلة التي لم تعرف منها سوى ضجة بداخلها ـ سلسلة من حالات الفواق والركلات ـ لا يزال باقيًا، يداهمها أحيانًا في موجات غضب عاتية لم تعلم قط كيف تعبر عنها، أين تلقي بها، فقط في صحبة ابنها كان بوسعها تمريرها. إن ولدت الطفلة الأولى ـ كانت «هيروكو» تفكر فيها باسم «هانا»، الاسم الأحمر الزاهي الذي رآه «كونراد» مجمَّدًا تحت الثلج ـ ما كان لرضا وجود. على نحوٍ ما تعلم أن هذا حق.

فُتِح الباب الأمامي فاندفع تيار هواء، وحفَّ ورق الشجر في الفناء وابتسمت «هيروكو» للتوقيت الممتاز.

قالت وهي تقابل ابنها في منتصف الطريق في الفناء: «من أين أتيت أيها الأمير؟»

لمس رضا خدها بيده.

«أخبرتك أني سأتأخر. لم تقلقي، أليس كذلك؟»

خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية، تفتَّح فيه شيء ما مُطلِقًا حلاوة

صباه. رأى سجاد أنها ليست سوى الراحة التي يشعر بها بعد أن قرر إعادة الامتحان مرة أخرى، واكتشف أن إستراتيجيات «هاري برتون» للتغلب على قلق الامتحان لها جدواها حقًّا وحلق القلم على الصفحة بسهولة تقرب إلى الازدراء. لكنها كانت ترى أن التفتح بدأ قبل الامتحان بشهر على الأقل، وتظن أن التفتح، وليس نصائح «هاري برتون»، ما جعل رضا يدخل قاعة الامتحانات بثقة ويخرج منها بنصر.

قالت: «كنت أتصفح كتاب الجامعات الأمريكية». جاءهم شير محمد سائق الريكشو بالكتاب بعد أيام قليلة من طرد سجاد لـ«هاري»؛ أصرت «هيروكو» أن يرسل رضا إلى «هاري» خطاب شكر، وقد فعل، قضى في كتابته وقتًا أطول من أي وقت قضاه في كتابة خطابات الحب القصيرة لسلمى في أثناء علاقتهما الرومانسية، وارتاح للغاية، لدرجة الإحراج تقريبًا، حين اتصل الخال «هاري» من إسلام آباد ليقول إنه يأمل أن يكون الكتاب مفيدًا، وإنهما سيتحدثان أكثر عن الجامعة في زيارته القادمة لكراتشي.

لوح رضا بيده لإنهاء الأمر.

«الأمر كله معقد للغاية، كل إجراءات التقديم تلك والامتحانات والتوصيات.» لن يخدع نفسه مجدَّدًا ويفكر في جامعة أمريكية كخيار متاح أمامه، خصوصًا بعد أن نظر في نماذج الدعم المالي المتاحة، وأدرك المبلغ الذي يتطلبه الأمر.

«فليكن.» قالت «هيروكو» وهي تشعر براحة أكبر مما قد تقر به؛ لأنه لم يكن يخطط للسفر إلى الخارج. «ستذهب إلى الجامعة هنا إذن. جيد. فيما بعد، أيها الطالب الجامعي، إن شئت السفر إلى الخارج، حينها قد نجد طريقة لذلك.»

تردد رضا ثم أحاطها بذراعيه «سأجعلك تفخرين بي»، قال ويده تستقر على المكان الذي يعرف أنه بين حروقها.

«وماذا يعني هذا؟»، قالت وهي تميل إلى الخلف. «أنت تبتسم وتضحك هذه الأيام رضا كونراد أشرف، ولا تثور أبدًا، وقد بدأ هذا يقلقني كثيرًا. أين تذهب كل يوم؟ لقد قابلت بلالًا ذاك النهار، وقال إنه لم يرك منذ أسابيع.»

أبعد رضا ذراعيه عنها.

«إن كنتِ تريدينني أن أثور فتلك طريقة جيدة للوصول إلى هذا. بلال والآخرون كلهم منشغلون جدًّا في حياتهم الجامعية وأنا لي أصدقاء جدد. أنا سعيد. لا تفسدي الأمر.» قال ثم تراجع خطوة إلى الوراء وانحنى لها ـ طالما جعلها هذا تبتسم، ولم يخفق هذه المرة أيضًا ـ واستدار ليدخل غرفته، يقفز إلى أعلى في طريقه، أصابعه مشدودة نحو السماء المنقوشة بالنجوم.

٢٢

لشهور ظل رضا يعيش حياتين. كان في واحدة رضا أشرف الواضح، يصبح أكثر وضوحًا يومًا بعد يوم وحياة أصدقائه تتقدم في الجامعة ويبقى هو التلميذ الفاشل، عامل المصنع سابقًا، الفتى الذي شوهته القنبلة. وفي الأخرى رضا هزاره، الرجل الذي لا يتحدث بلغته، أو عن عائلته أو ماضيه، ولا حتى مع هزاره آخرين حتى يطرد آخر سوفيتي من أفغانستان، الذي خلع له الأمريكي حذاءه الخاص، مما يشير بشكل ما ـ مع أنه يبدو غامضًا فقط حين يُسأل عن هذا ـ إلى أهميته عند المخابرات الأمريكية؛ إذ بالطبع كل أمريكي في باكستان من المخابرات الأمريكية.

في حين كانت قمة زهو رضا أشرف تأتي من متعة والده حين يشغل مسجله الجديد من «سهراب كوته» كل مساء بعد عودته من العمل، كان رضا هزاره يتعلم أن يقيس الزهو بانخفاض عدد الثواني التي يستغرقها في فك أجزاء الـ«إيه كي ٤٧» وتركيبها. كان رضا أشرف يقضي وحده أوقاتًا تطول باضطراد، محبوسًا في عالم الكتب والأحلام، فيما كان رضا هزاره يُحيَّى بصيحات الفرحة كلما دخل عشوائيات «سهراب كوته» ليعلم الإنجليزية

لمجموعة من التلاميذ تتزايد أعدادهم على نحو مستمر. لم يضطر رضا هزاره قط إلى الميل برأسه إلى الأمام ليغطي ملامحه بشعره.

كان الأمر مبهجًا، مثيرًا، وكذلك كان مرهقًا.

وجد رضا نفسه، لدهشته، وهو يقضي مزيدًا من الوقت مع الأفغان في «سهراب كوته»، يشتاق إلى حياته الخاصة. اشتاق إلى عالم بلا أسلحة وحرب وأوطان محتلة. إلى أن يكون في وسعه الإجابة عن أي سؤال عن حياته من دون أن يفكر مرتين في أفضل طريقة لتأليف كذبة. إلى عالم أقل انشغالًا بالشرف والأهل من عالم هؤلاء الرجال الذين يرددون أشعارًا عن الجبال. اشتاق إلى النساء، مع أنه كان من الصعب أن يفكر فيهن باعتبارهن حضورًا مهمًّا في حياته.

هكذا كان يقضي أيامًا، وربما أسابيع، في ناظم آباد يلعب كريكيت مع الفتية في الحي ويذاكر لامتحانه، ووجد أنه كلما بدأ ينتابه القلق بشأن ما سيحدث في قاعة الامتحانات لم يكن عليه سوى أن يتذكر تركيب الـ«إيه كي ٤٧»، تلك التكة المُرْضِيَة حين تتجمع القطعة بأكملها، فيزول أي قلق. كان حينئذ لا يهدأ له بال حتى يعود إلى حياة هزاره مجدَّدًا، فيستقل الحافلة في الطريق الذي صار مألوفًا له إلى «سهراب كوته» ليجد عبد الله - وإن لم يجده كان يجد أي أفغاني آخر ممن يرحبون به الآن بوصفه مدرِّسًا محترمًا - وإن سُئل عن غيابه الطويل كان يبتسم بالغموض نفسه الذي يرد به على أي استفسار عن الأمريكي الذي خلع حذاءه وأعطاه له.

لكنه كان يعلم أنه لا حياة في عالمين، لأي وقت. كان واضحًا تمامًا له يوم خرج من قاعة الامتحانات، وهو يعلم أنه اجتازه بامتياز، عن أي عالم سيتخلى. من ذا الذي يختار أحلامًا مستعارة ويترك الأحلام التي تربَّى عليها؟

الحلم الذي ظن رضا أنه فقده ـ التفوق الأكاديمي، الشعور بالمعرفة تدفع به قدمًا في العالم ـ أصبح ممكنًا تارة أخرى. احتاجت امتحانات الثانوية إلى جهد أكثر قليلًا من الحفظ، لكن بعدها كان ثمة عالم آخر من تتبع الأدلة والبحث عن صلات، من التحليل وتقديم الحجج. لم يعد به حاجة إلى أمريكا! سيصير محاميًا، كما أراد له والده دائمًا. كل تلك الشهور من التفكير في استحالة دخول كلية الحقوق جعلت من إمكانية دراسة القانون أمرًا ممتعًا لأول مرة.

لم يكن يرى بوضوح إلى أي مدى يدين بثقته الجديدة في نفسه واستعادته حبه للتعليم مرة أخرى للساعات التي قضاها في «سهراب كوته» في بقعة مظللة حيث يدرس الإنجليزية لفتية أفغان من أعمار مختلفة يجلسون متربعين أمامه على الأرض منتبهين لكل كلمة ينطقها، كما لو كان يعدهم بمستقبل لا يمكن تخيله؛ مع ذلك، شعر وهو يتسكع بعد خروجه من قاعة الامتحانات بدفقة هائلة من المشاعر نحو عبد الله، الذي جعل حياة رضا هزاره ممكنة، حينها صعقته فكرة أنه كان يخطط للاختفاء من حياة الأفغاني الصغير ببساطة ومن دون تفسير أو كلمة وداع كشيء رخيص على نحو لم تكن عليه كذبته اليومية على عبد الله.

كان منشغل البال لتفكيره في كل هذا على نحو لم يعهده من قبل ـ لم يعهده رضا هزاره، هكذا يجلس مع عبد الله في المقصف المفضل لسائقي الشاحنات على جانب الرصيف يتناولان «شابلي كباب»، تذكر حين أشار له الخال «هاري» على «مطعم» من الطراز نفسه، كما أطلق عليه «هاري» (وعلى الرغم من علم رضا أن المطعم أكبر من هذا، وأن هذا لم يكن سوى مجرد «مضيفة»، إلا أنه التقط الاستخدام الأمريكي من دون أن يفترض قط إمكانية أنه يعلم أسماء الأشياء في كراتشي بأفضل مما يعلمها «هاري»).

قال «هاري» إنه يحب الطريقة التي يجعل بها غياب جدار خارجي للمطعم المارة يتعثرون على الرصيف الضيق المزدحم ويهوون على أحد الكراسي فيجلسون لتناول وجبة ببساطة مع أي شخص يجلس بالفعل إلى الطاولة مهما يكن.

لكن رضا وهو يجلس قبالة عبد الله تمنى لو لم يكن عليه أن ينظر إلى العالم المتصارع من حوله والذي لم يكن يؤثر فيه بشيء سوى بتذكيره بأن وجوده فيه كذبة. ظهرت اليوم نتيجة الامتحان. قام رضا بعمل جيد كما توقع، وفجأة حان الوقت ليختار حياة ويتخلى عن أخرى.

سار «أفريدي» سائق الشاحنة نحو طاولتهما ـ آتيًا من حديث مطول مع زمرة من الرجال بالخارج ـ أمسك بمسند كرسي رضا وهزه بوصات قليلة وهو يضحك على صيحة رعب رضا قبل أن يعيده إلى وضعه السليم مرة أخرى.

«توقفا عن الصراع الآن. تحدثا بعضكما مع بعض.» قال وهو يضرب عبد الله على مؤخرة رأسه قبل أن يخرج للتجوال مرة أخرى.

نظر كل منهما إلى الآخر بدهشة. كان كل منهما مستغرقًا تمامًا في صمته فلم يلحظ صمت الآخر.

«ما الخطب؟» قالاها في وقت واحد بمرادفين مختلفين.

قال رضا: «لا شيء، أنت هادئ جدًّا حتى ظننْتُ أنني ضايقتك».

ضيَّق عبد الله عينيه البندقيتين.

قال عبد الله ببطء شديد بالإنجليزية: «كيف تضايقني رضا هزاره؟ يمكنك فقط أن تدعوني «بندقة»».

نظر رضا في طبقه بشعور بالذنب. لم يعرف قط هذا القدر من الطيبة، كان عبد الله يحيطه بجو من الاعتراف بالجميل يوحي بأن رضا هو من يتكرم عليه وهو يغرق نفسه هكذا وبلا تحفظ في حياته. منذ أسابيع قليلة مضت جاء رضا إلى «سهراب كوته» بعد غياب ثمانية أيام، ولم يوجه له عبد الله أي اتهام، فقط ابتسم له ابتسامة واسعة سعيدة بعودته. كان «أفريدي» هو الذي أخبره، بنبرة اتهام، أنهم يضطرون إلى جر عبد الله بالقوة لإخراجه من «سهراب كوته» في الأيام التي يغيب فيها رضا. «وإلا بقي مكانه في انتظار وصول مدرسه.» منذ هذا الحين لم يغب رضا يومًا واحدًا.

سأل رضا: «لماذا أنت هادئ إلى هذه الدرجة إذن؟».

قال عبد الله وهو يعود بظهره في كرسيه البلاستيك بإعياء: «أنا في الرابعة عشرة الآن. وعدني إخوتي بالذهاب إلى أحد معسكرات التدريب حين أبلغ الرابعة عشرة». كان بقية أشقاء عبد الله من المجاهدين، كذلك كان الشقيق الذي توفي في بداية الحرب، وظلت بقية عائلته في مخيم لاجئين خارج بشاور، لكنه وهو في الثانية عشرة، غادر المخيم على ظهر شاحنة متجهة إلى كراتشي، حيث آوته عائلة من قريته، وقال سائق الشاحنة التي استقلها إلى كراتشي: «تعالَ واعمل معي»، وهكذا أصبح عبد الله ينقل الأسلحة بين كراتشي وبشاور.

«حقًّا؟ متى كان عيد ميلادك؟» صارت باشتو رضا في صحبة عبد الله تقترب جدًّا من باشتو قندهار وليس باشتو بشاور.

رفع عبد الله كتفيه: «لا أعرف بالتحديد. في وقت ما قرب بداية الصيف». قضم قطعة من رغيف الـ«نان»، وقام بإيماءة معقدة لم يفهم رضا شيئًا منها. «سيذهب «أفريدي» إلى بشاور الأسبوع المقبل. وأخي إسماعيل يقول إن عليَّ أن أذهب معه، وسيلقانا ويأخذني إلى المعسكر. لكني لا أعرف. قلت

لي مرة إن ثمة طرقًا أخرى لقتال السوفييت. لعلني سأكون أكثر فائدة هنا، مع «أفريدي». لا يمكنك التقليل من أهمية خط الإمداد من كراتشي.» نظر إلى رضا بتوسل: «أليس كذلك؟».

مضغ رضا قضمة كباب و«نان» كبيرة ببطء. ظل منذ بدأ يقضي وقته مع عبد الله يتوق إلى السفر مثلما يفعل الفتى الأصغر منه، يتجه شمالًا على طول باكستان كلها في شاحنة، يرقد ليلًا في الحاوية المفتوحة يراقب النجوم، يتوقف على الطريق لاستراحة شاي وخبز «براتها» وكباب. لا والدان يحددان ما يمكن وما لا يمكن، فقط الطريق المفتوحة، المشهد المتحول، الخبرة المثيرة لنقل الأسلحة.

بشاور. تعيش شقيقة سجاد وزوجها هناك ـ زارهما آخر مرة مع أبيه منذ سنوات. وعده زوج عمته في آخر يوم في زيارته أن يأخذه إلى القلعة لولا أن ألغى المطر الخطة. «أعدك أن نذهب في المرة القادمة التي تأتي فيها»، قال زوج عمته ـ لكن المرة القادمة لم تأتِ. كان آل أشرف بباكستان يجتمعون سنويًا في لاهور وليس بشاور، وبقيت ذكرى رحلات بشاور أماني معلقة.

قال عبد الله: «رضا؟ سأخبر أخي أنهم يحتاجونني في المساعدة في نقل الأسلحة، أليس كذلك؟».

ها هي الفرصة. فكر رضا. الفرصة لختام صداقة رضا هزاره وعبد الله على نحو لائق، بدفعة مغامرة وتوطيد للصداقة.

ابتسم ابتسامة عريضة.

«ما خطبك أيها الصغير؟ خائف؟»

نهض عبد الله واقفًا وألقى بالكباب من يد رضا.

«متى كانت آخر مرة نحرت فيها رقبة سوفيتي؟»

التفت الرجال الجالسون إلى طاولة قريبة ليراقبوا وسمع رضا أحدهم ينادي على «أفريدي».

«اجلسْ»، قال رضا وهو يمد يده إلى طبق عبد الله ويأخذ كبابه. وتصرف الفتى الأصغر تمامًا كما توقع رضا. أشار إلى «أفريدي» بما معناه أن كل شيء بخير. «الأسبوع القادم نذهب أنا وأنت إلى بشاور معًا.»

حدق فيه عبد الله.

«ستأتي إلى معسكرات التدريب معي؟»

قال رضا: «ولِمَ لا؟ الأفغاني الحقيقي لا يضيع وقتًا مع المخابرات الأمريكية. بل يهاجم السوفييت مباشرة. لقد تعلمت هذا منك».

ابتسم عبد الله ابتسامته العريضة السعيدة.

«أنا وأنت معًا، لن يكون أمام السوفييت مهرب!» وأخذ برأس رضا وخرجا إلى الرصيف وهما يتصارعان ويضحكان حيث تجمع الرجال ومدوا أيديهم ليساعدوهما على النهوض.

قال رضا وهو ينهض وينفض ملابسه: «بندقة! كان يمكن أن أختنق من الكباب».

استند عبد الله بمرفقيه على الأرض، غير عابئ بقذارة الرصيف وواصل ابتسامه لرضا.

«سيظل هناك وقت للدروس، أليس كذلك؟ حين نكون في المعسكر. ستظل تعلمني؟»

«إن علمتني كيف تصارع من هم بضعف حجمك وتنتصر.»

قفز عبد الله وسحب رضا من قدمه.

«سيكون ذلك ممتعًا جدًّا.»

وهكذا كان رضا بعد ذلك بأسبوع أو أكثر قليلًا على متن شاحنة متجهة من كراتشي إلى بشاور. تعلم كثيرًا في تلك الأيام الثلاثة على الطريق: أنه لا شيء في جنون الحركة المرورية بكراتشي يجعلك مستعدًّا لسائقي الشاحنات على طرق جبلية ضيقة. حين تكون في شاحنة محملة بالأسلحة يمكنك السفر على طول البلاد وعرضها من دون مضايقة نقاط التفتيش العسكرية. تعلم أن يميز بقع حروق السجائر في راحات كفوف سائقي الشاحنات، وعلى ظهورها بوصفها شارات لمهنتهم، شهادات الليالي التي قادوا فيها شاحناتهم وأجسادهم لأقصى ما يمكنهم حتى حرقوا أيديهم لصد النوم عن جفونهم؛ تعلم ألا يسأل عبد الله أو «أفريدي» أو أي أحد في الاستراحات التي يتوقفون فيها على طول الطريق عما إذا كانوا يعرفون شيئًا عن النقوش الصخرية القديمة التي يمرون بها؛ لأنه لم يسمع منهم سوى أنها من صنع الكفرة. تعلم جمال العزلة؛ إذ جعلته الجبال بجلال قدرها ينظر إلى ما وراء القحل. تعلم أنه كلما اقترب من حدود أفغانستان قل عدد من يرمقونه بنظرة ثانية. أدرك، بافتقادها، قيمة الرفاهية التي اعتبرها من المسلمات. علم بوجود عضلات لم يفكر فيها من قبل قط، إلى أن استيقظت تصرخ ألمًا إثر جلوسه ساعة بعد أخرى على مقعد ضيق في شاحنة مسرعة. علم قبل كل هذا وذاك أنه سيفتقد صداقة عبد الله.

بدا أن الفتى الأفغاني نسي ما بدا منه قبل ذلك من تردد بخصوص الانضمام إلى المجاهدين؛ فصار يتحدث عن الأمر بتلك الحماسة التي يجد

لها رضا نفسه مأخوذًا تمامًا بفكرة التدريب والأخوة في ملاعب الشمال الفسيحة المثيرة؛ حيث تبدو الأرض مصممة ليقوم فيها الفتية بمغامرات عظيمة. ثم يُذكِّر نفسه بخطته التي اتضحت له تلك الليلة في استراحة الطريق: أن يصحب عبد الله حتى بشاور ثم يتلاشى.

لن يكون عليه حق سوى أن يزوغ عن الأنظار، ويجد طريقه إلى منزل عمته. لكنه سيبدو لعبد الله شيئًا كالتلاشي. تساءل ماذا سيرى الأفغاني في اختفائه، هل يظن ذلك جبنًا، أم يظن أنه قابل في مكان ما في بشاور أحد عملاء الجاسوسية والجهاد، الإدارة التي ينتسب إليها رضا في المخابرات الأمريكية. تمنى رضا أن يظن عبد الله هذا الظن الأخير. مع هذا، لم يكن بصفة عامة يفكر فيما يحدث بعد أن يترك عبد الله و«أفريدي»؛ كان يحزنه بشدة. لم يكن يعلم أيهما سيفتقده أكثر من الآخر، عبد الله أم رضا هزاره، لكنه علم أن تلك الأسابيع الأخيرة أثْرَتْ حياته بدرجة لم يخبرها من قبل.

حتى إنه كان في لحظات تأمله في هذا الإثراء يفكر في الذهاب إلى المعسكرات مع عبد الله فترة، ربما لا ضرر من هذا. لكن تلك الفكرة لم تستمر طويلًا. كان انفصامه هذا قد طال كثيرًا، هكذا برر لنفسه لماذا لا يسعه التفكير في المعسكرات لأكثر من ثوانٍ قليلة. ثلاثة أيام في الشاحنة مع عبد الله، ثلاثة أيام على الطريق مع أخيه الأفغاني، وكفى. عصر عينيه بشدة حين تذكر كيف اصطف أمامه، في يومه الأخير في «سهراب كوته» قبل أن يركب هو وعبد الله الشاحنة، تلاميذه ليقدم له كل واحد منهم تذكارًا؛ جملة قصيرة مكتوبة بالإنجليزية، مصحفًا صغيرًا، جوربًا صوفيًّا، حفنة تراب من أفغانستان، فردة حذاء خزفية للزينة. تصارع الصوت الذي كان يخبره بأنه يخونهم مع ذاك الذي يقول إنه منحهم شهورًا من التعليم، لم يكونوا ليتلقوها قط لولا فزورته، وأن ذلك كان على سبيل الهبة، وليس الواجب.

قال عبد الله وهو يهزه: «استيقظ».

نهض رضا يجلس وفرك جانب وجهه مكان انطباع ضغط باب الشاحنة في أثناء نومه.

«هل وصلنا بشاور؟» قال وهو ينظر إلى الخارج من زجاج النافذة ولا يرى سوى الطمي والحصى؛ طريق من طمي وحصى بين جبال من طمي وحصى بمنحدرات من طمي وحصى في وادٍ من طمي وحصى. بطريقة ما كان كل هذا ينبض بالسحر. إن كنت كبيرًا بما يكفي، فكر رضا وهو يتطلع إلى الجبال، فلا يهم مما أنت.

ضحك عبد الله ودفع رضا خارج باب الشاحنة تقريبًا، أعلى جانب الطريق. كان الغبار الذي أثارته عجلات الشاحنة يهدأ ببطء، بندم تقريبًا، في سكون هواء الصباح الباكر. أدار رضا ذراعيه من جانب إلى آخر، وشعر بركام الجبال على جلده. كان من الواضح أنهم ليسوا في بشاور، بل مجرد وقفة لقضاء حاجتهم.

ترجل من الشاحنة على جانب الطريق وفك زمام بنطلونه. كان حوله قدر كبير جدًّا من العدم. كان يعلم أن من وراء هذا قممًا من البياض خلفها حقول خصبة، إلا أن ذلك لم يمنعه من الشعور بأنه على كوكب قاحل؛ حيث يمكن أن يتوارى أي مخلوق أسطوري، قد يكون المسخ الياباني هنا أقل غرابة من فتى من كراتشي.

حين استدار عائدًا إلى الشاحنة، رأى «أفريدي» يميل من فوق مقعد القيادة، يصافح عبد الله باليد.

ثم رفع الرجل الأكبر سنًّا يده ملوِّحًا لرضا.

«ليحرص كل منكما على الآخر. ولا تتقاتلا على ذاك السوفيتي الأخير.»

«ماذا؟ لا، انتظر.»

لكن صوته غاب في ضجة المحرك، وانطلقت الشاحنة في طريقها مبتعدة، تاركة رضا وعبد الله وسط الخلاء الواسع.

«أين ذهب؟»

نظر إليه عبد الله بدهشة.

«إلى بشاور بالطبع. سيلقانا أخي بالقرب من هنا. تعال. علينا أن نسير قليلًا.»

تردد صدى كلماته على نحو غريب في الممر الجبلي. نظر رضا إلى قدميه. بدتا كأنهما تجران أحمالًا ثقيلة. كان واضحًا أن ليس بوسعه التحرك.

«هيا رضا.»

تنفس رضا بعمق. كان كل شيء على ما يرام. في مكان ما في الثواني التي يخطر له الذهاب مع عبد الله إلى المعسكر تخطر له فكرة للخروج من المأزق، فقرر أنه حين يكون مستعدًّا للرحيل، سيذهب إلى عبد الله بنظرة أسى ويقول إنه هاتف بيتهم للتو وعلم أن جده يحتضر. كان هذا الجد اختراعًا مبكرًا، وقد صار واضحًا وموحيًا: الوحيد الباقي من عائلة رضا، والذي يقيم معه في كوخ صغير بالقرب من خطوط السكة الحديد بعيدًا عن اللاجئين الأفغان الآخرين الذين لا يمكن للجد النظر إليهم من دون أن يبكي على جبال أسلافه التي فقدها.

بالطبع لن يكون بوسعه شيء آخر سوى أن يترك المعسكر ويذهب إلى جده، على وعد بأن يعود في أسرع وقت ممكن بعد أن يدفن العجوز. كان

ذلك واجبًا عليه، على الرغم من كل شيء، أن يواري جسد جده التراب ويغمض عينيه بينما يصلي المعزون بجوار القبر على روح المرحوم.

نعم، فكر رضا، وهو يتمعن في الخطة مرة أخرى. نعم، ستنجح. وربما... ربما يقضي قبل هذا يومًا أو اثنين في المعسكر. يستمع إلى حكايات المجاهدين، أو يتعلم إطلاق قاذفة الصواريخ. ركض على قدميه ليلحق بعبد الله.

سارا معًا في الطريق الضيق القذر وسط الخلاء ما بدا ساعات، لا توفر لهما الجبال في هذا الوقت من النهار أي وقاية من الشمس القاسية؛ ثم أشار عبد الله وهما ينعطفان إلى شيء ما يرتفع بين السهول على الجانب الآخر ـ سلسلة من التلال الواطئة تمتد إلى ما لا نهاية ـ نظر رضا مرة أخرى. إنها خيام. مدينة من اللاجئين.

«كلما عدت إليه أجده يتضاعف»، قال عبد الله بصوت أهدأ وأكثر كآبة عن أي وقت سمعه رضا فيه من قبل.

واصلا السير نحو مدينة الخيام، لكن عبد الله، تمامًا في اللحظة التي ظن فيها رضا أنهما سيبدآن الهبوط إلى السهول المنصوبة عليها الخيام، جلس على جانب الطريق، الذي اتسع مجدَّدًا، وأدار ظهره إلى الخيام وقال: «الآن ننتظر».

«أريد أن أراه»، قال رضا وهو يشير برأسه إلى معسكر اللاجئين. من هذه المسافة كان كل ما يراه أنه شاسع.

قال عبد الله بحدة: «ماذا تريد أن ترى؟ بشر يعيشون كحيوانات؟ تلك الأماكن عدو الكرامة. إنه أمر جيد. أمر جيد أن علينا أن نعيش هنا، هكذا!».

«كيف يكون ذلك جيدًا؟»

لحظ عبد الله المخيم بطرف عينه من أعلى كتفه. «كنت قد نسيت، رضا.» قالها كما لو كان يعترف بارتكابه لأسوأ الجرائم. «ذهبت إلى كراتشي، رأيت أضواءها ووعودها، حتى في طرقات «سهراب كوته»، وكدت أنسى هذا. لم أذهب إلى مخيم لاجئين منذ سنة. «أفريدي» يعرض دائمًا أن نتوقف حين نمر في سفرنا إلى بشاور، لكني كنت أرفض. لم أكن أريد أن أرى المخيم. كدت أنسى لماذا ليس أمامي من خيار آخر سوى الانضمام إلى المجاهدين. الذين يكبرون في المخيمات لا ينسون؛ فهم ينظرون حولهم، ويعرفون أنها أفضل طريقة لاستعادة وطننا من فوق أعتاب الجحيم إلى الفردوس.» استدار إلى رضا بتعبير رجل كبير كما كانت نبرة صوته. «شكرًا لك أخي.»

نقل رضا نظره من المخيم إلى عبد الله، وللمرة الأولى رأى صِغَر قلبه، أنانيته التامة. قال رضا: «كنت على حق. من قبل، حين قلت إن ثمة أشياء أخرى بوسعك فعلها. خط الإمداد. عبد الله، إنه مهم للغاية. هؤلاء الفتية هناك (لوح بيده ناحية الخيام) يذهبون جميعًا إلى معسكرات التدريب، من سيعنى بخط الإمداد إذن؟ كيف يتدبر «أفريدي» أمره من دونك؟ ليس للمخيمات فائدة من دون أسلحة يحارب بها المجاهدون».

نظر عبد الله إلى رضا بفضول: «لماذا تقول هذا الآن؟».

«فقط لم أكن أراه من قبل.» اقترب رضا من عبد الله ووضع يدًا على ذراعه. «لديك رقم هذا الصديق في بشاور الذي يعمل معه «أفريدي»، عليك أن تتصل به ما إن نصل إلى المعسكر، وتطلب من «أفريدي» أن يعود ليأخذنا.»

نظر عبد الله إلى رضا كأنه لا يعرفه، لكن قبل أن ينطق بشيء، ظهرت عند المنعطف سيارة جيب تتجه إليهما، فرفع الفتيان أيديهما على أعينهما لصد الحصى المندفع من أسفل عجلات السيارة.

«لقد جاءوا ليقلونا إلى معسكر التدريب. ورضا، لا تكن فتى مدينة هكذا. لا وجود لهواتف هناك.»

٢٣

استيقظتْ «هيروكو»، صبيحة اليوم الذي غادر فيه رضا كراتشي، مع أذان الفجر كعادتها. كانت تحب سماع أصداء العربية تتردد برفق في الفناء مثل عاشق يتسلل خلسة إلى منزل حبيبته غير عابئ بحقيقة أنها ستصدُّه ثانية اليوم أيضًا؛ تُكرر صدَّها له بإصرار، وبحنان صار دلالة على إخلاص لا يقل عن إخلاصه. لكنها هذا الصباح وهي تستمع للشخير الخفيف الصادر من سجاد ـ وتشعر به في كتفها ـ جعلها شيء ما في سكون المنزل ترفع ذراع زوجها عن خصرها وتنسحب من الفراش.

كان باب غرفة رضا مفتوحًا. لا غرابة في هذا؛ إذ كان الطقس حارًّا بما يكفي لتتفوق الحاجة إلى تقاطع تيارات الهواء على أي رغبة في الخصوصية لدى فتى في السابعة عشرة. مع ذلك عبرت الفناء بخطى سريعة.

علمت حين رأت الرسالة على وسادته، مكتوبة باليابانية، أن هناك شيئًا خطيرًا. ماذا يفعل ليضطر إلى مغادرة المنزل قبل الفجر مع علمه بأن والده لن يوافق عليه بالمرة فيترك الأمر لها لتجد طريقة تخبر بها سجادًا؟

قرأت الرسالة، وبعد ثوانٍ كانت تهز سجادًا لتوقظه، تترجم له من اليابانية من دون أن تفكر لحظة في تهدئة وقعه.

أرجوكما لا تقلقا عليَّ. سافرتُ أيامًا قليلة مع صديقي عبد الله. سنتجول في باكستان. ثمة كثير مما لم أره في هذا البلد، ولعبد الله أصدقاء في كل مكان سيعنون بنا. سآتي لكما أنتما الاثنين بهدايا. سرعان ما أصبح طالبًا جامعيًا جادًّا، ولن يكون هناك وقت لمثل هذه العطلات، لذلك لا تغضبا مني.

رضا

أثار دهشتها أن سجادًا بدا غير مهتم بالمرة. وإن بدا عليه شيء فأقل ما يقال إنه كان مستمتعًا.

«أنتِ لا تعلمين شيئًا مما يعنيه أن يكون المرء فتى في السابعة عشرة.» قال وهو يتثاءب ويمد يده إلى طابع الحسن أعلى وجنتها، ثم ينقر بلسانه بغيظ حين تراجعت إلى الخلف ولم تسمح له بلمسها. «أنت تعرف أنه لو أخبرنا قبل أن يسافر لسألْتُه مليون سؤال: أين تذهب؟ مع مَن؟ مَن عبد الله؟ ماذا يفعل؟ لماذا لا تدعوه للعشاء هنا أولًا؟ ما رقم هاتف عائلته؟ ما أرقام هواتف أصدقائه الذين ستقيمان عندهم؟ ماذا ستأخذ من ملابس؟...» نهض يجلس على الفراش وجذبها إليه. «وسط كل هذا، ألا ترين أننا سنكون وحدنا لأول مرة منذ سنوات؟» قبَّل طابع الحسن برقة. «سيكون الأمر مثل أيام زواجنا الأولى.»

قالت بلا رغبة وهي تحاول فك ذراعيه اللتين تلتفان حول خصرها: «أنت سخيف وعديم المسؤولية مثل ابنك، من عبد الله هذا؟»

«كان في المدرسة فتى يدعى عبد الله معه. أليس كذلك؟ بالتأكيد. عبد الله، كل واحد يعرف شخصًا يُدعَى عبد الله.»

كررت وهي تهز رأسها باشمئزاز: «كل واحد يعرف شخصًا يدعى

عبد الله، من يعرف أي صحبة سيكون ابنك في وسطها حيث يذهب، وكل ما يمكنك قوله إن كل واحد يعرف شخصًا يُدعى عبد الله.»

«ألا تثقين في ابنك؟»

«أثق في ابني. لكني لا أثق في عبد الله.»

«لكنك لا تعرفين مَن عبد الله.»

«بالضبط. لماذا إذن أثق فيه؟»

غطى سجاد أذنيه بيديه.

«ناجازاكي، دلهي، كراتشي. أينما تربيتن أيتها النساء ما إن تصرن أمهات تبدأن في استخدام المنطق نفسه. اسألي بعض أصدقائه القدامى في المدرسة إن كان هذا يريحك، اسألي بلالًا.» وهي تنهض واقفة بحمية قبض على ذراعها: «ليس الآن. إنه وقت الشروق. لا يصح إيقاظ الناس في مثل هذه الساعة.» لكنها أبعدته عنها بنظرة يعرف منها أنه لا جدوى من مناقشتها.

بعد ذلك بدقائق قليلة كانت تعبر المدخل الجانبي لبيت بلال، وتطرق على نافذة المطبخ حيث تعرف أن والدة بلال، «قيصرة»، هناك تعد لنفسها كوب شاي الصباح بعد صلاة الفجر. بمرور السنين امتدت الصداقة بين الابنين إلى الأُمَّين.

قالت «قيصرة» حين أخبرتها «هيروكو» عما أتى بها مبكرًا: «بلال ليس هنا، إنه يبيت في بيت الطلبة، يعمل في مشروع ما مع صديقين آخرين. أو على الأقل هذا ما أخبرني به. الله أعلم بما يفعلونه الآن بعد أن تخرجوا في المدرسة وظنوا أنهم رجال كبار». ناولت «هيروكو» كوب شاي. «لكنه لم يتحدث قطُّ عن شخص يُدعى عبد الله. ثم أنتِ تعرفين، لم يعد ولدانا يتقابلان كثيرًا.»

قالت «هيروكو»، وهي تضع كوب الشاي وتشغل نفسها بنزع الأوراق الذابلة من نبتة في إصيص زرع على نافذة المطبخ: «كان سيقول لنا إلى أين هو ذاهب لو لم يكن يعلم جيدًا أننا لن نوافق».

«يريدان أن يصيرا رجلين كبيرين بقدر ما نريد أن يظلا فتيين صغيرين، لكنهما حقًّا لا هذا ولا ذاك. ألا يبدو هذا أمرًا يتسم بالحكمة؟ هكذا قلتِ لي العام الماضي حين أخذ بلال السيارة من دون إذن. اسمعي، توقفي عن القلق، وعن مهاجمة نبتتي. سيعود سريعًا، وأينما كان لن يقوم بتصرف غبي. لقد ربيت فتى صالحًا.» خفضت صوتها «هناك كثير يقال عن آخرين. هل سمعتِ؟ ابن عفت طلق زوجته؟ أليس هذا رهيبًا؟»

«ليس بالنسبة إلى زوجته، أليس كذلك؟» قالت «هيروكو»، فمالت «قيصرة» برأسها إلى الخلف ضاحكة.

«أنتِ فقط من يمكنه قول هذا.»

سنواتٍ ظلت «هيروكو» و«قيصرة» تتبادلان دوري الأم القلقة والأم المواسية، وحينذاك، كعهدها دائمًا، كانت «هيروكو» تشعر باطمئنان لا بأس به وهي تغادر منزل صديقتها، التي كانت كلماتها الأخيرة تذكيرًا بأن رضا لن يفعل أبدًا أي شيء يرفضه والداه حقًّا.

لكن وهي تغادر من الباب الجانبي سمعتْ صوتًا يقول «مسز أشرف!» ورأت سلمى ابنة «قيصرة»، إحدى تلميذاتها السابقات، تتبعها إلى الشارع.

قالت سلمى بصوت خفيض للغاية: «ذهب إلى مكان ما قرب بشاور، وعبد الله هذا فتى أفغاني يعمل على شاحنة، قابله رضا في سوق السمك منذ أشهر قليلة، وذهب معه إلى أحد معسكرات تدريب المجاهدين».

قالت «هيروكو»: «كفى هراء، ماذا يريد رضا من معسكرات التدريب؟».

«رأيتُه بالأمس عند موقف الحافلة. وتحدثنا. أخبرني. قال إنهم في هذه المعسكرات يعلمون المرء خلال أسبوعين ما يعلمه الجيش في الكليات العسكرية خلال عامين. كان يصور الأمر كأنه عطلة.»

لم يخبرها رضا بأي شيء من هذا عند موقف الحافلة. كانا قد انقطعا عن الحديث أشهرًا حين اتصل بها ليلة سفره ليقول بانتصار: «شكرًا لنصيحتك. كنْتِ على حق: الناس تتقبلني بشكل أفضل حين لا أخبرهم بحقيقتي». كان من الجلي أن لديه سرًّا ما يتحرق لسانه ليبوح به، وفهمت ما إن بدأ يتكلم أنها الوحيدة في حياة رضا أشرف التي تسمع عن عبد الله الفتى الأفغاني الذي يتنافس مع رضا هزاره على طرد آخر سوفيتي من أفغانستان.

«هل يجب أن أنبهر بمهارتك في الكذب على البشتون الأغبياء؟» قالت حين وصل إلى الجزء الذي أقنع فيه عبد الله بالذهاب إلى معسكر التدريب. كان هذا الرد هو الذي جعله يحيد عن الحقيقة ويقول إنه سيذهب مع عبد الله إلى المعسكر «أسبوعين أو ما يزيد». حينها انبهرت، وأعلنت هذا حين أوصته بأن يهتم بنفسه ويتصل بها من هناك، وما كان رده سوى «ربما»، ووضع السماعة. خطر لها أن عليها أن تخبر أحدًا ما ـ بلالًا، والديها، والدَيْ رضا ـ لكن حينها سيسألونها لماذا اتصل بها هي من دون الآخرين. وكيف تجيب عن هذا السؤال؟ فقالت لنفسها إنه يخترع قصصًا، كما اخترع قصة هذا الرجل من نيويورك الذي سيقنع جامعة في أمريكا بدفع نفقات تعليمه.

حين فرغت الفتاة من إخبارها بكل ما قاله لم تتوقف «هيروكو» لتسألها لماذا يعلن رضا عن مخططاته لها، بل استدارت ناحية المنزل فورًا، حاولت أن تركض، حتى إنها رفعت ذراعيها في الهواء فعلًا، لكنها وجدت ساقيها

لا تعيان إيقاعًا أسرع من السير؛ ضغط سجاد فرامل السيارة وهو يتجه إلى عمله حين رأى زوجته تركض نحوه بحركة بطيئة، كأنها في مشهد تهكمي تركض فيه الزوجة إلى المنزل لتخبر زوجها بكارثة نزلت بابنهما.

حين أخبرته بما قالتْ سلمى كان أول ما انتابه الضحك. تلك القصص التي يخبرها الفتيان للفتيات لإبهارهن! وسلمى بالطبع من الفتيات التي يرغب الفتيان في إبهارهن. أكبر من رضا، لكن ولو. سيكون عليه أن يؤنب الفتى بذكاء حين يعود من حيث كان، بالطبع؛ غير مقبول أن يُقلق «هيروكو» إلى هذا الحد. لكنه أحس أنه كان على حق؛ فقد أخبر «هيروكو» منذ سنوات أن رضا يشبه أخاه إقبالًا في أكثر من ملمح، وهذا بالتأكيد يثبت صحة رؤيته. حينها اعترضت «هيروكو» بحدة ووصفته بأنه أب جاحد، رفضت أن تقبل بأنه أحب إقبالًا من دون غيره من أشقائه كلهم، على الرغم من علمه بأنه الأكثر عيوبًا من بين آل أشرف.

لكن في تلك اللحظة ـ وزوجته تجذبه من مؤخرة رأسه تصعقه فكرة أنها تهم بتقبيله هنا، في الشارع، على الملأ ـ التأم كل شيء في تفسير واحد، لكل ما حيَّره قليلًا في سلوك رضا في الأسابيع الأخيرة. اهتمامه بأفغانستان! لقد اشترى خريطة للبلد، أسئلته لسجاد عن الحرب هناك، انتباهه بشدة لكل خبر عنها، على الرغم من أنه قبل ذلك لم يكن يعنى بأي أحداث عامة سوى ما يتعلق بالكريكيت. لم تبدُ الحقيقة حتمية فحسب، بل بدت أيضًا بينة جدًّا حتى تعجب من أنه لم ينتبه من قبل لقيام ابنه بمخططات لن تسره سوى بتلك الطريقة التي تسر بها المخططات الغبية شابًّا له مزاج رضا.

رفع سجاد ذراع زوجته عن جمجمته برفق شديد.

قال: «سأجده».

«كيف؟ قد يكون في أي مكان.»

لمس سجاد طابع الحسن على وجنتها بوعد، وعاد إلى سيارته.

«سأذهب إلى سوق السمك. لا بد أن أحدهم هناك يعرف هذا الفتى. سأجد طريقة لأتصل بك من هناك. اعرفي أن كانت سلمى تعرف شيئًا آخر.»

راقبته «هيروكو» يقود السيارة مبتعدًا، ثم شعرت بيد على ذراعها.

قالت سلمى: «هذا كل ما أعرف، أنا آسفة. أشعر أنني مسؤولة عن هذا.»

كان من المستحيل أن تغضب من سلمى حين باحت لها بكل ما قالته لرضا في محادثتهما عن الزواج، مستحيل حتى الغضب من «قيصرة»، صديقتها العزيزة، التي منها بالتأكيد عرفت سلمى تلك التعليقات عن «تشوهات» رضا. لم يسع «هيروكو» سوى أن تفكر في شيء واحد: القنبلة. في السنين الأولى بعد ناجازاكي كانت ترى في أحلامها أنها تستيقظ لتجد وشومها زالت عن جلدها وصارت الطيور الآن بداخلها، تقطر بمناقيرها السم في نبض دمها، تدس أجنحتها المتفحمة بين أعضائها.

لكن بعد ذلك ماتت ابنتها، وتوقفت الأحلام. وقد حظيت الطيور بفريستها.

عادت مع ذلك وهي حامل في رضا، أحلام أكثر غضبًا، أكثر رعبًا من أي وقت مضى وكانت تستيقظ منها وهي تشعر برفرفة أجنحة في رحمها. لكن بعد ذلك وُلد رضا، بعشر أصابع في اليدين والقدمين، وكل أطرافه سليمة وتعمل بكفاءة، وظنت أنه نجا، فرغت الطيور من أمرها معها.

لم تتخيل أن الطيور يمكن أن تحلق إلى الخارج وتدخل ذهن هذه الفتاة، ومن ذهنها إلى قلب رضا. لم تفهم قط حاجة ابنها إلى الانتماء، الغضب الذي

يلوي وجهه به للتعليقات حول مظهره الأجنبي، كانت تعتبر هذا الغضب طيبة زائدة قليلًا من فتى يتوق إلى التهام لغات قبائل مختلفة، أمم مختلفة، لكنها تعرف جيدًا وصمة أن تُعرَّف بالقنبلة. هبياكوشا. ظلت هي الكلمة الأبغض من بين مترادفاتها. والأقوى. صعدت هربًا من تلك الكلمة على متن سفينة متجهة إلى الهند. الهند! لتدخل بيت زوجين لم تقابلهما من قبل قط، عالمًا لم تكن تعرف عنه شيئًا.

صرفت «هيروكو» ذهنها عن كلام سلمى، مهما يكن ما تقول ـ لماذا لا تتوقف الفتاة السخيفة عن الكلام وفقط ـ وسارت تعبر الشارع إلى منزلها. كان ابنها مثلها، عازمًا على الهرب حتى لم يبدُ له شيء مستحيلًا سوى البقاء محلك سر. دفعت باب بيتها ودخلت الردهة وتوقفت عند عتبة الفناء. كانت ظلال شجرة النيم تمامًا؛ حيث توقعت أن تجدها في هذا الوقت من النهار. أخبرتها أحواض الزهور المحيطة بالشجرة أن سجادًا أزال بقايا زهور الربيع إعدادًا لزرع زهور «الزينيا» ـ أي أن الصيف بدأ حقًّا. وستجلب «الزينيا» الفراشات. عند نقطة ما في مرور العقود استقرت في هذا المكان، تعلمت أن تتوقع ـ لا أن تكتفي بالاستجابة فقط ـ أيامها المطولة وظلالها المتحولة.

سارت بهدوء في الفناء الحار إلى غرفة رضا ووضعت رأسها على وسادته. كم مرة استمع رضا إلى قصة المغامرة الكبرى لأمه ـ من طوكيو إلى بومباي! ومن بومباي ـ إلى دلهي! لم تخبره قط بما كانت عليه تلك الرحلة البحرية من بؤس، أرادت دائمًا، قبل كل شيء، أن تبدو له كمن لا يهاب شيئًا. لا تهاب شيئًا وقابلة للتحول، قادرة على الانسلال من جلد إلى جلد، من مدينة إلى مدينة. لماذا تخبره بدفعة انفجار القنبلة التي ألقت بها في عالم لم يكن به شيء مألوف لها، حين صارت ناجازاكي نفسها أكثر غُربة من دلهي؟ لا شيء في العالم أبعد عن الفهم من أبيها وهو يحتضر.

لكنها أرادت دائمًا ألا يعرف رضا سوى أقل ما يمكن عن هذا كله. هكذا لم تكن قصة شباب هيروكو أشرف عن القنبلة، بل عن رحلة بحرية عقبها.

سألها رضا ذات مرة عند نقطة وصولها إلى الهند: «ألم تخافي؟»

ابتسمت وقالت: «لا»، ثم ضحكت لتعبير الدهشة على وجه ابنها. كانت تلك الحقيقة فقط. لم تكن خائفة. لكن فقط لأنها لم تسمح لنفسها بالتفكير في المرحلة التالية من الرحلة.

والآن كان ابنها يثبت أنه ابنها، ولا شيء يمنعها من رؤية ما يحدث في المرحلة التالية، والتالية، والتالية.

رقدت وهي تحتضن الوسادة بين ذراعيها إلى أن غفت. رأت في حلمها رضا يتحدث مع فتى أفغاني، لكن الفتى، على الرغم من أنه أفغاني، كان أيضًا تلميذها السابق، «جوزيف»، طيار «الكاميكيز». «لعلني لن ألتحق بقوات الطيران»، قال «جوزيف» وكان الولد الأفغاني أيضًا. قال رضا بسخرية: «خائف أيها الصغير؟» نهض «جوزيف» واقفًا، فبدا أطول مما كان عليه، وبسط جناحيه الأسودين، وحين فتح فمه تساقطت منه أزهار كرز، مجففة وغطت تربة أفغانستان الجافة.

٢٤

كان المعسكر على بعد أكثر من ساعة بالسيارة من حيث كانا يقفان، على مرتفع جبلي لا يمكن الوصول إليه إلا عبر طريق قذر يتسلل من باكستان إلى أفغانستان وبالعكس. جعلته نقطة الدخول الوحيدة إليه سهل الحراسة ضد مثل تلك الإزعاجات التي وقعت في المعسكر الذي تدرب فيه الشقيق الأكبر لعبد الله، حين أخذ زمرة من رجال القبائل طريقًا مختصرًا فعثروا على المعسكر، مما أوجب نقله إلى موقع آخر في اليوم التالي.

أشار سائق السيارة الجيب ـ رجل وجهه كله لحية وأنف فقط ـ نحو ممر ضيق يمتد متعرِّجًا على طول حافة الجبل، وقال إن أحد معسكرات تدريب العرب كان هناك. لفظ كلمة «عرب» كما لو كانت لعنة.

التفت إلى رضا بابتسامة طفولية لم تكن متوقعة بالمرة: «لكن لا تقلق، حيث نحن ذاهبان، كلهم بشتون. قد يعاملونك بشدة قليلًا في البداية؛ ثمة رجال هناك لا يرضون عن دخول الهزاره معسكرنا. لكن لا تقلق؛ أنت أفغاني ومسلم وصديق لعبد الله، ستكسب ثقتهم.» لطم خد عبد الله الذي ابتسم له في المقابل، وفهم رضا حينها فقط أن هذا الرجل شقيق عبد الله.

سمع رضا صوتًا يأتي من المعسكر قبل أن يراه. ظن أول الأمر أنه صوت البحر، خطرت له كتب الجغرافيا بصور عظام السمك المتحجرة التي اكتشفت على القمم الجليدية، لكن حينها صار الضجيج أعلى واكتشف أنه قذف ناري.

«كيف يمكنكم الإبقاء على هذا الموقع سريًا؟» صاح ليعلو صوته على الضجة.

رفع إسماعيل شقيق عبد الله كتفه.

«الأصداء تجعل من المستحيل تحديد مصدر الصوت.» أوقف السيارة الجيب وأشار إلى درب متعرج: «تتبعا هذا إلى أسفل. سأعود لاحقًا». مد يده إلى المقعد الخلفي والتقط قطعتي ملابس باللونين الرمادي والبني وألقى بواحدة لعبد الله وأخرى لرضا: «هذا نصف معداتكما الأساسية. النصف الآخر ـ سلاحاكما ـ ستأخذانهما حين تصلان هناك».

«لماذا هذه؟» قال رضا لعبد الله والجيب تهبط في مسارها بسرعة شديدة. أمسك قطعة الملابس المربعة من طرفها فانبسطت إلى مستطيل بطول رجل.

أجاب عبد الله: «لكل شيء، ألا يرتدي الهزاره شالات كشمير؟» سار متجهًا للدرب الجبلي يتعجل رضا بحركة سريعة من يده. «إنها بطانيتك لتتغطى بها، شالك ليدفئك، ساترك في الصحراء والجبل، وضمادتك إن أصبت، وعصابتك لتعصب بها عيني من لا تثق بهم، سدادة نزيفك، سجادة صلاتك. إن سقطت صريعًا في معركة ستدفن في شالك؛ إذ لا يحتاج المجاهدون إلى غُسل قبل الدفن؛ لأن الجنة مضمونة بالفعل.» ابتسم لرضا من أعلى كتفه. «لكن الجنة تنتظرنا. لسنا في حاجة لنسرع إليها، أخي، لذلك لا تقترب هكذا من حافة الدرب.»

قفز رضا إلى الخلف وأسند بظهره على الجبل. لم ينتبه كيف مال بشدة وهو يراقب محمومًا المشهد على الهضبة أسفلهما؛ تجمعات الخيام، قطعان الماشية غير المتوقعة، الرجال الذين يشع منهم الضوء. وجد نفسه يفكر في أن مخلوقات هذا الكوكب لا بد نصف ملائكيين قبل أن تكشف له نظرة أقرب أن كل واحد منهم يحمل «كلاشنكوف» يعكس أشعة الشمس.

ظن رضا حين وصلا إلى الهضبة ـ حارقة وساكنة كموقد ـ أنه سيغيب عن الوعي. لم يكن إنهاك السير في الجبل وحرقة الشمس فحسب ما جعلا شفتيه تبيضان ودماغه يدور. بل كيف يهرب من مثل هذا المكان؟ حتى وإن عاد يصعد الدرب من دون أن يلحظه أحد، إلى أين يذهب من هناك؟ فيمَ يفكر؟ لقد اعتمد إلى حد بعيد على كذبة استمرت شهورًا حتى ظن أن بإمكانه السيطرة على كل شيء، وفجأة يلفح غروره وغباؤه وجهه بنفحات حارقة. جلس ـ منهارًا حقًا ـ على صخرة من دون أن ينتبه كثيرًا إلى الرجال الذين جاءوا يحيون عبد الله وينظرون إليه بتساؤل.

كان يريد والديه. أراد فراشه، وألفة الشوارع التي تربى فيها. لسبب لا يمكن شرحه، أراد مانجو.

نخسه أحد الرجال بقدمه.

«هل تتمرن على الاندماج في المشهد، صخرتي؟» قال بنبرة لا تخلو من عطف، لاهيًا فقط.

رفع رضا عينيه إلى عيني الرجل، عينين خضراوين تتفحصانه باهتمام، واندفعت إلى ذهنه كل القصص التي سمعها في حي المهاجرين عن ميل الرجال الأفغان إلى الفتية ذوي الملامح الرقيقة، فتجمد أكثر.

قال الرجل وهو يلتفت إلى عبد الله: «ألا يتحدث الباشتو؟».

ضرب عبد الله رضا على مؤخرة رأسه: «الباشتو هي اللغة الأفغانية الوحيدة التي يتحدثها». ثم قص حكاية رضا هزاره، واليمين التي أقسمها؛ ليضع القتال بينه وبين لغته الأم. ورضا يصغي إليه حاول أن يتذكر كيف يصير هزاره؛ تصور نفسه يحمل على كتفه «كلاشنكوف»، لكن بين هؤلاء الرجال الذين يألفون «الكلاشنكوف» بما يكفي، رأى موقفه على حقيقته.

انحنى عبد الله. همس ويده تقبض على كتف رضا. «إن بكيت سأقتلك.»

رفع رضا بصره إلى عبد الله، إلى الرجل ذي العينين الخضراوين، إلى الجبال والسماء. كان كل شيء يتحول. اتكأ بيده على الأرض، شعر بالأطراف الحادة للصخور تمزق جلده وهو يمدد جسده، ويتوسد برأسه الصخرة التي كان يجلس عليها، شحبتْ حواف رؤيته، ولم يمنعه من التقيؤ سوى تسارع أنفاسه، لم يعرف قط مثل هذا الحر، وهذا الرعب.

كانت الأصوات حوله تأتي وتذهب، متقطعة. لعله لم يكن هنا، بل في غرفته بالمنزل ومروحة السقف تدور وتهتز في كل اتجاهات دورانها. يقطع دورانها تيار الصوت الآتي من الفناء، فيفقد مقطعًا بعد كل ثلاثة مقاطع تقريبًا من محادثة والديه.

شعر برذاذ ماء دافئ على وجهه ورمشت عيناه تنفتحان ليرى صاحب العينين الخضراوين يصب شيئًا من زجاجة في راحة يده، وينثره برفق لتصل قطرات الماء إلى رضا. ركله عبد الله مرة أخرى، وقال صاحب العينين الخضراوين شيئًا لم يفهمه لأن مروحة السقف دارت ثانيةً. وانزلق من رؤيته كل شيء ما عدا تلك العينين الخضراوين.

الخال «هاري»، فكر رضا، ثم أُغمِضت العينان الخضراوان وسادت الظلمة.

وجد حين استعاد وعيه أنهم نقلوه؛ كان شاله، وسادة والجبل نفسه يظلله، وثمة زجاجة ماء بجواره. شرب بنهم وهو يسند على مرفق واحد قبل أن يرقد ويسقط في النوم مجدَّدًا، تنحَّى كل انفعال جانبًا بفعل الإرهاق، استعاد جسده أخيرًا عدَّاد الأيام التي نام فيها في كابينة الشاحنة الضيقة، أو على فراش من أسلحة «الكلاشنكوف» في الحاوية، توقظه فرملة حادة للسيارة، أو آلام التواء رقبته تمامًا عن النقطة التي تسبق الوصول إلى الأحلام.

بعد ذلك بوقت طويل، كان صندل يدق ضلوعه. يبدو أن عبد الله قرر أن الطريقة الوحيدة ليبعد عن نفسه عار هذا المخلوق الواهن هي أن يعامل رضا كما لو كان حيوانًا.

استيقظ رضا من الركلة الأولى لكنه أبقى عينيه مغمضتين، وحين جاءت الركلة الثانية قبضت يده على قدم عبد الله، وأسقط الفتى الصغير على الأرض وهو يلوي قدمه. هب عبد الله يقف على قدميه، لكن بعد فوات الأوان؛ إذ كان ثلاثة مهاجرين يجلسون بالجوار يلوكون تبغ الـ«نسوار» ليدخلوا حالة ثُمالة سعيدة، وكانوا بالفعل يضحكون عليه.

قال أحد الرجال: «أعطاك صاحبك درسًا إضافيًّا اليوم، لا تفترض أبدًا أن شخصًا يعجز عن مصارعتك لمجرد أنه مغمض العينين».

سار عبد الله مبتعدًا من دون أن يعلق، وحينها كان ثمة شيء آخر غير الإرهاق جعل رضا يتقوقع على نفسه عائدًا إلى أمان النوم مجددًا.

في المرة التالية، أيقظه الرجل ذو العينين الخضراوين، هزه من كتفيه مشيرًا إلى الشمس الغاربة. نهض رضا جالسًا، لا يفهم.

قال الرجل: «نمتَ عن فرضي صلاة بالفعل، تعال. قف، قد لا تكون بشتونيًّا، لكنك تبقى رجلًا. يكفي هذا».

حملته ساقاه بجهد لم يكن هيِّنًا مع كل هذا الثقل الذي يشعر به في أطرافه وقلبه. راقب الرجل يقبض بيديه حفنة تراب ويمسح بها على يديه وذراعيه قبل أن يمسح بها وجهه. تمويه. فكر رضا.

قال الرجل وهو يمسح رأسه بيديه وأدرك رضا أنه يتيمم: «نحن كالمسلمين الأوائل في صحراء الجزيرة العربية».

والرجل يومئ له، حاكاه رضا محاولًا ألا يفكر في والدته التي كانت تضع له جانبًا كل يوم كومًا من الرماد حين كان يعمل في مصنع الصابون. لم يكن يدرك، حتى ذاك الوقت، أنها إشارة حب. لا. لا يستطيع التفكير في «هيروكو». أو في سجاد. إذا فكر فيهما فسيجتاحه من الداخل شعور بالوحدة أقوى من الشعور بالرعب.

حين انتهى رضا من مسح قدميه، أشار إليه صاحب العينين الخضراوين ناحية المصلَّى - بجوار شجرة جرداء لها فروع بلون شالات الرجال - حيث كان كل المقيمين في المعسكر يسوُّون صفوفهم، تتدلى الأسلحة من فروع الشجرة كثمار فاكهة معدنية. وجد رضا أغلبهم أصغر منه، بعضهم أصغر من عبد الله حتى. كان غروب الشمس يكلل حواف العالم الحادة، وكان كل شيء متوهِّجًا أو مظللًا. صار الجو ألطف، وأكثر هدوءًا. فجأة اكتشف رضا جمال اللحظة، وبسط شاله على الأرض ووقف عليه بخشوع حقيقي لم يشعر به من قبل. استدار عبد الله لينظر إليه وأومأ الفتيان برأسيهما وابتسم كل منهما للآخر بخجل كما لو كانا في طريقهما لمقابلة عروس المستقبل، وقد أدرك كل منهما في عيني الآخر شيئًا ما في مشاعره - تداخل التهليل مع الخشوع. استيقظ رضا هزاره، نظر إلى العالم حوله ووجده رائعًا.

ردد الإمام «بسم الله» بصوت سرى عبر الجبال. حتى السماء هنا كانت

مختلفة عن أي شيء رآه رضا من قبل، ببقع من درجات غير عادية من البنفسجي.

شعر بكلمات الصلاة تأتي إلى فمه من ينبوع إيمان صادق. كان يشعر بهذا الأمر من حين إلى آخر، لكن ليس بهذه الحدة أبدًا. في أحيان كثيرة كان ينهمك في الصلاة بذهنه إذ يردد كلمات حفظها بقليل من معنى التحق بها. لكنه في تلك اللحظة، مع أنه ما زال لا يعرف الترجمة الحرفية لما كان يردده، لكنه وجد معنى في كل مقطع يتردد بالعربية. فجال بخاطره: «يا رب يا الله أعنِّي على الهرب من هذا المكان، استجب لي، استجب لي».

وبعدها: «وبارك لهؤلاء الرجال».

بعد ختام الصلاة جاءه عبد الله وعلق ذراعه على كتفيه. قال: «أغضبْتَني، ربما قلْتُ شيئًا لم يكن ينبغي أن أقوله».

قال رضا: «لم تقل شيئًا، ركلْتَ فقط». وخبط بأصابع قدمه كاحل عبد الله في إشارة إلى السماح.

«لا. ليس لك، بل له.» أشار نحو رجل طويل جدًّا كان ينظر إلى رضا عاقدًا ذراعيه أمام صدره. «إنه القائد. عليك أن تذهب وتتحدث معه.»

«عن ماذا؟»

لكن عبد الله كان يسير مبتعدًا من دون أن ينظر إلى رضا.

«فقط اذهب وتحدث معه.»

هز القائد رأسه بحدة ولم يجد رضا أمامه سوى أن يذهب إليه.

لم يقل القائد شيئًا، بل قبض على عنقه فقط ودفعه داخل خيمة. مرة أخرى

تذكر رضا كل الحكايات عن البشتون وميولهم، ثم وجد أن ثمة رجلًا آخر في الخيمة، ليس بشتونيًا بالمرة، رجلًا ضئيلًا له بشرة أكثر سمارًا من أي شخص آخر في المعسكر وشارب منمق وكان يمسح يده بتركيز بمنديل وردي.

«هذا هو؟» قال بلهجة بشتونية صريحة للقائد الذي أومأ له وخرج من الخيمة تاركًا رضا وحده مع الرجل الآخر.

«اسمك؟»

«رضا.»

«اسم والدك؟»

لم يذكر رضا هزاره اسم والده سنوات. كان عليه ألا يتفوه به إلى أن يطرد آخر سوفيتي من أفغانستان.

قال: «سجاد علي أشرف».

«هل هو هزاره؟»

«لا. عائلته من دلهي. ووالدتي يابانية.»

رفع الرجل حاجبًا واستند في جلسته.

سأل بالأردية: «اسم الأمريكي الذي كنت معه في سوق السمك؟».

«هاري برتون.»

هز الرجل رأسه باشمئزاز.

قال: «كيف يمكن أن نعمل معًا بهذه الثقة الضعيفة؟».

«أنا أثق بك.» اندفع رضا يقول من دون تفكير فضحك الرجل بضيق.

«من أنت؟ فيمَ يعنيني إن كنت تثق بي أم لا؟ «هاري برتون»، «هاري برتون».» وهز رأسه مجدِّدًا. «لم أقابله قط، لكني أعرف ما حدث. هل تعرف ما حدث؟ حين صبغ شعره وتلفح بعباءة وظن أنه بذلك يمكنه الدخول إلى أحد معسكراتنا من دون أن نتلقى كلمة عن أن المخابرات الأمريكية ذهبت إلى حيث تحظر عليها حكومتها الذهاب.»

الخال «هاري»؟

«انقل له نصيحتي. قل له إن المخابرات الأمريكية في حاجة إلى إعطاء عملائها دروسًا في المشي. يمشي الأمريكيون على نحو مختلف عن الآخرين جميعًا. أستطيع أن أميز الواحد منهم حتى ولو كان في أبعد نقطة بالأفق.» رفع منديله وخطا رضا تلقائيًّا إلى الأمام وهو يمد يده ليأخذه منه. بدا أن هذا سرَّ الرجل. «لماذا أرسلوك إذن؟ لا تبدو كفؤًا بالمرة.»

«لم يرسلني أحد.»

قال الرجل بلهجة معتدلة: «لن يزيد كذبك الأمر إلا سوءًا، فقد اعترفت بالفعل أنك تعمل لصالح المخابرات الأمريكية. الآن ما جدوى إنكار أنهم أرسلوك إلى هنا؟».

«سأرحل إن شئت»، قال رضا، ثم ود أن يضرب نفسه على غباء ما قاله.

بدا ضحك الرجل أكثر صدقًا هذه المرة.

«نعم. أشاء. عد إلى مستر «برتون» الذي تتبعه وقل له إننا ليس بمقدورنا تكبد عناء التجسس أحدنا على الآخر. يكفي أن عليَّ قضاء وقتي كله في التوسط بين القادة والسياسيين الأفغان الذين تغطي كراهيتهم بعضهم بعضًا كراهيتهم للسوفييت، وتغطي كراهيتهم لإخواننا العرب ـ الذين جاءوا

للجهاد معنا ـ كراهيتهم بعضهم بعضًا. هذا كثير جدًّا. معدتي تؤلمني منذ شهور بسبب هذا.»

قال رضا: «أنا آسف حقًّا».

هذه المرة كانت ضحكة الرجل تنبض بالفكاهة بلا شك.

«لا أعرف ماذا تظن المخابرات الأمريكية نفسها فاعلة مع شخص مثلك. هل لديك نقود؟»

مد رضا يده في جيب شالواره وسحب قبضة من روبيات ورقية.

«تفضل، سيدي.»

قال الرجل مبتسمًا: «الآن عرفت أنك تمثل دور الغبي فقط. ستأتي معي حالًا. سأقلك إلى محطة قطار، سيكفي هذا لشراء تذكرة قطار إلى كراتشي. وإن فكرت، رضا علي أشرف، في محاولة فعل مثل هذا ثانية، فلن تجدني متسامحًا هكذا. قل لـ«هاري برتون» إن ثمة حدودًا لما يمكن أن تتحمله أي صداقة.»

قال رضا: «نعم سيدي، سأفعل». وظل وهو يتبع الرجل خارجًا من الخيمة، ثم صعودًا في الدرب الجبلي إلى السيارة الجيب التي ستحمله إلى قطار متجه إلى البيت، يشخص ببصره إلى السماء، يغلبه الشكر على نعمة الدعوة المستجابة التي لا نظير لها.

لكنه لم يكد يصل إلى منتصف الدرب الصاعد حين سمع شخصًا يصيح باسمه ورأى عبد الله يركض نحوه.

قال: «أين تذهب؟».

التفت الرجل إلى عبد الله قبل أن يجيبه رضا ورفع يدًا آمرة: «إنه آتٍ معي، عد أنت إلى أسفل».

لكن عبد الله لم يتحرك.

«هل هذا بسبب ما قلته؟» اتسعت عيناه رعبًا ومد يده يشد رضا من كمه. «لا. لم أقصد هذا. إنه ليس مع المخابرات الأمريكية. لقد جاء ليقاتل معنا. إنه أفغاني، إنه يريد أن يكون مجاهدًا. هذا كل ما يريده. كنت غاضبًا منه لذلك قلت عنه بعض الأكاذيب.»

«عد إلى أسفل»، كرر الرجل بنبرة جعلت رضا يرتعش. لكن عبد الله لم يتحرك أيضًا.

«لا يمكنك طرده، جاء ليقاتل معنا. هذا هو السبب الوحيد لوجوده هنا. أنا كذبت. ها أنا أخبرك، أنا كذبت.»

نظر الرجل إلى رضا بهدوء.

قال بلهجة معتدلة: «تحرك».

حرر رضا كمه من يد عبد الله برفق، عاجزًا عن حمل نفسه على النظر إلى الفتى الصغير الذي كانت تسيل على خديه دموع ثخينة.

همس عبد الله: «أنا آسف. رضا هزاره. أخي...».

هز رضا رأسه وسار مبتعدًا، تكثِّف كل خطوة يبعدها عن عبد الله الشعور المادي بالحزن والوحدة.

قال الرجل وهو يدفع رضا أمامه ناحية السيارة الجيب: «مجموعة بندقات حقًّا».

٢٥

عند غروب شمس اليوم الرابع لغياب رضا من كراتشي، كان سجاد علي أشرف قد سلم أمره لله في ضياع يوم آخر في الذهاب والعودة بين الميناء وسوق السمك، يسأل الصيادين وسائقي الشاحنات إن كانوا يعلمون أي شيء عن عبد الله، الفتى الأفغاني. لم يكن قد حقق شيئًا إلا في يومه الثاني حين وجد في السوق سائق شاحنة يذكر الفتى الأفغاني عبد الله، وقال إنه يعمل مع بشتوني آخر؛ تذكرهما سجاد بوهن، الرجل والفتى اللذين كان رضا يتحدث معهما حين خرج هو و«هاري» من سوق السمك منذ كل تلك الشهور، لكن سائق الشاحنة لم يكن يعرف طريقًا لعبد الله أو البشتوني الآخر. «أراهما من حين لآخر هنا أو عند الرصيف الغربي. سيظهران على كل حال.»

قالت «هيروكو» ذاك المساء حين سلم سجاد أمره في النهاية وعاد إلى المنزل: «لن يظهر، لقد ذهب إلى معسكر بالقرب من حدود أفغانستان. ما الذي تأمل إيجاده في سوق السمك، سجاد؟».

«ربما يكون صديقه أو البشتوني الآخر هناك. قد يكونان على علم بشيء آخر. ماذا تريدين أن أفعل يا «هيروكو»؟ أبقى في المنزل ألعب الورق وابني يتخيل نفسه في فيلم وجميع من حوله يحملون «إيه كي ٤٧» حقيقية

والله وحده يعلم ماذا يحدث غير هذا؟ ماذا يحدث حين يعرفون أنه يكذب؟ هزاره! فيما كان... هل هو مجنون؟ هل يتعاطى مخدرات؟ هؤلاء الأفغان ومخدراتهم. ها أنا أقول لكِ لقد جعله عبد الله يتعاطى مخدرات.»

هكذا، كان سجاد يذهب كل يوم قبل الفجر إلى الساحل يترقب وصول السائق البشتوني. لا يعرف حتى هل يتعرف عليه مرة أخرى اعتمادًا على هذه اللمحة وأوصاف سائقي الشاحنات الآخرين، لكنه يعلم أنه لن يمكنه الذهاب إلى العمل كل صباح كما لو أن كل شيء على ما يرام. كان يظل طوال النهار وجزءًا من المساء يقطع المسافة بين سوق السمك والرصيف الغربي، سيارته محاصرة بين المحطتين بأبناء الشوارع الذين كان يدفع لهم يوميًّا مبلغًا من المال ليرصدوا البشتوني نيابة عنه، مع وعد بمبلغ أكبر لمن يجد الرجل أولًا، ما لم يعد عليه إلا بعدة مشاهدات خطأ يوميًّا ولا شيء وراءها. كان يعرف أنه لم يعد باستطاعته مواصلة هذا. تعاطف معه رئيس مصنع الصابون، أحد أقرباء كمران علي الذي هرب هو و«هيروكو» من «مَسوري» في سيارته منذ أزمنة، حين اتصل سجاد ليفسر حاجته إلى عطلة عن العمل بعض الوقت، لكن التعاطف لا يعني سوى عدة أيام بعيدًا عن المكتب.

لكن في وقت متأخر من اليوم الرابع - ورضا ينظر إلى نافذة القطار القذرة التي تعكس وجهًا نظر إليه بكراهية صادقة - كان سجاد في طريقه سيرًا إلى الرصيف الغربي. كانت سفن من كل الأحجام ترسو في الميناء، تفوق رائحة الزيت النفاذة رائحة أي شيء آخر يمكن للبحر أن يقذف به. أذرع الرافعات العملاقة المرتاحة تحتضن الرصيف من أعلى بتوعد. لم يكن سجاد قد حقق شيئًا سوى - أخيرًا، أخيرًا - أنه رأى شخصًا يعرفه. كان شير محمد، سائق الريكشو الخاصة بـ«هاري» يهز رأسه لرجل نحيل وقوي يلوح بيده بغضب.

قضى سجاد أربعة أيام يدعو. لم يكن الدين في حياته سوى خلفية ثابتة من الهمهمة، لكنه اكتشف أن الدعاء شيء ما تقوم به، طقس ما يقضي فيه وقته وهو يقود من هنا إلى هناك، يرى طفلًا بعد آخر من أبناء الشوارع يهز رأسه أو تهز رأسها أن لا، لا، ربما نعم، لكن لا حقًّا، وينتظر، فقط ينتظر أن تكشف الاستجابة عن نفسها. كانت شفتاه تتحركان بلا توقف وجسده يهتز إلى الأمام وهو يردد «آية الكرسي»، بعد أن اكتشف أنه لم يرث شيئًا من موهبة والدته في إيجاد راحتها في الحديث مع الله كما لو أنه معشوق متمنِّع. لم يستطع الصياح بألفة، وود، في العلي القدير، فدعاه بلغة لا يفهمها، وشعر بصواب عدم الفهم حين تتعامل مع قوة لم تُبدِ رحمة حين قُتل «التمش»، أو حين ذُبحت زوجة إقبال وأطفاله، أو حين كان في القنصلية في إسطنبول، ومع ذلك وهبتْه الرحمة أن ابنًا لم يكن يعرف أنه في حاجة شديدة إليه حتى... حتى الآن إن كان أمينًا. لقد أحب رضا منذ أن حمله بين يديه رضيعًا يتلوى، لكن سرعان أيضًا ما عده من المسلمات كما كان يعد نِعَم حياته دائمًا، باستثناء «هيروكو».

لكنه وذهنه يميز شبهًا مألوفًا في هيئة شير محمد وتذكر أن سائق الريكشو كان يقف خارج سوق السمك حين التقى رضا أول مرة بالفتى الأفغاني، اجتاحه شعور طاغٍ بالامتنان، حتى إنه ترنح متراجعًا بقوة هذا الشعور. ظل ثواني قليلة ليس بوسعه سوى التحديق في شير محمد وهو يفكر أنه لا يمكن أن تتخذ الاستجابة للدعاء شكلًا غير متوقع بالمرة أكثر من هذا الرجل الضئيل الذي لم يتبقَّ لديه سوى أسنان قليلة متناثرة في لثته، وشحمة أذن في حالة يُرثَى لها. كان لديه يقين تام أن شير محمد سيساعده في العثور على رضا، كان من المستحيل تفسير وجوده هنا بأي شيء آخر سوى التوفيق الإلهي.

كان سيسجد شكرًا لله، لكن كان على الأرض بركة من الماء المخلوط

بالزيت وسوف تلومه «هيروكو» بهذا الشأن إن عاد إلى المنزل ببنطلون مبقَّع، لذلك ترك نفسه وهلة يراقب توهج بؤبؤ العين الذي تعكسه الشمس وهي تحدق فيه من بقعة الزيت الداكنة. عاهد نفسه أن يكون أبًا أفضل بعد هذا. سيوافق على كل ما يريد فعله في حياته مهما يكن.

كان على يقين من أن اللوم فيما حدث لا يقع إلا عليه هو نفسه. بالكاد تحدثت «هيروكو» خلال الأيام القليلة الماضية ـ رفضت رؤية صديقاتها اللائي جئن لزيارتها ـ وحين كانت تتفوه بشيء كان لتسأل: «ماذا فعلنا ليرتكب خطأ بهذا السوء؟» لم تكن تقصد كيف يفعل شيئًا بهذا الغباء فقط، بل أيضًا، كيف أقنع فتى أفغانيًّا بالذهاب إلى أحد هذه المعسكرات فقط لأنه يراها مناسبة لمغامرته الخاصة. لم يستطع سجاد حمل نفسه على الانشغال بالفتى الأفغاني. كان فقط يريد عودة ابنه. يريد فرصة أخرى ليكون أبًا مختلفًا. كانت «هيروكو» قد فعلت كل ما يمكن لأم أن تفعله، لم يكن عليها من لوم فيما حدث قط. كان أي عيب في رضا إشارة لعيوبه هو كأب. كلية الحقوق! يبدو الأمر غير مناسب الآن. فيمَ يهم إن نجح الولد في امتحان أم لا؟ صار محاميًا أم لا؟ ليكن هنا سالمًا. ولا يهم أي شيء آخر.

تدفقت أقواس قزح على حافة البركة الصغيرة. تمنى لو استطاع حملها في راحته لـ«هيروكو». سيدخل إلى الفناء ويقذف بأقواس قزح إلى أعلى؛ لتتعلق بأطراف شجرة النيم، وينادي «هيروكو»؛ لتخرج وتجلس تحت القبة الملونة وهو يحكي لها كيف وجد ابنهما عبر الرجل ذي شحمة الأذن الممزقة.

اعتاد خلال أيامهما الأولى في كراتشي معًا، في مخيم اللاجئين، أن يستيقظ كل صباح وهو يفكر: هل ستقرر اليوم العودة إلى «آل برتون» بأرفف كتبهم الواسعة ووسائد الريش والحدائق؟ فكان يبحث كل يوم عن شيء جميل في وطنهما الجديد الغريب يمكن أن يشير لها عليه ويقول، انظري،

ثمة روعة هنا، حقًا. أتى يومًا بصدفة بحرية يهدر المحيط من وراء شفاهها المزمومة، ويومًا آخر بزهرة صبار تتفتح، ويومًا آخر بشاعر من ديلي يكتب أشعاره على أوراق الشجر لأنه لا يستطيع توفير ثمن الورق (أعطى سجادًا حمل ذراع من أوراق الشجر، فلصقها سجاد فورًا على خيمتهما من الداخل، أعلى فراش النوم مباشرةً). تعلم في بحثه اليائس، ليجعل من كراتشي مكانًا يمكن لـ«هيروكو» أن تتخيل حياتها فيه، أن يتتبع الأسباب ليقع في غرام المدينة، وأدرك مؤخرًا فقط أنها كانت تعرف ما يفعل وتركته يفعله لعلمها أنه في حاجة لإيجاد السبل لتخيل حياة في مكان كهذا بعيدًا للغاية في معماره وهوائه وإيقاع حياته عن المدينة التي أراد أن يعيش ويموت فيها.

لمس سجاد قلبه سريعًا، وخطا فوق البركة يصيح «شير محمد!» وأسرع خطاه. «شير محمد!»

كان سائق الريكشو منهمكًا في جدال مع أحد قباطنة السفن المسؤولين عن نقل الأسلحة إلى كراتشي قبل نقلها إلى المجاهدين. كانت المخابرات الباكستانية تقوم بالتحقيق مع القبطان للوقوف على سبب عدم تطابق شحناته مع قائمة موجودات المخابرات الأمريكية، على الرغم من تتبعه مسارًا يبدو أنهم تقبلوه؛ لأنهم يعلمون بالفعل أن الفارق يحدث في مرحلة سابقة من خط الإمداد، كانت المواجهة قد جعلت القبطان ينتفض غضبًا. فانقلب الآن على المسؤول عن هذا الفارق ـ شير محمد ـ أحد عملاء المخابرات الأمريكية المحليين الذي استغل من قبل فرصة توصيله إلى القبطان لموعد مع المخابرات الأمريكية؛ ليقنعه أن لا أحد سيلاحظ إن فُقدت بعض قطع الأسلحة.

«لا تجزع. إن لم تصدقك المخابرات الباكستانية سيهشمون لك أصابعك بمطرقة على الفور»، قال شير محمد إذ توقف الرجل؛ ليسحب نفسًا في

الهواء: «هل هذه محاولة للحصول على أموال زيادة مني؟ لا تقمْ بتلك الحيل».

حينها سمع اسمه يتردد في المكان على الرغم من أنه لم يعلن عن اسمه هنا من قبل.

التفت ناحية الصوت ورأى الرجل الذي كان «هاري برتون» يتعامل معه بمنتهى الأريحية، «مدرسه الأول»، كما دعاه «هاري» ذات مرة، وهو ما كان معناه بالنسبة إلى شير محمد أن المهاجر المتواضع الذي يسكن بناظم آباد كان يعمل في تدريب عملاء المخابرات الأمريكية.

كان الرجل يخب نحوه الخطى مثل جلَّاد يعرف مقصده جيدًا.

رأى سجاد شير محمد يمد يده في جيب سرواله ويُخرج سلاحًا.

تعجب سجاد «ماذا يفعل الرجل بهذا؟!».

٢٦

هزت «هيروكو» رأسها بتأنيب حين رأت الجلد المتشقق في كعب سجاد، ووسخ السوق الذي انحشر في كل الشقوق.

وبَّخَتْه وهي ترفع قدمه، وهو يرقد على الديوان، وتمسحها بقطعة قماش بهِمَّة قبل أن تُعنى بشقوق الكعب: «مدير عام مصنع صابون! وانظر إليَّ وأنا أغسل قدم زوجي. هذا خطأ. سجاد علي أشرف. هذا خطأ». نطقت الكلمة الأخيرة بهمس، كأن صوتها نفسه قد تراجع عاجزًا عن حضور هذا المشهد.

أعادت وضع القدم برفق على الديوان الذي كان قد انتقل إلى منتصف الحجرة ليسهل عليها التحرك من حوله وهي تقوم بتغسيل جثمان زوجها. وها قد انتهت الآن. لم يتبقَّ سوى شيء واحد فقط؛ أن تلف جسده بالملاءة البيضاء التي كان يرقد عليها وتدعو المعزِّين لإلقاء نظرة أخيرة عليه قبل أن يأخذه الرجال لدفنه.

لكن سجادًا كان يكره تقييد الملاءات، ويصر على ألا يتغطى سوى بالخفيف منها وهو نائم، وإن أحس بقدمه تتعثر بأغطية الفراش كان يركل ويضرب. كم من مرة أيقظتها ركلاته وضرباته؟

كان ثمة كثير جدًّا، كثير جدًّا في هذا الجزء من حياتها معه الذي لم يعد مميزًا عن كونه مجرد سير للحياة. كانت تظن أنها تعلمت من ناجازاكي كل شيء عن الفقدان، لكن الحقيقة أنه لم يكن هناك سوى الرعب الذي صارت تألفه تمامًا. كان من المستحيل عليها وهي لا تزال في الحادية والعشرين أن ترى كل أوجه الفقدان. لم تعرف حينها كيف يكون الشعور بفقدان الرجل الذي أحبته ستة وثلاثين عامًا.

وهي تجلس على الديوان مست بإصبعها جرح الرصاصة في صدره. بدا صغيرًا جدًّا، لا يمكن أن يكون مسؤولًا عن تفجير ينبوع الدم الذي أغرق ملابسه وجلده وهو يرقد في المستشفى في انتظار أن تتعرف عليه. مات في التو، قالوا لها، كما لو كان في الموت راحته. لم تكن تريد أن يكون الموت في التو، أرادت أن يترك لها على الأقل فرصة القبض على يده وهو على فراش الموت، وأن تودعه وداعًا أخيرًا غير وداعها له هذا الصباح الذي كان «لماذا ستذهب مرة أخرى؟ لن تجد شيئًا. ابق. أوه! وهو كذلك، اذهب.»

ابق. ابق. ابق. كان عليها أن تكررها كالمجنونة، تخبط برأسها في الجدار بخبل وتضربه وتبكي. كان عليها أن تقولها مرة أخرى فقط، بقوة أكبر قليلًا. كان عليها أن تأخذ رأسه العزيز الغالي بين يديها وتقبل عينيه وجبهته. ابق.

جلده بارد للغاية، متخشب جدًّا بعد ليلة في مشرحة المستشفى. تدفق العرق على ظهرها على الرغم من المروحة التي كانت تدور بأقصى سرعة فوق رأسها مباشرة، لكنه هو الذي كان يعرق أكثر منها هي التي كانت جافة تمامًا، عظمة جافة. صدَّتْها ملامحه.

لم تتحمل لمس بطنه، وكان له دومًا نعومة مريحة. بدلًا من ذلك أحاطت عضوه بيدها لكن الصلابة هنا لم تكن محتملة بأكثر من أي موضع آخر،

فرفعت يدها لشعره، الشيء الوحيد به الذي لم يزل به حياة. أغمضت عينيها، مررت أصابعها في شعره، وهمست بصيغ التحبب باليابانية؛ الكلمات اليابانية الوحيدة التي علمتها له كانت كلمات الحب.

لم يستطع الباب المغلق والنوافذ الموصدة ولا حزنها الجارف أن يبعدا عنها ضجة العالم. كان شقيق زوجها، إقبال، الذي استقل الطائرة من لاهور الليلة الماضية بعد أن أخبرته أنها ستدفع له ثمن التذكرة، قد مد سلكًا خارجيًّا للهاتف وأخذه من هذه الغرفة إلى الفناء وبإمكانها الآن سماعه وهو يصيح عبره في «سيكندار» في ديلي: «ماذا تعني أنه لا يمكنك الحصول على تأشيرة؟ إنه ميت. أنت الوحيد المتبقي لي. ماذا سأفعل من دون سجاد؟».

كان إقبال هو من سينزل القبر مع سجاد ليغمض له عينيه، وليس رضا.

لم يكن بوسعها التفكير في رضا من دون أن يجتاحها الغضب. ثم سمعت صوتًا آخر في الفناء، ونهضت عن الديوان. «هاري برتون» هنا. «هاري»، الذي أردى سائقُه سجادًا قتيلًا؛ وصف عامل الرافعة الذي نقل سجادًا إلى المستشفى مشهد القتل كاملًا لـ«هيروكو»: سجاد، يصيح على الرجل باسمه، طلقة النار، الرجل ذو شحمة الأذن الممزقة يصيح بصوت عالٍ في قبطان السفينة: «إنه مع المخابرات الأمريكية»، قبل أن يستدير وينطلق هاربًا، لعل الاثنين الآن في منتصف الطريق عبر المحيط، هذا ما قالته الشرطة لـ«هيروكو».

غطت نصف سجاد السفلي بملاءة ـ على وسَع ـ وفتحت الباب، ورأت «هاري» واقفًا هناك بتعبير طفل صغير تائه. وقف كل المعزِّين الذين تجمعوا حين رأوها؛ الرجال في وسط الفناء، والنساء تحت الجزء البارز من السقف. نظرت «هيروكو» إلى «هاري» فقط، أشارت له أن يدخل ثم قطعت الغرفة،

لتنظر إلى لوحة الثعلبين بينما سار «هاري» إلى جثمان سجاد وهمس بأشياء لم تحاول سماعها.

«شكرًا لمجيئك»، قالت حين سمعته يأتي ويقف خلفها.

أراد أن يعانقها، لكنه لم يفعل. بعد أن أيقظه اتصال «هيروكو» في ساعة مبكرة هذا الصباح ظل يقوم باتصال بعد آخر مع اتصالاته في المخابرات الباكستانية ورئيس مكتب المخابرات الأمريكية بكراتشي حتى لمَّ شتات ما وقع بالرصيف الغربي، بدقة تقريبًا، قبل وقت طويل من إقلاع طائرته من إسلام آباد.

سأله «ستيف» وهو يقله بالسيارة إلى المطار: «أين تحديدًا يكمن خطؤك في هروب فتى مستهتر من بيته وجزع لص ابن عاهرة حتى إنه أطلق النار؟» ورأى «هاري» أن زميله في العمل لن يتفهم أنه الشعور بالحزن، الحزن الصرف، وليس الشعور بالذنب إطلاقًا، هو ما جعله يحل نفسه تمامًا من ارتباطاته اليومية.

هدر بصوت عال: «أتظن أنني ليس بإمكاني أن أحبه لأنه باكستاني»، وقال «ستيف»: «يا للجحيم». ولم ينطق أحدهما بشيء آخر بقية الطريق.

لكن «ستيف» لم يكن مخطئًا تمامًا، أدرك «هاري» الآن. كان شعوره بالذنب هو ما منعه من عناق «هيروكو»، على الرغم من عدم استطاعته استيعاب لماذا يشعر بالذنب لهذا في حينٍ لم يشعر به لأشياء أخرى كثيرة كانت نماذجها الخلقية المصغرة بالمعايير العادية لتجعله يجلس منتحبًا في حانة، أو على كرسي الاعتراف أمام كاهن عالمي آخر.

سألت «هيروكو» وهي تلتفت إليه: «لماذا أطلق سائقك النار عليه؟ لماذا يطلق أي شخص النار على سجاد؟».

«لا أعلم.» لم يكن من قبيل أي صداقة أنْ وصَّله «ستيف» بالسيارة إلى المطار، بل كانت ضرورة مهنية ليعيد التأكيد على أهمية عدم البوح بأي شيء ينبغي التستر عليه.

«ظن أن سجادًا مع المخابرات الأمريكية.» لمست طابع الحسن تحت عينها الذي لم يُمَس طوال اليوم. «بسببك على ما أظن»، وجد «هاري» أنه يريد منها أن تخمن الحقيقة، لكنها انجرفت بعيدًا. «اعتدت أنا وسجاد أن نمزح بشأن هذا أحيانًا. كنا نمزح ونتخيلك عميلًا للمخابرات الأمريكية. فهذا ما يفترضه الجميع هنا في الأمريكيين، كما تعرف.» ثم وضعت يدًا على فمها: «هل تظن أن سجادًا كان يمزح في هذا مع شير محمد؟ ولعله لهذا...؟» انحسر صوتها ثانيةً وهزت رأسها ونظرت إلى الجثمان الذي كان يتعمد «هاري» أن يشيح بنظره بعيدًا عنه.

سمع نفسه يقول: «ربما، ربما لهذا صلة ما بالأمر».

توقف صوت حديث الرجال وتمتمة النساء في الفناء، ثم بدأت جلبة مختلفة. لم تنتبه إليها «هيروكو».

كان رضا. دفع الباب الأمامي ليشعر بكلمة «بيت» تحيط به لأول مرة، ثم رأى الحشد، وعرف على الفور، أنه لم يعد يوجد «بيت» بعد الآن.

كان عمه إقبال من اعتصره بين ذراعيه وهمس في أذنه، «والدك توفي»، ثم تزاحم الناس من حوله يشرحون بكلمات منفصلة لم يكن أحد منهم يعيها حقًّا بعد. كان كل ما سمعه رضا ثم صاح: «إنه مع المخابرات الأمريكية». وعلم أن هذا من صنع «هاري برتون».

دفع المعزين جانبًا ودخل الغرفة التي يرقد فيها جثمان والده.

أراد أول الأمر أن يضحك. كانت تلك مزحة. لا يمكن أن يبدو الموت مثل النوم تمامًا هكذا. لكنه حين هز سجادًا من كتفه، كان الجسد متجمدًا وكان في صدره ثقب.

«رضا»، قال «هاري» لأن «هيروكو» بدت عاجزة عن التقدم إلى الأمام واحتضان ابنها الباكي في ذراعيها.

كان رضا راكعًا على ركبتيه بجوار الديوان، قابضًا على كتف والده البارد، لكنه وقف حين سمع صوت «هاري» واستدار يركض إليه تسبقه قبضته. في لحظات كان «هاري» قد ثبته في الأرض.

قال رضا: «هذه فعلتك! قتلْتَ أبي».

«رضا كونراد أشرف!» دفعت «هيروكو» «هاري» بعيدًا وأنهضت ابنها على قدميه. «ما هذه الأخلاق السيئة؟»

قبض على قميص «هاري»: «أماه، أنتِ لا تعرفين. لقد قالوا لي كل شيء عنك في المعسكر. إنه مع المخابرات الأمريكية. كان يكذب علينا طوال الوقت. بابا مات بسببه هو».

أمسك «هاري» بقبضة رضا على قميصه واعتصرها بقبضته.

«لقد مات أيها الغبي لأنه ذهب إلى سوق السمك يبحث عنك.»

ترنح رضا متراجعًا، عند نقطة ما فلتت من ذهنه تلك التفاصيل من بين ما سمعه في الفناء. نظر إلى أمه، فرأت «هيروكو» أن هذا الهاجس قد أسره الآن بقية حياته. كان صغيرًا جدًّا لمثل هذا الألم، مجرد فتى، فتاها الصغير. فتحت له ذراعيها فاندفع إلى حضنها.

قال «هاري»: «هيروكو»، فأشاحت برأسها ليبتعد حتى ظله عن مجال

رؤيتها. سمح لنفسه بالنظر إلى سجاد دقيقة ـ دقيقة واحدة أخيرة رأى فيها أفضل ما في طفولته وذاته يرقد ميتًا ـ ثم انصرف.

ربتت «هيروكو» بيدها على ظهر رضا وشعره، عيناها ترتاح على سجاد. كان وقت الغروب تقريبًا. سرعان ما يأخذونه. ليس لديها سوى تلك الدقائق القليلة المتبقية لتتذكر كل التفاصيل: انحناءة ترقوته، الندب الصغير في مفصل إصبعه، أوردة معصمه.

السرعة اللازمة لتعويض ما فُقِد

نيويورك، أفغانستان، ٢٠٠١-٢٠٠٢

٢٧

دفعت «كيم برتون» طرف لسانها في فلجة سنيها الأماميتين، فقابلتها فلجة الأفق في سماء وسط المدينة بـ«مانهاتن». مرت بلسانها على الحافة الحادة لإحدى أسنانها. أطلال معدنية مسننة، بارتفاع ثمانية طوابق. بعد ثلاثة أشهر ولم يزل كل شيء بمثابة تذكير أو شاهد. على ارتفاع ثلاثين طابقًا أعلى شارع «ميركير»، يمكنها الآن الوقوف في هذه النافذة في شقة جدتها ـ اثنتا عشرة قدمًا من جانب إلى آخر وارتفاع أربع أقدام ـ تنظر أمامها مباشرة من دون أن ترى أي بناء آدمي يجثم في المشهد، بل ترى قدرًا كبير جدًّا من السماء في الخارج حتى إنها قد تكون ولاية «مونتانا».

فتحت مصراع النافذة الجانبية الصغيرة ـ نافذة المدخنين كما يدعوها أبوها ـ وخفضت رأسها تنظر إلى الشارع، تراقب الخط الرفيع لمرور المشاة: عمال ورديات المقابر يعودون إلى بيوتهم؛ لقضاء دقائق قليلة عزيزة من النوم المشترك مع أحبائهم، طلبة جامعة نيويورك يتقافزون بكل أنواع المنشطات التي تبقيهم ساهرين الأسبوع الأخير قبل الامتحانات، رجل يحمل دلوين يفيضان بأزهار تجعله رائحتها يبكي بلدًا بعيدًا، مخنثان يلف كل منهما ذراعه حول خصر الآخر، تدق كعوب حذاءيهما الثاقبة

بانتظام تمامًا مثلما كانت تدق كعوب حذاءيهما ذوي الرقبة في حياتهما السابقة حين كانا جنديين.

كان من المستحيل من هذا العلو الشاهق وضع أي قصة على تلك الشخصيات الضئيلة بالأسفل. كانت تحب أن تفكر أن هذه القصص تعلن عن سعة ما في الروح، مع أنها كانت تشك في إمكانية إحالتها كلها إلى شيء ما شاهدته في التلفزيون الأسبوع الماضي.

أدارت نظرها عن العالم الخارجي إلى زجاج النافذة، وكشرت لرؤيتها الوجه الذابل الذي يعكسه الزجاج. عينان خضراوان نال منهما الإرهاق، شعر أسود فاحم غزته جذور نحاسية طويلة بما يكفي أن تبدأ في تسميتها سيقان، بشرة باهتة للغاية بدائرتين داكنتين للغاية حول العينين، حتى إنها بدأت تبدو أقل آدمية من كائن خرافي. رحلات طيران ليلية وقهوة وأحلام بمبانٍ تنهار لم تكن أفضل مكونات مظهر متوهج.

أبعدت عينيها فوقعت على المساحة الفارغة وراء الراديتر وأخرجت علبة سجائر وجمجمة فضية صغيرة فتحت فكيها وقذفت بلهب ثابت حين ضغطت «كيم» على عظمة مؤخرتها. تحمل تلك القداحة منذ حوالي عشرين سنة، منذ أن أهداها لها، هدية وداع، أحد المارينز في السفارة في إسلام آباد كانت قد غازلته قليلًا لتغيظ والدها. ما إن حظيت بالقداحة حتى كان من الضروري أن تبدأ بالتدخين. بعد ذلك في ذلك العام، وجدَها جدُّها «جيمس» تشعل سيجارة في الحديقة الخلفية لمنزله بلندن وقال: «أظن أن جدتك شجعتك على هذا لمضايقتي فقط». بدا أن الأمر يمنحه قدرًا من السعادة، أن يظن أنه ما زال يحظى بأهمية لدى «إليزابيث» ـ لم يدعُها «إلزي» قط ـ لتشجعها على مثل هذا السلوك، مع أنهما لم يلتقيا منذ زفاف والدَيْ «كيم».

سحبت نفسًا من سيجارتها ووجدت نفسها تتساءل عما كان الجد «جيمس» سيرى في العالم إن كان لا يزال حيًا. هل كان تعاليه على كل ما هو أمريكي ما عدا «لورين باكال» وحفيدته يقل خلال الأشهر القليلة الماضية أو يزداد؟ هل كان سيظل ينظر إلى حياة «هاري» بازدراء ويتساءل عن أي من انعطافات أخطائه كان بالإمكان تلافيها مسبقًا، وأي من نقاط الفشل بها تحمل طابع الحمض النووي؟ وماذا كان سيفعل برفيقة سكن الجدة، التي كان ذكر اسم زوجها المتوفى كافيًا ليجعله يغير الموضوع بشعور بالذنب لا نظير له لدى ذكر أي شيء آخر في حياته؟

«لديكِ سيجارة؟»

انتفضت «كيم» وسقطت شرارة صغيرة على التِّيشيرت الأسود الذي ترتديه واحترقت، من دون أن يلاحظها أحد.

«منذ متى تدخنين؟»

«منذ ١٩٤٥. الفضل لأمريكي في حانة بطوكيو.»

ناولت «كيم» «هيروكو» سيجارتها وهي تضحك.

«خذي هذه. لقد أقلعْتُ عن التدخين. من كان هذا الأمريكي؟»

«مجرد رجل.» رقدت «هيروكو» على الأريكة، وحيَّتْ «كيم» بأناقة. «متى وصلْتِ؟ ظننْتُ أنك لن تغادري «سياتل» حتى بعد الظهر.» سحبتْ نفسًا من السيجارة ونفثتْه ببطء شديد وبحرص من يدخن سيجارة واحدة في العام.

قالت «كيم» وهي ترقب المرأة الأخرى باهتمام: «تغير موعد الاجتماع وصار اليوم فأخذت الرحلة الليلية».

كان في «هيروكو» ضعف معين لم يكن بها قبل ذلك بثلاث سنوات

ونصف، وقت أن دخلتْ هذه الشقة أول مرة بهيئة تقول إنها تعلم أنها تأخرت ـ نصف قرن تقريبًا ـ لكن معها عذرها. قالت «كيم» لنفسها إن من السخف ألا تتقبل هشاشة معينة من شخص في سن «هيروكو». ومع ذلك كان من الصعب أن تؤمن بهذه الفكرة، كان في جلستها شيء ما شبابي للغاية، قدماها مضمومتان أسفل جسدها تستند بمرفقها على مسند الأريكة، يدها ترفع ذقنها، وسيجارة تتوهج بين إصبعيها. تآمرت الظلال في الركن الذي تجلس فيه بالشقة المظلمة؛ لتجعل الأمر يبدو مجرد شطحة ذهنية قصيرة أن يظن المرء أن هذه المرأة في منامتها الحريرية وشعرها القصير على الطراز الحديث في السابعة والسبعين من عمرها.

أضاءت «كيم» مصباحًا فارتسمت خطوط خفيفة على وجه هيروكو أشرف كله. كان طابع الحسن الذي اعتاد أن يرتاح على عظمة وجنتها قد انزلق، قليلًا فقط. لكن الخصلة الخضراء الوحيدة في شعرها العاجي تشهد على ما لم يتغير بها على الإطلاق: انفتاحها الدائم على تجارب جديدة من دون كثير من القلق بشأن ما قد يعده الآخرون حماقة أو طيشًا.

«اجتماع بشأن ماذا؟ ظننْتُ أنك «سويت» كل ما يخص انتقالك إلى مكتب نيويورك؟»

قالت «كيم» وهي تمدد جسدها الضامر في محاولة للتخلص من التشنجات الباقية من الرحلة: «أوه! يوجد دائمًا شيء آخر لتسويته، لكني هنا مرتاحة جدًّا. الأيام السابقة على عيد الميلاد هي وقت العشاق السابقين للاتصال وعرض محاولة أخيرة، والله يعلم أني لا أريد واحدة أخرى من تلك المحادثات مع «جيري». أنتِ تعرفين أني سأبقى إلى ما بعد عيد الميلاد، أليس كذلك؟».

قالت «هيروكو» وابتسمت: «شناعتك في التواصل مع كل من عشت معهم لا تعني أني وجدّتك لدينا المشكلة نفسها معكِ. بالطبع أعرف. وسعيدة لهذا». أشارت برأسها ناحية الجريدة الصباحية الملقاة على طاولة القهوة بجوار كوب قهوة «كيم» نصف الفارغ: «ماذا يحدث في العالم بالخارج؟».

«بالكاد انطفأت آخر شعلة نار.» أشارت «كيم» في اتجاه الأفق الخالي بالخارج قبل أن تجلس على الأريكة.

قالت «هيروكو» بحدة: «هذا ليس العالم، إنه الحي فقط».

ارتفع حاجبا «كيم».

قالت بصوت مثقل بالتهكم: «حقًّا، أي أنها نيران الحي؟».

رفعت «هيروكو» يدًا في إيماءة اعتذار.

«آسفة لم أقصد ذلك.»

أمسكت «كيم» بيد «هيروكو» وضغطتها برفق.

«ما الأمر «روكو»؟»

يبدو أحيانًا عَمَى «كيم برتون» مستحيلًا. ومع ذلك يظل الأكثر استحالة منه أن تحمل أي شيء ضد امرأة بهذا الدفء والسحر الأصليين، كل الأجزاء الأكثر روعة في «كونراد» و«إلزي» و«هاري» هناك في ضغطة أطراف أصابعها، الاهتمام في وجهها المنشرح الصريح، رغبتها في أن تعرف ما أخطأت فهمه تحديدًا هذه المرة. وقعت «هيروكو» في غرامها في الدقائق الأولى لأول لقاء لهما.

قالت «إلزي فايس» وهي تخرج من غرفة نومها: «الرجال الأغبياء

المدَّعون، هذا هو الأمر، دائمًا وأبدًا». توقفت بجوار الكرة الأرضية القديمة التي تقبع على خزانة المشروبات، وأدارتها برفق؛ لتنزلق محتوياتها إلى الغرب قليلًا وتصير الكتلة غير المنقسمة للهند تحت أطراف أصابعها بكلمة «هندوستان» مطبوعة عليها. وكان الحدُّ الذي رسمه «هاري» بالحبر، وهو فتى صغير لا يرى في عالم عتيق الطراز سوى عمل فني لا فائدة منه، رقيقًا للغاية.

«تبدين بحال جيدة جدتي.»

صدر عن «إلزي» صوت ينم عن السخط، وجاءت لتجلس بين «كيم» و«هيروكو» وهي تزيح بقوة قدم «كيم» التي كانت تريحها على طاولة القهوة.

«في الحادية والتسعين يصير أفضل آمالك أن تكوني محفوظة جيدًا وتلك ليست سوى مرادف لأن تبدين مخلَّلة.»

حقيقي بما يكفي. فكرت «هيروكو» إنما ليس بقسوة. لكن على الرغم من الهزال الذي كان في وقت ما نحافة فاتنة، وفوضى التجاعيد التي تستحضر إلى الذهن خريطة طبوغرافية لمنطقة غنية جدًّا، كانت هيئة «إلزي» تحمل تلك الذكرى القوية لجمالها حتى إن الناس كانوا يتوقفون ليحدقوا ويتخيلوا ما قد يظهر إن أمكن تقشير طبقات الزمن من فوق وجهها.

«ظننْتُ أنكِ قلتِ إنك ستكونين ميتة في الصباح.»

ابتسمت «إلزي» وهي تلتفت إلى «هيروكو».

«لم يَحِن الصباح تمامًا.»

قبضت «هيروكو» على معصم «إلزي» وضغطت على أوردتها.

«حسنًا، لا يمكنني الشعور بأي نبض لديك. لعلنا ميتتان، وهذا ما يأتي بعد الموت. و«كيم» تأتي لزيارتنا!»

«هراء. سأصل هناك قبلك. مثل دلهي. مثل هنا.» أخذت السيجارة من بين إصبعي «هيروكو» وسحبت نفسًا قصيرًا قبل أن تنفث شريطًا من الدخان بابتسامة تلميذة صغيرة قامت بتجاوز ما. «لكن، أتعرفين، كنت ليلة أمس أشعر حقًّا أنني سأصبح ميتة.»

دمدمت «هيروكو» وهي تستعيد سيجارتها: «تشعرين بهذا مرتين أسبوعيًّا على الأقل».

«حسنًا، في النهاية سأكون على حق.» ثم نقرت بإصبعها على ركبة حفيدتها: «لا تخبريها بانطفاء النيران كأنه أهم ما يحدث في العالم. إنها تظن أن باكستان والهند على وشك إشعال حرب نووية».

قالت «كيم»: «تبًّا... آسفة، «هيروكو»».

«لا تقولي «تبًّا»، «كيم». إن كان عليك أن تسبي قولي «اللعنة». إن بها أناقة ضارية.».

قالتها أساسًا لتلهي «هيروكو» عما كانت تفكر فيه، لكن الأخيرة لم تفعل سوى أن نفثت الدخان وراقبت الغيمة الكثيفة أمامها.

تعرف «إلزي» تلك النظرة في عيني صديقتها. كانت هناك متوارية خلف فرحة الوصول حين جاءت نيويورك في ١٩٩٨. «في المرتين اللتين دخلْتِ فيهما منزلي كان الأمر يتعلق بالنووي. مرة واحدة كان أمرًا مقبولًا، لكن مرتين تبدوان تكاسلًا في تأليف حبكة»، قالت «إلزي» بقسوة زائفة ـ لكن نظرة «هيروكو» تلك ـ النظرة التي عادت ثانيةً ـ أخبرتها أن القنبلة تبقى الشيء الوحيد في العالم الذي لن تضحك بشأنه.

أطفأت «هيروكو» السيجارة نصف المنتهية، وتتبعت بطرفها أجنحة الرماد في منفضة السجائر.

«هل هناك أخبار من «هاري»؟ لم يتصل رضا منذ عدة أيام.»

خلال العقد عمل الرجلان معًا فكانت ممتنة؛ لتوفر مصدر بديل للمعلومات عن حياة رضا ممثلًا في «إلزي»، و«هاري» نفسه. كانت قبل ذلك، في تلك السنوات القليلة التي تلت وفاة سجاد، تمر شهور أحيانًا من دون أن تسمع كلمة عنه. ظنت بادئ الأمر أنه غاضب منها، أو صار لا يُعنَى بها، لكنه حينما كانا يتحدثان أو يلتقيان كان متفانيًا كعادته دائمًا؛ فرأت أن إقامته بعيدًا لم يكن عن قلة حب، بل نتيجة شيء آخر، ذنب ما تُشعره به. ذنب يرتبط بوفاة والده. ذنب في حياته ربما، كانت أحيانًا تتساءل: لكن لماذا يشعر بالذنب؟

لعلها لم تكن متحمسة بما يكفي لمهنته، وظن هو هذا بمثابة حكم ما. لم يكن حكمًا، بل تمنت فقط أن تفهم لماذا على رجلين بذكاء «هاري» ورضا أن يختارا العمل في «القطاع الإداري للأمن الخاص». ما الرضا الذي يحظيان به في الإشراف على أجهزة مراقبة البنوك وتعيين حرس خاص لذوي النفوذ؟ ظنت في وقت ما أن هذا ما هو إلا غطاء آخر للعمل مع المخابرات الأمريكية، أغضبتها فكرة جر «هاري» لرضا للعمل معه في هذا العالم حتى إن الاثنين أقسما برحمة سجاد إن هذا غير حقيقي. بدا الاثنان شاحبين للغاية وهما يقسمان فعلمت أنهما لا يكذبان. ثم قالت «إلزي» بحزم: «لم يعد «هاري» يعمل مع المخابرات الأمريكية، كنت سأعرف لو كان يكذب في هذا». ولم يكن لدى «هيروكو» أية نية في أن تطلب من «إلزي» أن تقسم برحمة أحد. كانت دائمًا ما تقول الصدق التام وكانت تلك إحدى نِعَم العهد القديم عليها.

تمنت فقط أن يكون سعيدًا. كان هذا كل ما أرادته له دائمًا وأبدًا. لعله كان أملًا شعر أنه لن يحققه أبدًا. ضغطت بيدها على قلبها، أحيانًا لمجرد التفكير فيه ينتابها شعور جارف بالدمار، لا يمت بأي صلة إلى ظروف حياته.

قالت «كيم»: «لا أتذكر حتى آخر مرة اتصل بي والدي». لكنها كانت تتذكرها، بالطبع. إنها تتذكر دائمًا. ٣١ أكتوبر، كان في إحدى حالاته المزاجية التي ينتابه فيها الحنين إلى الوطن، متذكِّرًا عيد «الهالوين» الذي ارتدت فيه شعار «السلام العالمي»؛ ألصقت خرائط العالم بملابسها وعلامة السلام على كل خريطة. غير أنها نسيت الخط الوسط لعلامة السلام، فكانت كما علق «هاري»، «مرسيدس بنز» العالمي. ضحك عبر الهاتف، وتمنت «كيم» أن تضحك، وقد شعرت بسعادة كبيرة لسماع صوته، وتقول: «لقد قلت هذا بعد ذلك بشهور حين شاهدت الصور. إذ لم تكن حاضرًا يومئذ. كالعهد بك دومًا». لا يسعها غالبًا التوقف عن أن تكون مراهقة مع أبيها سواء في المداهنة أو التجهم. وهكذا اطمأنت أنه لن يتصل مجدَّدًا وقتًا طويلًا. مع ذلك لعله لم يكن يتصل لأن لديها فكرة مؤكدة بقدر معقول عن مكانه هو ورضا، ولم يكن هو يريدها أن تعرف، كما أنه لم يسعه قط أن يكذب عليها من دون أن تكتشف كذبه.

قالت «إلزي» وهي ترمق حفيدتها بنظرة استهجان خفيفة: «اتصلت بـ«هاري» أمس، الاتصال به أمر مُجْدٍ أحيانًا، تعرفين. لا يجب أن تنتظري ليبذل هو الجهد». حين لم تتلقَّ من «كيم» ردًّا سوى رفع كتفيها، وجهت كلامها إلى «هيروكو»: «الاثنان بخير. لم يقل أين هما، لكن لا داعي لأن تظني أنهما في الهند أو باكستان، ومن المحتمل جدًّا أن يكونا في طريق عودتهما إلى «ميامي»». حيث المقر الرئيس لشركتهما، لكنهما قالا قبل ذلك بعدة أسابيع إنهما سيقومان برحلة في نهاية العام؛ للقاء عملاء متنوعين من أنحاء مختلفة من العالم، وسوف تكون هواتف الأقمار الصناعية الطريقة الوحيدة للاتصال بهما لحين إشعار آخر. كانت «هيروكو» فقط هي من صدقت هذا الأمر.

أومأت «هيروكو» إيماءة تفتقر إلى التصديق تمامًا.

«لقد حاولت الاتصال بسجاد لأسأله عما يحدث على الحدود، لكني لم أستطع التوصل إليه.»

«لعلك في حاجة إلى وسيلة اتصال أفضل. لأن سجادًا توفي منذ أعوام. أوه «هيروكو»! لا يمكن أن تصلي إلى مرحلة الخرف قبلي. لقد وعدْتِ.»

ليتني كنْت عجوزًا، فكرت «كيم» وهي تراقب المرأتين. عجوزًا حقًّا. عجوزًا بما يكفي لألقي بكل المتاعب خلف ظهري: المستقبل المهني، العشاق، الندم. الأمهات. الآباء. هل سبق وكنْتَ عجوزًا بما يكفي لهذا؟

ربتت «هيروكو» على ذراع «إلزي».

«لا أعني سجادي. بل ابن أخيه ـ الابن الأصغر لإقبال.»

«إقبال؟ أوه نعم. الأخ الفاسق. رأيته مرة؛ جاء إلى «بنجل أوه»! ليخبر سجادًا بوفاة أبيه. كان ذلك في الشتاء، وكان يرتدي عباءة جميلة. أظن أنك أخبرْتِني ألف مرة عن ابنه هذا، لكن أخشى أن يكون عليك أن تكرري هذا مرة أخرى.»

تتساءل «هيروكو» أحيانًا، حين تتجلى لها دقة تذكر «إلزي» للماضي، هل ستمر ذاكرتها هي بمثل هذه الخطى الثابتة للتحلل البطيء، فتعود إلى الخلف في حياتها إلى أن لا يبقي لديها ما تتذكره من بعد القنبلة، لا شيء عن البقاء سوى جسدها بوصفه دليلًا سليمًا على نحو لا يمكن تصديقه ما خلا الوشوم المتفحمة ما بين كتفيها وخصرها.

أتت بحركة سريعة بأصابعها تعني نفاد صبرها.

«إنه الذي يعمل في الجيش.»

«أوه نعم. الجيش الهندي؟»

«الجيش الباكستاني «إلزي». «سيكندار» هو الذي بقي في الهند، وليس إقبال.»

«حسنًا يسعدني أنك هنا فقط، ولسْتِ هناك.»

لم تجبها «هيروكو». كانت تشعر في ذلك اليوم، بحدة، بالضيق الذي شعرت به في بداية إقامتها في هذه الشقة الفاخرة، إن كنت تعيش على هذا العلو فيجب أن يكون ذلك على جبال. صارت «أبوت آباد»، تلك المحطة الجبلية التي بها أصداء من «مَسوري»، موطنها بعد وفاة سجاد. باعت المنزل خلال العام التالي لجنازته، وتقاعدت مبكرًا من المدرسة، وقبلت عرض صديقتها القديمة ريحانة ـ التي عاشت في طوكيو وكراتشي قبل أن تعيدها وفاة زوجها إلى وطن طفولتها ـ بأن تذهب وتعيش معها في مرتفعات «أبوت آباد» بعيدًا عن فوضى المدينةِ التي خلت تمامًا من المرح من دون سجاد ورضا، حتى صار العيش فيها يعني العيش في الأسى.

اكتشفت في «أبوت آباد» أنها خُلقت للعيش في الجبال والخضرة، وتسعد بالسير ساعات في أودية مترامية ساكنة ليس معها سوى كلب «شيبرد» ألماني ـ تدعوه «كيوبي» ـ إلى الأُنس والحراسة فقط. لكن حين قامت الهند باختبار القنبلة النووية، وقال جميع من حولها تقريبًا إن على باكستان أن تفعل المثل وما من خيار آخر، (كانت الأصوات المختلفة الوحيدة للواء متقاعد يعيش قبالتها على الجانب الآخر من الطريق، والصحفي الذي يطلب منها دائمًا أن تحرر له مقالاته، والمرأة التي تأتي مرتين أسبوعيًا للتنظيف وتحضير الطعام، هم فقط من قالوا إن الحل الوحيد في التعامل السلمي). لذلك رفعت سماعة الهاتف لتتصل بـ«إلزي فايس» في نيويورك وتخبرها

أنها ستقيم مع رضا، الذي يقيم في «ميامي»، وقد تتوقف في نيويورك في طريقها إلى هناك. بطريقة ما امتد هذا التوقف ثلاث سنوات بمزيج من إصرار «إلزي» وعدم وجود رضا هناك.

قالت «هيروكو» فجأة: «أرسل رضا رسالة إلكترونية بالأمس، ليس ليقول أين هو. بل فقط ليلغي زيارته لأنها لا تناسب جدوله». سعلت ورأت نظرة «كيم» المتعاطفة. تعلمان كلتاهما ماذا يعني أن تكون البند الذي يسهل محوه من الجدول المشوش لقريب عزيز. مع أنها ما زالت لا تعلم كيف حدث هذا بينها وبين ابنها. في مكان ما أخفقت، بشكل بشع.

قالت «إلزي» من دون اقتناع: «خسارة».

«قلت لك من قبل. ليس عليك أن تدَّعي. أعلم أنك لا تحبين ابني بأكثر مما أحببْتِ أباه.»

«أوه! أنا على يقين أنني كنت أحب سجادًا قليلًا. ألا تظنين هذا؟ كان وسيما بشكل فظيع، وكنت دائمًا سطحية جدًّا في مثل هذه الأشياء.»

ضحكت «هيروكو» وقبضت يد «إلزي» في يدها.

«أنا سعيدة لأنك صديقتي «إلزي فايس».»

ليتني حقًّا، حقًّا، كنت عجوزًا، فكرت «كيم» وهي تراقب المرأتين.

٢٨

«كون! كون مان! هاي، رازورا!»

التفت رضا كونراد بحدة إلى مصدر الصوت، متأهبًا لمواجهة، لكنه لم يرَ سوى شاب أمريكي مبتسم، ببشرة أحرقتها الشمس يجلس على فوطة شاطئ، جسده تشكيلة من العضلات المنتفخة يقطعها بنطلون أسود قصير، يشغل مساحة صغيرة جدًّا كأن مراقبًا متطرفًا خفيًّا لوَّنها بالحبر. كان الأمريكي النقيض الأكثر حدة لرضا بقامته النحيلة المختفية في بنطلون وقميص بأزرار وتعبيرات وجه حذرة.

قال وهو يمر بكفه على شعره شبه النحاسي، ويجفف العرق في طرف المنشفة: «اقذفْ لي بعلبة بيرة من الثلاجة، وخذ واحدة لك».

توقف رضا لحظات ليختبر ما في الجملة من إهانات ـ هل كان مجرد عرض ودود، أو يفترض أن رضا به حاجة إلى إذن من هذا الفتى ليأخذ ما يريد من الثلاجة؟ ظل ذو البشرة البرونزية يبتسم؛ رفع رضا كتفيه ومد يده إلى الثلاجة، وكانت على بعد خطوات قليلة منه. كانت البرودة التي لاقتها أطراف أصابعه مُحببة، فانتزع قطعة ثلج ومسح بها على وجهه وعنقه، وإلى

أن اقترب بما يكفي من صاحب البشرة البرونزية ليلقي إليه بعلبة البيرة كانت قطعة الثلج قد ذابت.

قال الشاب وهو يشير بتعاظم إلى الثكنة الطينية بجدرانها العالية وأبراج الرماية: «في هذا الوقت من العام القادم سيكون هذا المكان منتجعًا سياحيًّا». ثم خبط على جانب رأسه قائلًا: «لديَّ خطة، هل تريد المشاركة فيها؟».

هز رضا رأسه نفيًا، وواصل سيره نحو السيارة المصفحة التي لم يكن له أن يأخذها من دون إذن. حسنًا لا أحد هنا ليستأذنه؛ الجميع بالخارج يلاحقون الإرهابيين ما عدا الفتى ذا البشرة البرونزية، الذي أقعده عن تأدية مهامه التواء كاحله، والطباخين وعمال النظافة، ومجموعة أخرى من الموظفين «رعايا دول ثالثة» (ر. د. ث.) (مجموعة ظل رضا خارجها دائمًا بناءً على مبلغ راتبه وليس جواز سفره). كان يفضِّل السيارة الجيب ـ مفتوحة ومن ثم تمثل تهديدًا أقل لحاملي الأسلحة ـ لكنه لم يرد أن يسلب الموظفين «ر. د. ث.» السيارة الوحيدة المتاحة لهم. لم يكن يعلم أين يود الذهاب في مكان كهذا، ربما يود أن يذهب «بعيدًا» بما يكفي، فكر وهو يقود السيارة «الهمفي» بزئيرها المارق في سهول أفغانستان المغبَّرة.

كان هذا ما شعر به ـ منذ متى؟ منذ حوالي تسعة عشر عامًا ـ بعد وفاة أبيه. شعر ببساطة بالرغبة في أن يبتعد عن الأمكنة التي كان سجاد علي أشرف يملؤها بضحكاته وأحضانه. لذلك لم يتردد في قبول عرض ابن عمه حسين ـ أكبر أبناء إقبال ـ حين اتصل من دبي ليعزيه في وفاة والده وذكر له أنه، إن شاء، فثمة فرص للعمل في الفندق الذي يعمل به هناك.

كانت «هيروكو» تتقد غضبًا. الجامعة، أخبرت ابنها. ستذهب إلى الجامعة كما أراد والدك.

عليَّ أن أنفق علينا الآن، قال رضا محاولًا لعب دور الابن الذي ينحي رغباته الخاصة جانبًا من أجل القيام بمسؤولياته ربًا للعائلة.

لم تنطلِ الخدعة على «هيروكو»، لكنها رأت أنه لا يهرب من ذكرى والده فقط، بل يهرب أيضًا من حزنها، الذي كان يزيد، بكل تعبير عنه، من حدة شعوره بالذنب. وجعل هذا من المستحيل عليها مطالبته بالبقاء.

هل كانت تلك اللحظة التي سار فيها في درب وسار ضميره في درب آخر، تساءل رضا، أم كانت قبل ذلك حين أقنع فتى صغيرًا بالذهاب إلى معسكر تدريب يعج بالمتطرفين؟

أنزل الزجاج الملوَّن لنوافذ السيارة ـ على الرغم من مخالفة هذا صراحةً لتعليمات الشركة ـ وأخرج القرص المدمج لموسيقى الراب من مشغل الأقراص المدمجة واستبدل به آخر لنصرت فتح علي خان. «تهتز الجدران أحيانًا، ترتج الأبواب أحيانًا...» نظر رضا إلى المشهد الخارجي الذي يمر به مسرعًا، يستحيل التفرقة فيه بين الطمي والحصى. ومض له شيء من بين الصخر والحصى وتخيل ساعة يد ما زالت تحفظ الزمن حول معصم لم يعد ينبض.

خلال العقد الذي قضاه في دبي قبل أن يعود «هاري» ليدخل حياته مرة أخرى، كان يسعى لمعرفة أكبر قدر ممكن من الجنسيات، يكتسب اللغات بحمية هاوٍ ـ بنجالية وتاميلية من عاملي الفندق، عربية من موظفي الاستقبال، سواحيلية من فرقة موسيقى الجاز بالفندق، فرنسية من «كلوديا» ـ الأكثر ثباتًا من بين عشيقات كثيرات، فارسية من الزوجين اللذين يديران مطعمًا على ناصية الشارع الذي يسكن فيه، روسية من العاهرتين اللتين أقامتا في الشقة المجاورة للاستوديو الذي يقيم فيه، وتعلمان أن بإمكانهما استخدام

مفتاحهما الإضافي لينزلقا في فراشه بعد أن يغادر زبائنهما طلبًا لبعض الراحة أو الضحك أو أحضان أفلاطونية، علاوة على معرفة بكلمات من كل مكان في العالم. كان كلما تعلم مزيدًا من اللغات وجد التداخل أكبر. «قهوة» بالعربية. «قهوة» بالفارسية، «كافيه» بالفرنسية، «كوفي» بالإنجليزية، «كوهي» باليابانية...

لكنه بقي بعيدًا عن الأفغان. بدا أن أخذ كلمة واحدة منهم يعد بمثابة سرقة.

رفع الزجاج فصار كل شيء، برحمة ما، غير حقيقي. لا زرقة برّاقة للسماء تذكره بعبد الله وهو يقول إن سماء الشتاء في أفغانستان مختلفة عن أي شيء يمكن لهؤلاء «الكراتشيوالاز» أن يتخيلوه.

بعد ساعات، ترجل رضا من «الهمفي» يطرف بعينه بعد ظلمة الزجاج الداكن. كان في ممر واسع بين جبال عالية من الطمي والحصى وقد تفتقت ذات يوم في خياله عن مخلوقات أسطورية. لكن بدلًا من أصداء ضرب النار التي كانت تكسر الصمت حينها، كان هناك ضجيج التجارة. أكشاك شاي وسيارات أجرة، عربات يجرها حمير محملة بأكوام من متاع ما أو آخر، صبية يبيعون زجاجات مياه معدنية ونظارات شمسية بلاستيك رخيصة. راقب رضا حافلة يهبط منها زمرة رجال ساروا إلى الأمام حوالي عشرين قدمًا، ثم صعدوا حافلة أخرى وانطلقوا. عند نقطة ما على امتداد هذه الأقدام العشرين تصير أفغانستان باكستان. لم يبد الجنود الباكستانيون على الطرف الآخر من الامتداد حريصين بشكل خاص على التحقق من أوراق أي من البشتون الذين يروحون ويغدون، لكن أحدهم رفع يده ورضا يمر به فكانت كفه بالكاد في وجه رضا.

قال رضا بالأردية: «أنت إذن تمرر الأفغان إلى باكستان من دون أدنى مشكلة لكنك تمنع باكستانيًا من العودة إلى وطنه. كم صار هذا العالم غريبًا. اذهبْ وأخبر النقيب أشرف أن أخاه هنا.»

عاد إلى الجانب الأفغاني ليحتسي كوب شاي وهو يجلس القرفصاء بجوار رجل آخر، ويشعر بالغباء قليلًا لأنه الوحيد الخارج عن الزي التقليدي بارتداء بنطلون بدلًا من «الشالوار». رأى في دقائق قليلة النقيب سجاد أشرف يقترب منه ـ كان أصغر أبناء إقبال حتى ذاك الوقت، راقبه رضا يتقدم مختالًا، يضرب الهواء حوله بعصا، تساءل سجاد هل يرى حسين في دبي أن الأمر يستحق العمل في مطابخ الفنادق ليحظى سجاد هذا بالتعليم الذي لم يحظَ به إخوته، ومن ثم بالآمال التي حلموا بها فقط خلال السنين التي كان والدهم يعربد ويقامر فيها بأموال الأسرة.

تقدم رضا إلى لقاء ابن عمه، لكنه توقف حين توقف سجاد. كان رضا الأكبر ـ بعقد تقريبًا ـ يجب أن يتقدم سجاد نحوه.

ابتسم ابن عمه على الطرف الآخر من المسافة التي تفصل بينهما.

«إن تقدمت أنا نحوك سيُعد عدوانًا من الجيش الباكستاني على أفغانستان.»

التفت رضا بعينيه وتقدم إلى الأمام.

قال سجاد وهو يعانقه بلا مبالاة: «مرحبًا بك في الوطن، تبدو بخير. لا بد أن الجيش الأمريكي يعتني بك جيدًا».

«لست مع...» توقف وتخلص من بقية الجملة. كان الخط الفاصل بين العمل في الجيش الأمريكي والعمل في شركة خاصة متعاقدة مع الجيش

الأمريكي دقيقًا للغاية بدرجة يعلم أنه سيبدو مغفلًا إن حاول تحديده. «كيف يسير الحال معك؟ كيف حال حسين؟ والجميع؟»

«بخير، الجميع بخير. وسَّع حسين و«التتمش» عملهما ـ سيفتتحان سوبر ماركت ثالثًا هذا الشهر.»

ابتسم رضا لهذا. كانت حياته في دبي منفصلة تمامًا عن حياة حسين وابن عمهما الآخر «التتمش» الذي جاء من دلهي، وقد نقلته مهاراته اللغوية وهيئته غير الباكستانية بخفة من المطابخ، حيث يعمل أبناء عمومته، إلى درجة أعلى بين «مكاتب استقبال كبار الزوار» بفنادق خمس نجوم. لكنه أعفى نفسه من أي ذنب شعر به لهذا الانفصال يوم أن أعطى أبناء عمومته مقدَّم شراء أول متاجرهما الصغيرة من مكافأة بداية العمل في «آركرايت آند جلين».

واصل سجاد: «للتو أرسلت زوجتي وأولادي ليعيشوا معهم، الخيار الأكثر أمانًا في سير الأمور الآن. الهنود الأوغاد». ضرب الهواء بعصاه. «لا يفوتون فرصة أبدًا. حسنًا، دعهم يحاولوا مباغتتنا.»

تهكم رضا: «ماذا يحدث حين يحاولون، هل تخيفهم بعصاك الكبيرة؟».

قطب سجاد ـ للحظة تحول وجهه إلى وجه أصغر أفراد العائلة الذي قضى حياته يتلقى ترهيبًا ومضايقات ممن يكبرونه. «لدينا أسلحة أفضل من العصي رضا بيه.»

قال رضا بثبات: «الخيار النووي؟ أمي قلقة لهذا. لكني أخبرتها أن لا أحد بهذا الجنون».

بدا سجاد مستغرقًا في التفكير.

«تلك مشكلتنا. الهند كبيرة جدًّا. كيف يمكننا تدمير قذائفها الصاروخية،

الهيكل النووي في الجنوب، في الشرق؟ ستنطلق النيران على طائراتنا قبل أن تقطع كل تلك المسافة، ولا يمكن لصواريخنا قطع مسافة كهذه. يمكن للهند، على الجانب الآخر أن تقضي على قذائفنا الصاروخية من دون مشكلة. ثم لن يكون أمامنا سوى الأسلحة النووية ولا حل آخر سوى توجيهها.»

توجيه. يبدو لفظ مهذب للغاية.

«أين إذن يتركنا كل هذا؟»

«بخيار واحد فقط. لحظة بداية الحرب، قبل أن يقضي الأوغاد على قذائفنا، نقذف بأكبر صواريخنا في فم حكومتهم بديلي مباشرة لإحداث هذا الخراب الذي يجعلهم يستديرون ويولُّون ولا يفكرون ثانيةً أبدًا حتى في النظر في أعيننا مباشرة.»

«ديلي؟»

«نعم. ديلي.»

اهتزت الأرض تحت قدمي رضا وللحظة ظنها ستنشق وينتفض خارجًا منها سجاد علي أشرف؛ ليسحب ابن شقيقه الذي سُمِّي تيمنًا به إلى القبر معه، لكنه لم يكن سوى ضجيج حافلة تتقدم في طريقها على الممر الجبلي. فجأة استطاع رضا أن يرى السخف في كل هذا، وبدأ يضحك.

«وتتحدث عن تلك المعلومات الإستراتيجية السرية مع رجل يعمل مع جيش الولايات المتحدة.»

قال سجاد متأذيًا: «أنت ابن عمي. ماذا؟ لماذا تبتسم؟»

«إستراتيجيتك هذه. إستراتيجيتنا. نحن أكثر جنونًا منكم. بوسعنا أن نضغط على هذا الزر لأهون استفزاز فلا تستفزونا ولو قليلًا.» ثم تحول

إلى الإنجليزية: «لسنا مجانين، بل أكثر جنونًا. هل تأمل في أن أسرب هذا إلى الهنود عبر البنتاجون؟».

قال سجاد: «لا أعرف عمَّا تتحدث، وإن تصرفْتَ هكذا فلن أعطيك المعلومات التي تريدها، لم يكن من السهل الحصول عليها. أنت تعرف».

رفع رضا يدًا وأمسك ابن عمه من مرفقه.

«آسف. من فضلك أخبرني. ماذا وجدْتَ؟»

اسم رجل في كابول ورقم هاتفه؛ كان هذا كل ما لدى سجاد له: كان هذا الرجل قائد المعسكر الذي قضى فيه رضا تلك الظهيرة المريعة عام ١٩٨٣.

قال سجاد على مضض؛ ليخفي إعجابه بالمغامرة الوحشية التي قام بها رضا في شبابه: «استطعت أن أحدد المعسكر فقط لأن المخابرات الباكستانية لديها ملف باسم رضا أشرف من كراتشي الذي أرسله الأمريكيون إلى هذا المعسكر».

«هل لدى المخابرات الباكستانية أية معلومات عما إذا كان أي شخص في المعسكر قد علم شيئًا عني؟ اسمي، ماذا تظن المخابرات الباكستانية أني كنت أفعله هناك؟»

هزَّ سجاد رأسه.

«ليس من المرجح. لا تتيح المخابرات الباكستانية معلومات لأي شخص إلا للضرورة. بالتأكيد ليس لأفغانيين. لكنني لو كنت مكانك ما عقدْتُ آمالًا على هذا الرجل في كابول. حتى إن تذكر عبد الله صديقك ـ رضا بيه، ما فرص بقائه على قيد الحياة؟»

حتى وإن كان على قيد الحياة، ماذا إذن؟ فكر رضا وهو يقود السيارة

عائدًا أدراجه إلى ثكنته. ماذا لو صار واحدًا منهم؛ ذوي العمم السوداء الذين يمنعون كل بهجة، وينسفون رسل القرون الماضية عن وجوه الجبال. عبد الله، لم يكن بوسعه وقف الذكرى، طوال الطريق إلى بشاور كان يتحدث عن النقوش بوصفها من صنع الكفرة. والنساء؛ كان عبد الله يعرف بدقة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، مكان المرأة في العالم، ولم يكن شيئًا يمكن أن يستوعبه ابن «هيروكو». لم يكن أمرًا مهمًّا حقًّا حينها، للأمانة، لكن الآن، مر أسبوعان فقط على وصوله إلى هذا البلد ورؤية النساء المنقبات، كما لو كن موتى سائرات، تجعله يريد أن يصرخ. في «ميامي» كما في دبي حالت النساء من دون أن تصبح حياته حياة ذكر من ذكور النحل ـ كان الجنس ما يمارسه في البيت طوال الوقت تقريبًا، راقه تمامًا التوازن بين الود والتنقل السريع. سقط سريعًا وبتركيز في غرام كل النساء اللائي دعونه إلى فراشهن، لم ير قط أن ما أحبَّه حقًّا كانت النسخة التي تتجلى منه في رفقتهن؛ نسخة مؤلفة من خفة روح أبيه وجرأة أمه.

مر عند الغروب بجامع، فجعله جمال زرقة السماء عند قبته يخرج من «الهمفي» ويخر على الأرض راكعًا وصوت الأذان ينطلق في الوادي. غرق الأذان في أزيز محرك طائرة مروحية تحلق قريبًا من الأرض؛ للتحقق من «الهمفي» المتوقفة. هبَّ رضا ناهضًا ولوح للطيار وعاد إلى السيارة في اللحظة التي خرج فيها من الجامع عدة رجال مسنين ليروا ما يحدث.

«عذرًا للإزعاج»، قال رضا بالباشتو وهو يميل برأسه خارج النافذة، لكنهم لم يفعلوا شيئًا سوى أن سددوا نظرات اتهام إلى السيارة الأمريكية والرجل الذي تنم ملامحه على انتمائه إلى قبيلة معادية للبشتون. رفع أحد الرجال «الكلاشنكوف» عن كتفه ـ تذكر رضا عبد الله وهو يزيح قطعة قماش، مثل ساحر، ليكشف عن السلاح البراق، وقال آخر: «ابتعد عن هنا».

آخر مرة يتحرك في هذا المكان الحقير، فكر رضا إذ يدخل الثكنة بـ«الهمفي» ويلوح بيده لتحذيرات الحارس السريلانكي الذي شهد ضراوة «هاري» حين اكتشف اختفاء «الهمفي».

سأل: «من جاء في الهليكوبتر؟».

«أمريكي.» رفع الرجل كتفيه كأنه يقول إن الآخرين جميعًا يسافرون برًّا.

٢٩

«هل أخبرْتُكِ من قبل أنني حين وصلت نيويورك كنت مصرة على تحطيم كل قيود حياة مسز «برتون» وأغلالها حتى إنني عاهدت نفسي ألا أدع أي شيء في حياة ابن عمي «ويلي» يصدمني، مع أنه ظل قبل وصولي يرسل إليَّ خطابات؛ ليحذرني من أن دوائره الاجتماعية ليست كتلك التي اعتدتها؟» غطستْ «إلزي» بين الوسائد على الأريكة ولفت ذراعها حول وسادة ترتاح على بطنها.

آل كثير من الليالي الأخيرة في دلهي لمثل هذا المآل تمامًا: «إلزي» بهذا الوضع نفسه على أريكة في غرفة الجلوس، و«هيروكو» تجلس بجوارها على مقعد بذراعين ترشف فنجان شاي بالياسمين، وتتبادلان الحديث. وكما الآن، تتظاهر «هيروكو» دائمًا بأن الحكايات التي سمعتها من قبل جديدة عليها؛ لتستمتع بالحركة التصويرية التي تعيد بها «إلزي» سرد حكاياتها المفضلة.

«وهكذا دخلْتُ، في اليوم الثاني لي في نيويورك، المطبخ في شقة «ويلي» في منتصف الليل لأشرب ماء، فوجدْتُه هناك مع هذا الشاب الجميل - عاريين! - يفعلان شيئًا لم أره من قبل قط، ولا حتى في صورة فوتوغرافية. فتصلَّبْتُ وأخذْتُ كل شيء في اندفاعي وقلت: «لا تباليا بي»، ومررت بهما

إلى الثلاجة. المسكين «ويلي»، كاد أن يفقد الوعي من الإحراج، وفي الصباح عاد الشاب بالحافلة إلى بلده في «أيوا» ولم يعد ثانيةً قط!»

ضحكت «هيروكو»: «حسنًا، لا عجب إذن إن توقفت خطاباتك عن الوصول إلى كراتشي كل هذه السنين، إن كنت كتبتِ أشياء كهذه فلا بد أن الرقباء كانوا يعلقونها في أطر على جدرانهم!».

قالت «إلزي»، وهي تركل بقدمها إلى أعلى في الهواء: «أوه! كنت في أمس الحاجة إلى كل هذا التحرر، نيويورك بعد الحرب. الجنون الأكثر روعة. ظللت أتمنى لو كنْتِ هنا معي».

قالت «هيروكو» بهدوء: «كنت حيث أردت أن أكون».

مدَّتْ «إلزي» ذراعها وأمسكت بمعصم «هيروكو».

«أعلم هذا. كنت أتمنى هذا لمصلحتي أنا، وليس لمصلحتك.» توقفت لحظة. «حسنًا، وهو كذلك. ربما لمصلحتك قليلًا؛ إذ أُولي الكماليات المادية أهمية إضافية، كنت كذلك دائمًا. ليس لي روحك اليابانية الرواقية.»

قالت «هيروكو» بعطف وحدة بالقدر نفسه: «تتحدثين بهراء لا يصدقه عقل».

امتص صوت فتح الباب الأمامي بقوة، وصوت «كيم» تصيح على «إلزي» كل السكينة من الغرفة.

«أبي. هل اتصل بكِ؟ لا أستطيع الوصول إليه.»

«كيم، ما الخطب؟» حاولت «إلزي» أن تنهض لكن جسدها كان غارقًا في وسائد الأريكة ولم يسعها سوى أن ترفع رأسها قبل أن يسقط هو أيضًا بصرخة نفاد الصبر الحادة التي أطلقتها.

«ألم تسمعي الأخبار؟ حاول رجل أن يفجر قنبلة داخل حذائه على متن

طائرة متوجهة إلى «ميامي». ولا أستطيع الوصول إلى أبي. دفعت «إلزي» لتنهض وهي تتحدث، وظننت أن الخرف أحكم قبضته على جدتها حين لم ترد عليها الأخيرة إلا بأن ربتت على خدها كما لو كانت طفلة فقدت لعبتها المفضلة.

قالت «إلزي»: «هناك مئات الرحلات إلى «ميامي» يوميًّا، ووالدك في الأغلب ليس على متن أي منها».

أضافت «هيروكو»: «وجميع من فوق متن تلك الطائرة بخير، ما عدا هذا الرجل الغبي. هل ظل الحذاء في قدمه حين حاول تفجير القنبلة؟ لم يوضح الخبر هذا الأمر».

حركت «كيم» نظرها بين «إلزي» و«هيروكو»، لا تصدق مدى لامبالاتهما.

قالت «كيم»: «إنها طائرة، هجوم انتحاري آخر على طائرة».

سحبتها «إلزي» لتجلس على الأريكة، وأحاطتها بذراعيها: «تعالي هنا. توقفي عما تفعلينه. توقفي عن محاولة تخيل تفاصيل ما قد يحدث لطائرة تحلق في السماء وتنفجر بداخلها قنبلة».

أغمضت «كيم» عينيها.

«لا أحاول تخيلها جدتي. أتخيلها على الرغم مني.» درست الهندسة المعمارية لأنها تسعى دائمًا إلى معرفة كيفية حماية الأشياء من السقوط والانهيار. أدركتْ فقط خلال الأشهر الماضية كم كان عليها أن تتعلم عن السقوط والانهيار لتقوم بهذا.

«لنحاول الاتصال بأبيكِ»، قالت «إلزي» وهي تضرب رقم هاتف الأقمار الصناعية الخاص بـ«هاري». أجاب الهاتف على الفور تقريبًا.

سألت «إلزي»: «هل تواجدت اليوم بالقرب من أي أحذية قابلة للانفجار؟».

«ماذا؟» صاح «هاري» ليعلو صوته على ضجيج شيء ما يبدو أنه طائرات مروحية. «أتعنين رجل الحذاء على تلك الطائرة؟» لا. بالطبع لا. ألهذا كانت «كيم» تتصل؟ للتو وصلت إلى التليفون ورأيت ثلاث مكالمات لم يرد عليها منها.»

أعطت «إلزي» الهاتف لـ«كيم» فصاحت فيه: «حين ترى ثلاث مكالمات لم يرد عليها فربما يكون عليك الاتصال فورًا».

«كنت سأفعل هذا للتو.»

وها هما يبدآن، فكرتْ «إلزي» وهي تتبادل نظرة غضب سريعة مع «هيروكو» التي قالت: «بلغيه حبي له ولرضا» قبل أن تتسلل مبتعدة إلى المطبخ.

قالت «كيم» وهي تنهي الاتصال: «أكرهُ هذا». أراحت رأسها على كتف «إلزي»، لكن بخفة لوعيها بمدى هشاشة عظام العجوز. «أكره أن يبدو مألوفًا، أن أحاول الوصول إليه. تلك الساعات التي لم أستطع فيها الوصول إليكِ في ٩/١١...»

قالت «إلزي»: «كانت دقائق، ليست ساعات، انظري، بشرتك صغيرة جدًّا مقارنة ببشرتي قد نكون مخلوقات من فصائل مختلفة». أراحت يدها على يد «كيم»، ربتت عليها برقة.

«أريد فقط أن يعود العالم كما كان.» لم تقل «إلزي» شيئًا، فقط استمرت تربت على يد «كيم». مع جدتها فقط كان يمكن أن تشعر بهذا، بأنها تغرق في السلام. كان أبوها سيرد بشيء ما من طراز التحليلات السياسية للمخابرات

الأمريكية عن تحوُّل التيارات الجيوسياسية. والأسوأ منه أمها، التي كانت سترد، بمعرفتها الزائفة بعلم النفس: «الآن، «كيم»، عزيزتي، تعرفين أن هذا يفسح المجال لكل مشاعر الفقدان والخوف المكبوتة بشأن أبيكِ وطلاقي منه. أعلم أنك اخترت مهنتك هذه لأنك بطريقة ما تحاولين التكفير عما تعتبرينه عجزك عن حفظ كيان زواجنا متماسكًا. لذلك فحين يسقط أي شيء أو ينهار يُعيد إليك هذا الشعور بالفشل الشخصي الذي شعرت به حين انهار الزواج». وكانت تؤكد دائمًا على كلمة «انهيار» كأنها وحدها تثبت رأيها في أن شغف «كيم» بالهندسة يدور حقًّا حولها هي فقط.

«عايشت «هتلر»، و«ستالين»، والحرب الباردة، والإمبراطورية البريطانية، والفصل العنصري، والحكم العنصري، والله أعلم ماذا أيضًا. سينجو العالم من كل هذا، وبقدر ضئيل جدًّا من الحظ سينجو أيضًا كل من تحبينهم. لكن من الجائز جدًّا أنك في حاجة إلى عطلة ما قبل أن يحدث هذا.» شدَّتْ «إلزي» على يدي «كيم» بحسم في الجملة الأخيرة. كانت «كيم» قد قالت إنها جاءت إلى نيويورك فقط لحضور اجتماع لتسوية تفاصيل انتقالها بشكل نهائي، وقد تحظى بعده بعطلة حتى نهاية أعياد الميلاد، لكن بطريقة ما آل بها الأمر، بدلًا من العطلة، إلى العمل في مشروع خارجي بمكتب نيويورك.

صدر عن «كيم» صوت حيادي من أعماق حنجرتها.

«لا أعرف كيف استطعْتُ ألا أقلق على بابا أبدًا طوال تلك السنين التي كان يعمل فيها مع المخابرات الأمريكية. لكن الآن...» توقفت إذ قرصتها «إلزي» وهي تشير برأسها ناحية المطبخ حيث قد يصل صوتاهما. لم تتحدثا عن الأمر قط، لكنهما عقدتا اتفاقًا ضمنيًا على أن تتركا «هيروكو» تصدق تعبيرات رضا و«هاري» بلطف عن عملهما الإداري في الأمن. قالت خافضة صوتها: «كل شيء في العالم مخيف للغاية، لا شيء أكثر إرهابًا من فكرة أين

قد يكون، ماذا يفعل. أنا مرعوبة طوال الوقت، طوال الوقت. وأكره هذا، لا بد أن هذا يجعل حضوري مضجرًا بشدة».

قالت «إلزي»: «محادثتك طالت قليلًا بشكل ما عن الحد، أتمنى أحيانًا لو كنت في لندن في أثناء الحرب فقط؛ لأستطيع أن ألهيكِ عن هذا بقصص عن الحرب الخاطفة».

«لا تلومي نفسك لهذا، لم يكن ليجدي.» منحت جدتها قبلة مدويّةً على خدها.

«أعني ما قلته عن العطلة.» تحدثت «إلزي» بتلك النبرة الوقورة التي لا تستخدمها إلا حين تكون جادة للغاية في قلقها على «كيم».

«أعرف أنك تعنينه. لكن الآن، أنا في حاجة إلى مكان أذهب إليه على الأقل خمسة أيام في الأسبوع؛ حيث أشعر بقدر من السيطرة.»

أدركت «إلزي» منذ وقت طويل، وكانت تعرف حفيدتها بأفضل مما يعرفها والداها إلى حد بعيد، أن ما يجذب حفيدتها إلى المهنة التي اختارتها هي حاجتها إلى السيطرة، وليس إلى التكفير عن عجزها عن حفظ زواج وهي في الرابعة من عمرها. ما زالت تتذكر تعبير وجه «كيم» ذاك اليوم، تعبير من قام بإنجاز ضخم ـ جامح تقريبًا ـ يوم جاءت من الجامعة لقضاء عطلة الشتاء وقالت: «تعلمت كيف أشيد مبنى مضادًّا للزلازل!» كما لو كان شيئًا يمكن فعله للدفاع عن نفسك إن انشقت الأرض من تحت قدميك.

مسكين «جيري»! وجدت «إلزي» نفسها تفكر بتعاطف غير متوقع في الرجل الذي لم تظن قط أنه جدير بحفيدتها. اختارته «كيم» ابتداءً؛ فقط لعلمها أنه لن يشعرها بفقدانها السيطرة. كانت قد اكتفت من مثل هذا الشعور وهي مع أبيها. أرادت دائمًا أن تستجمع لامبالاتها سواء لغيابه أو لحضوره، وتثور

للغاية حين تشعر بشيء آخر غير اللامبالاة. وبالطبع، كان المطاف ينتهي بها دائمًا بقطع علاقاتها مع كل «جيري» في العالم؛ لأن طبعها الأساسي ببساطة كان متَّقدًا للغاية بما لا يسمح بأن تركن إلى أحد قد تشعر تجاهه ببرود تام. يومًا ما، فكرت «إلزي»، يومًا ما سيأتي أحدهم ويدقها من جانبيها. وسيكون ذلك أفضل ما يحدث في حياتها أو أسوأه.

«عمَّ كنتما تتحدثان قبل أن أحلق مثل طائر الشؤم؟» كانت «كيم» قد خلعت حذاءها ذا الرقبة الطويلة وتقوقعت جالسة على الأريكة، وجسدها مرتاح بعد أن اطمأنت على «هاري».

ضحكت «إلزي»: «حكاية «ويلي» في المطبخ».

«إن كان ثمة فردوس لكان الخال «ويلي» ينظر إليك الآن بحنق من أعلى هناك.» قالت «كيم» وهي تهز رأسها كأنها تستنكر، لكن «إلزي» كانت تعلم أن «كيم» تحب هذا الجانب الفاجر فيها، وكثيرًا ما تلح عليها لتقول أقبح الأشياء بابتسامة أو لمعة في العين.

«هراء. إن كان ثمة فردوس فسيكون «ويلي» مشغولًا بما كان يقوم به في المطبخ، أو فلن يكون الفردوس بالنسبة إلى «ويلي».» فجأة بدأت تثرثر: «تخيلي لو أن هؤلاء الانتحاريين انتهى بهم الأمر في فردوس «ويلي». تخيلي النظرة على وجوههم».

«جدتي، هذا ليس مضحكًا.»

«إنه مُهلك من الضحك! «هيروكو»، أليس مُهلكًا؟»

عادت «هيروكو» تدخل الغرفة وناولت «كيم» كوبًا ساخنًا يتصاعد منه البخار.

«حين عرفتها أول مرة كانت مؤدبة، أحلف لك، كانت كذلك.»

كان ضحك «إلزي» رائقًا وحرًّا؛ ضحك امرأة تعرف عِظَم حظها حين حظيت بعمر ثانٍ.

كان هذا الضحك هو ما تذكرته «هيروكو» بعد ذلك بأيام، حين عادت «كيم» إلى «سياتل» لتحزم أمتعتها استعدادًا لنقل حياتها إلى نيويورك، ولم تجبها «إلزي» حين طرقت باب غرفة نومها بحدة تسألها إلى متى تظل نائمة. تذكرت الضحك حتى قبل أن تفتح الباب وتتلقى تأكيدًا لما تعرف مسبقًا أنه وقع حقًّا.

أبعدت خصلات الشعر بعيدًا عن وجه صديقتها المطمئنة. فكرت أن الموت قد يتخذ هذا الشكل أيضًا. لا يتخذ شكل حراشف وظلال وجروح طلقات رصاص فقط، السلام ممكن أيضًا في النهاية.

رفعت سماعة الهاتف الموضوع على الطاولة المجاورة لسرير «إلزي» وضربت رقم هاتف رضا. حين أجاب كان صوته شاردًا في البداية، لكنه تحول إلى الانتباه ما إن سمع نبرة صوتها، قالت: «رضا شان، عليك أن تكون في عون «هاري» اليوم، توفيت «إلزي» في أثناء نومها». حين اطمأن تمامًا أنها لن تنهار وأنه لا داعي لأن يتصل بأي أحد في نيويورك ليذهب إليها ويعينها أغلقت الخط وجلستْ مع «إلزي» دقائق قليلة أخرى، تبكي بحزن، ليس بيأس.

ثم تنفست بعمق، تساءلت أي جزء من روح «إلزي» لا يزال يتلكأ في الغرفة ليمنحها القوة على أن تقوم بما لا طاقة لها به، واتصلت بـ«كيم» لتخبرها بوفاة جدتها.

٣٠

سار «هاري» في النهار الشتوي الساطع، تحالف الحزن واضطراب الطيران وقتًا طويلًا؛ ليجعلا كل ما في نيويورك يبدو لا بأس به قليلًا. كان قد توقع أن يعود ويجد المدينة كما تركها أواخر سبتمبر، حفلة رقص عظيمة في وسط المدينة وقلق الناجين في الطوابق العليا، لكنه وجد بدلًا من هذا مزجًا بين طبع المدينة في القفز إلى الأمام ومتطلبات التراجيديا التي تصر على التمسك بالأسى كحبيب يحتضر.

أراد هو أن يفرغ منه، من أساه الخاص، كان لا يُحتمل، يتوغل في كل شيء. شبحها في كل مكان على امتداد شوارع «سوهو». هل شعرت «كيم» به أيضًا؟ تلفَّت على جانبيه يبحث عن ابنته، كانت تلحق بخطواته الواسعة بسهولة. مظهرها كله بمثابة تحذير: بنطلون جندية، حذاء برقبة له طرف معدني، وسترة مهاجم أغلقت نصفها لتكشف عن التِّيشيرت الأسودِ أسفلها. شعرها النحاسي المقصوص حديثًا ينساب بنعومة على جمجمتها التي تشبه جمجمة الفهد يميل إلى الأسود قليلًا بسبب الصبغة التي لم تختفِ كليًّا بعد.

«أعطيك بنسًا إن قلْتِ فيمَ تفكرين أيتها النَّمِرة»، قال محرجًا قليلًا لعجزه عن إسقاط الأكليشيه.

لمحته سريعًا: «كانت جدتي نصف سبب انتقالي إلى نيويورك. لم تكن تعلم أني سأنتقل إلى نيويورك، أليس كذلك؟».

«لا. لكن هذا رائع، أقصد أنني طالما تصورتك هنا. أعلم أنك بقيت في «سياتل» فترة... لكن التلال، موسيقى «الجرونج»، تعمد شرب القهوة! لا، لا، لا، ليست تلك ابنتي. بدا ذلك دائمًا كإحدى النزوات القصيرة، تعرفينها؟»

«أعرف النزوات القصيرة أبي، لكن ليس بقدر ما تعرفها.» ابتسمت وعلَّقتْ ذراعها في ذراعه.

كان مندهشًا، لكنه بعيد كل البعد عن الانزعاج، ضغط على ذراعها وحاول أن يفكر عما بوسع أب أن يقول في هذه اللحظة، ما زالت عينا ابنته حمراوين من البكاء، كما كانتا حين وصل بالأمس في الوقت المناسب تمامًا ليدفن «إلزي».

«ماتت حبيبتي كما أرادت أن تموت. في أثناء نومها بسلام، بعد عشاء صاخب مع أقرب أصدقائها كما أخبرتني «هيروكو». ليتنا جميعًا لنا هذا الحظ.»

قالت «كيم» وهي تسند رأسها على كتف أبيها: «لا يقلل هذا من افتقادي لها».

سارا هكذا فترة على الرغم من أنه وضع مربك قليلًا، كان ركود ما بعد عيد الميلاد قد خفف من زحام «سوهو»، مما جعل «هاري» ممتنًّا. قضى خلال الأسابيع الماضية وقتًا طويلًا جدًّا في ممرات جبلية ضيقة، وما زال جسده يتلبس وضعية الخطر. سلالم النجاة تتعرج في انحناءات مسيجة على طول البنايات تبدو كأعمدة فقرية مشوهة، لواها شخص عن عمد بقصد تشويهها، وعلى جانبي الطريق تلوح في الأفق مبانٍ، تعكس نوافذها ضوء الشمس كبراميل بارود.

قال: «ما النصف الآخر مِن سبب انتقالك إلى نيويورك؟».

«هذه.» لوحت «كيم» بيدها نحو الأعلام التي ترفرف على البنايات، ثم أشارت برأسها إلى الأفق الخالي. الأمر بشأن المهندسين المعماريين، أبي، أننا عرفنا فورًا. فتحنا التلفزيون، رأينا اللهب وعلمنا أن المبنى سيسقط. كان لبقية المدينة رحمة دقائق قليلة، لكننا كنا مثل «كاسَنْدرا» نقف أمام أوائل الصور، نقول لأنفسنا سينهار، رأسًا على عقب، ثم الثاني؛ منذ تلك اللحظة لم أرغب في شيء سوى أن أعود إلى هنا.

نظرت حولها بشراسة. «سنظل نبني.»

«كاسندرا»! فكر «هاري». لأنك تنبأْتِ بكارثة شاملة قبل ساعة من وقوعها؟ ساعة واحدة فقط.

قال «هاري»: «إن أبطأت البناء سينتصر الإرهابيون»، وشعر بذراعها ينزلق عن ذراعه.

قالت: «يبدو لي أنه أمر تافه جدًّا بالنسبة إليك. الموت والدمار. أمر في مصلحة العمل، وليس مفاجئًا على الإطلاق». انحنت بجوار عمود إنارة وغمرت يدها في الفراء السميك لكلب ضخم من نوع «كولي» مربوط به، يحنقها مدى حاجتها إلى تفهمه. تسلل البرد إليها من الرصيف عبر بنطلون الجندية.

مد «هاري» يده قليلًا والكولي الذي تلقى اهتمام «كيم» بطريقة أرستقراطية لا يتلقى زيادة عما له أن يتلقاه، مد أنفه إلى راحته.

خائن، فكرت «كيم».

«ليس مفاجئًا، نعم»، قال «هاري». حقًّا لم يفاجئه ١١/ ٩ على الإطلاق،

بل كان في الواقع يفترض وجود صلة ما للجهاد بتفجيرات «أوكلاهوما سيتي» عام ١٩٩٥، لكنه ذُهِل من رد فعله، عُمق غضبه، تمنيه أن يتوقف العالم بأسره، ويبكي معه المدينة التي احتضنته وهو في الثانية عشرة؛ كان يوم ١١/ ٩ في جمهورية الكونغو الديمقراطية يقوم لـ«آركرايت آند جلين» بعملية تأمين شركة استيراد ألماس بلجيكية، وكان واعيًا جيدًا بمدى عدم التناسب الذي لا بد أن يبدو عليه مع بلد فقد أكثر من مليونين ونصف شخص في حرب بدا أنها لا تضع أوزارها أبدًا. جلس يوم ١٢ سبتمبر بالآلة الحاسبة، وتوصل إلى أنه، ما يزيد على ثلاث سنوات، ظل يتوفى أكثر من ألفي شخص يوميًا، لكنه لم يستطع توصيل تلك الأرقام بمشاعره. «ولصالح العمل بالطبع، للغاية.»

«حسنًا، هذا صدق»، قالت «كيم» وهي تنهض وتضرب بكفها بنطلونها القتالي بحمية أكبر مما يلزم لنفض الغبار.

«إنه مجرد جزء من القصة. كلٌّ منا يسمع أجزاء متفرقة فقط من قصص الآخر أيتها النمرة.»

حدقت فيه وهزت رأسها: «نحن؟ أنت من يظل يرحل».

«أنا هنا الآن.»

«إلى متى؟»

نظر بعيدًا.

«ظننت هذا.» على الرغم من خيبة أملها، كان ثمة رضا في أنها على حق.

«كيم، أنتِ وأنا، سنقضي معًا أوقاتًا طويلة قريبًا. أطول مما تريدين. لك أن تعتبري هذا وعدًا أو تهديدًا.»

قالت بصوت يخنقه عدم التصديق: «بالطبع، حين ينهزم المطلق... أم إنك ستلاحق الرعب والبؤس بعد هذا؟».

لم يستطع منع نفسه من الضحك.

«أبوك رجل عجوز. سأتم الخامسة والستين في يونيو. حان وقت التقاعد حبيبتي.»

زامت «كيم».

«لن تتقاعد أبدًا.»

أقر: «حسنًا، لا بأس، لكنني سآخذ عطلة. ما رأيك في أن نذهب إلى دلهي معًا؟ أُريكِ طفولتي».

كان ذلك وعدًا قديمًا لم يسعها سوى أن تنجذب إليه، لهذا الشيء في «هاري برتون» الذي يجعل ابتساماته لا تُقاوَم، حين يقول شيئًا يعنيه. لهذه اللحظة.

أتاهما وهما يعبران الشارع صوت أنين من خلفهما، استدارت «كيم» لتجد الكلب الكولي مربوطًا بطوقه وعيناه مثبتتان على «هاري». مزرٍ، فكرت «كيم» حتى وهي تدع «هاري» يأخذ ذراعها ويعلقها على ذراعه ثانيةً.

قالت: «ماما ترسل تعازيها. عرضت أن تأتي بالطائرة، لكني لست متأكدة من قدرتي على التعامل مع كليكما في الوقت نفسه».

كانت ضحكة «هاري» إقرارًا بأنها على حق قبل أن يعلِّق بخفة: «كيف حالها؟ ما زالت تبرع في إخفاء وجع قلبها خلف قناع السعادة التامة مع ما اسمه؟».

«نعم أبي، لا تزال سعيدة في زواجها. وقلقة للغاية بشأني مع هذا. تظن أن عليَّ لعنة ما لأني لا أستمر في علاقة لأكثر من ثلاثة أشهر، نصحتني آخر مرة تحدثنا فيها بألا أخبر الرجال بمهنتي. أمر واضح جدًّا، المهندسة مفتولة العضلات. هذا يخيف الفتيان. أظنها تحاول إخباري أني بالمصادفة جئت سحاقية».

قال «هاري»: «أنتِ بالمصادفة جئت أنتِ، وإن ظن الفتيان أن هذا يقصيكِ عن تجمعهم، فهم في الغالب على حق!».

كانت تعلم أنه لا يحاول كسبها بإطراءات رخيصة. ماذا يُقال غير هذا عن «هاري برتون» الأب. لم يكن يترك مجالًا للشك في إيمانه بأن ابنته أفضل ما قدمته له حياته على الإطلاق. أخذت يده في يدها كما تعوَّدتْ حين كانت صغيرة بما يكفي لتتظاهر بالحاجة إلى مساعدته في عبور الشارع.

بعيدًا على الجانب الآخر من الشارع وقفت امرأة أنيقة ـ في معطف شتوي بلون وبر الجمل وبيريه يميل قليلًا على رأسها بمرح ـ تُمعن النظر في نافذة عرض متجر.

«إلام تنظر؟» همس «هاري» مذعورًا، وضحكتْ «كيم» وتركتْ ذراعه لتندفع نحو «هيروكو». كان يهيمن فوق نافذة العرض عارض في حلة جلدية ضيقة وأسفل معصمه بروز لا يمكن تصديقه. وضعت «كيم» ذراعيها حول كتفي «هيروكو» ووقفا هناك؛ نصف دامعتين، نصف ضاحكتين، تتذكران توقف «إلزي» أمام هذا العارض يوم عيد ميلادها التسعين وهي تقول: «ترى كيف يكون هذا العقد؟ لم يكن العقد التاسع من عمري كما توقعته؛ «فياجرا»، تعرفان. زحف كل هؤلاء العشاق القدامى من دولاب المشغولات الخشبية».

تنحنح «هاري» بتردد خلف المرأتين وغمزتْ «كيم» لـ«هيروكو».

قالت: «ليس مستعدًّا بالمرة لسماع هذا.»

شبَّتْ «هيروكو» على أطراف أصابعها، طويلة بقدر ما يسمح به كعب حذائها المعقول، وقبَّلتْ خدَّ «هاري» وهي تلحظ اندفاع الحمرة فيه يكشف عن مدى ندرة تلك الإيماءات في حياته.

قالت وهي تأخذ ذراعه: «تعال معي إلى الصين».

راقبتْ «كيم» أباها وهو يعدل مشيته بحرص ليوائم خطوات «هيروكو» من دون أن يوضح أنها تبطئه، وعرفت فجأة أنهم سيذهبون إلى دلهي، هي و«هاري» و«هيروكو»، ورضا.

لم تقابل «كيم» رضا أشرف علي من قبل قط ـ لم يتصادف قط أن تزامنت رحلاته الخاطفة إلى نيويورك ليرى «هيروكو» مع إقامتها هناك الأكثر تقاربًا وتكرارًا ـ لكن صورته كانت في إطار على رف المدفأة في شقة شارع «ميركير»، وكان اسمه يتردد كثيرًا على لساني «هيروكو» و«هاري»، لذلك ربما لم يدهشها أن يجد أحيانًا طريقه لأحلامها. كان يظهر في أغرب المواقف، ولم يكن حضوره مفاجأة قط.

فكرت في أنه ربما يقود أحدهما الآخر إلى الجنون لو التقيا. كان واضحًا أن رضا مجرد نسخة أخرى من «هاري». فشخصيتاهما في انتظار تصادم لا مناص منه. وجدت نفسها تبتسم لهذا الخاطر وتتلكأ خلف «هاري» و«هيروكو» وهما يقتربان من «تشيناتاون»، وذهنها في دلهي بالفعل.

كان «هاري» سعيدًا للمسافة بينه وبين ابنته، لئلا يرى استنكارها العدائي وهو يجيب بصرامة على سؤال «هيروكو»: «بالطبع رضا ليس في الهند

ولا في باكستان. لقد وعدتك أن أبقيه بعيدًا عن الخطر، أليس كذلك؟».

قطع «هاري» وعودًا كثيرة، لكن هذا الوعد الذي قطعه لـ«هيروكو» من الوعود القليلة التي بذل قصارى جهده للوفاء بها. كان يضمن، بأقصى ما يمكنه، أن يُبقي رضا في العالم المجدب في مقر «آركرايت آند جلين» بـ«ميامي»، يشق طريقه في ترجمة اجتماعات العملاء والعقود والرسائل الإلكترونية والمكالمات الهاتفية المسجلة. لكن أفغانستان مختلفة؛ أول تعاقد بين «إيه آند جي» مع جيش الولايات المتحدة، فرصة أصابت المساهمين بالدوار لتوقعاتهم على المدى القصير والطويل. وكان رضا كونراد أشرف، المترجم العبقري الذي مر من قبل باعتباره أفغانيًّا، عنصرًا أهم من أن يتركه وراءه.

ترددت «هيروكو» في طرح سؤالها التالي. سؤال يتعلق بمسألة لم يناقشاها من قبل قط منذ وقفا معًا أمام جثمان سجاد. سمحت لنفسها بدقيقة تقرر فيها أفضل صيغة لطرح المسألة، أبطأت سيرها ونظرت إلى الملصق البالي على جدار المبنى العالي المزدحم بالصور والإعلانات. كان لصورة شاب صغير وكلمات تقول: «مفقود منذ ١١/ ٩. إن كان لديكم أية معلومات عن «لويس ريفيرا» برجاء الاتصال على...»

تذكرت محطة القطار بناجازاكي، يوم اصطحبها «يوشي» إلى طوكيو. كانت الجدران تشغي بملصقات عن مفقودين. اقتربت لتلتقط ابتسامة «لويس ريفيرا»، تفاؤل متحرر. في لحظات كهذه يبدو من الخطأ تمامًا أن يظن المرء نفسه من زمن مختلف عن زمن ناس هذه المدينة.

اندفع السؤال من فمها: «لا شك في أنه لا يزال لك أصدقاء في المخابرات الأمريكية؟».

قال وهو يعي إلام يشير سؤالها تحديدًا: «يبذل الجميع قصارى جهدهم لضمان أن يتراجع الجانبان إلى الخلف «هيروكو»».

كانت إجابة تثق بها أكثر من أي قول مُطمئن عن عدم نشوب حرب نووية. ربتتْ على يده واستدارتْ تبتعد عن «لويس ريفيرا»، وقد جاءت «كيم» لتقف بجوارها وتحدق فيه.

تذكرت وهي تدخل فوضى شوارع «تشيناتاون» ـ التي تجعل من المزاحمة والمشاكسة «أسلوبًا» تبدو أمامه بقية شوارع «مانهاتن» هواة؛ السعادة التي شعرت بها حين جاءته أول مرة واكتشفت أنواع خضراوات كثيرة لم ترها منذ ناجازاكي. لا تزال تتذكر بعض أسماء السلع الصينية التي كانت أمها تشتريها من الحي الصيني، وتذكرت أيضًا الأسماء التي اخترعها «كونراد فايس» للخضراوات التي لم يكن يعرفها: كان الباك شوي «كرنب تعصف به الريح»، شرائح ثمرة جذر اللوتس كانت «زهرة متحجرة»، والجنزبيل الذي كان سجاد يأكله بكميات، بغمس عصيه الصغيرة في مخلل الـ«أشار»، كان «عُقد الأرض».

توقف «هاري» بجوار رجل يجلس القرفصاء يحرك ثلاث سمكات ميتة على الرصيف ومن حوله رجال يلوحون بأيديهم ويصيحون. خدعة ما، رهان ما؛ كان مصرًّا على كشفها، مما أتاح لـ«هيروكو» وقتًا للنظر في صناديق الكرتون المليئة بالفاكهة والخضراوات أمام متجر ضيق. أشارت إلى الكرات الصفراء المخضرَّة في صندوق ووجدتْ نفسها تقول «هونج زاو»؛ كلمة لم تنطق بها منذ ناجازاكي. كانت بالأردية «بير»، ولم يكن لديها فكرة عن اسمها بالإنجليزية.

ناجازاكي. لمسَت ظهرها.

قال «هاري»: «هل هذا «بير»؟» فابتسمت لابن أخت «كونراد».

كان قد اختفى من حياتها سنوات بعد وفاة سجاد قبل أن يأتي إليها في بداية التسعينيات في «أبوت آباد» ليقول إنه استقال من عمله السابق (حتى حينذاك لم يردد اسم صاحب عمله السابق)، وإنه الآن يعمل في الأمن الخاص ـ حارسًا شخصيًا ذا باع حقًا ـ لكن العمل يحتاج إلى مترجمين لذلك كان يتساءل عن رأي رضا في العمل معه. لم يخطر لها هل تغفر له كذبه عليها وعلى سجاد أم لا؛ كان من «آل فايس» ويعرض على رضا فرصة للهرب من هذا الجزء الخالي من الروح الذي هو دبي. بالطبع قال إن رضا بالتأكيد لن يكون على خط النار.

بعد دقائق قليلة كانت «هيروكو» و«هاري» يرتاحان على دكة خشبية بمتنزه «كولومبس»، و«كيم» تدير بين أصابعها، بِحَيرةٍ، فاكهةً ذات رائحة غريبة يتناولها أبوها و«هيروكو» بنهم وحنين.

قال «هاري»: «إن انتقلْتِ إلى نيويورك فيجب أن تقيمي في هذا الحي».

«هنا؟ لماذا؟»، نظرتْ حولها تبحث عما قد يكون في هذا الحي ليجعل أباها يتصورها فيه: أكان التوأمان المتجعدان اللذان يرتديان قلنسوتي بيسبول وهما يلعبان شطرنج صيني على الدكة المقابلة؟ أم النسوة اللائي يحكمن إغلاق معاطفهن وهن ينحنين على قطع لعبة الـ«ماه جونج»؟ أم الرجل الأعمى الذي يربت الهواء بلمسات طويلة وبطيئة بينه وبين امرأة تحدق فيه مباشرة وهي تغني بنبرة عالية ومأسوية، يصحبها رجال بآلات وترية باكية؟

قال «هاري»: «هكذا». إن قال لها إنه إذا أراد أحدهم قصف أمريكا ثانيةً فغالبًا لن يفكر في عمل هذا في «تشيناتاون»، فستقول إن عمله أصابه بجنون

الارتياب. لكنها استدارت تنظر إليه وقد تركت تعبيرات وجهها الحيرة وحل محلها التفهم. كان ثمة ابتسامة ضئيلة ـ تشكر له اهتمامه ـ ثم إيماءة.

أزعجته الإيماءة. لا يجب أن تعي الخوف بما يكفي لتعلم ما كان يفكر فيه. تذكر كيف تجمدت ذات مرة حين بدأ يسيران ليريا رجلًا داكن الشعر يفعل شيئًا ما في حذائه. ضحك حينها وقال: «إنه يعقد رباط حذائه يا «كيم» ولا يفجِّر قنبلة». لكنه الآن لم يعد يرى هذا مسليًا. كان الخوف ضرورة في أودية أفغانستان، وقد تدرب على استخدامه. لكن ماذا تعلم «كيم» عن التحرك في العالم والخوف في ظهرها؟ أسلحة في أيدي مبتدئين، فكَّر، وأدرك حينها ما يقلقه في نيويورك بهذه الصورة.

قالت «كيم»: «أخبرْتُ «هيروكو» بأننا سنبقى معًا في شقة جدتي إلى أن أقرر أين أريد أن أقيم»، وقضمت الفاكهة الخضراء المصفرة محاولة التظاهر بأنها تستمتع بمذاقها المر.

فسَّرتْ «هيروكو»: «كل منا تظن الأخرى في حاجة إلى العناية بها». ونظرت إلى الثمرة نصف المأكولة في يد «كيم»، وقالت: «تلك ليست ناضجة، لا بد أن مذاقها مريع. لماذا تأكلينها؟».

بصقتْ «كيم» الفاكهة في منديل ورقي ناولتها «هيروكو» إياه.

قالت: «لم أرد مضايقتكما بالقول إنها مقرفة».

تنهَّدتْ «هيروكو»: «أوه! عزيزتي، سيكون العيش معك كابوسًا إن أصررت على الحساسية الثقافية».

قالت «كيم»: «إنها فاكهة صغيرة لها رائحة غريبة، ويبدو من الجنون أن تحبيها».

ابتسمت «هيروكو»: «ممتاز، شكرًا. وعليك أن تنوعي مجموعة ملابسك، كم تيشيرت أسود لديك؟».

راقبهما «هاري» بسعادة. بصرف النظر عما كان يحدث في العالم الأوسع، على الأقل وجد أخيرًا «آل فايس برتون» و«آل تاناكا أشرف» مساحات للتعايش فيها، تاريخًا مشتركًا معقَّدًا لا يفضي إلا إلى تعميق معين للصداقة بينهما.

٣١

خطا «هاري برتون» في العالم الأخضر على كتلة قاتمة من التراب، وشاهدها تنشق عن وميض فوسفوري. خلع نظارة الرؤية الليلية عن عينيه وأشار إلى جمرة متوهجة وعيناه تتكيفان مع ظلمة الكهف.

«كان هنا شخص، منذ وقت ليس بالطويل.» تحسس بأصابعه جدران الكهف فعثر على نقش أسفل سواد الدخان تبعتْه أصابعه ليكتشف حفرًا لصقر.

«عرب؟» سأل «ستيف» زميل عمله السابق الذي ظل معه منذ انتقاله إلى الجناح العسكري بالمخابرات الأمريكية. يقصد «القاعدة».

رفع «هاري» كتفيه.

«الصور ليست من شرعهم في الإسلام.»

أشار «ستيف» بضجر إلى المقاول الذي دخل من كهف الاتصال: «نعم، لكن القتل الجماعي كذلك، لا بأس. قل للرجال إننا سنعود أدراجنا. لا شيء هنا مجددًا».

قال المقاول قبل أن يعود إلى الكهف المجاور: «كأنهم يعلمون أننا قادمون».

شك «هاري» في إمكانية وجود أي شخص هنا يستحق القدوم إليه. لو كان أفغانيًّا لراح يشعل نيرانًا ويطفئها في كل كهف في تلك الجبال قبل أن يهرع ليطلب مكافأة تقديم معلومات من الأمريكيين الذين كانوا يتصرفون كأنهم يملكون غابة ممطرة من أشجار تثمر نقودًا. بصق على قفازه وأزال الغبار عن الصقر. كان مخلوقًا من فن رفيع؛ أحد مخالبه يعلو بإمرة متعجرفة. تساءل في نفسه منذ متى ظل جاثمًا في عفونة الكهف، ينصت إلى هدير المعارك يعلو وينحسر. لعل أحد المجاهدين العرب من الثمانينيات وضعه هنا.

لطالما شعر بالضيق من إشراك «مقاتلين أجانب» في الحرب الأفغانية ضد السوفييت. لم يكن ذلك لأن، تلك أول مرة يعترف بهذا، ليس لديه أدنى شك فيما سيتكشف عنه التاريخ في العقدين القادمين، بل ببساطة لبعض مثالية لا تزال عالقة بداخله تجعله يلمس نبلًا في نضال شعب؛ لاسترداد أراضيه من قبضة قوى عليا، ولا يسعه إيجاد أي نبل مماثل فيمن أتوا لقتال الكفرة الذين استولوا على أراضي مسلمين. بدا سلوكًا ينتمي إلى القرون الوسطى تمامًا.

خطا خارجًا من الكهف على نتوء جبلي، سحب منظاره المقرِّب من فوق ظهره ليرى الأرض الممتدة وراء مجرى النهر الجاف والأودية القاحلة. في سهول منطقة «جومال» كانت السماء والأرض من قرون مختلفة؛ واحدة تشقها المروحيات، والأخرى تلطخها أطلال قلعة وحطام بيوت طينية. لم يبقَ هنا شيء حيٌّ بعد عقدين من الحرب؛ اللهم إلا أجمات العرعر، ومجموعات صغيرة من القرويين.

قال: «نجعلها خرابًا ونسميه سلامًا»، ولم تكن المرة الأولى، وهو يضع بندقيته الـ«إم فور» على الأرض ويجلس بجانبها بتثاقل، الجبل خشن إذ يريح عليه ظهره.

كان بقية فريقه - جميعهم أصغر وأكثر لياقة منه - بالفعل في طريقهم يهبطون الجبل ويغنون أغنية مرتجلة عن «السمر بين مقاتلين»، على وزن «آركرايت آند جلين». ومن ورائهم الأفغان الذين جاءوا معهم، ولكن بهدوء عنهم.

قال «ستيف» وهو يمسك الـ«إم فور» ويمد يده بها إلى «هاري»: «أتريد أن تصاب بطلق ناري؟ هيا، تحرك».

«إن أطلقوا النار عليَّ فسنعرف مكانهم. لسْتُ جائزة مهمة لهذه الدرجة.»

قال «ستيف» وهو يلقي بالبندقية في حجر «هاري» ويشعل سيجارة: «متى أصبحت ندَّابًا هكذا؟ يلحُّ الناس عليَّ بالسؤال عما حدث، بحق الجحيم، لـ«هاري»».

«صار الناس من حولي أغبياء. مما يصيبني بالخبل.»

أحنى «ستيف» جذعه كله: «المتبصر العظيم «لالا باكش» يتحدث».

لم يُعْنَ «هاري» بالردِّ عليه. ظل منذ وقت طويل يشك في أن «ستيف» هو من سرب إلى المخابرات الأمريكية في بداية التسعينيات معلومات عن هوية «العنصر الداخلي» الذي كتب مقالة لاذعة في صحيفة مدافعة ومؤثرة عن قرار المخابرات الأمريكية إدارة ظهرها إلى الأفغان بعد جلاء السوفييت. كان «ستيف» أحد القليلين الذين يعلمون أن «لالا باكش» - الاسم المستعار لكاتب المقالة - كان أيضًا المُربِّي البشتوني لـ«هاري». لم يأخذ «هاري» ذلك على محمل شخصي قط؛ فقد كان يخطط للاستقالة من المخابرات الأمريكية على أية حال، وبالفعل لم يؤثر اضطراره إلى التعجيل بذلك أشهرًا قليلة إلا بفارق قليل في حياته.

«أظن أنك فخور الآن بنفسك للغاية. كنت على حق. كان الآخرون

كلهم مخطئين. ارتدَّ الجهاد علينا، كانت تلك صياغتك، أليس كذلك؟» أطلق «ستيف» صوتًا ضعيفًا من بين أسنانه الأمامية، تذكر «هاري» أنه صوت الاشمئزاز الذي كان يصدره عقب كل اجتماع مع المخابرات الباكستانية.

«لم أقل «ارتد»، ولم أظن أننا سنعود إلى هنا قط. ثورة عنف في السعودية، كانت تلك نبوءتي. وجودنا هنا... ليس مدعاة للفخر. إنه الفشل.»

«مزَّقنا الستار الحديدي. هذا فشل يمكنني العيش معه.» أخذ «ستيف» المنظار المقرِّب من «هاري» قبل أن يجذب أي انعكاس على عدساته انتباهًا لا داعي له لموقعهما. كبح «هاري» رغبته في أن يخبره أن شعره الأشقر، بصبغته الواضحة، يمثل هدفًا بالقدر نفسه.

قال «ستيف»: «لكني أدين لك باعتذار فعلًا». في العشرين سنة أو ما يقرب التي عرفه فيها «هاري» كانت تلك أول مرة يفاجئه فيها الرجل. «ليس لكشفي قناعك، لا أسف هنالك، بل أذكر أني قلت إنه لا مستقبل لشركات الأمن الخاصة. كنت مخطئًا. شركات الأمن الخاصة مستقبل الحروب؛ قتال وإعادة تعمير معًا. وأنت، «هاري برتون»، من الرواد».

«وصلني الإطراء ـ أين صفعة القفا الآن؟» كان ثمة شيء ما يُقال في معرفته بأحد بقدر ما يعرف «ستيف». حتى إن لم يكن أحدهما يروق إلى الآخر إلا أن وعي أحدهما بمزاج الآخر كان يأتي بألفة ما في التعامل تكاد تجعل العلاقة تبدو حميمة.

«أنت غبي لتوظيفك كل هؤلاء من رعايا دول ثالثة. اقتصاديًّا، بالطبع أفهم منطقك. لكن توقف عن الإتيان بهم من بنجلاديش وباكستان، أنت تتصرف كأنها حرب على أرض وهم أطراف محايدة. ائت برجال من سيريلانكا، نيبال، الفلبين. الهنود لا بأس بهم، طالما ليسوا مسلمين.»

«لقد عملت مع هؤلاء الرجال سنوات»، قال «هاري» وهو ينهض واقفًا ويشد منظاره المقرِّب من يد «ستيف». لم يكن سوى التكاسل ما منعه من تذكير «ستيف» بأنه منذ خمسة عشر عامًا كان يحب أن يمزح بأن الفرق بين فيتنام وأفغانستان أن هناك لديهم «جي آي» فقط، أما هنا فلديهم «جِ-هاد».

«هاري، هاري، هاري. استيقظ، وشم رائحة المباني المحترقة. أتظن أني لا أعرفك بما يكفي بعد كل هذا الوقت في إسلام آباد؟ هذا الحنين المفرط بداخلك. إنك تنظر إلى هؤلاء الرجال وترى طفولتك. الطباخ، البستاني، السائق. مدرس الأردية.»

«إن كان هذا الحديث عن رضا ففكر بجدية قبل أن تستأنفه»، قال وهو ينقل نظره عرَضًا من «ستيف» إلى مهبط النتوء الجبلي.

قال «ستيف» وهو يبتعد خطوة عن حافة النتوء: «لا داعي للعب دور المتوعد الهادئ، ألا يزعجك حقًّا أنه وجد الدين الآن، هنا؟» ثم أردف ردًّا على نظرة الحيرة في وجه «هاري»: «رأيته حين وصلْتُ ساجدًا أمام جامع. كان يظن أن لا أحد يراه».

«لعله كان يشم الأرض بأنفه بحثًا عن رائحة امرأة. وحده الله يعلم أنك لا ترى واحدة هنا.»

«أنت على دراية بمهارته في الخداع. بربك، «هاري»، فتى في السابعة عشرة من كراتشي يقنع الأفغان أنه واحد منهم لدرجة أن يأخذوه معهم إلى معسكر للمجاهدين. والأفضل من هذا! أن يأخذوا واحدًا من الهزاره إلى معسكر بشتون. لا يُصدق! وحتى الآن، لا أحد سوانا يعلم، هل يعلمون؟ يحاط بالباكستانيين ولا أحد يعلم أنه واحد منهم.»

كان «ستيف» على حق؛ فقد كان رضا كونراد يتناول العشاء كل مساء مع الموظفين «ر. د. ث.»، يترجم بينهم من الأردية إلى البنجالية إلى التاميلية، ولا يكشف لهم مطلقًا أن إحدى تلك اللغات تحوي ذكرى أبيه وكل أصدقاء طفولته. كان الرجال قد قرروا فيما بينهم أن اسمه ليس سوى اسم حركي؛ رضا كونراد. لا معنى لهذا.

في الدرب السفلي نبتت شجرة وحيدة، شكلتها الرياح السريعة بين الجبال؛ جذع مائل وأغصان مورقة ترفرف في تكوين يشبه اللهب، كانت ساكنة على نحو يثير الفضول في قانون الحركة. «هيروكو»، سجاد، «كونراد»، «إلزي»، «هاري»: بهم كلهم عصف التاريخ خارج المسار، لم ينته أحد منهم عند نقطة بدايته، أو حتى على مسافة منها، لكنه كان يرى في رضا فقط إمكانية إعادة التكوُّن كرد فعل عكسي وليس استجابة بغرض التكيُّف.

«ماذا يغرُّك للظن بأنك الوحيد الذي تعرفه على حقيقته؟ إنه من حمَّلك مسؤولية موت أبيه منذ عشرين سنة. يا للجحيم، «هاري»، لقد كنت أكره أبي لكني إن ظننْتُ أن أحدًا...»

رفع «هاري» يده.

«كفى.»

أتى «ستيف» بإيماءة تسليم.

«أنا فقط أسديك نصيحة ودية قبل أن أغادر.»

«تغادر؟»

«لن تلعب الولايات المتحدة دورًا في غزوتك «الخاصة» على الأراضي الباكستانية غدًا.» ابتسم وهو يُطفئ عقب سيجارته في ذراعه حيث تركت

ندبةٌ قديمةٌ بقعةَ بلا أعصاب. «اقضِ على الأوغاد «برتون». العم «سام» أضجره الفشل جدًّا.»

قال «هاري» وهو يُحيي باستهزاء: «نعم سيدي، لكن هلا أخبرت العم «سام» أن يسرع في جهوده لتبريد الجو في الحي المجاور. مات لي خال في ناجازاكي؛ هذا جزء من تاريخ العائلة ليس بودي أن أعيشه مرة أخرى».

«سأوصِّل كلمتك»، أشار «ستيف» إلى «هاري» بأن يتقدم الطريق في الهبوط وهو يأمل أن يصل إلى الخامسة والستين وقد تبقى له بعد انقضاء العمل قدر من حياة ليسعد بالتقاعد بدلًا من تسلق الجبال في مناطق الحرب.

كانت السماء مليئة بالنجوم حين عاد الركب إلى الثكنة، وهبطت درجة الحرارة على نحو مذهل. كان رضا يجلس على عتبة البناء المكون من غرفة واحدة يشارك فيها «هاري»، يلف نفسه ببطانية.

سأل «هاري»: «هل تَصِلُكَ بصمات الأيدي الليلة؟».

كانت جدران غرفتهما تغطيها بصمات ملطخة بالشحم لأصابع طفل، على مستوى خصر رضا. كثيرًا ما استيقظ «هاري» في الصباح الباكر ليجد رضا يسير في الحجرة، يتتبع البصمات، تلامس أطراف أصابعه البقع الزيتية. كانت الثكنة مسكنًا مهجورًا حين وصل الأمريكيون، لم يخدش نعومة غباره سوى مخالب الطيور، اندفع المحليون يقصُّون حكاية العائلة التي كانت تسكنه قبل أن تغير عليه إحدى القبائل المتناحرة؛ اقتحمت القبيلة المسكن لتجد جثة طفل ميت ولا أحد سواه. سحر أسود ما جعل بقية الأسرة تختفي، قال المحليون: سحر أسود خارق، صُنع بدم طفل.

هزَّ رضا رأسه نفيًا.

«فقط شعرت بالاختناق من المكان المغلق بالداخل، خال «هاري».»

كانت آخر مرة قال له فيها خال «هاري» منذ أكثر من سنتين بكوسوفو، وهما في الطريق بالسيارة الجيب لاجتماع مع قادة «جيش تحرير كوسوفو» في «موقع سري» وقد مرًّا بمقبرة جماعية.

جلس «هاري»، يده على كتف الشاب. فتح رضا البطانية وعرض دفئها على «هاري» الذي اقترب منه حتى مس كتفه كتف رضا، ولفَّ نفسه بنصف البطانية بإحكام. مر وقت طويل منذ أن شعر بدهشة لاعتياد الباكستانيين على التقارب الجسدي. فكر «ستيف» بمرارة وهو ينظر لهما خلسة عبر الفناء أنهما يبدوان كمخلوق ذو رأسين يتفقد العالم من مأمن غطائه الواقي.

قال رضا: «أحضر أحد عملائك المحليين رجلًا زعم أنه من طالبان، استجوبه اثنان جدد من «إيه آند جي». طلب مني أن أترجم لهما».

اكتسى صوت «هاري» بالثلج: «أي اثنين؟».

«لا تقلق. أخبرتهما أني لا آخذ أوامر من المساعدين المأجورين. لكنهما أخليا سبيله على أية حال في نهاية الأمر. كان بينه وبين عميلك عداوة طويلة. هل استجوبت أحدًا من قبل يا «هاري»؟»

«نعم. لكن نادرًا ما كان بالطريقة التي تعنيها. لا يعود بفائدة عمومًا.»

«هل هناك شيء لا تفعله إن رأيتَ أنه لا يعود بشيء؟» تذكر يوم أتى «هاري» إلى دبي بحثًا عنه؛ سأله رضا وقتها إن كانت المخابرات الأمريكية قد حاولت ولو مرة واحدة أن تجد الرجل الذي أطلق النار على أبيه. «أنا وجدته. وقتلته»، قال له «هاري»، وعلى الرغم من علم رضا بأن هذا كان

سيروِّع أباه، ويغضب أمه بشدة إلا أنه لم يسعه سوى أن يشعر بالامتنان للخال «هاري» لفعله ما أراد له أن يُفعل من دون أن تكون لديه أدنى قدرة على فعله بنفسه.

قال «هاري» مفكِّرًا: «ما الذي لا أفعله إن كان يعود بشيء؟ لا شيء تقريبًا. الأطفال خارج السيطرة، الاغتصاب خارج السيطرة، لكن في ظروف أخرى... ما يصلح، يصلح. حين أموت رضا وتسألك ابنتي عن حقيقتي، لا تقل لها إنني قلت هذا».

«كيم برتون». سليلة «برتون» التي يتخيلها كثيرًا ودأب على تذكرها كلما رأى امرأة صهباء. في مكان ما، في عالم بعيد جدًّا عن هذا العالم، كانت تقيم مع «هيروكو». عقد رضا ذراعيه فوق ركبتيه وأراح رأسه عليهما. الجنة تحت أقدام الأمهات، هكذا قال لهم مدرس الإسلاميات ذات يوم، فعاد رضا إلى البيت وبحث بين أصابع قدمي أمه بعدسة مكبرة وهو يضحك. «هل هذه السجادة الجنة؟ ليست الجنة.» فرفعته أمه من ياقة قميصه وأدارت العدسة المكبرة ناحيته وهي تقول. لا. إنها هنا، هنا؛ رفعت العدسة المكبرة أمام عينيها ونظرت إلى وجهه المبتسم. ها هي الجنة.

يعلم «هاري» صمت رضا جيدًا إلى درجة تجعله يدرك أنه يفكر في «هيروكو». الأم المعبودة المهجورة. أراح يده على رسغ رضا. يستحيل تصديق أن «إلزي» ماتت. حتى في سنها المتقدمة جدًّا لطالما بدت له أكثر حيوية من أي شخص آخر في العالم. أراد أن يخبر رضا بأنه سيندم يومًا ما على قضاء وقت قصير مع أمه؛ لأنه فقط لا يريدها أن تفهم بشكل كامل أي كائن بلا قيم صار إليه، لكنه كان يعلم أن رضا لن يسمع في كلامه سوى ندم «هاري» ولن يجد أي حكمة في النصيحة.

قال رضا بغتةً: «لم أستطع إيجاد عبد الله».

«من؟»

«عبد الله. الفتى الذي ذهبت معه إلى المعسكر عام ٨٣. ابن عمي أوصلني بقائد المعسكر القديم.»

قطب «هاري» حاجبيه وهز رأسه.

«لماذا تـ... في صف مَن القائد القديم الآن؟»

«هل يمكن، إذا سمحت، أن تتوقف عن كونك صاحب العمل في «إيه آند جي» دقيقة. لا أعلم في صف من هو. لم أسأله. لكني لم أخبره بما أفعله أنا أيضًا. يظن أني مع منظمة إغاثة في الخليج.»

«انتظر، رضا. انتظر. تظن حقًّا أن من الذكاء أن تتصل بأفغان لا تعرف شيئًا عن ولائهم لتعلن عن وجودك في البلد؟»

«إنه بلد كبير ولم أخبر أحدًا بمكاني.» كان قد ظن أن القائد سيتذكره بوصفه الفتى الذي يعمل مع المخابرات الأمريكية، لكنه اكتشف حين تحدث معه أنه يتذكره على نحو مختلف تمامًا: «أنت الهزاره فاقد الوعي الذي خدع فتى بشتونيًا وجعله يعتقد أنه مهم لدى المخابرات الأمريكية لأن رجلًا يبدو أمريكيًّا حمل لك نعليك».

سأل «هاري»: «ماذا قال لك أيضًا؟».

شخص رضا ببصره إلى السماء وأصابعه تتبع المجرات في الرمال.

«إن آخر ما سمعه عن عبد الله أنه كان في معسكر بأفغانستان أباده الروس.»

حاول «هاري» أن ينحي شعوره بالتأذي جانبًا لسعي رضا إلى العثور على الفتى من دون أن يخبره.

«أنا آسف. أعلم أنك كنت تعده صديقك. لكن كان هذا منذ وقت طويل مضى.»

«بعد وفاة أبي، ذهبت لأمي أتوسل إليها أن تسامحني. قالت إنه لا بأس وإنه لم يكن خطئي. لم أكن لأعلم أن شيئًا كهذا قد يحدث، لم يكن لي شأن. ثم قالت لكن إن كان لديك أي وسيلة يمكنك بها أن تُخرج هذا الفتى عبد الله من المعسكر، فعليك أن تقوم بهذا. لأن ما يحدث له هناك مسؤوليتك، فقد جعلته يذهب في حين كان يمكن أن تجعله يعدل عن الذهاب.»

قال «هاري»: «لسْتَ سبب انضمامه إلى المجاهدين».

«بلى، أنا السبب. لولاي لكان الآن يقود شاحنة بدلًا من مواجهة القنابل الروسية. وبعكس ما كان يمكن أن تقوله أمي، وكان أبي الآن ما زال حيًا.» ربط في الرمال بين نجوم مجرة الجبار ـ النطاق، القوس، الركبتان.

اتكأ «هاري» بثقله قليلًا على رضا. تمنى أكثر من أي شيء لو لم يكن هو من أخبر رضا أن سجادًا كان في الميناء يبحث عنه. كان بوسعه هو أن يتعايش مع اللوم الذي ألقاه عليه رضا يوم وقفا بجوار جثمان سجاد، إن كان هذا سيزيح العبء عن كاهل الشاب، لكن رضا كان قد قرر منذ سنوات أن وفاة أبيه كانت خطأه وحده.

«كان أشقاؤه كلهم مجاهدين؛ لقد كبُر وهو يعلم أنها خطوته التالية كمن يعلم أن الصف الدراسي الرابع يلي الثالث.»

«نعم، نعم.» كان صوت رضا قاسيًا بغضب. «أنا أيضًا أقنعت نفسي بهذا،

ولم أفعل شيئًا لعبد الله. حتى إنني لم أتوقف لأتساءل إن كان هناك شيء يمكنني فعله له. عشرين سنة لم أفكِّر فيه.»

«وكنت على حق في إبعاده عن ذهنك. الله يعلم أني أحب والدتك للغاية، لكنها لا تعلم شيئًا عن حقائق الحرب.» توقف ما إن لفظ الكلمات، واحمرَّ وجهه من عار ما قاله.

«إن كنت لا تعلم حقائق الحرب، يمكنك حينها إبعاد أشياء كهذه عن ذهنك. لكن المجيء إلى هنا، أن تكون هنا، أن ترى كل هؤلاء الفتية الصغار الذين ظلوا رجالًا كبارًا طيلة حياتهم، ذلك يؤثر فيك. لا بد أن يفعل بك شيئًا، «هاري». ألا تشعر بأي مسؤولية على الإطلاق؟»

«أستمع أحيانًا إلى هؤلاء الليبراليين في أمريكا، فتدهشني قدرتهم على ربط كل مساوئ العالم بشيء فعلته أمريكا، أو لم تفعله. أنت لديك هذا المرض على مستوى شخصي وليس على مستوى وطني. أنت لست مسؤولًا عن عبد الله. وبالنسبة إلى والدك...»

«بالنسبة إلى والدي، كان سيبكي إن علم أي نوع من الرجال صرنا.» مسح «هاري» الأرض براحة يده ووارى «الصياد» الثرى. «منذ متى قررت تبرير حياتك بتحويل المسؤولية إلى مرض؟» نهض يقف برشاقة، تاركًا البطانية كيرقة ملقاة، وسار مبتعدًا نحو مذياع يبث موسيقى من محطة باكستانية.

حسنًا، فكر «هاري» في نفسه وهو يلتقط البطانية، ويسير بتثاقل إلى الداخل. كان التفوق عليه طريقة رضا في تهدئة ضميره. توقف الآن عن التحديق في الكفوف المطبوعة على الجدار وبدأ يبحث في الماضي الذي أهمله عشرين سنة؛ ليعيد دس أنفه في اللعبة ثانيةً.

٣٢

حين وصلت هيروكو أشرف إلى نيويورك منذ ثلاثة فصول صيف، نظر موظف الهجرة ـ رجل بوشم علامة السلام على ساعده ـ إلى وجهها، ثم إلى جوازها الباكستاني بدهشة، ثم تنهد بقوة حين فتح الجواز ورأى محل ميلادها مكتوبًا تحت اسم زوجها.

قال وهو يختم جواز سفرها من دون أن يوجه إليها سؤالًا واحدًا: «لا بأس، ستكونين في مأمن هنا».

ما أدهشها أكثر حتى من مده إليها يده؛ ليشد على يدها غفلته عن المفارقة، لكنها لم تشترك في الغفلة. بعد أسبوع من اختبار الهند النووي ورد فعل باكستان يلوح في الأفق، لم تكن ترى أن سبب آلام ظهرها ركوب الطائرة وقتًا طويلًا، بل سخط طيورها لاختيارها هذا البلد، من بين كل البلدان الأخرى، ملاذًا لها من حرب نووية.

حين وقفت في الطابور في موقف التاكسي، لاحظت أن كل شيء يشبه الأفلام، ما عدا الجودة الملموسة لأولى نسائم الصيف، والمظهر المنهَك لكل شيء، من قاعة الوصول إلى التاكسيات إلى المسافرين، خطر لها أن

باكستان جرَّبت قنبلتها وهي تعبر من قارة إلى أخرى. لذلك حين اقتربت من التاكسي وخرج الشاب، الذي ربما كان هنديًا أو باكستانيًّا، من مقعد السائق ليساعدها في تحميل أمتعتها، اندفعت فجأة تسأله بالأردية: «هل جربت باكستان قنبلتها بعد؟».

تراجع الرجل دهشةً ثم أخذ يضحك. وقال: «تتحدثين الأردية! لا. لا. لم نجربها بعد. ليس بعد. كيف تعرفين الأردية؟».

أجابته بغنج غريب: «عشت في باكستان منذ ٤٧، أنا باكستانية».

«مذهل!» أبقى الباب مفتوحًا لها. «أنتِ باكستانية وأنا أمريكي. صرت مواطنًا منذ أسبوع واحد فقط.» ثم تحول إلى الإنجليزية ليقول: «مرحبًا بكِ في وطني، يا خالتي.»

كان اسمه عمر. من «جوجرانوالا»، لكنه ذهب ذات مرة لزيارة أقارب له من بعيد في كراتشي، بناظم آباد.

«شيء حسن أنكِ لم تصلي أمس»، أخبر «هيروكو» والسيارة تمر بفتية يلعبون الكريكيت بالقرب من كرة أرضية فضية ضخمة؛ منظر أبهج «هيروكو» بشدة. «كان هناك إضراب كبير لسائقي سيارات الأجرة. شارك فيه ٩٨ بالمائة من سائقي سيارات الأجرة الصفراء. ٩٨ بالمائة!»

ابتسمت لنبرة صوته، سمعتها كثيرًا من تلاميذها سنة ٨٨ حين خرج الفتية الذين جلسوا ذات مرة في المقاعد الخلفية بالفصل إلى الشارع وهم يلوحون بأعلام حزبهم السياسي، ويغنون أغاني النصر. ظلت تفاصيل إضراب سائقي الأجرة غامضة لها قليلًا؛ نظرًا لاضطراب الطيران طويلًا، ومحاولاتها اللحاق بما يقوله عمر بسرعة كبيرة، لكن شيئًا واحدًا أدهشها.

«كثير من سائقي سيارات الأجرة هنود، أليس كذلك؟» أومأ لها عمر في مرآة الرؤية الخلفية. «وكثير منهم باكستانيون؟»

قال عمر: «لا. لا. أرجوكِ، لا تسألي كيف لنا أن نُضرِب معًا، بينما يخطط بلدانا لقيام القيامة. هذا ما يسأله الصحفيون كلهم. يا خالتي، نحن سائقو تاكسيات نحتج على قواعد جديدة ليست عادلة. لماذا ندع تلك الحكومات التي خذلتْنا جميعًا منذ أمد طويل تحول بيننا وبين النجاح في هذا؟».

فتحت «هيروكو» النافذة لتسمح لهواء نيويورك بالدخول، ضحكت كما لو كانت قد شاركت في النصر حين حاذت سيارتهما سيارة أجرة أخرى يقودها رجل بعِمة وأخرج يده ليضرب كفًّا مع عمر.

كان عمر من «جوجرانوالا» أول واحد في نيويورك تسجل «هيروكو» رقمه في دفتر عناوينها. قال لها: «أعمل وردية النهار، في أي وقت تعلمين مسبقًا أنك ستحتاجين إلى سيارة أجرة في الفترة من السادسة صباحًا وحتى السادسة مساءً، اتصلي بي فقط». وصارت ابتسامته التي تقول «مرحبًا بكِ في بلدي يا خالتي» مفتاح علاقة الحب التي بدأتها «هيروكو» مع نيويورك.

تلك المدينة التي يمكنها فيها سماع الأردية والإنجليزية واليابانية والألمانية معًا في دقائق قليلة. معجزتها! كانت أحيانًا تستقل المترو من دون غرض سوى أن تسمع المحادثات. كانت الشابات اليابانيات هن اللائي أذهلنها أكثر من أي شيء آخر؛ ضحكهن بلا حياء، أدركت من مترادفاتهن المتبلة بكلمات لم تفهمها أن لغتها اليابانية تنتمي إلى «جيل الجدَّات». لا شيء غريب في الغربة عن هذه المدينة، «كحقيبة يد ماري بوبينز»، قالت «إلزي» تشبِّه كم ما يمكن أن تحمله بداخلها جزيرة «مانهاتن» الصغيرة. شعرت «هيروكو» أنها ظلت طوال حياتها في انتظار أن تأتي إلى هنا.

وحين انهار البرجان وجدت نفسها في قبضة شعور بالتضامن غير مألوف لها بالمرة، شعور أسرها تمامًا. وقفت بجانب «كيم» ـ التي أتت بالسيارة من سياتل ـ في ساعات الصباح الأولى، توزع طعامًا على عمال الطوارئ؛ بعد ذلك طلبت أن تتبرع بالدم؛ إذ فيمَ يهم إن كانت عجوزًا؟ لم تكن في حاجة إلى كثير من الدم، وعدلت فقط حين أخبروها على نحو قاطع أنها من أحد البلدان المصابة بالملاريا ولن يُقبل دمها بغض النظر عن السن. لم تأخذ الأمر على محمل شخصي، بل تأثرت لأنهم أعطوها الشارة التي يعطونها لمن تبرع بدمه «لأن الأعمال بالنيات»، هكذا قالت لها المرأة المنهَكة العاملة في الصليب الأحمر. حين أخبرتها «هيروكو» أن الرسول محمد قال الشيء نفسه من قبل ـ وهي مندهشة من نفسها لقول شيء كهذا ـ ابتسمت المرأة وقالت: «أنا واثقة من أنه قال هذا».

لكن بعد ذلك تغيرت الأشياء. بدت الجزيرة ضئيلة وتقلصت رؤى الناس. كيف لمكان يعج بهذا القدر من المهاجرين أن يأخذ فكرة «الوطنية» بهذه الجدية؟ ضحكت «إلزي» وقالت: «حماسة اعتناق دين جديد». وتظل تلك الجملة التي رددها شاب بشوش في طوكيو تعود إليها: «الحياة الأمريكية». كانت تلك الجملة تميمة، يكتسب جزؤها الأول وزنًا فقط من جزئها الثاني.

لأسابيع ظلت تفكر في كل هذا وتشعر به على نحو مزعج، لكن اليوم، أخيرًا، منتصف يناير في نيويورك، بدا العالم مختلفًا في عيني «هيروكو»؛ إذ تجلس بكوب من شاي الياسمين والكلمات المتقاطعة بجريدة الصباح في حانة صغيرة بالـ«ويست فاليج» خلال ذلك الفراغ الزمني النادر بين زحمتي الإفطار والغداء؛ حيث تعتبر الإطالة في الجلوس إلى طاولة سلوكًا غير حضاري. رفعت عينيها تنظر إلى الزبون الوحيد غيرها في الحانة يفتح الباب ليغادر؛ اندفع من الباب هواء بارد وأصوات ـ رجل منفعل يتحدث

في هاتفه الخلوي، نباح كلب، عربة يد تقعقع على حجارة الرصيف ـ ثم أُغلِق الباب وعادت مرة أخرى يغلفها صمت لا يقطعه سوى خبط النادلة بطرف قلمها على سطح المنضدة.

سيعد مغالاة في القول بأن ثمة شعورًا بالسلام في هذا؛ لكنه على الأقل يبدو كفضاء يمكن فيه إطلاق زفرة محبوسة. للمرة الأولى لما يزيد على شهر ثمة تحرك بعيدًا عن الحرب النووية وليس نحوها. اجتاحت «هيروكو» نوبة حنين تجاه كل ما في العالم؛ من نيويورك وسكانها إلى دكتاتوريٍّ الجانب الآخر من العالم. ليس معنى هذا أنها آمنت بقادة من قبل قط؛ ليس في باكستان بأكثر من اليابان. تذكرت رقودها على بطنها على الأرض في مستشفى ناجازاكي تراقب ولدًا صغيرًا يستخدم عصاتي الأكل ليلتقط الديدان من الكتلة المحمرة النابضة التي كانت صدر أمه، كان الوحيد الذي لا يعير اهتمامًا لصوت الإمبراطور، الذي يسمعه شعبه للمرة الأولى في المذياع، يعلن استسلام اليابان. على الرغم من كم المروق الذي تعلمته من أبيها، لكنها هالتها نبرة صوت الإمبراطور الرفيعة الواهنة. شعرت بالخذلان من صوته هذا أكثر من أي شيء قاله.

«سبعة عمودي؟» رفعت النادلة نسختها من الكلمات المتقاطعة.

««كوييت» ليست كلمة أليس كذلك؟»

«عسل، يجب أن تكون كذلك.» أشارت النادلة إلى الباب. «سأخرج لأدخن سيجارة. ستكونين بخير هنا.» كان تأكيدًا أكثر منه استفهامًا.

مرة أخرى يُفتَح الباب، يندفع الشتاء والأصوات... وثانيةً، الصمت.

أخرجت «هيروكو» هاتفها الخلوي من حقيبتها. كانت تعلم بمن عليها أن تتصل للاحتفال بخطوة الرجوع عن شفا الحفرة النووية تلك. تساءلت

لحظة إن كان عليها أن تعود إلى المنزل أولًا، وتتصل من الخط الأرضي بكلفة مكالمات أقل - ظلت محتفظة بعاداتها المقتصدة إلى حد كبير على الرغم من المبالغ الطائلة التي يودعها رضا في حسابها - لكنها حينذاك شعرت بفرحة عارمة تتسلل في جسدها كله، فضغطت على الأزرار اللازمة.

لم تتعرف أول الأمر على صوت «يوشي واتانابي». لم يكن به أي شبه بينه وبين الرجل الذي جاء إلى باكستان قبل ثلاث سنوات مع مجموعة من الـ«هبياكوشا» عازمًا على قول كل ما يمكن قوله؛ لتحجم باكستان عن فكرة التجارب النووية. قامت «هيروكو» بترجمة كلام الـ«هبياكوشا» إلى الأردية في المؤتمر الصحفي، وقضت بعد ذلك فترة ظهيرة بالدموع والضحكات مع «يوشي»، ثم استقلت الطائرة المتجهة إلى نيويورك.

قال: «هذا أنا، هذا صوتي... ما تسمعينه صوت السرطان».

«يوشي سان.»

«إنه في كل مكان. لا حيلة لأحد فيه.»

أدهشتها الدموع التي تحرق عينيها. لم يكن بالنسبة إليها في ناجازاكي سوى شخص تعرفه من بعيد، صديق «كونراد» الذي خذله. ثم صارت هي كفارة له. وعقب هذا، على مدار السنين الطويلة من تبادل الرسائل، صار صلتها الباقية الوحيدة بناجازاكي.

قال بصوت حاد الطبع قليلًا: «تتصلين للاحتفال على ما أظن، بشأن بلدك المجنون هذا. سينجو من الحريق على ما يبدو».

«ألا يعتبر هذا سببًا للاحتفال؟»

خفض صوته.

«اسمعي اعترافي «هيروكو سان». لقد شخصوا مرضي الشهر الماضي، وخطر لي منطق مجنون أنه إن اندلعت حرب نووية في شبه القارة فسأنجو. هم أو أنا. هم أو أنا. وكنت أشغل التلفزيون كل يوم خلال تلك الأسابيع الماضية وأنا أتوق إلى رؤية سحابات الفطر في نشرة الأخبار.» جعلته شهقة الرعب التي أطلقتها يرفع صوته. «ما من سؤال تخييري حتى بين الخلايا الميتة التي تتكاثر مثل الفطر داخل جسدي وتلك التي خارجه تبيد العالم.»

أتاها عبر الهاتف صوت نزاع صغير، ثم صوت امرأة يقول: «لقد وصل السرطان لدماغه. إنه لا يعني شيئًا من هذا».

صاح «يوشي» في الخلفية: «أعني كل كلمة قلتها!» أنهت «هيروكو» المكالمة ويداها ترتعشان. ألقت بالنقود على الطاولة وغادرت الحانة بسرعة. كانت الريح في مواجهتها. نسيتْ قبعتها وقفازها بالداخل. لا يهم. ليس بمقدورها العودة إلى هذا الجو الجنائزي.

سارت تغشى الدموع بصرها ناحية الطريق السريع بالـ«ويست سايد» عاجزة عن منع نفسها من تخيل الاكتظاظ الذي ستبدو عليه كراتشي في مشهد بعد انفجار القنبلة بطبقة ظلال تغطي طبقة ظلال تغطي طبقة ظلال. كانت بها حاجة إلى الوقوف على حافة الجزيرة والنظر ناحية الماء. بها حاجة إلى مساحة تتنفس فيها. سجاد، ظلت تردد اسمه في محاولة لاستدعاء شيء من حضوره، قدرته على إشعارها بأن كل شيء يمكن تحمله. تفاؤله.

حين رن جرس الهاتف، لم ترغب في الرد عليه تقريبًا، لكنها كانت «كيم»، فردَّتْ. بعد عشر دقائق من سماعها نبرة صوت «هيروكو» كانت «كيم» تصفق باب سيارة أجرة خلفها وتركض نحو «هيروكو»؛ تلك القامة المنعزلة على حافة الجسر، شعرها الأبيض يهفهف حول وجهها. يداها

العاريتان ترتاحان على الدرابزين. لم تنطق «كيم» بشيء إلا بعد أن خلعت قفازها عن يديها وأدخلت أصابع «هيروكو» المتجمدة فيه برفق.

ثم قالت وهي تلف وشاحها حول رأس «هيروكو»: «لا أحد يصاب بالتهاب رئوي ينظر إلى «نيوجيرسي»».

قالت «هيروكو»: «أريد أن يتوقف العالم عن أن يكون مكانًا فظيعًا هكذا».

لم تعرف «كيم» كيف ترد. كانت هي نفسها مثقلة بهمومها... ببشاعة العالم. كانت كل صباح تقرأ الجريدة، تتسلل إليها كلمة عن المصابين في أفغانستان، وتفكر في «هاري». ثم تذهب إلى العمل، طالما كان ملاذها. سيكولوجية المهندسين المعماريين! اعتادت أن تضحك على هذا مع أصدقائها في الجامعة. نحن نرى الكوارث قادمة، نحسب الضغط بدقة الرياضيات. كلما زادت فوضى حياتنا الشخصية، تحسن أسلوبنا في تصميم العمارة التي تتحمل الضغط الذي لا محالة ـ أو على الأرجح ـ ستقاسينه. ائت بأعاصيرك، ائت بزلازلك. لقد قمنا بحساباتنا. ويا أحباء، دونوا هذه الملحوظة ـ ها هي المزحة التي لم تكن مزحة تصل إلى ذروتها، حين نقطع علاقاتنا بكم ذلك لأننا نقوم بتعديل الموقف، بالمحاكاة، نحن نعلم إلى أين تتجه الأشياء.

لكن الآن، حتى العمل، لوثه ما يجري في العالم. كانت الفيضانات والزلازل شيئًا، لكن أن تبدأ في حساب تأثير قنبلة أو طائرة، شيء مختلف كليةً. طائرة بأي حجم؟ قنبلة بأي وزن؟ ماذا لو دخل رجل قاعة استقبال بمفجرات ملتصقة بصدره؟ ماذا لو انبعث غاز كيماوي من فتحات نظام التهوية؟

«ليست مهمتي أن أتخيل هذا!» صرخت بالأمس في وجه المهندس المعماري الذي تعمل معه.

قالت «كيم»: «لن تتغير بشاعة الكلام لو جلسنا في مكان مغلق بكوبي شوكولاتة ساخنة، مع أنه على ما يبدو سيكون أقل بشاعة إن كان في الشوكولاتة قطع خطمي».

قالت «هيروكو» وهي تربت على يديها: «سرعان ما أكون في مكان مغلق، أنا آسفة؛ لم أكن أعلم أنك ستركضين من العمل لتأتي إليَّ. أشعر أني غبية تمامًا الآن».

قالت «كيم» وهي تدس يديها في جيبي معطفها الشتوي: «قولي لي فيمَ تفكرين».

«حكايات الجنيات»، أجابتها «هيروكو» وهي ترقب مجرى النهر. درجات قليلة أخرى من البرودة ويتجمد. هل من عشاق أو فنانين متأهبين لنقش اسم المعشوقة تحت الجليد؟ «هانا». ابنتها الفقيدة. التفتت تنظر إلى المرأة الواقفة بجوارها. «حين كان رضا صغيرًا لم أشأْ أن أجعله يعرف ما عشْتُ من قبل، لكني أردْتُ أن يفهم فظاعته. هل ثمة منطق في هذا؟ فاختلقت كل تلك القصص، قصص فظيعة. فظيعة جدًّا لأقصها على ابني، في النهاية تظل تلك القصص تخطر لي هذه الأيام.»

أومأت «كيم» برأسها.

«أخبرني والدي عنها ذات مرة. لا يزعجك هذا، أليس كذلك؟»

«لا. أتمنى الآن لو أنني قصصتها على رضا، على الجميع. لو أنني كتبتها ووضعت نسخة منها في كل مدرسة، كل مكتبة، كل ملتقى عام.» قطبت حاجبيها كما لو كانت تحاول فك عقدة صغيرة من الالتباس. «لكن أترين، قرأت بعد ذلك كتب التاريخ؛ «ترومان»، «تشرشل»، «ستالين»، الإمبراطور. بدت قصصي صغيرة جدًّا، تفاصيل دقيقة للغاية في الصورة الكبيرة. حتى

ناجازاكي... خمسة وسبعين ألف قتيل؛ مجرد جزء من اثنين وسبعين مليونًا قتلوا في الحرب. قدر ضئيل. ما يزيد فقط بقليل على واحد من المائة في المائة. لماذا كل هذه الضجة على واحد من المائة في المائة؟»

قالت «كيم»: «لأنك عِشْتِها، مات أبوكِ فيها. مات خطيبك فيها. لا عار في إلقاء كل ثقل العالم في هذا».

كانت الإجابة خطأ.

استدارت إليها «هيروكو» ووجهها يتقد غضبًا.

«هل هذا هو السبب؟ هل هذا ما جعل ناجازاكي جريمة وحشية؟ لأنها حدثت لي؟» نزعت عن يديها القفاز وألقت به إلى «كيم». «لا أريد شوكولاتتك الساخنة»، قالت وأسرعت تخطو مبتعدة.

التقطت «كيم» القفاز من فوق الأرض وضربت نفسها به. بقسوة.

٣٢

«رضا هزاره؟»

استدار رضا وابتعد عن مجموعة الرجال الأفغان الذين كان يترجم لهم، وهو يضغط بهاتف القمر الصناعي على أذنه.

«رضا هزاره؟» كرر الصوت على الطرف الآخر ثانيةً.

فرفع «ستيف» إصبعه ناحية رضا.

«قلت لك أن تخبر أي شخص يتصل أنك ستعاود الاتصال به.»

قال رضا بالباشتو: «من معي؟»

«هل أنت رضا هزاره؟»

«نعم، نعم. من معي؟»

أمسك «ستيف» رضا من ذراعه.

«أنت في وقت الشركة الآن.» وأشار برأسه ناحية وفد الأفغان الذين جاءوا يتعهدون بالولاء للأمريكيين. «الآن أخبرهم أني في حاجة لإثبات ولائهم.»

«هل يتحدث أي منكم الأردية» بادرهم «هاري» بالسؤال، رفع أحدهم يده سريعًا كطالب يحاول أن يسدي صنيعًا.

«انهِ مكالمتك رضا. سأتولى هذا عنك.»

غمغم «ستيف»: «خذ إذن نسبة من راتبه.»

«من معي؟» قال رضا ثانيةً، وهو يسير بسرعة مبتعدًا عن الأمريكان والأفغان.

«إسماعيل. شقيق عبد الله. هل ما زال لديك الشال الذي أعطيته لك منذ عشرين سنة في المعسكر؟»

استند رضا بثقله كله على جذع الشجرة الوارفة التي تنمو في فناء الثكنة.

«هل عبد الله ما زال حيًّا؟»

«نعم.»

وضع رضا ذراعًا على جذع الشجرة وأسند رأسه عليها.

«قال لي أن أخبرك أولًا بأنه آسف.»

ظل رضا عشرين سنة تقريبًا يظن أن عبد الله يشعر بالخذلان منه، لم يعد قط إلى «سهراب كوته»، ولم يحاول قط الوصول إلى عبد الله عبر «أفريدي» أو أي من الأفغان الآخرين الذين يعرفهم هناك. وبدا حتميًّا أن عبد الله ـ حين ستتكشف له حقيقة الحرب ـ سيرى خيانة رضا له لأنه دفعه دفعًا نحو المعسكر ولم يوافقه على البقاء في كراتشي. لكن ها هو شقيق عبد الله يقول: «إنه يعلم أنه سواء كان لك علاقة بالمخابرات الأمريكية أم لا فقد ذهبت معه إلى المعسكر كأخ له، وقد عاش عشرين سنة بعار أنه وشى بك في لحظة

غضب لقائد المعسكر وقال إنك جاسوس أمريكي وتسبب في ترحيلك».

هزَّ رضا رأسه بالكاد يصدق ما يسمعه.

«لماذا تتصل أنت بي؟ لماذا لم يتصل عبد الله؟»

«أخبرني القائد أنك اتصلْتَ تبحث عن عبد الله. كان معه رقمك. رضا هزاره، أكان ذلك حقًّا؟ هل كنت تعمل مع المخابرات الأمريكية؟»

«لماذا يعترف أي أفغاني اليوم بأنه كان يعمل مع المخابرات الأمريكية؟» كان ثمة خطأ في هذا، كان يعلم هذا، لكنه لم يكن يعلم بمَا يجيب، ما قدر الحقيقة التي يجب أن يكشفها.

قال إسماعيل: «كان ذلك زمنًا مختلفًا، كنا نصدق أنهم يقدمون لنا العون». أصدر رضا صوتًا قد يعني موافقته. «أرجوك، أريد أن أعرف، هل لديك معارف في أمريكا؟»

«لماذا تتصل بي؟ أين عبد الله؟»

ساد صمت طويل. لم يرغب أحدهما في البوح بشيء قبل الآخر، لكن رضا كان يعلم أن لديه امتيازًا.

قال إسماعيل: «سأخبرك، لأن أخي قال إن عليَّ أن أخبرك. قال إنك ستساعدنا».

بعد ذلك بدقائق قليلة كان رضا يجلس تحت الشجرة بجانبه هاتفه. «هذا البلد، هذا البلد.» شخص ببصره إلى التلال في الأفق البعيد ـ جعلها الهزيع الأول من ليل الشتاء الطويل مسرحًا أسود بالفعل ـ أمدته ذكرى أكثر منها رؤية بصور لشرائط ملونة من القماش مربوطة بأطراف أعمدة طويلة. بعضها يميل إلى البياض، بعضها فاقع كالدم الطازج، يشير كل منها إلى

مكان دفن أحد الذين لقوا حتفهم في إحدى نسخ الحرب التي اجتاحت أنحاء أفغانستان لما يزيد على عشرين عامًا. كان رضا يظن نفسه أحد مئات الآلاف حول العالم ممن دفنوا ضمائرهم في أفغانستان؛ كانت استجابته لهذا أن قرر أنه أحد من لعنوا للدرجة التكسب من هذا. لكن ها هو ضميره، يربت على كتفه، يمنحه فرصة أخيرة.

هب واقفًا عاقدًا العزمَ وركض إلى الحجرة التي يشارك «هاري» فيها، خطف هاتف «هاري» من فوق فراشه، واتصل برقم من ذاكرة الهاتف.

«أبي!» أجابت «كيم برتون».

قد تكون كل تلك المرات التي سمع فيها صوتها على ماكينة الرد الآلي في شقة «هاري» شيئًا آخر. لكن صوتها كان مألوفًا له بحيث لم يكن من مشقة في مخاطبتها كأنه ليس غريبًا عنها.

«هاي «كيم» أنا رضا.»

«هل حدث شيء لأبي؟»

«لا. لا. «هاري» بخير»، قال رضا وهو يخطو خارجًا من الحجرة وينظر ناحية «هاري» وهو يعانق الأفغاني الذي يتحدث بالأردية وزعيم القبيلة قبل أن يصطحب حلفاء أمريكا الجدد إلى البوابة الأمامية للثكنة.

سمع زفرة الراحة التي أطلقتها.

«أنتم يا رفاق في حاجة فعلًا إلى مسار مهني آخر.»

ابتسم للألفة التي تحملها «أنتم يا رفاق».

«كيف حال أمي؟»

«عليك أن تتصل بها وتسألها بنفسك.» سارت مبتعدة عن موقع البناء وهي تخلع خوذتها لتسمعه على نحو أفضل. كان ثمة آثار لكل من «هاري» و«هيروكو» في لكنته غير المصنَّفة. لطالما افترضت أنه سيكون متغطرسًا، لكن بدلًا من هذا كان في صوته شيء يقول أرجوك تقبليني!

«سأفعل. كيف حال التعايش؟»

«لنا صدام أو اثنان من حين إلى آخر. لكنها صدامات تذهب وحدها.» بعد حوالي ساعات قليلة من إلقاء «هيروكو» القفاز إلى «كيم»، صارتْ جملة «لا أريد شوكولاتتك الساخنة»، تصيبهما بضحك هستيري. «كأنني أتحداك لمبارزة!» قالت «هيروكو» مساء ذاك اليوم على العشاء الذي أعدته «كيم» عرْضًا للصلح. «سأنتقل إلى شقتي الشهر القادم، لكنها قريبة منها.»

«أه هاه.» أمكنها أن تميز عدم اهتمامه.

قال: «بودي أن أطلب منك خدمة بخصوص أفغاني كنت أعرفه. فتى يُدعَى عبد الله».

رددت «كيم»: «عبد الله؟ هذا الفتى الذي ذهبت معه إلى معسكر تدريب؟ أين أنت تحديدًا في أفغانستان؟» نظرت حولها إلى المباني الطويلة، النساء المارات بتنورات قصيرة وأحذية برقبات تصل إلى أفخاذهن، الرجال ذوو الطاقيات اليهودية يقفون أمام عربة السجق التي تتدلى منها يافطة تقول «حلال»، وفكرت في أن الاتصال قد يكون أيضًا من كوكب آخر.

«تعلمين أن ليس بوسعي إخبارك بهذا. اسمعي «كيم». يجب أن تساعدي عبد الله. إنه في أمريكا. في نيويورك.»

قالت «كيم» وهي تنظر حولها بحدة: «ماذا يفعل في نيويورك؟».

«سائق سيارة أجرة.»

«بالطبع.»

«مهاجر غير شرعي.»

«بالطبع، ثانيةً.»

«بعض رجال المباحث الفيدرالية ذهبوا إلى مسكنه منذ أيام قليلة. فقفز من النافذة حين طرقوا على بابه.»

أمام الثكنة كان يتم التحضير لمباراة كريكيت ليلية على رقعة أرض أضيئت كيفما اتفق بالكشافات الأمامية لسيارات «الهمفي». كان «هاري» الوحيد المشارك فيها ممن ليسوا «ر. د. ث.»، على الرغم من وقوف بعض المقاولين في الجوار، يراقبون بذهول بينما يصيح «هاري» على اللاعبين الآخرين بالأردية وهو يجر الكرسي الخشب ليجعله بكرة.

«كيف عرفت كل هذا؟» انحنت لترى سائق سيارة أجرة كانت تقف على جانب الشارع، كما لو كان بإمكانها تمييز عبد الله الأفغاني.

تعلَّم رضا من «هاري» منذ زمن طويل أن يعلن أقل ما يمكنه في أي عملية. وكما حدث لـ«هاري» تسلل الدرس إلى حياته الخاصة.

«هذه مسألة فرعية. الأمر أنه مرعوب. أفغاني هرب من المباحث الفيدرالية. وهذا هو ما يعتبره بلدك المجنون بالارتياب دليلًا على الإرهاب.»

استقامت في وقفتها، حركت الهاتف من أذنها إلى أمام عينيها مباشرة، وجهها مقطب بخيبة الأمل والحنق. مجنون بالارتياب؟ كان البلد كله

مشحونًا بالخوف، ولم يكن من رضا أشرف وأمثاله في العالم سوى أن يهزأوا من هذا. وكيف أصبحت «بلدك» بعد أن قضى في «ميامي» عقدًا ويحمل البطاقة الخضراء في خطوة لإتمام إجراءات المواطنة؟

«ولماذا هرب المغفل؟ المباحث الفيدرالية ليست دائرة الهجرة والجنسية. لا يعنيهم في شيء أن كان مهاجرًا شرعيًا أم لا. اطلبْ منه أن يسلم نفسه فقط ويعتذر لهم عن جزعه.»

قلد نبرتها بتهكم وبدقة مزعجة: «يعتذر لهم؟ هل قلت هذا حقًّا؟ هل قرأت قانون الوطنية؟ بالطبع يعنيهم أن كان شرعيًّا أم لا. بمقدورهم احتجاز أي شخص إلى أجل غير مسمى لتجاوز بسيط في التأشيرة إن ساورهم أدنى شك فيه.» في الصمت الذي تلا ذلك قال بهدوء: «حسنًا، لم تقرئي قانون الوطنية».

«لماذا تدور بيننا هذه المحادثة أساسًا؟»

«لا يمكنه البقاء في أمريكا الآن. وأمامه طريقة للعودة إلى أفغانستان عبر كندا. لذلك عليك أن تعبري به الحدود. لن يُقدموا أبدًا على تفتيش شخص مثلك. ولا أحد من أصدقائه في نيويورك يبدو مثلك.»

«هنا يجب أن أغلق الخط.» أنهت الاتصال، ثم أطفأت الهاتف فورًا لتوقف مزيدًا من المحادثات قبل أن تعود مسرعة إلى العمل. ضايقتها فكرة الأفغاني طريد المباحث الفيدرالية، وضاقت أكثر حين عرفت أنها ترتاب في هذا. اللعنة عليك رضا أشرف. بأي حق يتصل بها ويجعلها تشعر... بأنها قُبض عليها. نعم. كان مثل «هاري» تمامًا. يُبرز الدولارات ويجعلك تشعر بالذنب لأنك لاحظت زيفها.

على الجانب الآخر من العالم، كان رضا محبطًا، لكنه لم يُفاجأ. الخطة

«ب» إذن، فكر وهو يراقب الرمية الكسولة التي رماها «هاري» في المباراة. كان يعرف بدقة ماذا سيحدث إن أخبر «هاري» أن عليه أن يسافر إلى نيويورك ـ فورًا ـ ليُخرج عبد الله. سيقول «هاري» إنه يتصرف بعاطفية وغباء. سيلعن أيضًا عدم فاعلية المباحث الفيدرالية وسخافة السياسيين، وغباء القوانين الغبية، لكنه سيعقب هذا بالإشارة إلى أن براءة عبد الله لن تفعل شيئًا لمساعدة رضا إذا تم القبض عليه وهو يحاول تهريب شخص يُشتبه في أنه إرهابي. ثم بعد ذلك، حين يأبى رضا التراجع، سيقول لا بأس، سيذهب معه أيضًا؛ لا يبدو رضا أمريكيًا بما يكفي لعبور الحدود من دون أن يستوقفه أحد. ابتسم رضا وتمطى قانعًا. سيكون من الجيد العودة إلى أمريكا، بغض النظر عن قِصر المدة. فكر بشوق في حمام بماء يندفع بقوة، وتساءل إن كان يدين لـ«كيم برتون» باعتذار ما.

رمى «هاري» رمية قصيرة خارج الخط تبعتها صيحات ألم مبالغ فيها حين حسبها ضارب الكرة بأربع نقاط. خرج «ستيف» من حجرته ليرى سبب الضجة. استقرت الكرة بالقرب من رضا الذي رفع إحدى يديه إلى اللاعبين في إشارة إلى أنه سيعيدها إليهم.

كان منحنيًا ليلتقط الكرة حين لمح حركة في برج الحراسة بالأعلى.

كان وجه «هاري» نحو رضا، رافعًا يديه إلى أعلى ليتلقف الكرة، بابتسامة يعرفها كل من أحبه «كونراد فايس»، حين أرجح غريب في برج الحراسة مدفعه الرشاش من اليمين إلى اليسار كأنه رفيقه في رقصة، وفي لحظة سقط «هاري»، قميصه قطعة لحم حمراء تحت الضوء الساطع لكشافات «الهمفي».

٣٤

راقب رضا اندفاع الطمي من الأرض في دوائر حول مركز واحد، تتسطح الأرض من حولها. كان جالسًا القرفصاء على الأرض وسط حشد، ويداه مرفوعتان ليصد اندفاع الهواء، يأبى أن ينظر إلى مستوى أعلى من جدران الطمي التي تعلو عن الأرض ببوصة أو ما يقرب قبل أن يسقط بظهره على الأرض والطائرة تحلق حاملة اثنين من المقاولين الجرحى وجثمان «هاري برتون».

والطائرة تبتعد وتتلاشى ضجتها، سمع رضا صوت محرك سيارة. كانت السيارة الجيب التي تحمل جثث ثلاثة موظفين «ر. د. ث.» باكستانيين تغادر الثكنة، من دون حراسة، متجهة إلى الحدود؛ ستنتظر السيارة الجيب الأخرى التي تحمل الجثة غير المغسَّلة للأفغاني المسلح مربوطًا من قدميه بماص الصدامات حتى شروق الشمس لتجول في المنطقة المحيطة بوصفها نذيرًا. وُضع جثماني الموظفَين «ر. د. ث.» البنجلاديشيين في غرفة تخزين في انتظار أخذ القرار بما يتم بشأنهما حيث لا سفارة لبلدهما في كابول يمكن إرسالهما إليها. وفي مكان ما خارج مجال الرؤية كان رجلان يحفران قبرًا، بوسع رضا أن يسمع صوت شق المعاول للأرض! لدفن السريلانكي الذي لا يحمل أوراق هوية.

وقف رضا، وقد يبس الدم الجاف ملابسه بشدة فقاومت حركات جسده، تحرك ببطء ناحية السيارة الجيب التي رُبط بها الأفغاني، ورفع قدمه ليسمع بسرور طقطقة العظام تحت وطأة حذائه الثقيل. لكنه بدلًا من ذلك استدار إلى الناحية الأخرى وتقيأ على الأرض.

لم يذكر أحد أنه رأى الأفغاني من قبل. كان على الأرجح أحد الذين جاءوا يتعهدون بالولاء للأمريكيين. لا بد أنه تسلل بعيدًا عن المجموعة وسلك طريقه إلى برج المراقبة حيث خنق الحارس السريلانكي. أصر زعيم القبيلة الذي قاد مجموعة الرجال إلى الثكنة على أنه لم يره من قبل، لكنه بالتأكيد سيقول هذا، أليس كذلك، علّق «ستيف».

خلع رضا سترته المضرجة بالدماء وتركها تسقط على الأرض وهو يمضي في طريقه إلى الحجرة التي يشارك «هاري» فيها. بدا أن الرجل المسلح كان يقصد قتل الأمريكي، لكن الموظفين «ر. د. ث.» الذين سقطوا قتلى كانوا في مرمى الرصاص الذي اتخذ شكل قوس من «هاري» للمقاولين في الفناء. إلا أن الاثنين الآخرين نجوا، لارتدائهما القميص الواقي. كان على «هاري» أن يرتديه هو الآخر؛ تلزم سياسة «إيه آند جي» تحديدًا كل موظفيها الذين تسلموا قميصًا واقيًا بأن يرتدوه طيلة الوقت، لكنه لم يكن من الحكمة من حيث الكلفة تسليم الموظفين «ر. د. ث.» قمصانًا واقية، لذلك لم يكن لهم منها نصيب، فقال رضا إنه يشعر بالسخف حين يجلس معهم على العشاء حول نار مخيمهم الجانبي ويكون هو الوحيد الذي يرزح تحت عبء الوقاية، فكان يرفض ارتداءه. فقال «هاري» إنه لن يرتديه هو الآخر طالما لا يرتديه رضا.

في الداخل، جلس رضا على سرير «هاري» وأمسك بالكتاب الذي كان «هاري» يقرؤه، «أشعار حضانة الإوزة الأم». قال عنها إنها الشيء الوحيد

الذي يبقي للمرء عقله. أغمض رضا عينيه ورقد في رائحة «هاري». أراد أن يكون في البيت. ليس في «ميامي»، بل في كراتشي قبل عشرين عامًا. ذلك البيت الذي اختفى منذ حوَّل العنف الأهلي ناظم آباد إلى ساحة حرب، وانتقل كل أصدقاء رضا المقربين إلى أنحاء أخرى من المدينة، أو خارج الحدود إلى الخليج أو كندا أو أمريكا. هُدم المنزل الذي كان سجاد و«هيروكو» قد اشترياه بثمن قلادة «إلزي فايس» الألماسية لإفساح مساحة لمبنى أكثر «عصرية».

«يجب أن تبدل ملابسك هذه. تفوح منها رائحة كريهة.»

رفع رضا بصره إلى «ستيف» الذي دخل الغرفة، وألقى بسترة رضا على الفراش.

سأل رضا: «ما أسرع طريقة للوصول إلى نيويورك؟ قالت «كيم» إنهم سيؤجلون الجنازة إلى أن أصل». لم تقل «كيم» هذا، كان قد اتصل بوالدته بدلًا من «كيم» ليخبرها بما جرى:

ـ لكن لماذا أنتما في أفغانستان؟

ـ ماما، أنا آسف، سأخبرك بكل شيء حين أصل.

ـ رضا، هل تشارك في هذه الحرب؟

ـ أنا آسف، أنا آسف.

ـ شه، كف عن البكاء. لا. ابك. ابك كما تشاء. وتعال بسرعة. سننتظرك بالطبع، هذا ما كان «هاري» سيريده. أوه رضا، كيف يمكن أن يموت؟ كيف سأخبر «كيم»؟

«لا تكن سخيفًا. لن تذهب إلى أي مكان. سنجري تحقيقات مع كل

أفغاني دخل هذه الثكنة خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة لنجد أعوان قاتل «هاري برتون»، وستجلس هناك وتترجم كل كلمة تخرج من أفواههم الموبوءة.»

«أنا موظف في «إيه آند جي»»، قال رضا وهو يضع «الإوزة الأم» بحرص على جانب الفراش، بجوار نظارة القراءة الخاصة بـ«هاري». «ليس لك أن تملي عليَّ ما أفعل. وبهذه المناسبة، فأنا المسؤول عن العمليات هنا الآن. أنا أقدم موظف.»

«ربما عليك أن تعيد النظر في موقفك هذا.» جلس «ستيف» على فراش رضا. «أنا من أوظف رؤساءك. وفي الواقع كنت للتو معهم على الهاتف. لقد منحوني كامل السلطة للتحكم في العمليات إلى أن يرسلوا البديل بالطائرة. إنه في الحقيقة اختبار قاس لي ولهم، إن سارت الأمور على ما يرام سأتسلم منصب «هاري برتون» قريبًا. بجوارك، أتفهم؟»

«سأكتب استقالتي فورًا.»

«هذا لطيف. لكن لا تنسَ التسعين يومًا فترة الانتظار التي تسبق قبولها. إن كانت «كيم برتون» ستضع «هاري» في الثلج إلى أن تصل إلى نيويورك، تأكد أن لديها ما يكفي من الثلج حتى إبريل.»

أغمض رضا عينيه وأسند ظهره على الحائط.

«أرجوك. لديك آخرون هنا يمكنهم الترجمة. فقط دعني أذهب لحضور الجنازة. كان «هاري»...» غلبه صوته فلم يكمل كلامه.

تمدد «ستيف» على فراش رضا وهو يعدل لهب المشكاة الموضوعة في المنتصف بين الفراشين لتنبسط الظلال على الجدران ثم إلى السقف.

قال: «كان «هاري» أكثر من أعجبت به من بين جميع الرجال، لم يعرف ذلك قط. كان مثاليًا. والآن ماذا هو؟ قطعة لحم متعفنة».

«أرجوك دعني أذهب لجنازة «هاري».»

«لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن مثاليًا بشأنه هم الموظفون «ر. د. ث.» حاولت أن أخبره. إنهم عمالة رخيصة بالتأكيد. ولا أحد في بلدانهم يأبه بما يحدث لهم. لكن ماذا تفعل في مسألة الولاء؟»

ظل يعبث في مسمار التحكم في شعلة اللهب فكانت الظلال تتبدل بين التسلل والتقافز. يشعر رضا بالعرق ينتشر تحت إبطيه، يبلل الدم على قميصه فتزيد لذوعته. التفت «ستيف» إلى رضا: «هذا ليس استفهام سخرية. أنا أسألك عن رأيك».

«إنهم في حاجة ماسة إلى المال»، قال رضا وهو يسحب ركبتيه إلى أعلى أمام صدره. ماذا كان يحاول «ستيف» أن يقول؟ إن أحد الموظفين «ر. د. ث.» هرَّب أفغاني؟ «يأتي ولاؤهم من حاجتهم إلى الإبقاء على رواتبهم. وإحساسهم بالأخوة بعضهم بين بعض.» أغمض عينيه. كان بوسعه أن يرى نفسه خلف درج النقود بأحد متاجر حسين و«التمش»؛ يوجه الماسح الإلكتروني على البصمة الإلكترونية لعلبة لبن، يفتح درج النقود، يجيب استفسارات الزبائن عن مكان الدقيق. كانت صورة للسلام. عرف حينها أنه لن يستقيل من «إيه آند جي» فقط، بل سيسير مبتعدًا عن تلك الحياة برمتها. إذ لم تكن تعني له أي شيء من دون «هاري».

«لكنك لست في حاجة إلى الراتب، رضا أشرف من كراتشي وهزاره. لست واحدًا من هؤلاء العساكر الذين يعلمون أنه يمكن استبدالهم بمليون فأر يائس آخر إن زلَّتْ قدمهم ولو قليلًا. أنت الفتى المعجزة الهرِم، عبقري

الترجمة. بوسعك تحديد راتبك في الشركات الكبرى حول العالم. وبالتأكيد لا يربطك إحساس بالأخوة نحو أحد.»

«كان ولائي لـ«هاري». عائلته وعائلتي...» غلبه صوته مرة أخرى. حين أخبر «هيروكو» أن عليها نقل خبر وفاة «هاري» لابنته كان يفكر في المرأة الأمريكية التي لم يقابلها قط بوصفها أحد أفراد عائلته، أقرب بطرق عديدة من حسين و«التتمش» أصحاب متاجر أشرف بدبي.

«لقد كنت هناك رضا. في باكستان، منذ عشرين سنة تقريبًا. حين طردت «هاري برتون» من بيتك واتهمته بأنه السبب في وفاة أبيك.»

«لقد أحببت «هاري».» قالها بهدوء، ببساطة، لم تكن حقيقتها المطلقة قد تبدَّتْ له حتى هذه اللحظة.

«ألهذا أعطيت الإشارة إلى الرجل المسلح بأن يطلق النار؟»

«أنا... ماذا؟»

وضع «ستيف» يده في جيب سترته وأخرج منه هاتف الأقمار الصناعية الخاص برضا.

«ولهذا اتصلت منذ أيام قليلة بأحد مؤيدي طالبان المعروفين بكابول؟»

دماء وظلال في كل مكان. القائد؟

«لم أكن أعلم...»

«وهل سأضطر إلى تتبع كل من اتصل بك من مكتب اتصالات عامة بقندهار ـ المقر الرئيسي لطالبان ـ قبل دقائق قليلة من قتل «هاري»، أم ستوفر علينا بعض الوقت وتخبرني بنفسك رضا هزاره؟»

«لم أستخدم هذا الاسم منذ عشرين عامًا. كنت حينها فتى صغيرًا.»

«لقد كنت أقف بجانبك، أيها القذر الكذاب. منذ ساعات قليلة حين أتتك المكالمة، كان بوسعي سماع الرجل على الطرف الآخر. رضا هزاره. هذا ما قال.» نهض «ستيف» واقفًا وهو يُمسك بنسخة من «الإوزة الأم» ويأخذ معها من درج الطاولة المجاورة للفراش هاتف الأقمار الصناعية الخاص بـ«هاري» ومسدسه. «هامتي دامتي»، قال بطريقة غير رسمية وسار ناحية الباب، والكتاب في يده. فتح الباب وأشار لاثنين من المقاولين يقفان بالخارج للحراسة ـ كانا الاثنين اللذين دعاهما رضا «مساعدين مأجورين» قبل ذلك بأيام قليلة.

«هل تعطيني هاتفي»، قال رضا وهو يمد يده ثم يسحبها سريعًا إذ لاحظ ارتعاشها. «أحتاج إلى الاتصال بـ«إيه آند جي»؛ فعلى الأرجح يجب أن يعلم محاموهم أنك على ما يبدو توجه إليَّ اتهامًا.»

أغلق «ستيف» الباب وسار نحو رضا، مستمتعًا إلى حد كبير: «هل تظن حقًّا أن «إيه آند جي» ستدخل في صراع قانوني مع المخابرات الأمريكية بعد أن حصلت أخيرًا على ما كانت تتمناه طوال العقد الأخير؛ شريحة من التحرك الحكومي؟ ومن أجلك أنت؟».

«ليس لديك أية أدلة. ولديَّ تفسير للمكالمات الهاتفية.»

«أوه! لديك تفسير لكل شيء. أنا متأكد من هذا. لكن ها هي الأخبار السيئة: لقد رأيتك وأنت تشير إلى الرجل المسلح ورأيتك تنحني قبل أن يطلق النار مباشرة. هذا دليل كاف في عالمي.» وضع يدًا على كتف رضا: «أعرف كل ما تريد فعله. وأعتمد على جبنك، أخبرْني بالمتورطين الآخرين قبل أن يسوء الأمر أكثر من ذلك». تراجع خطوة إلى الخلف. «سأمنحك الوقت للتفكير في الأمر. وسترى الحكمة فيما أقوله.»

انصرف «ستيف» وأغلق الباب خلفه بهدوء.

كان ثمة جزء من ذهن رضا ليس به سوى التطبيق العملي لحقائق مختارة، كان ذلك الجزء الذي يستخدمه في قراءة تقارير «إيه آند جي» أو عند المشاركة في الاجتماعات التي يتبين منها أن الشركة تتورط في أعمال مع القتلة والسفاحين. كان ذلك الجزء قد سمح له من قبل ذات مرة بأن يجلس في اجتماع قام فيه عميل جديد من عملاء «إيه آند جي» بتمجيد فاعلية الاغتصاب كأداة من أدوات الحرب. ترجم رضا كل كلمة قالها الرجل بشعور جامد. ثم وجده «هاري» بعد ذلك في حمام السباحة الأوليمبي التابع للشركة، يسبح في حالة غضب، فقال له: «لقد أوضحت لهم أني لن أشارك في هذا الأمر». أجابه رضا: «حتى ولو، هذه المرة سأستقيل حقًّا. لا تظن أن علاوة ستجعلني أعدل عن رأيي». جلس «هاري» القرفصاء عند حافة حمام السباحة ووضع يده على شعر رضا المنساب إلى الخلف وقال: «لا أعلم ماذا سأفعل من دونك، بنيَّ»، فبقي رضا.

غيَّر رضا ملابسه وارتدى «الشالوار كاميز»، بعد أن قام أولًا بإزالة الدماء من فوق جسده بقطعة قماش مبللة بماء من القارورة التي كانت بجانب فراش «هاري»، عاد إلى هذا الجزء العملي الصرف من ذهنه. كان «هاري» قد اختار هذا المكان ليقيم فيه هو ورضا من دون غيره من الأماكن الفسيحة الأخرى لسبب خاص جدًّا؛ حرك رضا فراشه بعيدًا عن الجدار وظل يربت على الأرض إلى أن سمع الصوت المجوف الذي أكد لـ«هاري» النظرية التي خلص إليها من حكايات المحليين عن العائلة المختفية التي عاشت هنا (سأل رضا: «ماذا عن الفتى الميت؟» رد «هاري»: «كان مجرد فتى ميت.»).

جال في الحجرة يلتقط أشياء قد تكون ذات نفع... حقيبة ظهر كبيرة، زجاجة مياه معدنية، كشَّافًا، ألواح «جرانولا»، مفتاحًا، جواز سفره الباكستاني

وبطاقته الخضراء الأمريكية. ملأ الفراغ الباقي في حقيبة الظهر بالأموال الطائلة التي كان يبقيها «هاري» في متناول يده لشراء ولاء الأفغان. تردد لحظة أمام صورة «هيروكو» و«إلزي» و«كيم» في نيويورك. ثم قرر ألا يأخذها. لم يرغب في أي شيء قد يربطه بآخرين. لكنه أخذ سترة «هاري» ـ سترته مضرجة بالدماء وقد تجذب رائحتها الوحوش.

كان النفق ضيقًا وعفنًا، سقفه واطئ جدًّا على مشية منتصبة. فكر رضا في «هاري» الذي كان بالداخل هنا منذ أسابيع قليلة مضت، محدودب ويميل بجسده جانبًا ليسهل تقدمه، غمغم: «أشعر كأنني «أليس في بلاد العجائب» عالقة في ذاك المنزل»، فضحك رضا الذي كان خفيفًا بما يكفي للسير بأقل إزعاج ممكن، وقال إنه في حال احتاجا حقًّا لاستخدام هذا النفق مخرجًا سريًّا، فسيتقدم هو أولًا لأن ثمة احتمالًا واردًا جدًّا أن ينحشر «هاري». قال «هاري»: «ماذا إذن؟ هل ستتركني؟» واستدار ليبتسم لرضا فتعثر في حجر؛ هنا، هنا، أضاء بالكشاف جدار النفق ليرى بقعة الدم الجاف من صدغ «هاري». مسح رضا الدموع من فوق وجهه ووضعها على دم «هاري». ثم، وعلى نحو غريب ـ إذ تطلب منه ذلك رفع عنقه على نحو غير مريح ـ قام بتقبيل بقعة الدم. غير أنها لم تبدُ له حقيقية تمامًا.

بعد حوالي ساعة خرج أخيرًا من الطرف الآخر للنفق في غرفة بلا سقف لها رائحة مواشي خفيفة، لا دليل على وجود عمار حولها. كانت الرائحة تنبعث من قطعة مشمع بني وجده «هاري» في حظيرة مليئة بروث الماعز، تحتها سيارة جيب.

سحب رضا المشمع وفتح السيارة الجيب بالمفتاح الذي أخذه من جوار فراش «هاري»، وقادها خارج الحظيرة المهجورة. تبين الخطوط العريضة الواهنة للجبال في الظلام الحدود، وباكستان. أوقف السيارة

وتحقق من نظام تحديد المواقع. كانت باكستان الوجهة الواضحة. واضحة له ولـ«ستيف». قد يستطيع إقناع حرس الجيش على الحدود بالاتصال بالنقيب سجاد أشرف؛ ليضمن أن رضا مجرد باكستاني آخر أدار له الأمريكان ظهورهم بعد امتصاص كل ما به من نفع، بيد أن المشكلة الأكبر كانت في القناصة المأجورين الذين يجوسون منطقة الحدود بحثًا عن «المقاتلين الأعداء».

ترجل رضا من السيارة وفك أزرار السقف العلوي الناعم. ومضت النجوم بخبث. اتصال واحد يقوم به «ستيف»، لعله قام به بالفعل، ويدخل اسمه القوائم العالمية للمشتبه في أنهم إرهابيون. تتجمد حساباته البنكية. يُراقب هاتف والدته. يُقتحم بريده الإلكتروني وهاتفه وجميع نشاطه على الإنترنت، إيصالات بطاقات الائتمان الخاصة به: لم تعد علامات حياته اليومية تتيح له العودة على جناح الريح إلى خصوصية دغل العشاق الخاص به: مكالمة الساعة ٣:١٣ صباحًا مع «مارجو»، القصيدة التي مررها بالبريد الإلكتروني لـ«عالية»، صندوق رمال «ميامي» الذي أرسله إلى «ناتاليا»، صارت نوعًا مختلفًا تمامًا من الأدلة. لا شيء في العالم قد يثبت أنه قاتل «هاري برتون»، بالكاد يبدو ذا شأن مقابل كل ما يمكن فعله بحياته قبل الوصول إلى تلك الخاتمة. إن كان أحد يُعنَى حقًّا بالخاتمة. لم يكن قد شعر قط بحدة انعدام الحيلة هذه في أن يكون المرء باكستانيًّا.

لعله يجب أن يعود، يعود إلى «ستيف» عبر النفق. يعود ليشرح مسألة كرة الكريكيت وشقيق عبد الله، والقائد ـ وقد تؤكد «كيم برتون» على أنه اتصل بها من أجل عبد الله. وماذا سيثبت هذا؟ أراد فقط مساعدة شخص تلاحقه المباحث الفيدرالية ولم يره منذ عشرين عامًا. إن كان «ستيف» يبحث عن إثبات على ولاء رضا لإحدى جماعات المجاهدين، فسيجده

هناك مباشرة، مباشرة في فم «كيم برتون». استند برأسه على إطار الباب بأنة صغيرة مثيرة للشفقة.

لا. لا عودة... ليس إلى الثكنة، ليس إلى حياته. فتح حقيبة الظهر، وأخرج جواز سفره وبطاقته الخضراء وألقى بهما، وراقب الريح وهي تواري وثائقه الشرعية بذرات الرمل الناعم. تنفس هواء الصحراء بعمق لحظة أخرى، كل ما حوله فسيح ولا مبالٍ، وشعر بذعر زواله.

ثم عاد إلى السيارة، وأدخل مساره في نظام تحديد المواقع.

٣٥

كانت «هيروكو» تحرص دائمًا حين تستقل سيارات الأجرة في نيويورك أن تجلس خلف المقعد المجاور للسائق ليسهل على السائقين الالتفات والنظر إليها وهي تتحدث معهم عن حياتهم؛ تناقش معهم كل شيء من انقطاع صلتهم بعائلاتهم في أوطانهم، إلى عالمهم النيويوركي الذكوري، إلى كل من شارك في الإضراب: شركات التأجير والترخيص، لجنة سيارات الأجرة والليموزين، واتحاد سائقي سيارات الأجرة، والسماسرة وأصحاب الكراجات. بدأت عبر تلك المناقشات تعي أشياء كبيرة وكثيرة عن تلك المجموعة المتنوعة من العمال المهاجرين، بما في ذلك شبكة اتصالهم؛ عبر اللاسلكي، وشبكات الهواتف الخلوية، ومحادثات ساحات الانتظار، ومنظمات حقوق السائقين، واتحاد عمال سيارات الأجرة.

كانت فاعلية شبكة التواصل تلك ـ ورغبة عمر من «جوجرانوالا» في تسخيرها لخدمتها ـ ما جاء بها إلى قاعة القراءة بالمكتبة العامة في نيويورك بعد أربعة أيام من وفاة «هاري برتون».

وهي تدخل قاعة القراءة الكهفية التي أضفت عليها مصابيح المكاتب مسحة مريحة، وجدت «هيروكو» المدرسة بداخلها تبتسم ببهجة لمرأى

كل تلك الرؤوس المنكبَّة على الكتب، أنقذ بعض من الطاقة وصوت تقليب الصفحات الحجرةَ من قبضة الصمت إلى راحة الهدوء. سارت في الممشى بين المكاتب، ينعكس نور الثريات على الأرض فتتحول إلى نهر من البرونز.

في منتصف القاعة، كان رجل عريض المنكبين ذو شعر داكن يرتدي سترة خضراء يجلس منتصب القامة في كرسيه، وأصابعه ترتاح بخفة شديدة على صفحة كتاب. كان اللاصق الأزرق الذي يبقي على إطار نظارته قطعة واحدة علامتها على أنه هو من جاءت للقائه.

جلست على المقعد الخالي بجواره. تحول توقعه وهو يلتفت نحوها بسرعة إلى انزعاج، ووقف آخذًا معه الكتاب وانتقل إلى مقعد آخر في الوسط بين مقعدين خاليين.

رفع الرجل العجوز ذو الوجه المغضن الذي يجلس قبالة «هيروكو» حاجبه لها قائلًا: «الأفغان. لا يحبون النساء».

ابتسمت «هيروكو» بشكل مهذب واتخذت طريقها بمحاذاة الطاولة إلى أحد المقعدين الخاليين بجوار الرجل الأفغاني ذي العينين البندقيتين والذقن الفاتحة بدرجات عدة عن بقية وجهه. تجاهلها وواصل الإمعان في صورة بساتين خصبة أمام خلفية من الجبال في كتابه الضخم.

«عبد الله. أنا والدة رضا.»

كان رد فعله الفوري أن دفع بكرسيه عن الطاولة إلى الخلف محدثًا صريرًا عاليًا وتعبير وجهه ينم عن عدم التصديق. وضعتْ يدها على ذراعه، وتوقف، إذ رأى رضا في ملامحها.

«رضا ليس هزاره. أنا يابانية. وكان والده باكستانيًا. أصوله من دلهي. انتقلت أنا ووالده إلى كراتشي عام ٤٧.»

كانت لكنتها ـ كراتشية مع شيء ما آخر ـ تفند لامعقولية ما تقوله. كذلك، كان عبد الله قد سمع ما قاله العجوز عن الأفغان والنساء، ويرى الآن يدها ترتاح على ذراعه في إشارة لعدم قبول هذا التحليل.

دفع بكرسيه إلى الأمام مرة أخرى.

«لكن رضا في أفغانستان.»

«نعم.»

«لماذا؟»

هزت رأسها وأتت بإيماءة تنم ليس فقط عن عدم فهمها السبب، بل أيضًا عن فشلها في أن تفهمه. لم يخطر ببالها على الإطلاق أن ابنها قد يشارك في حروب.

حين ظل عبد الله ينظر إليها بشك، وبدا واضحًا أن به حاجة إلى التيقن أشارت إلى الصورة التي شغلت صفحتين من الكتاب والتي كان يحدق فيها وقالت: «جميلة».

«قندهار. قبل الحرب.» مرر راحة يده على الصورة كما لو كان بوسعه تحسس ملمس الرمان الناضج بجلده. «يجتثون الشجر أولًا. ثم يضعون ألغامًا في كل مكان. الآن..» ضم أصابعه معًا ثم فرَّقها. «قنابل عنقودية».

قلب الصفحة فظهرت صورة زوجين عجوزين، تتباهى المرأة بملابس بألوان زاهية عديدة بينما يريح الرجل يده على كتفها وهما يسيران بين كثبان

الرمال كما لو كان يعلم أن كآبته ستذوب في الصحراء إن لم يتمسك جيدًا بمصفوفة ألوان المرأة. كانت السماء زرقاء على نحو لا يُصدَّق.

قال عبد الله: «النور، النور في أفغانستان، ليس له نظير في أي مكان في الدنيا».

أومأت «هيروكو» وهي تلمس الصفحة بوقار كما يلمسها عبد الله. كان من الصعب إيجاد صور فوتوغرافية لناجازاكي في فترة ما قبل القنبلة، لكن «كيم» أتتها بما تبقى لدى عائلة «برتون» من الصور القديمة لـ«جورج برتون» ـ عزبة «الأزاليا»، المعدية، «ميجان باشي» وقت فيضان النهر ـ وحين نظرت إلى الصور أدهشتها قوة إحكام قبضة الطفولة على ذهنها العجوز.

استمر عبد الله يقلب صفحات الكتاب، يتوقف قليلًا عند بعض الصور، ويطيل عند أخرى. من حين إلى آخر يوضح لـ«هيروكو» بعض التفاصيل: عنزة تشب على قدميها الخلفيتين في ركن إحدى الصور بتوازن راقصة، طائرة ورقية تحلق أعلى قبة لها خضراء بلون الطائرة، مما جعل الطائرة تبدو كأنها إحدى بلاطات السقف وقد هربت منه. كان أحيانًا يشير إلى شيء ويعلن اسمه بالباشتو، فكانت «هيروكو» تردد الكلمة، وتسعد حين تجد تداخلًا بينها وبين الأردية، أو شبهًا بينها وبين كلمات في الهندوكية التي تعلمتها حين كانت في «أبوت آباد».

حين فرغا من الكتاب، أغلقه عبد الله وقال: «هناك حيث أريد أن أعيش».

«أفغانستان؟»

«أفغانستان.»

لم يتفوه إلا بالقليل جدًّا بعد هذا حتى غادر هو و«هيروكو» المكتبة في

الضوء القاتم لنهاية فترة الظهيرة. لم يكن البرد بالوحشية التي كان قادرًا عليها في هذا الوقت من العام، مع هذا شد عبد الله الطاقية الصوف فوق رأسه إلى أسفل حتى عينيه ولف وشاحًا كبيرًا حول عنقه.

«لم يكن حتى أفغانيًا وجاء ليحارب معنا. لم يكن بشتونيًّا، وكان يعرف لغتنا. وتسببت أنا في ترحيله من هناك.» لم تكن «هيروكو» تعلم عمن يتحدث. «لكنه بدلًا من أن يكرهني، ما زال يحاول مساعدتي.»

وإذ أدركت عمن يتحدث أدارت «هيروكو» وجهها بعيدًا، متمنية لو أنها ربت ولدًا يستحق هذا التمجيد. لم تعرف ما إذا كان عليها أن تخبر عبد الله بالحقيقة أم لا ـ كان ابنها مرتزقة، وكان ما فعله ليساعد عبد الله اتصالًا هاتفيًّا واحدًا بامرأة لم يقابلها قط ليحاول وضع المسؤولية كلها على عاتقها، وعلى الرغم من وعوده، لم يحضر جنازة «هاري» ولم يأبه حتى بتفسير سبب غيابه. كان ذلك الفشل الأخير هو الذي أقنعها أكثر من أي شيء آخر أن جل علاقتها بابنها مؤلَّفة من أكاذيب؛ لا تزال تشعر بالغدر حين تتذكر آخر محادثة دارت بينهما، بعد ساعات من وفاة «هاري»، حين قال بنبرة صدقتها تمامًا: «ماما، يجب أن آتي لدفنه. يجب أن أراكِ». مع ذلك حين اتصلت به «كيم» لتسأله متى يستقل الطائرة إلى نيويورك وإن كان يوافق على قراءة شيء في الجنازة، رد عليها رجل يُدعى «ستيف» وأخبرها أن رضا لن يذهب إلى نيويورك لحضور الجنازة، أو في أي وقت في المستقبل القريب، وأنه، «ستيف»، لا يمكن أن يبوح بأكثر من هذا لدواعٍ أمنية.

أنهت «كيم» الاتصال وهي تهز رأسها.

«لقد دمج أبي رضا في صورته حقًّا، أليس كذلك؟» حاولت «هيروكو» أن تعترض، لا بد أن هناك تفسيرًا آخر للأمر، فقد كان رضا مصرًّا على

حضور الجنازة. أجلستها «كيم» أمام الكمبيوتر، وعلى الإنترنت، عرَّفتها حقيقة مجال عمل شركة «إيه آند جي». و«هيروكو» لا تزال تناضل لتركيب عالم سماسرة القطاع الخاص للجيش على الصورة التي في ذهنها عن حياة ابنها، أضافت «كيم» كما لو كانت مسألة غير مهمة: «وفوق كل هذا، أرادني أن أهرِّب أفغانيًّا ما عبر الحدود».

قال عبد الله وهو يربت على مخلب تمثال حجري لأسد بألفة طقسية وهو يهبط سلالم المكتبة: «حين طلبت من أخي أن يرى إن كان رضا ـ اسمه رضا حقًّا؟ ـ يعرف شخصًا يمكن أن يعبر بي الحدود، لم أكن أعني أن يخبر والدته، لا أريد أن أشق عليك في شيء».

«لن تفعل»، قالت «هيروكو» وهي تتوق إلى العودة إلى حرم الكتب. قضت أوقاتًا كثيرة جدًّا من حياتها حول «القرية»، حتى إن تقاطعات وسط المدينة المنظمة والمسعورة تجعلها تشعر كما لو كانت عالقة في مربع كلمات متقاطعة مختل. «هل تعلم ما إذا كان شقيقك قد تحدث مع رضا منذ...» كادت أن تقول «منذ موت «هاري»». «مرة أخرى، أعني هل تحدث معه مرة أخرى؟»

«لا أعلم. سأتصل به خلال ثلاثة أيام.» ثم أضاف بلهجة اعتذار تقريبًا: «ليس لديه هاتف. لذلك يذهب إلى مكتب اتصالات عامة مرة في الأسبوع». أخرج من جيبه هاتف خلوي ونظر إليه. «أشياء كثيرة تعاهدين نفسك ألا تعتاديها، لكنك في النهاية تعتادينها.»

«منذ متى وأنت في نيويورك؟» جاءت إلى هنا وهي لا تعرف أي نوع من الرجال تجد، كانت فقط على يقين من أن عليها أن ترى هذا الجزء الغامض من حياة ابنها. لكنها الآن لم تستطع أن ترى الفتى الذي جذب رضا إلى عالم

العنف، فقط رأت رجلًا يعي افتقاد الوطن واستحالة العودة إليه. كان ينظر إلى صور بساتين «قندهار» كما كان سجاد ينظر إلى صور حيه القديم في ديلي.

«ظللت مع المجاهدين حتى جلاء السوفييت. لكن بعد ذلك، لم يحل السلام قط. وكان الأفغان يقاتلون أفغانًا، والبشتون ضد الهزاره... لا. لذلك عدت إلى كراتشي. نعم، أربعة أعوام.» تحول إلى الأردية. «كنت سائق شاحنة. كنت كلما ذهبت إلى سوق السمك أراقبه بعيني علني أجد رضا هزاره. لكن شقيقي قال إن على أحدنا أن يذهب إلى أمريكا؛ حيث يمكن كسب لقمة عيش حقيقية. كنت أنا الأصغر، والأنسب، كانت لديَّ أفضل الفرص لاجتياز الرحلة. وكنت قد تزوجت للتو، لذلك لم أترك خلفي سوى زوجة فقط بلا أطفال.»

«لك زوجة؟»

«نعم»، قال وهو يتقدم بخطوة واسعة إلى الأمام ويحجِّز بجسده على شخص مخمور، كان سيصطدم بـ«هيروكو»، وينحيه بعيدًا عن طريقها بضربة خفيفة وسريعة على ظهره. لم يعِ أنها رأت شخصيته كلها في هذه الحركة. «لم يكن تركها سهلًا، لكن أشقائي كلهم كانوا يقاتلون أو يحاولون زراعة الأراضي وسط الألغام، ولم أستطع كسب ما يكفي الجميع في كراتشي. لذلك جئت إلى هنا في ٩٣. ولم أر أحدًا منهم منذ ذلك الحين. لا أشقائي ولا زوجتي. ولدت ابننا بعد ستة أشهر من رحيلي عنها. كانت تعلم أنها حبلى قبل أن أرحل، لكنها لم ترد تعسير الأمور عليَّ. لذلك فالأمر ليس سيئًا جدًّا، الرحيل من هنا. سأرى ابني وزوجتي. النور في أفغانستان. ليس الأمر سيئًا؟»

نظر إلى «هيروكو» بحيرة، وقد وجدتْ في نفسها رغبة في البكاء.

٣٦

قبل ذلك بثلاثة أيام خارج قندهار كان رجلان بشتونيان يترجلان من سيارة جيب وهما يأخذان أسلحتهما من أسفل مقعديها قبل أن تصل أقدامهما إلى الأرض. بدا الرجلان للراكب الجالس في المقعد الخلفي، يتلفت برأسه من جانب إلى آخر، مجزأين إلى مربعات كثيرة؛ وهو ما كان أثره مزعِزعًا ومزعجًا بالقدر نفسه.

جال أحد الرجلين بنظره حول رقعة البيوت التي وصلا إليها، هدوء شمس منتصف الظهيرة.

«أمان»، صاح على الشخص الجالس في المقعد الخلفي.

تعثر الشخص المنقب يحاول خلع الإسدال الأزرق الضخم عنه وهو يخرج من السيارة، وهو تصرف أدّى إلى الزحف في الأرضية الموحلة وصرخة ألم.

قال أحد الرجلين ضاحكًا: «على رسلك، ظللْتَ بها عشر ساعات تقريبًا، ولن تقتلك ثلاثون ثانية أخرى».

خلع رضا البرقع عن وجهه وهو ما زال في التراب، شدَّ ربطته المحكمة

حول رأسه بشراسة وألقى بها جانبًا. رقد على الأرض مستندًا بمرفقيه وتنفس الهواء، مختنقًا بعض الشيء، لكنه يبتسم، وتتجول عيناه في هذا الاتجاه وذاك والنسيم الرقيق يمس جلده.

«تعال، تناول بعض الشاي»، قال أطولهما وهو يسير ناحية أحد بيوت الطمي.

«لا. لا. ليس لديَّ وقت.» هبَّ واقفًا، وهو يناول البرقع للرجل الأقصر طولًا. «شكرًا على الزي التنكري.»

قال الرجل: «شكرًا على التوصيلة». ثم أشار برأسه إلى البرقع قائلًا: «احتفظ به. ربما تحتاج إليه».

«شكرًا لك.» رفع رضا قطعة القماش على كتفه، ولم تعد مُضِرَّة، وقال: «مع أنني أظن أنه لهذا بالأحرى سيلقى الأمريكان القبض عليَّ».

خرجتْ من أحد المنازل امرأة في رداء كالذي كان فيه رضا منذ دقائق قليلة، مال رأسها في اتجاه رضا. نظر إليها، تخيل رؤيتها له من وراء مربعات صغيرة، تساءل هل كانت تختلس النظر من النافذة حين نزع البرقع بحدة وألقى به في التراب؟ هل ظنت لوهلة أن هذا تصرف امرأة؟ غض بصره سريعًا قبل أن تؤخذ نظرته على محمل الخطأ، أو الصواب. شعر أنه سيجن جنونه إن لم يرَ وجه امرأة، أو يسمع صوت امرأة.

قال الرجل الذي بجانبه: «بعد أن تحتسي بعض الشاي يمكنني أن آخذك بالسيارة إلى الضريح، وجود الهزاره ليس أمرًا شائعًا هنا، ولا حتى هؤلاء الذين يتحدثون الباشتو بأناقة مثلك».

تلك أول مرة تُذكر فيها كلمة هزاره في الحوار. كان قد وجد الرجلين في بداية رحلته يبتعدان عن سيارة تهشم أحد محاور عجلاتها في حفرة

وعرض عليهما أن يقلهما حتى بيتيهما على حدود قندهار. بعد دقائق قليلة في صحبتهما أدرك أنه ليس به حاجة إلا إلى الإفصاح عن أنه يختبئ من الأمريكان ليكونا حليفين.

قال رضا: «لقد قدت طويلًا بما يكفي، لكنني سأعود لأستغل عرضكما على العشاء».

بعد ذلك بدقائق قليلة ـ بعد ابتلاع كوب شاي أخضر؛ كإجراء أسرع من رفض كرم ضيافة بشتون ـ كان ينطلق بالسيارة مبتعدًا عن قندهار، ولسانه وحلقه يتحرَّقان. منذ عشرين سنة، في «سهراب كوته»، في مطاعم الطريق السريع، في كابينة الشاحنة المرسوم عليها السوفيتي الميت كان يستمع لغزليات عبد الله في جمال مدينته؛ الزمرد في صحرائها التي تثمر أشجارها قصائد للغتها حلاوة التين الناضج. بيد أن رضا بنظرته السريعة على قندهار لم ير سوى التراب والضراوة ـ بعد شهر من هزيمة طالبان ـ ولا امرأة واحدة سافرة.

كانت القيادة حتى ضريح «بابا الولي» أكثر ألمًا من القيادة حتى حدود قندهار. لم يكن واثقًا مما سيختار إن خُيِّر بين أن يرى امرأة أو طريقًا سريعًا على الطراز الأمريكي. حطام غارات القصف الأمريكي في كل مكان؛ ينتصب باب بلا دعامة في حقل من الحطام كما لو كان نبتة إعجاز؛ حُفَرُ الألغام على الطريق، بلا تمييز كشظايا النار؛ معدن أسود في هيئة سيارة جيب انقلبت رأسًا على عقب. تساءل ماذا لو أن امرأة ترتدي البرقع كانت تقف بجوار السيارة الجيب حين اشتعلت فيها النيران، هل كان يُرسَم على وجهها وشمٌ شبكي. بهذه الطريقة كان يفكر في والدته من دون انقطاع تقريبًا طوال الطريق إلى قندهار. على نحو ما صارت جزءًا من ألمه لفقدان «هاري»، مع أنه لم يسعه أن يفهم حقًّا صلة هذا بذاك.

حين وصل في النهاية إلى الضريح، كان أول ما فعله ما إن ترجل من السيارة أن خر على الأرض يتمرغ فيها. عشب! خضرة حقيقية، عشب مُدغدِغ. انتزع من الأرض حفنة ومسح بها وجهه، وذراعيه وعلى مؤخرة عنقه قبل أن يخطو إلى المصطبة الرخامية العليا التي تكتنف المقام الواطئ بقبابها الفيروزية. هنا، أخيرًا، ثمة لمحة طفيفة من العالم الذي تعلق به عبد الله، ذلك الجمال المفقود الذي جعله يفكِّر في العنف البشع. لم يكن الضريح ـ ولا بلاطاته متعددة الألوان التي لاحظها رضا ـ ما تحدث عنه عبد الله من قبل حين ذكر أنه كان يأتي إلى هنا كل جمعة مع عائلته قبل أن ينتزعهم السوفييت بعيدًا عن الوليِّ الذي ظلوا يصلونه لأجيال، بل تحدث بدلًا من ذلك عن البساتين المحيطة والنهر الجاري ومن ورائه الجبال التي درج شقيق عبد الله على إخباره بأنها مؤخرات بارزة لوحوش نائمة.

خلع رضا حذاءه وجوربه وسار على الأرض الرخامية، خلفه الضريح وأمامه نهر «أرغنداب». بخلاف بقية قندهار، كان ثمة دليل كافٍ هنا على ما كان. رقعة شطرنج من حقول خضراء وبنية، الأخضر منها زاعق وغزير؛ وراءها النهر تحت وهج الشمس، وعلى البُعْد، في غلالة الظهر، جبال منقوشة في سماء صافية.

كان أول من أتى إلى رضا رجل شرطة يسأله من هو وماذا يفعل هنا.

قال رضا: «المجاهدون الذين علموني إطلاق النار كانوا يصِلون الولي».

أومأ الشرطي برأسه وتركه وشأنه.

بعد ذلك بدقائق، اقترب من رضا رجل آخر، نصف وجهه غائر.

«تعرف مجاهدًا كان يأتي إلى هنا؟»

«نعم. هل تدلني على عائلته؟ له في ذمتي دين عليَّ أن أسدده.»

حك الرجل الخدَّ الذي لا يزال متبقيًا.

«ربما. هل أنت هزاره؟»

«لا. لسْتُ أفغانيًّا.»

وقف الرجل ينتظر المزيد. التفت رضا بعيدًا عنه وظل يرنو إلى المنظر أمامه.

«كانت عائلته من المزارعين القريبين من هنا. كانوا يأتون كل جمعة إلى هذا الضريح. كان اسمه عبد الله دوراني، ابن الحاج محمد دوراني. كانوا خمسة أشقاء، جميعهم مجاهدون. استشهد أكبرهم في العام الأول لاحتلال السوفييت حين أطلقت طائرة ميج النيران على شحنة الأسلحة التي كان ينقلها.» كان يدرك مدى فظاظة ألا يكشف شيئًا عن نفسه، لكن ذهنه كان يغربل ما يؤمَن قوله وما لا يؤمَن.

سار الرجل مبتعدًا عنه، وجلس رضا على البلاط البارد، في ظل الضريح، وفكر في «هاري».

عاد الشرطي يناوله كوب ماء.

كان يراقب عنكبوتًا يزحف على الأرض ـ يتذكر «هاري» وهو يسأله عن قصة العنكبوت في الإسلام التي أخبر بها سجاد «كونراد» وأخبر بها «كونراد» «هيروكو» وأخبرت بها «هيروكو» «إلزي» التي أخبرت بها «هاري» ـ حين ناداه شخص باسمه. رجل بأنف معقوف، وشعر صلب ولحية كاملة تصل إلى صدره.

قال الرجل ثانيةً: «رضا هزاره»، وتذكر رضا ابتسامته الشابة غير المتوقعة التي كانت على وجهه يوم أن أقله وعبد الله بالسيارة إلى معسكر المجاهدين. صار كل ما فيه هرِمًا: «لماذا أخبرت ذاك الرجل أنك لست أفغانيًّا؟».

«سيبحث عنك الأمريكيون»، قال رضا وهو ينهض لتقليل شعوره بالرهبة. أدهشه أن وجد أنه أطول من شقيق عبد الله. ماذا كان اسمه؟ «أعني أنهم يبحثون عن الرجل الذي اتصل بي... أمس.» بدا أنه منذ وقت أطول من هذا بكثير. «يظنون أنه... أنك... يظنون أنك متورط في جريمة قتل أمريكي.»

ضحك الرجل.

«الأمريكيون ليسوا ماهرين في العثور على من يبحثون عنهم في أفغانستان. لماذا يظنون هذا؟ هل تورطت أنت في قتل أمريكي؟»

فكر رضا في ضحكه مع «هاري» على المقاولين في ستراتهم الواقية التي لا يخلعونها إلا في أثناء حمامات الشمس؛ في هذا الوقت من عدم الوقاية كان عدد الحراس على برج الحراسة يتضاعف.

قال: «نعم».

«أحسنت. هل جئت للعثور عليَّ لتخبرني بهذا؟ إنهم يبحثون عني؟ لا مشكلة. لقد اتصلت من مكتب اتصالات عام، يديره صديق قديم لي. نحمل ندوبًا من معارك واحدة. بجانب هذا، نحن في قندهار. لا أحد هنا سيساعد الأمريكيين. نحن لسنا مثلكم أيها الهزاره.»

«أنت من طالبان؟» صدرت عنه من دون وعي؛ وبحسب سمع رضا بنبرة اتهام.

حرك الرجل كتفيه إلى أعلى، شيء ما في الحركة ذكَّر رضا بعبد الله.

«أنا أكبر ممن يحتاجونه بعشرين سنة. مزارع. أنتظر هنا...» دخل الضريح وراقبه رضا وهو يصلي بجوار قبر الصوفي؛ مشهد جعله يحني رأسه خشوعًا ويردد سورة الفاتحة، إنما ليس على روح من مات منذ مئات السنين.

«أتعلم من يحب أن يأتي هنا؟» قال شقيق عبد الله، إسماعيل، هذا هو اسمه! «ابن عبد الله.»

«لعبد الله ابن؟»

«اسمه رضا.» قال إسماعيل وهو يومئ برأسه إلى نظرة مرتبكة من رضا. «نعم، سماه باسم الصديق الذي خذله وهو فتى صغير. لم ير رضا ـ رضا ابننا ـ أباه قط، لكن عبد الله حين يتحدث معه عبر الهاتف كل شهر ينبه عليه أن يخبره ما إن تكبر كفه بما يكفي ليحمل أكبر رمانة لدى سيدنا الولي.» وأشار برأسه إلى أيكة من شجر الرمان تكتنف الشرفة. «هكذا يأتي رضا ابننا إلى هنا كل أسبوع، أحيانًا يتسلل منا ويأتي وحده، مع أننا الآن بعد أن عاد الأوغاد إلى السلطة حظرنا عليه الخروج وحده. إنه فتى جميل جدًّا، ربنا يبارك فيه، على الرغم من أن ذلك في هذا الزمن يُعدُّ لعنة.»

«لماذا لعنة؟»

«حاكمنا الجديد ورجاله. هؤلاء الذين كانوا في الحكم قبل أن تأتي طالبان وتنقذنا من قبضتهم. لم يكن النساء ولا الفتية الصغار في مأمن خلال تلك الفترة، ثم جاء طالبان وأنقذوا النساء اللائي خطفن، وأبعدوا القادة العسكريين الذين كانوا يتصارعون في البازار على فتى صغير.»

«لهذا أيدتهم؟ طالبان؟» كان يحاول أن يرى الرجل الذي ربما صار إليه عبد الله في الشقيق الذي كان مثله الأعلى ذات مرة.

«أخبرتك. أنا مزارع. أريد أن أزرع محاصيل وأحصدها. هل تفهم هذا؟ أنا بي حاجة إلى السلام من أجل هذا. بي حاجة إلى الأمن. في مقابل هذا ثمة كثير مما يجب أن أتخلى عنه.» أراح يده على جدار الضريح. «هذا ما أجاهد من أجله. حق العودة إلى هنا مع عائلتي، لنزرع في ظل سيدنا الولي، ونزور

مقامه كل جمعة كما ظلت عائلتنا تفعل لأجيال. أن أرى أبنائي يقيسون كفوفهم برمانة، وليس بقذيفة. لكن طالبان، لا يعرفون الصوفية والبساتين. لقد كبروا في مخيمات اللاجئين، بلا ذاكرة عن هذه الأرض، لا صلة لهم بشيء سوى الجهاد ضد الكفرة والمهرطقين. لذلك أتوا حين جاءوا للحكم بقوانين مختلفة عن القوانين التي كبرت أنا في كنفها. ماذا إذن؟ كرة القدم حرام! بوسعي العيش من دون كرة القدم. الموسيقى حرام! أمر مؤلم، لكنني حين أرى الزرع ينمو أو أبنائي يعبرون الطريق من دون خوف على الأقل أجد موسيقى في قلبي.»

«وماذا عن بناتك؟»

«هزاره. ليس لك شأن ببناتي.»

نظر رضا إلى إسماعيل ببرود دقيقةً، ثم استدار ومشى بعيدًا بغطرسة. طالبان، منقذو شرف النساء! حسنًا، لقد قام بما أتى من أجله؛ حذَّر إسماعيل، ولن يكون الذنب ذنبه بعد الآن إن حدث وعثر «ستيف» عليه. بوسعه الآن أن يعود أدراجه بضمير مرتاح إلى صديقيه الجديدين البشتونين اللذين وعداه بتهريبه عبر الحدود من دون قلق عن طريق لا تطأها دوريات الحراسة، ويسلكها كثير من محاربي طالبان. مع أنه لم يزل بعد لا يعلم ماذا يفعل حين يصل باكستان.

لعله يذهب لزيارة قبر والده. سيكون بمقدوره هذا على الأقل.

قبض إسماعيل على يد رضا: «رضا هزاره! لا تذهب أرجوك. أخبرني عن شقيقي. هل وجدت طريقة للعبور به إلى كندا؟» حين لم ينبس رضا بكلمة، عاد إسماعيل خطوة إلى الخلف، واستقام بشدة في وقفته بطريقة رجل وجد أن عليه أن يتوسل وتأبى نفسه هذا.

«قلْتَ إنه ينبغي أن يكون في كندا في العاشر من فبراير. لماذا؟»

«هذا يوم مغادرة السفينة.»

«السفينة؟»

«نعم. المتجهة إلى أوروبا. من هناك يسافر إلى إيران، عبر الصحراء، ثم إلى وطنه. في العادة يقوم محصول الخشخاش الذي أزرعه بهذه الرحلة في اتجاه واحد، هذه المرة شقيقي سيعود إلى وطنه في الاتجاه المعاكس.»

«هل تستطيع...؟» توقف رضا. «تمعَّن في الأمر.» سمع «هاري» يقول له. حين أخبره البشتونيان أن بوسعهما توصيله إلى باكستان، بدا عرضهما أكثر إغراءً من أن يرفضه، يضرب بكل مخاوفه السابقة عرض الحائط. غير أن منطقه السابق في التفكير كان سليمًا. سيخمن «ستيف» توجهه إلى باكستان، سينتظره في كراتشي عند قبر أبيه. في لاهور في بيت عمه. قد يطلب من المخابرات الباكستانية البحث عنه لرأب الصدع في صداقتها مع الأمريكيين؛ إذ إنه ليس بذي قيمة إستراتيجية لدى المخابرات الباكستانية، لم يكن ثمة سبب يدعوهم لعدم العثور عليه، وسيعثرون عليه. إنها المخابرات الباكستانية، بالطبع سيعثرون عليه (في كل تعاملاته مع «إيه آند جي» لم يرهبه أحد قط بقدر ما فعل الرجل ذو المنديل الورقي الوردي).

أسند رأسه على عمود من قطع حلزونية بيضاء ورمادية، تمنى لو كان «هاري» معه يفصل له بين العملي والمشوب بجنون الاضطهاد، بين التحرك غير المتوقع والتحرك الغبي.

كانت يد إسماعيل على ظهره.

«هل أنت بخير؟»

رفع رضا يدًا يطلب دقيقة فقط للتفكير. كان بلال، صديق الدراسة، في كندا. في «تورنتو». يعمل مهندسًا. والداه هناك أيضًا، يقيمان مع بلال وزوجته وأطفاله، وحين احتاجت «هيروكو» لإعادة ختم تأشيرتها للحصول على إقامة شرعية في أمريكا، عبرت الحدود لزيارة والدة بلال، صديقتها وجارتها القديمة. إنها تعبر الحدود كل ستة أشهر، لا شيء مريب في هذا، لا شيء غير متوقع في أن تفعل ذلك ثانيةً. وسيرحب به بلال، رضا يعلم هذا. التقيا في «ميامي» منذ سنوات قليلة وأعادوا تأكيد صداقتهم حين ألقى بلال ذراعه حول رضا وقال: «أخبرتني شقيقتي بالمعاملة السيئة التي عاملتك بها في تلك السنين الخوالي. تمنيت لو أنها تزوجتك أنت بدلًا من قارع الطبول «بوشومه» تلك في براغ.» لم يكن في هذه الجملة من شيء يمكن لرضا أن يتخيل درجة من المصداقية فيه.

استدار رضا إلى إسماعيل. «هل يمكنك توصيلي إلى كندا؟»

«لماذا؟»

لماذا؟ كيف له أن يعبر بالكلمات عن شوقه لرؤية أمه؟ كان الأمر كأن كل شيء في حياته قد اختفى في لمح البصر ولم يبقَ سواها؛ منارة، تميمة سلامة، سبب للجري إلى مكان بدلًا من مجرد الجري فقط.

«لم يتبقَّ لي في العالم سوى شخص واحد فقط ممن أحبهم. سيكون بوسعها أن تأتي لتراني إن كنت هناك.» سيمكنه بعد هذا، بعد أن يراها، أن يقرر ماذا أيضًا، ماذا بعد. لكنه في حاجة لأن يراها فقط أولًا. لم يكن ثمة شيء آخر. لم يكن ثمة أي شخص آخر.

جذبه إسماعيل في عناق غير متوقع.

«مات جميع من لك ما عدا واحدًا؟ يا الله، ماذا فعل الأفغان لحمل كل هذه الأحزان؟»

أراح رضا رأسه على كتف إسماعيل مدركًا أن هذا العناق من بين كل الأشكال الأخرى للعناق التي تلقاها هو أبعدها عن استحقاقه.

٣٧

في أحد أركان شقة السطح في شارع «بريكل»، جلست «كيم برتون» على الأرض وسط أكداس من الصناديق. استندت برأسها على الحائط، وكأس ويسكي تتوازن على ركبتها. لم تشرب ويسكي قط، وقطعًا لم تشربه في منتصف النهار. إلا أن المرات القليلة التي هاتفها والدها فيها من هنا كانت تبدأ دائمًا تقريبًا بتحيته المعتادة «تؤنسينني وأنا أتناول شرابًا؟» لذلك كان ثمة ألم ضروري في التمسك بالكأس في زيارتها الأولى لهذه الشقة التي عاش فيها والدها عَقْدًا.

سيصل عمال النقل سريعًا لنقل كل ممتلكات «هاري» إلى مخزن. لعلها يومًا ما يمكنها النظر فيها لتقرر ما يستحق إبقاءه، وما يمكن إلقاؤه من ممتلكات أبيها. ليس الآن. الآن ستأخذ «اللاب توب» فقط، المجلد الأكبر والوحيد في ذاكرته مليء بصور «كيم»، مقاطع فيديو «كيم»، نسخ ضوئية من خطابات «كيم»، تقارير مدرستها العليا، أطروحاتها في الجامعة. كان عمر أحدث صورة لـ«كيم» و«هاري» معًا حوالي ثماني سنوات، والتُقطت بإصرار من «إلزي».

لم تكن الشقة كما توقعتْ. لم تظن والدها رجلًا يعنى بالديكور الداخلي، كانت تتوقع قدرًا لا بأس به من الخزانات المليئة بكتب غير روائية، أثاث

يشي بترف وليس بمزية شخصية، جدران عارية، وثلاجة خالية. لكنها وجدت بدلًا من هذا حشيات أرضية، وأغطية مزركشة، وسجاجيد فارسية سميكة، وسيفًا قديمًا جميلًا معلّقًا على الحائط، وثلاجة تعج بالصلصات والبهارات وحبوب الكبَر، وأنواع الفلفل، وأرففًا للكتب في كل مكان بها أشعار وروايات بالإنجليزية والألمانية والأردية. كان هناك أيضًا على الأقل ثمانية نسخ من «أشعار حضانة الإوزة الأم».

بدقة، كانت تلك الأشياء هناك حين وصلت، وصارت في صناديق.

تساءلت «كيم» أي جزء منها تفقده بموت والدها. بموت «إلزي»، كان هذا واضحًا، إنها تعلم تلك النسخة منها تحديدًا ـ صريحة، مشاكسة قليلًا، وقائية ـ لا تتجلى منها إلا مع «إلزي»، كانت تعلم الحوارات التي لا يمكن أن تجريها إلا مع «إلزي» فقط. لكن كل شيء في حزنها على «هاري» كان غائمًا، وساحقًا. ركلت «اللاب توب» عند قدميها؛ من مثل أبيها يقوم بجمع الأدلة على أنه كان موضع اهتمام وليس مجرد مهتمًا.

تقدمت خطوات رجل محددة ومحسوبة في النفق بين أكداس الصناديق ناحيتها ووجدت نفسها تتوتر؛ إذ تفتق ذهنها عن صورة رجل ملتحٍ يحمل «كلاشنكوف».

«مِس «برتون»؟» كان توم؛ حارس العقار. «حاولت الاتصال بك من أسفل.» نظر إلى الهاتف الداخلي الذي تتدلى سماعته بمهانة على ارتفاع بوصات قليلة من الأرض، ثم استدار إليها متظاهرًا أنه لم يلحظ كأس الويسكي. «عمال النقل هنا. هل أرسلهم لكِ؟»

«بالطبع.» نهضت تمسح الغبار عن ملابسها، بلوزة بلا أكمام وبنطلون «كارجو». «آسفة توم.»

«لا داعي مس «برتون». شقيقي يعمل في «إيه آند جي»، مستر «برتون» وجد له وظيفة هناك. قال إن والدك مات في أفغانستان، وهو يحارب أسامة. يجب أن تفخري بهذا.»

هل يخفف الفخر وطأة الحزن؟ تريد أن يعيش. لماذا يقف هذا الرجل هنا ليتحدث كما لو أن هناك أنواعًا من الموت يمكن تحملها.

«إن كان شقيقك يعمل في «إيه آند جي» ربما يمكنه أن يجعل أحد أصحابه الموظفين هناك يرد على اتصالاتي.»

خلال الأيام الخمسة التي مضت منذ موت «هاري» لم يأتِ خبر آخر عن رضا، قالت «هيروكو» إن هذا ما حدث له حين توفي سجاد. «هذا ما يفعله دائمًا. تعلَّمه مني.»، لكن ما إن وطئت «كيم» شقة أبيها في «ميامي» شعرت بدافع قوي إلى التحدث مع رضا. هو الوحيد الذي يمكن أن يخبرها عن الدقائق الأخيرة في حياة «هاري». لعله هو الوحيد الذي يمكن أن يخبرها عن حياة «هاري». ظلت طوال أمس تتصل بهاتف الأقمار الصناعية الخاص به وكان عدم الرد يقلقها. من «ستيف»؟ ولماذا رد على هاتف رضا؟ لم تكن لتخبر «هيروكو» بشيء من هذا، لكنها اتصلت بـ«إيه آند جي» مرارًا، وتركت ثلاث رسائل تسأل عن رضا هؤلاء الرجال الذين شدوا على يدها وتحدثوا بمشاعر قوية عن «هاري» في جنازته.

بدا «توم» وكأنها صفعته.

«إنه مجرد سائق. ليس بهذه الشجاعة.»

«أنا آسفة. حقًّا. «توم». أنا فقط... تَعْلم؟ غاضبة.»

«نحن جميعًا غاضبون مِس «برتون».»

بينما يزيل الحمالون حضور «هاري» من الشقة وقفت «كيم» في الشرفة التي تطل على مكاتب شركة «إيه آند جي»، على بعد مبانٍ قليلة فقط. قال لها «هاري» ذات مرة إنه يكره هذا الحي. «ضجة المليونيرات»، ثارت أبهة ابن «جيمس برتون» على العنجهية. لكن المدير التنفيذي للشركة طالبه بالإقامة بالقرب من المكتب ما أمكن وبرر هذا بأنه حين لا يكون لديك سوى ساعة واحدة أو اثنتين بين يومي عمل لن ترغب في أي نوع من المواصلات. ومن ثم انتقل رضا إلى شقة في الطابق الثاني وأحب كل شيء في المنطقة؛ بعد ذلك كان واضحًا أن «هاري» لن يفكر في الانتقال.

استخدمت «كيم» المفتاح الذي يحمل حرف «ر» الذي وجدته في درج أدوات «هاري» لتدخل شقة رضا. لم تسأل نفسها لماذا، بل دخلتها وفقط. وجدت هناك الجو الذي توقعته لشقة والدها على السطح - قدرًا كبيرًا من التكنولوجيا من دون سمة شخصية، مع أنها حين تفكر في غرفة «هيروكو» التي لا يزينها شيء سوى لوحة بالية لثعلبين تساءلت إن كان رضا بهذا إنما يستعرض منطقًا يابانيًا في الجمال. لم تعلم ما إذا كان هذا الخاطر عنصريًا، وكانت منهكة بدرجة لا تسمح لها بالتمعن في هذا الأمر. فتحتْ باب دولاب ملابسه وكان أول ما رأته معلقًا سترة جميلة من الكشمير. مررت أصابعها على نعومتها وارتدتها لترى تناسقها عليها. كانت تناسبها تمامًا. الأكمام طويلة قليلًا فقط. حين دستْ أصابعها في الجيوب جعلها ملمس شيء جاف تنتزعها فورًا. ثم أدخلتها مرة أخرى بحذر شديد وأخرجت بتلات ورود جافة. تخيلت رضا يحشو جيوبه ببتلات ورود قبل أسابيع أو أشهر من تفتحها، ليستمتع بالشعور الحسي المخملي كلما وضع يديه في جيبيه. انتبهت بغتة لغرابة تصرفها هذا فأعادت السترة على شماعتها وأسرعت تنصرف.

تنظر إلى الخارج ناحية الماء وشاطئ «ميامي» على البعد يربطه بوسط المدينة جسر «ماك آرثر» المشيد من ألواح وعوارض خشبية. أساساته: عواميد مركبة على عمق أربع وثمانين بوصة في الماء، أربع وثمانين بوصة فوق سطح الأرض. وإن أرادت طائرة أن تغطس بأنفها فيه؟ إن جاء رجال بمتفجرات مربوطة إلى صدورهم لتحجب الجنون في قلوبهم...؟ إن تسلقه أفغاني واحد معه «إيه كي ٤٧» ونثر من فوقه الرصاص؟ لا، لا يمكنه الإضرار بأحد. بالتأكيد، لا يمكنه أن يحول العالم إلى فتات.

جاء أحد الحمالين إلى الشرفة ليخبرها بأنهم فرغوا من النقل.

«هل تشرب الويسكي؟ ثمة عدة زجاجات تحت الحوض. لا أريدها.»

تراجع الحمال خطوتين إلى الخلف ولوح بيديه في الهواء. «لا. لا. لا.»

نظرت إليه عن كثب. ظننت أنه من أهل البحر المتوسط، لكنها ترى الآن أنه قد يكون عربيًا.

«أنت مسلم؟» قالتها بنبرة أرادت أن تنم عن أنه لا بأس، لن تتحامل عليه لهذا، إنها آسفة لما قضاه أي شخص في تلك الشهور الأخيرة المجنونة.

ضحك الرجل، نباح قصير.

«لا. لا تقولي هذا. لا تقولي هذا. لا يجوز لنا أن نأخذ أي شيء من الشقق التي نعمل بها، ولا حتى حين يعرض علينا أصحابها. لهذا لا أستطيع أن آخذ الزجاجات. هل أبدو عربيًا؟ أنا إيطالي.»

قالت: «غلطتي أنا».

«لم يقم أحد بتلك الغلطة بأفضل من هذا.»

وجدت نفسها تقول: «لا عيب في غالبية العرب»، ثم تساءلت من أين تسللت كلمة «غالبية» إلى الجملة.

«هاي، لسْتُ عنصريًّا. جنون أن يخمن أحد أني كوبي، لكن عربي! كان الله في عوني. و«جوانتانامو» بالكاد على الشاطئ الآخر.»

لم تخطر لها تلك الفكرة قط طيلة الوقت الذي قضته في «ميامي».

ما كانت تحتاجه هو أن تتقهقر، هكذا قررت وهي على متن الطائرة العائدة إلى نيويورك. وهي تعلم أين بالتحديد ستقوم بهذا؛ كوخ والدتها على جبال «أديروونداك»، مكان خال من الذكريات عن «هاري»، حيث يمكن أن تزيح النزاعات على ملكية جثة غزال كل شيء تقريبًا من فوق الصفحة الأولى للجريدة. قضت في شبابها جزءًا من كل صيف هناك، تستطيع أن تحدد هناك الرقعة التي رقصت فيها مع فتى أول مرة، رأت العالم من أعلى قمة جبل أول مرة، دخنت سيجارة ملفوفة لأول مرة، عَدَتْ نصف ماراثون أول مرة، ظنت أنها فقدت عذريتها أول مرة. أمها ليست هناك الآن، لا تفكر في مغادرة باريس إلى جبال في نيويورك إلا في أثناء الصيف أو في ذروة الخريف فقط، لكن لهذا تروق لها الفكرة أكثر. أن تعيش وحدها، في الجبال، ترقب الجليد يسقط على الأودية الصامتة، بينما تقرقع نيران المدفأة، تمتلئ قناة الأخبار المحلية بوجوه مألوفة... طالما أخبرتها والدتها أنها وجدت الراحة في مثل هذه الحياة فقط حين صارت في الستين من عمرها، وكانت تضحك دائمًا؛ والآن ها هي في الخامسة والثلاثين، في أمسِّ الحاجة إلى أن تغرق في هذا العالم وتضيع فيه كدمعة في بحيرة.

يمكن أن تأتي «هيروكو» لزيارتها، جال في خاطرها وهي في المصعد

إلى شقة شارع «ميركير». «هيروكو» الوحيدة تقريبًا في العالم التي لا يعد حضورها هناك تدخلًا.

كانت مبتهجة تقريبًا حين فتحت باب الشقة لتعلن لـ«هيروكو» عن خطتها الجديدة.

هب رجل - عريض المنكبين بعينين بندقيتين - ينهض من فوق الأريكة حين دخلت «كيم».

قالت «هيروكو»: «لا بأس، إنها «كيم». «كيم»، هذا عبد الله».

حركت «كيم» نظرها من الرجل إلى «هيروكو» ثم إليه مرة أخرى. في وهلة الصدمة ومن باب العادة مدت يدها لتصافح الأفغاني. نظر إليها وتردد في الرد عليها لوقت كان كافيًا لـ«كيم» أن تعيدها بسرعة.

قالت لـ«هيروكو»: «لماذا هو هنا؟».

قال الأفغاني: «أنا آسف جدًّا لما حدث لوالدك. لكنه عند الله الآن».

قالت: «هل يتقبل الله الملحدين؟» فخفض الرجل عينيه إلى أسفل.

قالت «هيروكو» بهدوء: «لم أتوقع أن تعودي الآن». وأضافت شيئًا ما بالأردية، وأومأ الأفغاني برأسه، وأجابها بشيء ما، ثم غادر الشقة من دون أن ينظر إلى «كيم» مرة أخرى.

قالت «كيم»: «ماذا؟ ماذا تفعلين؟ ماذا قلتِ له؟».

«لا داعي لتوريطك في الأمر»، أجابتها «هيروكو» وهي تمسك الكتاب الذي كانت تقرأ فيه.

«لقد وجدت من يعبر به إلى كندا أليس كذلك؟»

لم ترفع «هيروكو» بصرها عن الكتاب، ضربت «كيم» بيديها في الهواء. إن كان أحد أصدقاء «هيروكو» يرغب في المشاركة في هذا الجنون فليس من شأنها في شيء. لا تحتاج إلا إلى حمام طويل وكأس نبيذ.

بعد ذلك بثوانٍ كانت تسحب الكتاب من يد «هيروكو» وتقف قبالتها بمفاتيح سيارة تتدلى من أصابعها.

«ما هذه؟»

«ليس لديَّ أدنى فكرة.»

رفعت «كيم» يدها الأخرى التي كانت فيها أوراق شركة تأجير سيارات.

«توقيعك هنا. من الذي يؤجر سيارة لسيدة في السابعة والسبعين برخصة قيادة باكستانية؟»

أجابت «هيروكو» بسعادة كبيرة: «هذه نيويورك، لكل شيء ثمن».

«يا للمسيح يا «هيروكو». لا يمكن أن تفكري في العبور به بنفسك.»

«ابقي خارج هذا يا «كيم».»

«لديك جواز سفر باكستاني. لن يقفوا ويلوحوا لكِ بأيديهم وأنت تعبرين الحدود.» كان بوسعها سماع الجزع يتصاعد في صوتها «لم يسبق أن قدتِ قط في الجانب الأيمن من الطريق وليس لديك خبرة في القيادة على الطريق السريع. ما مدى الجنون الذي يمكنك الوصول إليه بالضبط؟»

«أنتم الأمريكيين لديكم رؤى جبانة جدًّا للجنون.»

«جبانة!» دسَّتْ «كيم» المفاتيح في جيب سترتها: «لو كنتِ أحدًا آخر لارتبْتُ في أنك تبتزينني».

«أي ابتزاز؟ ناوليني تلك المفاتيح «كيم برتون».»

«لا. سأعبر به أنا. ابقي أنت هنا. ولا تبدئي هيروكو أشرف في مجادلتي. كان رضا على حق. لن يفتشوا سيارة يقودها أحد مثلي.»

نظرت «هيروكو» إلى «كيم» بتعبير جمع كل خبرة حياتها في التعبير عن الشك.

«هل أنت على يقين من أنه يجب أن يعبر الحدود؟» كانت «كيم» أول شخص تعرفه «هيروكو» في حياتها بإيمان لا يتزعزع بأنها تعيش في عالم يمكن فيه لكل أشكال الاحتجاج والاعتراض أن تحدث في إطار قانوني. كان الخروج عن هذا الإطار بمثابة مزايدة.

«إن وعدتك أني سآخذه، فهذا يعني أني سآخذه. فيم يهم أي شيء آخر؟»

«لن أكون ذريعتك في تجاوز ما تؤمنين به.» كانت «هيروكو» تشعر تجاه من يؤمنون بأخلاقيات أممهم تمامًا كما تشعر تجاه من يؤمنون بالدين: كان ذلك محيِّرًا، بدا كأنه رفض لأي منطق، ومع ذلك لم تكن قط من يأتي ويحاول إقلاق راحة النظام الوهمي ببال أحدهم.

قالت «كيم» كذبًا: «لست الذريعة. الآن هل تريدين له أفضل فرص السلامة أم لا؟» وعلى الرغم من استمرار الجدال فترة بعد هذا السؤال إلا أن «كيم» كانت تعرف أنها فازت هنا، مع أنها بالطبع لم يكن لها أن تعرف أن «هيروكو» ستستيقظ في الصباح التالي متأخرًا جدًّا، وهي تتذكر بصدر ضيق أن «جيمس برتون» استخدم تلك الكلمات نفسها تقريبًا لإقناع سجاد علي أشرف بالرحيل من دلهي إلى إسطنبول.

٣٨

أقر رضا، ما إن وصل مسقط، بأن الرجل ذا العين الدامية كان على حق: لم يكن لديه القدرة الذهنية لهذه الرحلة؛ انهار ذهنه.

«هكذا»، قال الرجل ذو العين الدامية وهو يهشم رمانة على سطح المنضدة، ثم نزع برقة بذرة ياقوتية وحيدة من الثمرة المهشمة ورفعها أمام رضا وهو يغمز له بعينه. اختفت الدمعة الحمراء بقرنية الرجل من مجال رؤية رضا ما إن دخلته البذرة الياقوتية.

قال إسماعيل: «سيساعد عبد الله في الوصول إلى كندا». كان قلقه واضحًا حين جاء برضا لهذه الحجرة البسيطة بالقرب من السوق المركزية في قندهار.

لوح الرجل ذو العين الياقوتية بيده بتكبُّر: «لا يعنيني هذا في شيء. قام عبد الله بالرحلة مرة؛ إن كان محظوظًا سيجتازها مرة أخرى. لكن هذا الرجل، هذا الرجل حالة مختلفة. دعني معه وحدنا».

حين انصرف إسماعيل أشار ذو العين الياقوتية إلى رضا بالجلوس: «من طريقتك في القبض على حقيبتك هذه يتبين أن بها رسائل غرامية أو نقودًا.

وأرجو، لصالحك، أن تكون الأخيرة. لسْتَ بائسًا بما يكفي للتأكد من أنك ستجتاز رحلة المُعدَمين».

استرخى رضا. صار الآن في عالم يفهمه؛ حيث كل شيء ممكن مقابل سعره المناسب.

«مع هذا ستسافر من إيران إلى مسقط كما يفعلون...»

بعد تناول عدة أكواب من الشاي كان ذو العين الياقوتية يلوح بيده إلى الرجل الذي يذرع الحجرة على مقعدته يلتقط بذر ثمرات الرمان، التي هشمها ذو العين الياقوتية في الجدار في أثناء مساومته مع رضا على السعر، بذرة بذرة. «فاتك للتو رحلة الدرجة الأولى التي تغادر إيران. مع ذلك فإن انتظرت أسابيع قليلة...»

«لا»، قال رضا وهو ينهض واقفًا، حقيبته أخف بشكل ملحوظ عما كانت عليه حين جاء. مع ذلك كان بوسعه تمييز نظرة الذهول في عيني ذي العين الياقوتية من الوزن الذي ما زالت تحمله. «سأغادر الآن. من إيران إلى مسقط ليست مسافة كبيرة جدًّا.»

ابتسم ذو العين الياقوتية.

«عبور البحر وحده سيبدو لك أطول مسافة اضطر رجل إلى قطعها قط.»

غادر رضا قندهار عند شروق الشمس في شاحنة نقل خفيف، محشورًا بين السائق وحارس مسلح، ترك سيارته الجيب لدى إسماعيل بوعد ـ صدقه كل منهما جزئيًّا ـ أن يجد طريقة للعبور بعبد الله إلى كندا. عرض عليه إسماعيل أن يقضي الليل عنده، لكنه بقي مع الرجلين البشتونين بدلًا من ذلك؛ إذ حذره ذو العين الياقوتية بمزاح أن إسماعيل لم يعد لديه بطانية

واحدة إضافية بعد أن باع كل شيء ليجمع المال لرحلة عبد الله البحرية للعودة إلى أفغانستان. وضع رضا ألف دولار في تابلوه السيارة الجيب. بدا المبلغ كريمًا، لكنه لم يُحدث فارقًا مميّزًا في ثِقَل حقيبته.

كان الحارس وسائق الشاحنة صموتين، لم يبديا أي اهتمام بمحاولات رضا للتحاور معهم زيادة عما أبدوه من اهتمام بقوافل قوات الناتو التي كانت تمر بهم بتثاقل وهم يشقون طريقهم خارج قندهار. نام، وحين استيقظ لم يكن هناك طريق، فقط رمال وعلى الأقل دستة سيارات نقل خفيف، تتطابق كل منها مع الأخريات في زجاجها الداكن وطلائها الأزرق الفاقع. ظهر مزيد من الحرس المسلحين من مكان ما وأخذوا مواقعهم على ظهر الشاحنة. تسابقت المركبات عبر الصحراء بسرعات مثيرة للخوف، زمرة حيوانات تطورت في عالم لم يعد يُعنَى بشيء بقدر ما يُعنَى بالمطاردة والهروب.

قال رضا للحارس بجانبه: «هذا كله من أجلي؟»

أشار الرجلان إلى الخلف حيث جلس الحرس الآخرون على طرود الأسلحة المكدسة بعضها فوق بعض، وفكر رضا في كميات الهيروين العقيمة التي كان يسلمها بشخصه لأكثر ضيوف الفنادق قيمة في دبي بوصفها جزءًا من واجبه بأن يوفر لهم كل ما يمكن توفيره لضمان عودتهم مرة أخرى.

عند نقطة محددة حين بدا لرضا أن عينيه لن تقع على شيء آخر خارج النافذة سوى الرمال، حدث شيء غير عادي. مر الركب بمجموعة من البدو يشقون طريقهم عبر الصحراء سيرًا على الأقدام. وها هنا... أخيرًا، بمعجزة: نساء.

وجوه مكشوفة، أذرع مثقلة بالأساور، ملابس زاهية. طالما فكر أنهن يجب أن يكن جميلات؛ نسوة حكايات الجنيات هؤلاء اللائي يفتنَّ الأمراء

في رحلاتهم الأسطورية بابتسامة واحدة. الآن يرى أن وجودهن وحده فاتن بما يكفي.

«توقف»، قال للسائق، لكن بالطبع لم ينفذ أحد الأمر، وخلال ثوانٍ عاد المشهد رمالًا مرة أخرى.

لكن تلك اللمحة أسقطت رضا في حزن عميق، لا ليس حزنًا. كان يشعر بـ«الجهن»، الارتباك. مشاعره بالأردية الآن، الحزن والقلق متلاصقان كمقطعين في كلمة واحدة. فكر في الرجل صاحب الاسم الذي لم يكن قادرًا حتى الآن على اعتباره اسمه كليةً: خطيب أمه الألماني الذي دخل بلدًا جديدًا لغته غريبة عليه تمامًا، وبدأ يتعلمها. «كونراد» ذاك، يعلم، أنه كان سيجد طريقة لإيقاف الركب. كان سيرى الصحراء شيئًا آخر وليس شاطئًا بلا بحر. لم يكن سيقضي في أفغانستان أكثر من شهر ويبقى منفصلًا عنها تمامًا.

لم يكن رضا يعلم أنه حتى وهو يفكر في هذا كان يقترب من حدود أفغانستان. صعدت الشاحنة كثيبًا رمليًا، وعلى جانبه الآخر كان ثمة مستعمرة من بنايات رملية ملونة.

قال الحارس وهو يشير إلى الرجال الذين كانوا يراقبون اقتراب الركب: «سترجل هنا، سيأخذونك الآن». كان الحارس قد أجاب على كل تساؤلات رضا بكلمات من مقطع واحد أو برفع كتفيه، لكنه الآن ينظر إليه بإشفاق. «فقط تذكر أن هذا سينتهي والمرحلة التالية ستنتهي.»

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كان رضا يكرر لنفسه تلك الكلمات كما لو كانت صلوات لصرف الجنون.

كان في شاحنة أخرى ـ بمقصورة خلفية مغطاة ـ مع ذلك كانت تلك الشاحنة متخلفة بعقود عن التطورات التي شهدتها السيارات الزرقاوات

البراقة المستخدمة في سباق الصحراء، كانت تحمل شبهًا مريحًا بالحافلة التي كانت تحمل رضا وفتية الجيران الآخرين من المدرسة وإليها. اعتاد حينذاك أن يضحك على الفتية الآخرين المحشورين معًا على المقعدين المتوازيين الموضوعين على طول المقصورة الخلفية وهو يجلس في المقدمة يتعلم الباشتو من السائق، كان ينظر إليهم من نافذة صغيرة بين مقعد السائق والمقعد المجاور، وهم يشيرون إليه بإيماءات سمِجة من دون ضغينة. فقط لو بقي معهم في الخلفية، فكَّر حينذاك، ما تعلم الباشتو قط، ما تحدث مع عبد الله قط، ما بدأ أي شيء مما أدَّى به إلى الجلوس على صندوق كرتون في مؤخرة سيارة نقل وفتية بشتون يقذفونه بالكرنب.

«الخضراوات تعبر الحدود من دون أوراق، لذلك يجب أن تصير خضراوات»، شرح لرضا أحد الرجال من البيوت الرملية الملونة. هكذا كان يحاول أن يسيطر على جزعه والكرنب يُكدَّس في مؤخرة السيارة، يصل إلى ركبتيه، إلى صدره، إلى عينيه...

صاح: «سأختنق هنا».

أجابه صوت بدا أنه مستمتع بشدة من هذا المشهد: «ستكون الأول».

ظل جالسًا أغلب الرحلة، منحنيًا أسفل قماش المظلة يطوقه الكرنب حتى صدره، لكن باقتراب السيارة من الحدود خبط السائق بحدة على الحاجز الفاصل بينهما، فخفض رضا نفسه في الصندوق الكرتون بأنفاس طويلة وعميقة. خلال ثوانٍ، وجراء حركة السيارة تدحرج الكرنب عليه حاجزًا عنه الضوء والهواء. وهكذا، في رفقة الكرنب ـ يتنفس هواء كرنب ويرزح تحت أثقال منه ـ وصل رضا إيران.

لم يمر الوقت قط بهذا البطء من قبل في ظلام الكرنب الرطب. بدا أن

السيارة توقفت طويلًا جدًّا قبل أن يقترب منها حرس الحدود. امتص الكرنب كل الأصوات ما عدا دقات قلبه.

حين تحركت السيارة مرة أخرى، ظل رضا لا يجرؤ على الوقوف. إذ تلقى تعليمات صارمة بانتظار إشارة الأمان من السائق. لكن لم يتبقَّ لديه سوى القليل جدًّا من الهواء.

أخيرًا أوقف السائق السيارة وخبط ثانيةً على الحاجز. اندفع رضا من بين الكرنب، أزاح الكرنب الذي يغطيه بقوة جعلته يخبط المظلة بصوت مكتوم، وابتلع جرعات كبيرة ملء فمه من الهواء. كان السائق يراقبه وهو يضحك، ورضا يتسلق بجهد إلى الفراغ بين الكرنب والمظلة ويندفع، مثل سبَّاح، إلى الخارج.

سأل السائقُ وهو يأخذ بيد رضا ليساعده على الهبوط إلى الأرض: «تسلَّيْتَ؟ ما رأيك في حساء الكرنب على العشاء؟!».

بعد حرس ذي العين الياقوتية، كان الجلوس مع السائق أحمد متعة. أخبر رضا وهو يقله جنوبًا ناحية الساحل بأن عائلته من البدو. لكن الجفاف والحرب قضيا على سُبل عيش عائلته التي مارستها قرونًا، واستقروا الآن، بحنقهم، قريبًا من الحدود، وصاروا سائقين إن كان لهم حظ، أو ملتقطي حجارة إن لم يكن لهم نصيب.

«الألغام هي الأسوأ»، قال ورضا لا يزال يفكر فيما إذا كان «ملتقطو الحجارة» كناية عن شيء ما بلغة الباشتو. «كنا قد اعتدنا السفر في مجموعات كبيرة للحماية، ثم صرنا نسافر في مجموعات من ثلاثة أفراد أو أربعة حتى إذا خطا أحد على لغم قوي لا يكون لهذا ضرر كبير ويكون بوسع من وراءهم رؤية الجثث ـ أو الطيور تحلق أعلاها ـ ومعرفة أن عليهم تجنب

هذا الطريق.» ابتسم بحيوية وهو يقول هذا، ولم يعلم رضا هل يصدقه أم لا، لكن كانت المودة وحدها تسره.

أراد أن يسأل أحمدَ السائقَ أين ـ أو ما هو ـ وطن أهلك؟ لكنه مع علمه كيف يسأل شخصًا من أين هو، أو أين يعيش، تاهت كلمة وطن بالباشتو عن باله. وكلما فكر في طرق لشرحها انحسر المعنى.

انشغل جدًّا بالحديث مع أحمد حتى استغرقه الأمر فترة قبل أن يفهم لماذا لإيران هذا الشعور الغريب، على الرغم من تماثلها الطبوغرافي مع أفغانستان.

«لا حرب»، قال لأحمد قبيل الغروب حين فهم أخيرًا.

أومأ له أحمد ممسكًا لأول مرة عن المزاح. لم تكن به حاجة إلى أن يسأل رضا ما علاقة هذا الأمر بالحوار الذي كانا يخوضان فيه عن الثعابين السامة في «داشتي إي مارجو» ـ صحراء الموت ـ التي عبرها رضا في سيارة النقل الخفيف من دون أن يعرف اسمها.

توقفا لقضاء الليل في فندق حيث أذهل رضا، بامتلاكه الفارسية، أحمد، وانطلقا ثانيةً في الصباح التالي. لم يكونا قد قطعا مسافة طويلة حين لحقت بهما وحاذتهما سيارة مليئة بنساء يرتدين أوشحة رأس ونظارات شمسية داكنة، استحضر رضا في ذهنه كل ممثلات هوليوود الخمسينيات، اللائي كان «هاري» يحبهن. لثوانٍ قليلة كانت الشاحنة والسيارة تسافران معًا إحداهما بحذاء الأخرى، يصيح أحمد على النساء بأسئلة يترجمها له رضا بابتسامة منزوعة السلاح: «من منكن تتزوجني؟ من منكن تتزوج صديقي؟» «لماذا تسافرن بالسيارة؟ أليس للملائكة أجنحة؟» كانت النسوة يصحن ردًّا عليه: «لا نريد أزواجًا برائحة الكرنب. النساء أفضل من الملائكة، هذه إهانة لنا!» وهن ينظرن

طوال الوقت إلى رضا. وسرعان ما انعطفن عن الطريق بتلويحات وقبلات في الهواء، تاركات أحمد ممسكًا بقلبه بينما يغمغم رضا: «أظن أني أحب إيران».

كان قد بدأ يظن أن الجزء الأسوأ من الرحلة انتهى، ظن فعلًا أن الكرنب كان اختبار النار، ولأول مرة منذ موت «هاري» شعر بنور معين يسري بداخله. كانا قد خلَّفا الصحراء وراءهما، وحين لمح رضا البحر لأول مرة صرخ بفرحة. كراتشي، دبي، «ميامي»، كلها مدن ساحلية، مع ذلك لم يكن لهذا أي معنى بالنسبة إليه حتى رأى الساحل الإيراني.

غير أن أحمد كان يزداد هدوءًا كلما اقتربا من الساحل.

قال حين اقتربا بما يكفي لرصيف الميناء ليتنسما رائحة البحر: «لماذا لا تبقى هنا وفقط، إن كنت هاربًا من الأمريكان، فإيران مكان جيد لتبقى فيه. إنك تتحدث لغتها حتى. والنساء جميلات، والشيعة مثلكم أيها الهزاره».

لم يفهم تمامًا ما الذي أقلق أحمد كل هذا القلق حتى بعد أن عانق البدوي عناق الوداع، ووعده بأنه في أوقات أطيب من هذه سيعود ويسافران معًا عبر آسيا في سيارة نقل خالية من الكرنب. ثم أخذه قبطان السفينة الذي سلَّمه له أحمد إلى قارب خشبي بمحرك ضئيل. وحين سأل رضا ما إذا كان ثمة مكان محدد يستطيع أن يجلس فيه، أشار القبطان إلى العوارض الخشبية تحت أقدامهما وقال: «مع الأسفل هنا».

ضحك رضا، لكن القبطان لم يشاركه الضحك، بل سأله: «هل تبوَّلْتَ؟».

«ماذا؟»

«هيا تبول من فوق حافة القارب. لن تخرج حتى نصل إلى مسقط. ولا مكان لحقيبتك بالأسفل.»

قبض رضا على حقيبته.

«توجد قطع أثرية مقدسة هنا، أقسم برحمة أمي...»

أتى القبطان بإشارة لامبالاة.

«فقط أسرع.»

ورضا يُفرغ مثانته في البحر رفع القبطان جزءًا من عوارض الأرضية. سمع رضا أصواتًا آتية من أسفل. كم عدد من كانوا هناك؟

كثيرون. كثيرون جدًّا. نظر رضا إلى أحشاء السفينة ولم ير سوى رجال برؤوس داكنة ينظرون إليه، صاح أكثر من واحد منهم ـ بالفارسية والباشتو ـ «لا نريد آخر. لا توجد مساحة.»

«هيا.» لكزه الرجل في ضلوعه. «ادخل، تأخرنا بسببك.» حدق رضا بنظره في الأسفل. لم يكن ثمة فراغ بين جسد وآخر، استقر الرجال بعضهم فوق بعض مثل شيء ما مألوف له، لكن ماذا؟ بمَ يذكره هذا؟ جعله شيء يعود إلى أعلى لقبطان السفينة، الذي سب ولعن ودفعه إلى أسفل في المعقل فوق الأجساد التي تذمرت بألم، وظلت تدفعه في هذا الاتجاه وذاك إلى أن انحشر بطريقة ما، لا يعرف كيف، في فراغ ضئيل بين رجل وآخر، وكان صوته جزءًا من تنهيدة اليأس والانهزام التي هدرت في أنحاء المعقل. فقط حين صفق القبطان باب الفتحة، قاضيًا بذلك على كل ضوء، عرف رضا بما يذكره صف الأجساد هذا؛ بالمقبرة الجماعية في كوسوفو.

في الظلام، قبض رجل إلى يساره على يد رضا. «كم تبقَّى من الوقت؟» قال الرجل فتبين من صوته أنه طفل.

لم يجبه رضا. كان يخشى أن يتقيأ إن فتح فمه من رائحة عطن المعقل

الملطخ بالزيوت، الخشب الرطب، الرجال الذين يعتبرون الاستحمام رفاهية خلَّفوها وراءهم منذ زمن. كانت الألواح التي يسند عليها زلقة فلم يرغب في التفكير في أن سبب هذا أي شيء آخر غير مياه البحر.

حين انطلق القارب زاد الأمر سوءًا. كان اهتزاز البحر من تحت رؤوس الرجال مثيرًا للأعصاب قليلًا أول الأمر، لكن حين ابتعدوا عن الميناء في اليم الواسع. تقاذفت الأمواج رؤوسهم بعنف شديد حتى جلسوا جميعًا على مرافقهم. لم يدم الأمر طويلًا حتى بدأوا جميعًا المعاناة من دوار البحر. سرعان ما طغت رائحة القيء على كل شيء آخر. كان الطفل الأفغاني إلى جانب رضا أكثرهم معاناة، كان يبكي ويصرخ يريد أمه.

أغمض رضا عينيه. طوال السنين التي ظل فيها يجلس حول النيران مع الموظفين «ر. د. ث.» يسمع حكاياتهم عن الهرب من مكان إلى آخر في معاقل السفن، تحت عوارض أرضية شاحنة نقل، لم يخطر بباله قط كم الحقارة التي عرفها كل واحد منهم. وعبد الله. قام عبد الله بهذه الرحلة مرة من قبل، وسيقوم بها مرة أخرى. عبر الأطلسي هكذا، لم يكن ذلك ممكنًا. لا أحد بوسعه تحمل هذا. أي عالم هذا الذي يجعل الرجال يتحملون هذا؟

وضع حقيبته تحت رأسه ورقد، ثم رفع الفتى الذي كان يبكي ويتقيأ بجانبه ووضعه أعلى جسده هو، ليصد عنه ارتجاج الموج.

تنهد الفتى وأراح رأسه على صدر رضا.

مرت الساعات ببطء. لم يتكلم أحد؛ الحوار يخص عالم آخر. عند منتصف الظهيرة كان المعقل مثل أتون، فقد العديد من الرجال وعيهم، كذلك الفتى الذي صار ثقيلًا مثل ميت على صدر رضا. لكن رضا لم يحاول

إزاحته عنه. فكر أن «هاري» بلا شك كان سيفعل معه مثلما يفعل الآن مع الفتى. ثم فكر، كان «هاري» سيبقيني بعيدًا عن أماكن كهذه.

عند نقطة معينة بدا له أنه سيلقى حتفه في هذا المعقل حتمًا. كان كل ما يمكنه التفكير فيه أمه. لن تعلم أبدًا أنه مات. لن يضع أحد اسمًا على الجزء الميت في الشحنة الآدمية. ستظل أمه إذن في انتظار خبر عنه. إلى متى؟ إلى متى تظل تنتظر قبل أن تفهم أنها فقدت عزيزًا آخر. نشج بهدوء لا يكترث بما سيظن الرجال الآخرون فيه.

حين رُفعت الألواح وتسلل ضوء القمر إلى الداخل لم يفهم ما يعنيه هذا حتى ظهرت رأس القبطان.

«هدوء!» قال القبطان محذِّرًا حين سمع الصيحات الممزقة تتطاير من الفتحة. «رضا هزاره، أين أنت؟ اطلع. بقيتكم أبقوا هنا. لم نصل بعد.»

لم يبد شيء في حياة رضا خيانة مشينة بقدر ما بدت تلك اللحظة حين عرف أنه هو من سيغادر. أمسك به الفتى الذي على صدره، استعاد وعيه الآن، أمسكه من قميصه وقال: «خذني معك»، فلم يسع رضا سوى أن همس بانكسار: «أنا آسف». مد يده في حقيبته وأخرج حزمة أوراق من فئة مائة دولار ودسها في يد الفتى. «لا تدع أحدًا يعلم أن معك هذا»، قال ثم تسلق صاعدًا على الرجال الآخرين ومد يدًا إلى القبطان ليرفعه. فكر لحظة في أن يُسقط حقيبته في الفتحة، لكنه كان يعلم أنه سيحتاج النقود في شيء آخر، فأشاح بوجهه بعيدًا عن الرجال في المعقل وهم يتنشقون أكبر قدر ممكن من الهواء الطلق قبل أن تُغلَق عليهم العوارض مرة أخرى.

كان قارب تجديف صغير يطفو محاذيًا للسفينة وأتى منه صوت يقول: «رضا هزاره! أسرعْ. لقد أخرنا الطائرة لانتظارك».

هبط رضا إلى القارب، لكنه قبل أن يجلس سدد المراكبي ضربة بمجدافه فأوقعته في البحر. كان ذهنه حاضرًا بالكاد ليلقي بحقيبته في القارب وهو يسقط في الماء.

انبثق من الماء يهمهم، عظامه باردة. كان المجدف ممسكًا بحقيبة.

«فيها ملابس. اخلع ملابسك وغيرها. واستخدم هذه...» ورمى لرضا بقطعة صابون.

على الرغم من استعجال الرجل على الذهاب، لكنه سمح لرضا بأن يطفو على سطح الماء لدقائق قليلة، عاريًا، في الماء المثلج، يرنو بنظره إلى السماء الواسعة.

«لن أكون أبدًا كما كنت»، فكر رضا. شاهد ملابسه الملطخة بقيئه تطفو بعيدًا عنه، لم يستبق سوى سترة «هاري»، وغيَّرها أيضًا، «لا أريد أن أكون كما كنت ثانيةً أبدًا.»

كان في قارب التجديف طعام وماء و«شالوار كاميز» أكبر من مقاسه قليلًا. كان ذلك أكثر مما يحتمل؛ المزيد من الرفاهية سيعتبر رِدَّةً.

قرب الفجر كان القارب يقترب من الشاطئ. هناك، كانت تنتظره سيارة نقل زرقاء فاقعة أخرى. هذه المرة لم يحاول رضا التحدث مع السائق والحارس المسلح اللذين بداخلها. ظل يفكر في الفتى الذي كان يستند برأسه على صدره وتمنى لو كان قد أعطاه رقم حسين و«التتمش». دبي ليست بعيدة عن مسقط كثيرًا.

قادوا في طرق ممهدة على نحو رائع تصطف على جانبيها أشجار النخيل إلى مهبط طائرات. كانت هناك طائرة على وشك الإقلاع.

رافقه أحد الحرس من السيارة النقل حتى أعلى سلم الطائرة وابتسم وهو يفتح باب الطائرة.

«مرحبًا بك في حديقة الحيوان»، قال وكانت الأصوات الآتية من الطائرة غير طبيعية.

دخل رضا، بحذر.

بسط مالك حزين أزرق جناحيه، أغلق طاووس أبيض مروحة ذيله بحركة مباغتة، زعقت ببغاوات، وسقط آكل نمل حديث الولادة عن ظهر أمه يحتج بصخب، كشفت كلاب وحشية إفريقية عن أنيابها، حلقت أشياء مجنحة تحت غطاء أسود، جلست سرقاطات على أقدامها الخلفية تراقب. وفي أحد الأركان، رقدت غوريلا حديثة الولادة.

قال الحارس: «ستسافر داخل القرد».

وحينها أدرك رضا أن ذا العين الياقوتية كان على حق. لقد انهار ذهنه بكل تأكيد.

٣٩

والسيارة الرياضية المستأجرة تقترب من نقطة الحدود، تركت «كيم برتون» نفسها تتخيل عواقب اكتشاف الأفغاني المختبئ تحت الأغطية في مؤخرة السيارة. تخطت السؤال عما سيحدث لها أو له، وتصورت بدلًا من هذا عالمًا يصير فيه «التصنيف السياسي» أمرًا عاديًّا عند الحدود، وموظفو الهجرة مدربون على تحديد الأمريكيين الذين يعانون من عقد ذنب ليبرالية.

أنزلت زجاج نافذتها وابتسمت للضابط الكندي وهي تناوله رخصة القيادة.

قال: «ليست أجمل صورك. هل تبقين طويلًا؟».

«ساعات قليلة.»

قال: «لا تقولي هذا، نستحق من وقتك أكثر من هذا».

«ليس في يناير. لا. سأعود في الربيع.»

«سأكون في انتظارك.» قال وهو يعيد إليها الرخصة ويلوح لها بيده، بغمزة، وهي تبتعد.

ذكَّرت نفسها بأنها لم تكن تقوم بهذا من باب عقد الذنب الليبرالية، مع أنها ظلت طوال الرحلة تشعر بأكثر من غصة كلما فكرت في أنها كانت دائمًا تعتبر قدرتها على دخول البلاد والخروج منها حسب رغبتها أمرًا مسلَّمًا به؛ إذ ببساطة لم يسبق لها من قبل قط أن زارت البلاد التي تتطلب من الأمريكيين إجراءات معينة للحصول على تأشيرات دخول. تذكرت كيف صُدمت العام الماضي حين عرضت على «هيروكو» و«إلزي» أن تذهبا معها إلى باريس واكتشفت صعوبة حصول «هيروكو» على تأشيرة دخول؛ «الأمر لا يستحق الإزعاج»، خلصت «هيروكو» بحزن بعد النظر في قائمة المتطلبات.

قالت حين خلفت الحدود وراءها وصار المشهد من حولها حقولًا مكسوة بالجليد: «يمكنك أن تخرج الآن».

تسلق عبد الله بجهد إلى المقعد الخلفي.

«أبقى هنا أم أتقدم إلى الأمام؟» سأل بهذا الأدب الجم الذي يغلف شخصيته على نحو مزعج.

أوقفت السيارة على جانب الطريق ليتسنى له التقدم إلى الأمام بكرامة. ترجل من السيارة، سار خطوات قليلة إلى الحقول وانحنى ليغرف ملء قبضته ثلجًا. قبضت «كيم» على عجلة القيادة وفكرت في الضغط على دواسة البنزين.

جاء عبد الله إلى المقعد الأمامي، رافعًا ذراعين يعلق بهما الثلج حتى المرفقين.

قال: «عميق، صنعت أنا وأصدقائي العام الماضي في السنترال بارك ملائكة من الثلج». لم يكن ينظر إليها وهو يتحدث.

«هل أقمت خارج نيويورك فترة طويلة؟» أمامها حوالي ثلاثين دقيقة حتى تصل به إلى مطعم الوجبات السريعة القريب من «مونتريال» حيث ينبغي أن يلتقي بمن يأخذه للمرحلة التالية. ثلاثون دقيقة مع أفغاني في السيارة. لمحته بطرف بصرها وهو يزيل الثلج بحرص عن يديه ذات القفاز الأسود، وقالت لنفسها لا شيء يدعو إلى الشعور بالتهديد.

قال ببطء، يختار كلماته بحرص، أو لعله يعي أن لكنته ليست سهلة التمييز: «ذات مرة استأجر صديقي كمال حافلة وأخذ مجموعة منا إلى «ماسشوسيتس»، إلى جامع هناك، في رمضان. كنا سبعة: تركيَّيْن، وأفغانيًّا، وباكستانيًّا، ومصريَّيْن، ومغربيًّا. نسافر معًا في أمريكا».

«مرة واحدة فقط؟ خلال عشر سنين تقريبًا.» ثم شعرت بغباء شكِّها إذ يكشف عجزها عن تصور حياة بلا إجازات وسفر.

ابتسم: «نعم. كانت مذهلة. القيادة في أمريكا خارج مدينة نيويورك. لافتات الطريق! كنا نضحك كثيرًا على لافتات الطريق».

«ما المضحك كثيرًا في لافتات الطريق؟»هي نفسها شعرت بالتواء ابتسامة حول فمها ورغبتها الشديدة في لحظات مزاح مشترك لترى كيف تقود لافتات الطريق إلى الخفة.

«ثمة لافتة لكل شيء، لكل شيء كائن، أو قد يكون. «عبور الغزلان». «عبور الأيائل». «عبور كبار السن». «عبور الأطفال». «انهيار الصخرة». صخرة واحدة فقط؟ هذه اليافطة لا أفهمها.»

عند ذاك، ضحكت بالفعل، بصدق، أرخت قبضتها على عجلة القيادة قليلًا ووعت للمرة الأولى مدى توتر عضلات رقبتها من التوتر. ومزحت بشيء ما عن «سيزيف».

كاد عبد الله أن يلتقط نظرتها وهو يبتسم، وواصل: «"أمامك جسر". "أمامك جسر مغطى". "أمامك طرق ناعمة". "الطريق يتسع". "الطريق يضيق". قال كمال صديقي ـ وهو تركي متعلم جدًّا ـ ماذا يعني هذا، ماذا يعني أن تعيش في بلد كل ما يمكن أن يقع فيه يتم الإعلان عنه بحروف تضيء في الظلام. تساءلنا عما يحدث لو وقع شيء في بلد كهذا بلا سابق إنذار.»

رمقته «كيم» بنظرة حادة، لكنه كان منحنيًا إلى الأمام يناوب وضع يديه على فتحات المدفأة ليجفف أكمام معطفه الشتوي الرمادي ولا يزال لا ينظر إليها. لم تلاحظ أي لافتة طريق في أثناء قيادتها في الطريق الدولية ٨٧. لكنها لاحظت الأعلام. على الرغم من رؤيتها لها كل تلك الشهور في المدينة ما زالت تذهلها وفرتها. أعلام ملصقة على الزجاج الخلفي للسيارات، أو على ماص الصدمات، أعلام مرفوعة على أطباق الهوائي. على عواميد الإنارة، أعلام صغيرة ترفع على المرايا الجانبية للسيارات، أعلام تتدلى خارج النوافذ، أعلام ترفرف بترحاب في محطات الخدمة. أعلام مرسومة على اليافطات الإعلانية (بشعار شركة ما يقبع بتواضع في مكان يسهل رؤيته مع ذلك أسفل إشارة رأسمالية وطنية وطني). جعلتها الأعلام تتذكر «إلزي» وهي تضحك وتحكي كيف صعقتها جملة «ربنا بارك أمريكا» كإعلان تجاري وليس جملة بصيغة الأمر (الطلبة ـ اشتروا مستلزمات المدارس هنا. الأمهات ـ امنحن أطفالكن موهبة الحب بحساء هارتي. ربنا بارك أمريكا). ومع ذلك، وعلى الرغم من علمها بأن «إلزي» و«هاري» كانا سيشيحان ببصرهما عن معرض الوطنية هذا، كانت ترى شيئًا ما يتحرك فيه. لكنها ظلت تتساءل عما يرى الراكب الأفغاني بجوارها فيه.

قال: «ثم تلقينا إجابة. لما تفعله أمريكا لو حدث بها شيء غير متوقع».

«نعم بالطبع تلقيتم إجابة.» قالت وهي تشعر بكل التوتر في جسدها يتحرك على ما يبدو ناحية فكها، يجعل من الصعب عليها إخراج الكلمات.

هذه المرة نظر إليها مباشرة.

«لا. لم أعْنِ...» هز رأسه، بدا منزعجًا، جعلها تشعر بأن عليها أن تبرر، ثم بالغضب لأن عليها أن تبرر.

«تلك الليلة، في طريق العودة إلى نيويورك، كنت أنعس حين لاحظت أن السيارات كلها تبطئ في الأمام، تنحرف لتتفادى شيئًا ما. استيقظت تمامًا، وتخيلت أحدًا ميتًا في منتصف الطريق السريع. ثم سمعت ضحك كمال، كان أمامنا تحت ضوء كشافات عالية كوم كبير من اللعب المحشوة في هيئة أرانب ودببة، زرقاء ووردية.»

رأت «كيم» الكوم وهو يتحدث بصوته الناعم، تصورت شيئًا يكاد يكون تبجيلًا في إبطاء السيارات وانحرافها من دون أن تتجرأ على دهس ذيل أزرق صغير أو أذن وردية ناعمة. كانت تعلم أن لحظة الصمت، لحظة الدهشة تلك تربط بين الجميع في الظلام الدامس للطريق السريع.

قالت: «وكمال أيضًا انحرف».

لم يكن استفهامًا، إلى أن أحجم عبد الله عن الرد والتفت بدلًا من هذا لينظر من نافذته إلى البياض الناصع.

كان كمال قد نفذ مباشرة في اللعب المحشوة. وجدت «كيم» تلك الصورة منفرة، وعلمت أنها لن تستطيع الإفصاح بهذا القدر من دون أن

تكشف معاناتها مع تضليل الشفقة الأمريكية؛ اقذفوا الأفغان بقنابل عنقودية، لكن لأجل الرب لا تدهسوا الأرانب الوردية بسيارتكم!

هل يخبرها؟ تساءل عبد الله، هل يقول لها إنه طلب من كمال أن يقود مقتربًا من كوم اللعب بقدر ما يمكنه ليأخذ كل منهم حمل ذراعيه من الأرانب والدببة، كان فراؤها أنعم من أي شيء لمسه الرجال منذ سنوات. كان لكل منهم طفل أو ابن أو بنت أخ أو أخت أو صغير ما في العائلة، يمكنه أن يرسل إليه اللعب هدية في المرة التالية التي يغادر فيها نيويورك أحد المحظوظين من ذوي الأوراق القانونية، ويتجه إلى أي مكان في العالم تركه وراءه. ابن عبد الله ينام الآن حاضنًا الأرنب الأزرق الناعم الذي أرسله له الأب الذي لم يقابله قط في سيارة أجرة من بشاور.

لكنه إن أخبر «كيم برتون» بهذا فستظن أنه لص ـ ستظن أنهم جميعًا لصوص ـ يسرقون شحنة سقطت على الطريق.

قالت «كيم» بعد فترة صمت قصيرة: «إنجليزيتك، إنها جيدة جدًّا. أين تعلمت؟».

«حين وصلت إلى أمريكا لم أكن أعلم سوى ما تذكرته من دروس رضا. لكنني في الأسبوع الأول في «جيرسي سيتي» ذهبت إلى الجامع واستفسرت من الإمام عن مكان أتعلم فيه الإنجليزية. ووجد لي مدرِّسًا متقاعدًا، من أفغانستان، قال إن هذا فرض عليه، هل تفهمين الكلمة؟ لا؟ أي واجب ديني. إنها كلمة مهمة جدًّا عندنا. قال فرض عليه تعليم المجاهدين. لم ينس الجميع ما فعلناه من أجل أفغانستان، من أجل العالم. لم ينس الجميع.»

«ليس بوسعي أن أتخيل ما كان الأمر عليه حقًّا»، قالت «كيم» بحرص إذ تختبر بعقلها جملها جميعًا قبل أن تلفظ بأي شيء قد يقع موقع الإهانة. «كل تلك السنين في قتال السوفييت.»

«لا. ليس بوسع أحد. الحرب كالمرض. لا تعلمي عنه شيئًا حتى يصيبك. لكن لا. تلك مقارنة سيئة. أقله مع الأمراض يظن الجميع أنه قد يصاب به يومًا ما. ألم هنا، احتقان هناك، برد يطول ويطول. فتبدأ في التفكير أنه ربما كانت علة حقًّا. لكن الحرب ـ بلد مثل بلدك في حرب دائمًا، لكنها في مكان آخر دائمًا. العلة في مكان آخر دائمًا. لهذا تخوضون حروبًا أكثر من أي بلد آخر. لأنكم أقل من يفهم الحرب. أنتم في حاجة لفهمها بشكل أفضل.»

أدركت في هدوء السيارة الرياضية، والمدفأة تعمل على درجة عالية، مدى الضيق الذي يجعلها تشعر به حين وجدت نفسها غير راغبة في الرد بحسم «أنت تقول إذن أن... الطريقة لإنهاء الحروب هي أن يخوضها الجميع؟»

لكن لماذا تشعر بالضيق؟ كانت هي من بذلت كل جهدها. بدا أن عبد الله لا يشعر بأنه مدين لها بشيء. هذا الصباح حين قابلته على ناصية الشارع كان هو و«هيروكو» قد تقابلا مساءً، قبل أن يشكرها بأدب شديد، ويصر على أن يظل تحت البطاطين طالما ظلا في أمريكا. وذلك ليدَّعي، إن تم تفتيش السيارة على الحدود، أنه صعد إلى السيارة في إحدى محطات الخدمة على طريق الدولية ٨٧ حين وجد السيارة مفتوحة. لكنه فيما عدا هذا لم يعرض أي شيء آخر. ولا حتى الشكر على أنها تخرق قوانين بلدها من أجل شخص ليس لديها أية أسباب لاعتبار براءته أمرًا مسلَّمًا به.

كان الثلج حول معطفه قد ذاب وتحول إلى بقع مبللة كان يحاول أن

يجففها، بحرص شديد، بمنديل قماش. ما الداعي لتصديق ما قاله شقيقه لرضا؟ كيف عرفا أن المباحث الفيدرالية دقت بابه دونما سبب سوى أنه أفغاني؟ كيف عرفا أنه هرب منهم من دون سبب سوى الجزع لأنه مهاجر؟ ليس معنى هذا أن كونه أفغانيًّا يجعله كاذبًا أو إرهابيًّا، بالطبع لا؛ لكن ألم يكن محض سخف ـ التلطف غالبًا ـ لدرجة الافتراض لأنه أفغاني لا يمكن أن يكون كذابًا أو إرهابيًّا؟ إن كان ما يقوله حقيقيًّا فلم يكن عليه حقًّا سوى أن يذهب إلى المباحث الفيدرالية، مهما صارت الأمور سيئة باسم الأمن إلا أنه لا أحد ـ لا أحد ـ قد يُحتجز لمجرد أنه مهاجر غير شرعي. بربك! قد تغلق نيويورك أبوابها إن صار هذا جريمة يُعنَى بها أحد. وحتى إذا أحالته المباحث الفيدرالية إلى دائرة الهجرة والجنسية، ماذا في هذا؟ سيتم ترحيله. إلى أفغانستان. في طائرة مريحة!

أنزلت زجاج النافذة وتركت الريح السريعة تصفر داخل السيارة على الرغم من انكماش عبد الله داخل معطفه ووضعه يديه على أذنيه، هل كان هذا ليصد الريح أم البرد، لا تعلم.

حدث كل هذا سريعًا جدًّا. أقل من عشر ساعات منذ أن قابلته وحتى غادرا المدينة.

قالت «هيروكو» حين تساءلت «كيم» عن سبب الاستعجال: «لماذا الانتظار؟ ذهب رجال المباحث الفيدرالية بالفعل إلى الكراج الذي استأجر منه السيارة في أثناء الوردية الليلية ليسألوا إن كانوا يعلمون مكانه. واتصل ظهر اليوم بذاك الشخص في كندا الذي يرتب ما يلزم ليخبره أنه سيكون هناك غدًا، لذلك عليه أن يذهب غدًا. لقد أخبرتك. سآخذه أنا».

جعلت «هيروكو» كل شيء يبدو حتميًّا ـ هذه الرحلة، توقيتها، براءته.

لذلك ضربت «كيم» بكل تدريبها عرض الحائط، ولم تمعن الفكر حتى في نقاط الضغط التي قد تنبعج أسفلها قصة عبد الله، وتقوقعت على فراشها ببساطة وسقطت في النوم ما إن وافقت «هيروكو» على تركها تقود السيارة. كانت الحقيقة، تدركها الآن، أنها انشغلت تمامًا في البحث عن طرق لإبعاد «هيروكو» عن تهريب أفغاني عبر الحدود حتى غاب عن بالها التفكير في أي تهديد آخر.

««هيروكو» امرأة مذهلة، أليست كذلك؟» قالت «كيم» وهي ترفع زجاج النافذة، في محاولة أخيرة لإيجاد أرضية مشتركة.

أجاب عبد الله: «لرضا مكان في الجنة بسببها، تخيلي أن تكوني على علم طوال حياتك أن لك مكانًا في الجنة».

«لا أفهمك.»

«إنها أسلمتْ. من يجعل شخصًا يدخل الإسلام يضمن مكانًا في الجنة له ولأبنائه ولأحفاده حتى سابع جيل. أظن أنه من الخطأ أن يكون الشرف لوالد رضا فقط ـ مَن أدخلها الإسلام ـ من دخله أيضًا لا بد أن ينال شرفًا. سيدخل رضا الجنة بسبب والدته أيضًا، وليس والده فقط. ومن بعده أبناؤه وأحفاده. حتى الشهداء في الجهاد لا يقدمون كل هذا لعائلاتهم. هذا مكتوب في القرآن.»

«هل قرأت القرآن؟»

«بالطبع قرأته»

«هل قرأته بلغة تفهمها؟» فجأة بدا المرور أكثر كثافة؛ كان عدد مطمئن من الناس يقودون على الطريق، ولم يكن أي خوف من النطق بشيء مزعج يباري استنكارها لما تسمعه من تلخيص «هيروكو» إلى حصيرة غداء في

رحلة يقوم بها زوجها وابنها إلى الجنة لا يبدو أن لها فيها أي مكان مضمون في عقيدة هذا الأفغاني المجنون.

قال بتوتر: «أنا أفهم الإسلام».

«سآخذ هذا بوصفه، لا. أنا قرأت القرآن ـ بالإنجليزية. صدقني، ليس به شيء بهذا المعنى. وبصراحة، ما نوع الجنة التي بوسعك أن تجد لها طرقًا مختصرة؟ سبعة أجيال!»

«أرجوكِ لا تتحدثي بهذه الطريقة.»

«قل لي شيئًا واحدًا. شيئًا واحدًا.» فجأة تغلَّب ذلك الغضب بداخلها على كل شيء. «إن لقي أفغاني حتفه وهو يقتل الكفار في بلاده هل يذهب إلى الجنة مباشرة؟»

«إن كان من يقتلهم جاءوا معتدين أو محتلين، نعم. يكون بذلك شهيدًا.»

كيف انبسطت كفها ببطء وعلى الرغم منها لتُسقط التراب على كفن «هاري». كانت تلك اللحظة التي فهمت فيها من قلبها حقًّا أن كل غد تخيلته لعلاقتهما ـ دلهي، حوارات بلا تأنيب، أيام من سماع قصص الآخر كاملة ـ لن يأتي أبدًا.

كان ذلك بسبب رجل واحد فقط يحمل سلاحًا. لطالما ظنت أن القضاء على «هاري» يحتاج إلى أكثر من هذا بكثير. لكنه كان مجرد أفغاني واحد يحمل سلاحًا، لم يتوقف لحظة ليفكر في «هاري برتون» بوصفه أي شيء آخر سوى معتدٍ كافر سيشق بقتله دربًا إلى الجنة.

«إنه قاتل. وجنَّتك مقيتة.»

«لن نتحدث أكثر من هذا.»

«لا. لن نتحدث.»

لم تتردد بينهما كلمة أخرى ـ كان التوتر خانقًا تقريبًا ـ إلى أن أوقفت السيارة في ساحة انتظار السيارات أمام مطعم الوجبات السريعة. لكنه وهو يفتح باب السيارة ليغادر قال شيئًا بالعربية لم تلتقط منه سوى كلمة «الله» وأتبعها بقوله «لن أنسى لك صنيعك».

ماذا صنعت؟ راقبته يعبر ساحة الانتظار، خطوات رجل نحو الحرية، ثم دخل المطعم ووراءه أسرة بطفلين.

٤٠

كانت الغوريلا النائمة عملًا فنيًا بارعًا؛ يتحكم زر تحت شعرها المتلبد في الماكينة التي تشق صدر الحيوان. تفصل بين ضلوعها رافعة مختبئة تحت إبطيها تكشف عن التجويف بداخله. لم يكن برضا حاجة إلى الاختباء في الحيوان إلا في أثناء الوقفات للتزود بالوقود وفي أثناء الهبوط في «مونتريال»؛ فيما عدا هذا جلس مع الطيارين الكويتيين في المقصورة، لا يصدق حكاياتهما عن العبور بنزوات صاحب عملهما السعودي من أحد جوانب الكرة الأرضية إلى جانبها الآخر.

حين هبطت الطائرة على المهبط بالقرب من مونتريال، كانت رافعة في الانتظار لنقل قفص الغوريلا إلى سيارة نقل أخرى. سمع رضا الحيوانات والطيور تغرد وتصرخ وتصيح والقفص يُنقَل خارج الطائرة لكن لم يكن هناك صوت اعتراض آدمي.

لم ير دخول السيارة النقل إلى الإسطبل سوى فتى في الثالثة عشرة من عمره يختبئ في الإسطبل من غضبة أبيه الثمل، خرج منها السائق وفتح القفص في المؤخرة، ثم ضغط بيد واحدة على صدر الوحش الذي كان يتحرك بثبات ثم حرك يده تحت ذراعيه ليشق الحيوان إلى نصفين. دفن

الولد رأسه في القش خوفًا من رؤية أحشاء الحيوان أكثر من خوفه من أن يكشف الرجل ذو القوى الخارقة أمره؛ حين نظر إلى أعلى مرة أخرى، كانت الغوريلا سليمة لكنها بلا حياة، ورجل آخر يقف بجوار الرجل الأول، يصافحه. لم يتحدث الولد عن هذا مع أحد قط.

«أنت مدين لي بالعشرة في المائة الباقية»، قال السائق «جون» لرضا وهو يقود السيارة النقل مبتعدًا عن الإسطبل، ورضا يجلس بجواره براحة أكبر.

«يمكنني أن أعطيك العشرة في المائة فقط»، قال رضا وهو يمد يده في حقيبته التي بدت بالية بأكثر كثيرًا مما كانت عليه في بداية رحلته. سحب المبلغ المطلوب من النقود بالحقيبة، ثم أمال الحقيبة على جنبها ليتسنى لـ«جون» رؤية رزم الأوراق النقدية التي بقيت بداخلها. «أو أعطيك كل ما تبقى هنا.»

«أكمل كلامك.»

«عبد الله صديقي من المفترض أن يغادر كندا على سفينة الشهر القادم، وقد رتَّب ذو العين الياقوتية للأمر.»

صحح له «جون»: «جمع ذو العين الياقوتية المال من عائلته في أفغانستان، أنا من رتَّب الأمر».

قال رضا بهدوء: «جيد، يمكن إذن أن ترتب له أن يعود بالطائرة في الغوريلا بدلًا من السفينة».

نظر «جون» ثانية إلى الحقيبة.

«يمكنني ذلك على ما أظن. سأخبره غدًا حين ألقاه. أم تذهب أنت بدلًا مني لتزف له الخبر.» ونظر إلى رضا ثم ابتسم. «نعم. فاجأتك هنا، ألم أفعل، طالبان؟»

هكذا رأى عبد الله، حين دخل مطعم الوجبات السريعة بالقرب من «مونتريال»، رضا جالسًا على مقعد برتقالي له شكل دلو بجانب طاولة لها سطح «فورمايكا».

«رضا هزاره!» تحدث بنعومة لئلا يزعج الآخرين، لكن صوته كان دافئًا إذ يعانق رضا ويرفعه عن الأرض. حين انفصلا لم يتفوه أحد منهما بشيء، كان كل منهما يبتسم ويضيق عينيه، يميل برأسه إلى هذه الزاوية وتلك للعثور على شبه مألوف في الغريب الواقف أمامه، ثم قبض عبد الله على أذن رضا وعبث فيها.

«لم يكن لديَّ أدنى علم بأنك ستكون هنا. لم تخبرني واحدة منهما بالأمر.»

«واحدة ممن؟» زاد صوته عمقًا، فكر رضا، لكن لا شيء تغير في العينين والابتسامة.

«والدتك، و«كيم برتون». ألم تكن تعلم؟ لقد أوصلتني للتو إلى هنا.» خطا نحو النافذة وهز رأسه. «لقد ذهبت. لم تكن تعلم حقًّا؟»

«كيم برتون»؟ هز رضا رأسه. ظل طوال الأيام الستة الماضية يتساءل عما أخبروها به وما صدقته.

رفع هاتفه الخلوي: «لديها هاتف. يمكنك أن تتصل بها».

قال رضا: «هل لديك رقمها؟».

«كيم برتون»! مهما كان ما أخبروها به، فلن تصدق أبدًا أن رضا متورط في قتل «هاري». كان يعلم هذا. تذكر مجدَّدًا قصة العنكبوت. حين كان الرسول في الطريق من مكة إلى المدينة، ولجأ إلى غار لقضاء الليل بعد أن

لدغت حية صاحبه ورفيق سفره أبا بكر وكان به حاجة إلى الراحة. والرسول يجلس في الغار، ويعلم أن مطارديه يقتفون أثره في الصحراء المضاءة بنور القمر طوال الطريق إلى الغار، رأى عنكبوتًا يغزل شباكه بجنون من جانب إلى آخر على فتحة الغار. ثم سمع وقع خطوات مطارديه في الخارج وصوتًا يقول «لا. إنه ليس هنا. لم يدخل أحد هنا منذ زمن طويل. انظرْ...» وإذ يبزغ القمر من وراء سحابة رأى الرسول فتحة الغار مغطاة كلها بالشبكة البراقة التي نسجها عنكبوت.

توارثت عائلتاهما تلك القصة لثلاثة أجيال. أشار «هاري» لهذا في أفغانستان وقال: «عليك أن تحكيها لـ«كيم». «آل فايس برتون» و«آل تاناكا أشرف»، نحن أحدنا عناكب الآخر».

ثم جمع هو و«هاري» القصص التي يعرفانها من عائلتيهما جنبًا إلى جنب. الهبة (سجاد يجد طريقًا خارج قيود عالم مهنة عائلته عبر «كونراد»)، الولاء («هيروكو» رفضت أن تدير ظهرها إلى «كونراد» حين حوَّله عالمها إلى عدو)، المأوى (ثلاث مرات وفرت «إلزي» لـ«هيروكو» بيتًا: في دلهي وكراتشي ونيويورك)، قوة الدفع (لم تكن «إلزي» لتترك الحياة التي كرهتها قط لولا «هيروكو»)، القضاء على الكارثة (تأكد «جيمس» و«إلزي» أن سجادًا و«هيروكو» بعيدين تمامًا عن سفك الدماء في أثناء التقسيم). وكذلك ـ لم يقل رضا و«هاري» هذا الجزء بصوت مسموع ـ الفرص الثانية (لأن يكون أبًا أفضل، لأن يكون ابنًا أفضل). وصارت «كيم» أيضًا جزءًا من القصص. كان رضا على علم بأنه مهما يحدث له فستعتني «كيم» بوالدته العجوز بينما يواصل العنكبوت رقصاته.

لكن عبد الله قال: «رقمها؟ لا. ليس لديَّ».

حاول رضا إخفاء خيبة أمله فأمسك بكُم عبد الله وجذبه ليجلس على الكرسي.

«هل قابلت والدتي؟»

«نعم رضا أشرف. لقد بحثت عني ووجدتني. عيناك تشبهان عينيها. الآن بعد أن قابلتها أنظر إليك وأتعجب كيف رأيتك هزاره من قبل.»

«أنا آسف لكذبي عليك. آسف لأني ادعيت أني أفغاني. لم أدرك فداحة هذا الخطأ سوى مؤخرًا.»

لوَّحَ عبد الله بيده في الهواء، ليس لفضِّ الموضوع تمامًا بقدر تنحيته جانبًا مؤقَّتًا.

«قبل أي شيء آخر، فسر لي كيف أننا هنا في الوقت نفسه. لا يمكن أن يكون مصادفة.»

أخبره رضا بكل شيء، على نحو متقطع، لئلا يربك خط السرد الأساسي. حين فرغ من كلامه ضحك عبد الله.

«أخبرتني والدتك بشيء عن حياتك... حياتك الحقيقية. إذن، فقدت والدتك أسرتها ووطنها في حرب، وانتُزِع والدك من المدينة التي تربت عائلته على أشعارها وتاريخها لثلاثة أجيال، وقُتِل والدك الثاني بالرصاص في أفغانستان، والمخابرات الأمريكية تظنك إرهابيًّا، وقد سافرت في معقل سفينة وأنت تعلم أنه إن مت فلن يعرف أحد شيئًا عنك، والوطن بالنسبة إليك ذكرى، وليس مكانًا تعيش فيه، وأول ما تفكر فيه حين تصل إلى بر الأمان كيف تساعد صديقًا لم تره منذ عشرين سنة، وهذا هو الجزء الذي تذكره بأقل شيء في قصتك. رضا. أخي، أنت أفغاني الآن حقًّا.»

لمس رضا يد عبد الله بخفة.

«عبد الله الذي عرفته منذ عشرين سنة لم يكن سمحًا هكذا.»

«عبد الله ذلك كان صغيرًا جدًّا، ومغفلًا جدًّا. كان يظن الجثث المضرجة بدمائها زينة على جانبي الشاحنة.» نظر ناحية ساحة انتظار السيارات مرة أخرى. «أشعر بأنني في حالة سيئة جدًّا يا رضا. صديقتك «كيم»... صنعت كثيرًا لمساعدتي وكنت... فظًّا معها.»

هز رضا رأسه: «صديقتي «كيم». لم نلتقِ من قبل قط. فقط كان كل منا مجرد حضور في حياة الآخر أوقاتًا طويلة جدًّا. ماذا قلت لها؟ كيف تبدو؟».

«لها شعر قصير، كالفتيان»، قال عبد الله وسبابته تخط خطًّا عند فكه أسفل الأذن مباشرة.

ضحك رضا: «وكلنا نعلم كيف يحب البشتون فتيانهم الحلوين. بندقة».

لكزه عبد الله برشاقة.

«ما زلت كما أنت رضا. لا أعلم ماذا قلت لها. ثمة شيء ما ـ لا تضحك عليَّ حين أقول هذا ـ ثمة شيء ما مفتوح في وجهها. بعض الأمريكيين بهم هذا، هذا الانفتاح. تظن أن بإمكانك أن تقول لهم أي شيء. وكنا نحن الاثنين نجلس في المقاعد الأمامية. عشر سنوات من قيادة سيارات الأجرة كل يوم، اثنتا عشرة ساعة في اليوم، وكان هذا شيئًا جديدًا.»

قال رضا بالإنجليزية: «هل غازلتها؟».

تراجع عبد الله إلى الخلف.

«أي نوع من الرجال تظنني؟»

«النوع الذي أنا منه. أكمل، ماذا فعلت؟»

«تحدثت معها. كما لم أتحدث مع امرأة أمريكية من قبل. أردت أن أُفهمها شيئًا. لا أعرف ما هو، عن معنى أن يكون المرء أفغانيًّا هنا. عن الحرب. الحرب ثانيةً وثالثةً رضا. ثم. ثم لا أعرف. بدأت تهاجم الإسلام. إنهم كلهم، جميعًا، في كل مكان تذهب إليه الآن... التلفزيون، المذياع، الركاب في سيارة الأجرة، في كل مكان، كلهم لا يرغبون في شيء سوى أن يخبروك بما يعلمون عن الإسلام، وكيف أنهم يعلمون عنه أكثر مما تعلم، ماذا تعلم أنت، لقد كنت مسلمًا طيلة حياتك، كيف يجعلك هذا على علم بشيء؟»

وضع رضا ذراعًا على ذراع عبد الله. «اهدأ، اهدأ، الناس ينظرون إلينا. عبد الله. «كيم» ليست هكذا. أنا أعرف، لا يمكن أن تكون هكذا.»

«لقد قالت إن الجنة مقيتة لأن أخي فيها.» غطى وجهه بيديه. «تسمعهم الآن طوال الوقت. يتحدثون عن انتصارهم في الحرب الباردة، جميعهم الآن فازوا في هذه الحرب. أخي استشهد لينتصروا في حربهم الباردة، ويقولون الآن إنه يجعل الجنة مقيتة.»

قال رضا وهو يحمل يدي عبد الله بين يديه: «أنت مُرهق، تعال معي. السيارة بالخارج. يمكنك أن تنام في الطائرة. اليوم عبد الله ستبدأ رحلة عودتك إلى الوطن، إلى عائلتك».

قال بانكسار: «نيويورك وطن، نيويورك وطني. سائقو التاكسي عائلتي».

شعر رضا في عطفه على عبد الله بحسد مثير للفضول.

«أعلم أن الأمور تسير بشكل سيئ، لكن ربما لم يكن من داعٍ لهربك. حتى الآن، ربما لم يفت الأوان تمامًا. «كيم» ووالدتي ستساعدان. ستجدان لك محاميًا. ما زالت تلك الأشياء مهمة، لا بد من هذا.»

«أنت تعيش في عالم آخر. صديقي كمال تم القبض عليه منذ عشرة أيام. ومن حينها لم يسمع أحد عنه شيء. نيويورك الآن بمثابة شراك معلقة في الهواء في انتظار أي مسلم يقع فريسة فيها.»

جعلت كلماته رضا يلتفت بعفوية لينظر إلى الخارج من النافذة. لا شراك، لكن ثمة سيارة شرطة في ساحة الانتظار لم تكن هناك منذ قليل، وشرطيان يتحدثان مع امرأة لها شعر أحمر قصير يصل إلى أذنيها. استدارت المرأة ناحية النافذة وأشارت بإصبعها...

قبض رضا على قميص عبد الله وجذبه بقوة وخفضا رأسيهما في الوقت نفسه لئلا يُرى أحد منهما من الخارج. ضغط مفاتيح سيارته في راحة عبد الله.

«اذهب من الباب الخلفي. المازدا الفضية. خذها. اهرب. ثق فيَّ.» ثم دفع عبد الله من فوق مقعده.

«رضا. ماذا..؟»

«من أجل ابنك. اذهب بسرعة. أرجوك!» التقط قبعة البيسبول التي كانت على الطاولة بجوار مرفقه ووضعها بحزم على رأس عبد الله، وناوله في الوقت نفسه سترته ـ سترة «هاري» ـ ومد يده ليأخذ المعطف الشتوي الرمادي الذي كان عبد الله يعلِّقه على مقعده.

«حفظك الله»، قال عبد الله لرضا وهو يضغط يده قبل أن يسير مسرعًا إلى الباب الخلفي.

لكن لم يكن سريعًا بما يكفي. كان الشرطيان قد دخلا؛ أشار أحدهما ناحية عبد الله، رفع الآخر كتفه وصاح باتجاهه «سيدي؟».

نهض رضا وهو يرتدي معطف عبد الله الرمادي وقال «الله أكبر»

بصوت عال بما يكفي ليسمعاه. انكمش رواد المطعم الجالسون بجواره في مقاعدهم؛ أمسك رجل كان يقف بجانب منضدة الملاعق والسكاكين بطفلته وضمها بين ذراعيه ليحميها، صاح أحدهم ينادي الشرطيين.

توارت «كيم برتون» خلف سيارة في ساحة الانتظار، تسمح لها المرآة الجانبية بالنظر إلى باب المطعم من دون أن يراها أحد. لم تكن تريد أن يُلقى القبض عليه، ولم تكن تريده أن يهرب، لم تكن تريد أن تكون المسؤولة عن شيء مما يحدث له. حين خرج الشرطيان بينهما عبد الله في معطفه الرمادي مكبَّل اليدين. شعرت بالإعياء والراحة في الوقت نفسه. حينها رأت منكبيه، أقل إلى حد كبير من الكتلة الضخمة للمعطف الشتوي.

٤١

كان لرجلي الشرطة قبضتان متماثلتان. أمسك كل منهما بأعلى ذراع بقوة حِرَفية فقط. أحدهما بيده اليسرى والآخر بيده اليمنى وتساءل رضا عما إذا كان هذا قد أُخذ في الحسبان حين تقرر أن يعملا معًا. هل رجال الشرطة مثل ضاربي ضربة البداية يعملون معًا بالربط بين اليمين واليسار؟

كانت السماء الرمادية تُسقط ندفًا من الثلج. كان رضا مسرورًا لوجوده في الخارج، بعيدًا عن جو الإرهاب الذي حل محله الهياج، إذا شاهد رواد المطعم شيئًا فسيكون في نشرة أخبار المساء، سيخبرون كل أصدقائهم لمشاهدته.

في ساحة الانتظار سيارة مكسوة بالثلج؛ لا بد أنها هنا منذ الليلة الماضية. تساءل، هل قضى صاحبها ليلته في المطعم مختبئًا في دورة المياه إلى أن انصرفت وردية الليل، ثم راح ينبش في نفايات المطابخ في الظلام ليجد كل شيء مقفولًا عليه في الخزانات ما عدا التوابل. أو لعل أحدهم في السيارة ـ ظل هناك أيامًا، وسيظل هناك حتى يكشف أول ذوبان في الربيع عن جثة رجل موصوم بالغياب فلم يلحظ اختفاءه أحد.

رأسه منكفئ لئلا يُرى وجهه. لم يكن عمليًا ينظر إلى السيارة، كان فقط

يتذكر أنه رآها وهو يدخل المطعم ولم ينتبه إليها. كل ما يراه الآن ثلج يذوب في كل لحظة تأثير؛ بالوطء، بالأحذية، بتربة أحواض الزهور التي كانت خالية بجوار باب المطعم. يمحقه الاتصال. أي اتصال.

«انتظر!» سمعها تصيح. توقف الشرطيان واتجها نحوها.

ها هو العنكبوت هناك. وها هو ظلها. عائلتان، نسختان من رقصة العنكبوت. «آل تاناكا أشرف»، «آل فايس برتون». قصتهما معًا قصة قنبلة، قصة وطن مفقود، قصة رجل أُردي قتيلًا في الميناء، قصة رفض ارتداء القميص الواقي من الرصاص، قصة الهرب وحيدًا من أعظم قوة في العالم.

ما زال لم يرفع بصره، لكن الزمن بين وقع خطوة وما وراءها أنبأه أنها تسير ناحيته بخطى واسعة. لا صوت آخر في ساحة الانتظار، أزيز السيارات على الطريق السريع خلفية، وأمل. يجب أن يكون عبد الله قد غادر من المخرج في الخلف، يجب أن يكون على الطريق السريع الآن، يستخدم هاتفه للاتصال بـ«جون» وتحديد مكان آخر للقاء. لكن الخروج من ساحة الانتظار لم يكن كافيًا، إن به حاجة إلى الوقت ليبتعد، إلى وقت لا يعلم خلاله أحد أن عليه البحث عن أفغاني عريض المنكبين له عينان بندقيتان.

سمع «كيم» تقول: «يجب أن أتأكد أنه هو».

رفع رضا رأسه وجأر بصوت عال «تشب!» غصت نهاية الكلمة بالألم إذ ضغط كل من رجلي الشرطة بيده على رأسه وأجبراه على الركوع على ركبتيه.

رأى عيني «كيم برتون» ترفضان تصديق ما تريانه. اندفع الدم إلى وجهها وبدت لوهلة غاضبة حانقة ـ مزاج «هاري» السريع يتبدى فيها ـ كما لو كان العالم يلعب عليها خدعة لا تراها ممتعة في شيء ولو حتى من بعيد. ثم مدت يدًا نحوه، وجفل جسد رضا بعيدًا عن لمستها.

سمع أحد الشرطيين يقول: «قفي مكانك».

لم يثق رضا في أن «كيم» سمعت الشرطي. إذ كانت تحدق فيه كما يحدق طفل في وحيد القرن أو مخلوق أسطوري آخر، طالما كانت تؤمن بوجوده، لكنها لم تتوقع أن تتثبت منه قط.

في أي ظرف آخر كان رضا سيرد لها تعبير وجهها بالمثل. ظل عشرين سنة، منذ أن ناوله «هاري» على الشاطئ كيس حلوى الخطمي وقال إن «كيم» سألته عما إذا كان لرضا صاحبة، يتخيل مرة بعد أخرى كيف سيكون لقاؤهما الأول. يتلوى فمه الآن حين يرى كم كان خياله فقيرًا.

أعادتها تكشيرته إلى اللحظة الراهنة. رآها تنظر ناحية نافذة المطعم، ثم إلى المعطف الشتوي... تراجعت خطوة إلى الخلف. فكر بحق أنها تتساءل بينها وبين نفسها إن كان يخدعها منذ البداية، منذ ذلك الاتصال الهاتفي الأول من أفغانستان. لماذا جفل للمستها، ولماذا قال «تشب!» تلك كلمة أردية كان «هاري» لا يجد غضاضة في تتبيل لغته بها، يعرف رضا أن «كيم» تعرف أن معناها «صمتًا». ماذا يظنها ستقول؟ رأى رضا فيها اتقاد ذكاء «هاري» ـ وهي تنظر إلى القطع وتحاول فهم الصورة.

كانت ندف الثلج تسقط في شعرها الكستنائي فتومض الشظايا وهي تذوب. تردد لحظة. لم يكن عليه سوى أن يتركها تقول ما أرادت أن تقوله، لكنه أوقفها. لم يكن عليها سوى أن تقول، «هذا ليس هو»، وسيتركونه. ثم ـ سالت فقاعة من الثلج الذائب على وجهها في نفس مسار الدموع ـ كان سيجلس هو و«كيم برتون» وجهًا لوجه يتحدثان عن «هاري»، عن «هيروكو»، عن كل شيء.

لكنه لن يفعل ذلك بعبد الله. ليس رضا كونراد أشرف هذا، ليس من رقد

في معقل السفينة يحمل ثقل صبي أفغاني، ليس من طفا على سطح البحر في البرد القارص يحدق في مجرة الجبار، ويتعهد ألا يعود كما كان ثانيةً أبدًا. سيمنح عبد الله كل فرصة وكل ثانية يمكن أن يمنحها له.

نظر مرة أخرى إلى السيارة المكسوة بالجليد، للعزلة بها، وفكر بامتعاض في الشخصية البطولية التي يحاول أن يتقمصها. كانت الحقيقة أنه لم يعد لديه المزاج لهذا النوع من الهرب، سرعان ما سيعاودون القبض عليه. قد يلقون القبض على بلال، أو والدته، أو أي شخص آخر ويتهمونه بالتواطؤ. و«كيم برتون» أيضًا إن سارت معه خارج هذه الساحة. يا لها من نعمة، إذن، يا لها من نعمة مفاجئة، أن تزعم أن لحظة انتهاء الحرية كان لها معنى. أخيرًا صار له معنى.

قال أحد الشرطيين: «هل هذا هو؟».

نظر مباشرة إلى «كيم».

«هانا»، قال بعذوبة شديدة. «هانا». نعم. قولي نعم.

رأى قرارها، على الرغم من أنه لم يعرف كيف أو لماذا توصلت إليه.

قالت: «نعم».

أومأ الرجلان ورفعا رضا على قدميه. ارتسم على وجهها تعبير ذعر إذ سمعت صلصلة أصفاده.

«لست متأكدة أنه قام بأي شيء خطأ، بل بدا لي مريبًا فقط. والدي توفي في أفغانستان منذ أيام قليلة. لذلك لست متماسكة جيدًا. لم يفعل شيئًا خطأ. أرجوكما دعاه يذهب.»

«لا تقلقي»، قال الشرطي بهذا الصوت الذي يحتفظ به الرجال لمخاطبة

النساء اللائي يظن أنهن هيستيرات. «سنطرح عليه أسئلة قليلة فقط، وآسف لوفاة والدك.»

سارا برضا أمام «كيم» في طريقهما إلى السيارة. كانت النظرة على وجهها من ذلك النوع الذي يعلم رضا أنه لن ينساه أبدًا. مهما حدث له، مهما فعل أحد الآن، مهما قالوا، مهما حاولوا كسره، سيتذكر ـ كأنها كانت وعدًا من عالم بانتظاره إن نجا ـ كان تعبير «كيم برتون»، يقول بأوضح مما تستطيع كلمات أي لغة: «سامحني».

يسامحها. لو كان الأمر بيده لأخذ خطأها منها، وقذف بكل نقاط الحدة البراقة فيه إلى الجنة. لكنه كان يعلم أن الأمور لا تسير هكذا. لم يكن بوسعه، في تلك اللحظة الأخيرة قبل أن يأخذوه بعيدًا ـ في انحناءة رأسه وأسف ابتسامته ـ سوى أن يحاول أن يعلن أنه ما زال يرى العنكبوت وكذلك ظله.

٤٢

لم تكن «كيم برتون» وهي تسرع بسيارتها على الطريق السريع إلى الـ«ويست سايد» وكل إشارة مرور تتحول إلى اللون الأخضر ما إن تقترب منها ويضاء النهر بانعكاسات أضواء «مانهاتن» السائلة، وتتوهج السماء باللون البرتقالي الذي يتحول لظلمة في الليالي الغائمة، بأقرب منها منذ ست ساعات مضت حين كانت في ساحة الانتظار من فهم ما حدث ظهر هذا اليوم، سواء في المطعم أو في ذهنها.

تارة ترى عبد الله البريء. ماذا قال على الرغم من كل شيء يستدعي ملاحقة قانونية لأفغاني غير شرعي؟ إنه جلس في سيارة قد تكون دهست كومًا من الدببة المحشوة؟ إن «هيروكو» لها الشرف أن ضمنت لابنها مكانًا في الجنة؟ إن هؤلاء الذين يدافعون عن أوطانهم يعتبرون أبطالًا؟ وتارة أخرى تراه مصدر خطر، يرى الفضيلة من المنظور الضيق لعقيدته الدينية التي تمنح الشهادة لمن يهاجم الأمريكيين. كان من الضروري أن تدع ذوي الخبرة ـ الذين يقيِّمون هذا النوع من الأخطار التي لم تكن جزءًا من خبرتها ـ يتحدثون معه، أن يتخذوا القرار الذي ليس لديها الكفاءة لتتخذه.

في تلك اللحظة الأولى، كانت تمتن لرضا بما لا يُقدَّر، تلك العربة الهابطة من السماء، التي انتظرت طويلًا بين جناحي حياتها إلى أن حانت اللحظة التي يمكنه فيها أن يدخل بتألق ويحول بنفسه بين نواياها المضلَّلة وتنفيذها. سيكون بخير، بالطبع. كانت قد خلصت لهذا قبل حتى أن تصل إلى الحدود، ما إن استطاعت أن تطرد توتر ساحة الانتظار الرهيب وتتمعن في الحقائق الخالصة. بالطبع سيكون بخير. ما من شك في هذا. مهما كانت غرابة تصرفاته، لم يكن فيها شيء خارج عن القانون، أو في وجوده في كندا. لم يكن الشرطيان ليعرفا قط أنه ساعد عبد الله على الهرب؛ سيخلصان بكل بساطة إلى أن المرأة الأمريكية مصابة بجنون الارتياب وترى خطرًا في أي مسلم.

لكنها في اللحظة التالية شعرت بحنق شديد حتى إنها أوقفت السيارة - أكثر من مرة - لاستجماع صوابها. ساعد عبد الله على الهرب، ولم يكن بمقدورها فعل شيء من دون أن تعرض رضا لتهمة التواطؤ. وكيف صار هو الخط الذي ليس لها أن تتجاوزه؟ كان هذا هو الجزء الذي يحيرها أكثر من أي شيء، يجعلها ترغب في انتزاع القصبة الهوائية من رقبة رضا. جاذبيته المدهشة تلك، تلك المعرفة والإلحاح في عينيه، هذا ما جعلها تفعل ما لم تكن لتفعله في أي ظرف آخر - نحَّتْ حكمها الخاص على الأمور جانبًا، وأطاعت.

تفتقد «هاري». تفتقد «إلزي». تفتقد إلى العالم كما كان. صوت عبد الله في رأسها يقول إنه لم يكن قط.

حين دخلت شقة شارع «ميرسر» أخبرتها الظلمة التامة أن «هيروكو» خلدت إلى النوم. قادت «كيم» السيارة طوال طريق العودة إلى المدينة

من دون أن تتوقف عند جبال «أديروندداك» كما كانت خطتها الأصلية لتخبر «هيروكو» بما حدث، لكنها تشعر الآن أنها حظيت بمهلة لتأجيل هذا الليلة.

ضغطت على زر المصباح الأرضي، فوجدت «هيروكو» تجلس مستقيمة على الأريكة، تنظر إليها.

«أين ابني، «كيم»؟»

«يا إلهي «هيروكو» لقد أرعبتِني.»

«اتصلت بك، كثيرًا.»

«فرغ شحن الهاتف.» لسبب ما بدا من الضروري أن تخرج الهاتف من جيبها وترفعه أمامها كإثبات.

نهضت «هيروكو» وسارت إلى النافذة: «حدث شيء غريب هذه الظهيرة. جاء عمر وطلب مني أن أنزل له.»

«عمر من؟»

التفتت «هيروكو» فجأة تنظر إلى «كيم» في عينيها: «عمر! لقد ركبت في سيارة الأجرة التي يقودها عشر مرات على الأقل.»

«آسفة. طبعًا.»

ظلت «هيروكو» تنظر إليها فترة، ثم عادت تنظر إلى الأضواء المصطفة على طول جسر «ويليمزبرج» مثل نجوم لديها فضول كبير بشأن الحياة في نيويورك فبقيت بالقرب منها، عادت نبرة صوتها إلى حيادها.

«حين نزلت له ناولني هاتفه وقال إنه عبد الله. ظننت أنه لا بد فقد رقم

هاتفي. لماذا إذن يتصل بعمر؟ لكن كان ذلك لأنه يظن أن هاتفي مراقب. من قبل المخابرات الأمريكية. كجزء من تحقيقاتها في موت والدك.»

«ماذا يعرف عبد الله عن موت والدي؟» كان فمها يواجه متاعب في لفظ الكلمات.

«فقط ما أخبره به رضا.» فتحت النافذة الجانبية، تنفست الريح الباردة. «إنه هارب، «كيم»، مثلما قلت. ظل هاربًا منذ موت «هاري». لكن لم يكن السبب كما اعتقدْتُ. إنه يهرب من المخابرات الأمريكية. يظنون أنه متورط، أنه خطط له.»

«خطط لماذا؟»

«لموت «هاري».» خبطت الريح مصراع النافذة ونثرت ذرات خفيفة من الثلج.

«هل هذه مزحة؟» حين لم تجبها «هيروكو» رفعت «كيم» صوتها. «هل يظن صديقك عبد الله أن موت والدي أمر يمكن المزاح بشأنه؟»

«كان يتصل ليسأل هل يساعد رضا إن سلم نفسه أم لا. قال إنه رآك تتحدثين مع الشرطيين قبل أن يأخذوا رضا. لماذا هذا «كيم برتون»؟» أغلقت النافذة لتُحبَسا كلتاهما في غرفة خافتة الإضاءة. «هل لديك تفسير؟»

منذ ساعات ظنت «كيم» أن العالم غريب ومعتل. الآن تعي أن هذا لم يكن سوى الاقتراب من شفا الهوة.

«لم أكن أعلم أن رضا هناك. اتصلت بالشرطة... نعم، قمت بهذا، كان لديَّ أسباب، اتصلت بهم بسبب عبد الله.»

«أية أسباب؟» ما زال ظهرها إلى «كيم»، لكن كان يمكن أن ترى صورتيهما في زجاج النافذة تفصل بينهما بوصات قليلة.

لأن الشاحنة التي كان يقودها دهست كومًا من الدببة المحشوة. لم يكن ثمة طريقة لشرح الرعب في صمت الأفغاني الذي قدم لها تلك الصورة. لوَّحت «كيم» بيدها في توسل ونفذت في انعكاس «هيروكو».

«لقد وثقت في تدريبي. ألا تفهمين؟ إن شعرت بتهديد لا يمكنك أن تتجاهليه فقط لأنك تتمنين ـ وأنا أتمنى هذا حقًّا ـ لو أننا نعيش في عالم حيث كل الشكوك في المسلمين ليست سوى تحامل، لا أكثر.»

«وهو كذلك»، قالت «هيروكو»، ملتفتة أخيرًا لتنظر إليها.

«لا ليس كذلك. كيف لك بعد أن ظللنا ثلاث سنوات ثوابت بعضنا في حياة بعض أن تظني أني متعصبة؟ أنا آسفة، لكنهم لم يكونوا بوذيين من جاءوا بالطائرات، لا توجد مقاطع فيديو لاحتفالات اليهود بمقتل ثلاثة آلاف من الأمريكيين، لم يكن كاثوليكي من أطلق النار على أبي. هل تظنين أن إدراكي لهذا يجعلني متعصبة؟»

«أظن أنك مرعوبة وحانقة بدرجة لا تسمح لك بالحكم على شيء. عمَّ تحدثْتِ معه؟ بساتين قندهار؟ مجد المشاركة في إضراب ناجح لسائقي سيارات الأجرة ومعرفة أن هكذا يمكن الفوز في المعارك، هكذا ينبغي الفوز؟ عن الخوف من أن يكون خيبة أمل زوجته وابنه؟»

جلست «كيم» حيث كانت، عبر الحجرة كلها، مستندة بظهرها على الحائط. كان الضوء الوحيد في الغرفة موجَّهًا ناحية «هيروكو»، واقفة قبالة سماء برتقالية خالية.

قالت بصوت منخفض: «لقد رأيتك غاضبة من قبل، لكن ليس لهذه الدرجة».

«لا أتذكر أني كنت هكذا من قبل قط. لا أحب هذا. لا أحب هذا مطلقًا.»

رفعت قبضتيها وهزتهما أمامها، كانت حركة غريبة كادت تقريبًا أن تصير غبية مما نمت عنه من حقد مفاجئ. «ذات مرة اتَّهمت «إلزي» سجادًا بأنه مغتصب. لدقيقتين كاملتين ظنت أنه مغتصب. أخبرتني بعد ذلك أنها في هاتين الدقيقتين كانت ضائعة. وانظري إلى نفسك الآن، حفيدة «إلزي». لا تدركين حتى أنك ضائعة.»

«لا مقارنة! لقد عرفَته سنوات.»

«أنت عرفتِه خمس دقائق. هذا هو الوقت الذي قال إنكما تحدثتما فيه. هل كان يكذب في هذا؟ لا. لم يكذب، أليس كذلك؟ أدنتِ رجلًا بناءً على محادثة استمرت خمس دقائق. بهذه الطريقة تكون جريمتك مماثلة لجريمة «إلزي». خمس دقائق! أنا قضيت أمسية وتقريبًا طيلة اليوم التالي أتحدث معه. هل تظنين أنني كنت سأدعك تستقلين معه سيارة لو كنت أظن...»

توقفت فجأة، صوتها غريب عليها بكل ما يحمله من غضب.

نهضت «كيم» وسارت خطوات قليلة ناحية «هيروكو».

«إن كنت قد نظرت إليه ورأيت الرجل الذي قتل أبي؟ هل يمكن فهم هذا؟ لا أقول إنه لا بأس بهذا، لكن يجب أن تفهمي.»

«هل لي أن أنظر إليك وأرى «هاري ترومان»؟».

اتسعت عينا «كيم» بادئ الأمر، ثم ضاقت. هل كان هذا انقلاب الطاولة عليها؟ هذا سخف وإهانة. لقد فقدت عائلتها نفسها أحد أفرادها في ناجازاكي؛ كان موت «كونراد» من أكثر القصص التي نشأت عليها رعبًا.

قالت وهي تدير ظهرها إلى «هيروكو»: «سيكون رضا بخير، محامو «إيه آند جي» في صفه؛ لا شيء ضده.»

«ولا حتى جريمة قتل «هاري»؟»

««هيروكو»، أنا مرهقة بدرجة لا تجعلني أحتمل هذا»، قالت من أعلى كتفها وهي تصب لنفسها كأس ويسكي. حمام، شراب، فراش. هذا بالضبط ما كانت ترغب فيه منذ أربع وعشرين ساعة قبل أن تجبرها «هيروكو» على الدخول في تلك الخطة المجنونة. حمام، شراب، فراش، وغدًا ستتصل بسمسار العقارات لتجد طريقة للتعجيل بإيجار سكنها الجديد: «لا أحد يمكنه الظن بتورط رضا في قتل «هاري»، صديقك الأفغاني كاذب، ولا أعلم شيئًا آخر».

«عودي إلى هنا واجلسي.»

«لست إحدى تلميذاتك ذوات السنوات العشر، مسز أشرف.»

كانت قد قطعت الطريق إلى غرفة نومها كله تقريبًا حين تحدثت «هيروكو» مرة أخرى.

«حين سمع «كونراد» أول مرة عن معسكرات الإبادة قال إنه يجب أن تنكري آدمية الناس قبل أن تبيديهم. أنت لا تفعلين هذا.»

استمري في السير، قالت «كيم» لنفسها. ادخلي غرفتك وأغلقي الباب. لكنها بقيت حيث كانت، تهز كأس الويسكي التي تجعل «هاري» معها في الغرفة.

«فقط تضعينهم في ركن صغير في الصورة الأكبر. في الصورة الأكبر

للحرب العالمية الثانية، كان القتلى اليابانيون خمسة وسبعين ألفًا آخرين؟ مقبول، هذا ما كان عليه الأمر. في الصورة الأكبر للتهديدات المحيقة بأمريكا، ماذا يعني أفغاني آخر؟ يمكن الاستغناء عنه. ربما كان مذنبًا وربما لا. لماذا المخاطرة؟ «كيم»، إنك أكثر امرأة عرفتها عطفًا وكرمًا. لكن الآن، بسببك، أفهم للمرة الأولى، كيف للأمم أن تصفق حين تقصف حكوماتها قنبلة نووية ثانية.»

كان الصمت الذي تلا ذلك صمت رفيقتين وجدتا نفسيهما وقد صارتا غريبتين بعضهما عن بعض. كانت الطيور الداكنة بينهما، ريشها المحترق في كل مكان.

كانت «كيم» أول من تحدث. ليس لـ«هيروكو» مع ذلك. رفعت سماعة التليفون واتصلت بكندا. تحدثت مع شخص ما، ثم شخص آخر، أصرت، توسلت، انتظرت وقتًا طويلًا للغاية. أخيرًا طُلب منها أن تترك رقم هاتفها وتنتظر بجوار الهاتف.

جلست هي و«هيروكو» على الأريكة، جنبًا إلى جنب، لا تتحدثان.

خلال ثوانٍ قليلة اتصل أحد الشرطيين اللذين كانا في ساحة الانتظار. ضغطت «كيم» على زر مكبر الصوت في الهاتف.

قال: «أنا سعيد لأنك اتصلْتِ. أردْتُ أن أخبرك أنك قمت اليوم بالأمر الصائب تمامًا».

قالت: «لا. لا. لم يقترف خطأ. أنا من خرجت على القانون». كان بوسعها أن تسلم نفسها. أن تقول إن الرجل الذي أبلغت عنه هو ذاته الرجل الذي قامت بتهريبه عبر الحدود. أن تقول إنها بعد أن فعلت هذا بدأت تقلق من أن يبلِّغ عنها في حال إذا ما تم القبض عليه لهذا أشارت على الرجل الخطأ

في ساحة الانتظار. إنها ترغب في التحدث مع المقبوض عليه وأن تعتذر له شخصيًّا.

قال الشرطي: «لا جرم في الإبلاغ عن شخص على أساس الحدس. وقد فعل خطأ جسيمًا، لعلي لا يجب أن أخبرك بهذا. لكن ظني أن من حقك أن تعلمي. إن حكومتك كانت تبحث عن هذا الرجل. إنهم في غاية السعادة لاحتجازه لديهم الآن. مِس. والدك كان سيفخر بك».

نهضت «هيروكو» وسارت ببطء إلى النافذة. في الخارج، على الأقل، كان العالم يسير.

شكر وتقدير

شكرًا لـ«عمر رحيم»، و«ثمينة مشرا»، و«جايا بهاطاشرجي»، و«روشير جوشي»، لمصاحبتي في «موقع الأحداث» في كاراتشي ودلهي؛ ولـ«عامر حسين»، و«محمد حنيف»، و«إليزابيث بورتو»، لملاحظاتهم على المسودات العديدة؛ ولـ«ديفيد ميتشيل»، لكرمه تجاه غريبة واقتراحه لها بسبل للبحث؛ ولـ«بياتريس مونتي ديلا كورت»، للنعيم الذي هو «سانتا مادالينا»؛ ولـ«فيكتوريا هوبز»، و«ألكسندرا برينجل»، فريق أحلامي؛ ولـ«جيليان ستيرن»، لحدة نظرتها التحريرية؛ ولـ«علي مير»، من أجل «ساحر لدهيانوي» وتمشيات نيويورك سيتي؛ ولـ«بوبي بانرجي»، لتعريفي على عالم المقاولين العسكريين الخاص؛ ولـ«كارين جوسلينج» و«راشيل هولمز»، لحماستهما الفكرية والسياسية؛ ولـ«بوجي ماثيو»، لسماحه لي بأن أوجع دماغه؛ ولمجموعة العشاء في «جال» لعنوان الرواية؛ ولوالدَيَّ وشقيقتي، لبقائهم أهم سند لي؛ ولأصدقاء كثيرين - خصوصًا «مها خان فيليبس» و«جانيل شوارتز» - لاستماعهما إليَّ وأنا أتكلم عن هذا الكتاب أو لسحبهما لي بعيدًا عن مكتبي وقت الحاجة؛ وللجميع بمؤسسة «بلومزبري»؛ ولـ«أ. م. هيث»؛ ولـ«فرانسيس كودي»؛ ولـ«مارك برينجل»؛ وأخيرًا وقبل الجميع شكرًا للكتاب والصحفيين وصناع الأفلام والمصورين الذين أعانتني أعمالهم على تخيل العالم الذي كتبت عنه في هذه الرواية.

عنوان الجزء الختامي اقتباس من رواية «المريض الإنجليزي» لـ«مايكل أونداتجي».

«مشحونة بالعاطفة والجمال... وهل قصت رواية بمثل هذا الحزن بهذا الأسلوب الجميل من قبل؟ قصة هائلة شاملة عن الخسارة والاغتراب»
الفايننشل تايمز

ناجازاكي، ٩ أغسطس ١٩٤٥. تخطو «هيروكو» نحو شرفتها مرتدية ثوبها الكيمونو الذي يحمل رسمًا لثلاثة طيور. إنها في الحادية والعشرين من عمرها، وعلى وشك الزواج من «كونراد فايس». وفي ثانية واحدة يتحول العالم إلى لون أبيض لامع. وبعد الانفجار الذي محا كل ما قد عرفته «هيروكو» في حياتها، لم يتبقَّ لها سوى حروق على ظهرها على شكل طائر، كتذكار لا ينمحي عن العالم الذي فقدته. وبعد سنتين تسافر «هيروكو» إلى دلهي، لتقابل عائلة «كونراد»، بحثًا عن بداية جديدة، فتقع في حب أحد موظفيهم.

وبمرور السنين تحل منازل جديدة محل القديمة، والحروب القديمة تأخذ مكانها صراعات جديدة. ولكن ظلال التاريخ - الشخصية والسياسية - لا تزال تخيم فوق العالم المتشابك للعائلات المختلفة، بينما تنتقل من باكستان إلى نيويورك، ثم إلى أفغانستان في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر.

إنها رواية ملحمية مهمة، وعمل أدبي من طراز رفيع، قلَّ أن يقرأ القارئ العربي مثله.

«تهتز لها المشاعر» **الإندبندنت**

«رواية تاريخية لزمننا الحاضر» **الدايلي تلجراف**

www.bqfp.com.qa
ISBN 978-99921-42-58-5
90100
9 789992 142585
دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation
تصميم: كاري براونلي | صورة الغلاف: كوربس